الإفتتاحية



السيد بوعلام باقي
عضو اللجنة المركزية ووزير الشؤون الدينية
(الجزائر)

وداع القرن الرابع عشر واستقبال القرن الخامس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله
وصحبه ومن والاهم باحسان إلى يوم الدين،

ها نحن نودع قرنا مضى، ونستقبل آخر أتى :

فوداعا - أيها القرن الرابع عشر - بما مضى فيك من احداث وعبر، وحلو ومر،

وأهلا وسهلا بك - أيها القرن الخامس عشر - فقد أشرقت علينا أيامك بالأمل الباسم، المبشّر بالمستقبل العظيم، نسأل الله أن يجعل أيامك وشهورك وأعوامك ظروفا للعمل الصالح، والرقيّ والازدهار في أمة الاسلام، وللسلام والوئام بين جميع أبناء الانام .

ان القرون والعقود في حياة الأمم والشعوب انما تعد بمثابة السنوات والشهور في حياة الافراد. ولقد أتى على أمة الإسلام - وشعب الجزائر من أركانها - أربعة عشر قرنا من تاريخ حافل، ومازالت فتية، قوية متطلعة، تملك من الطاقات الروحية والمادية، ومن المبادىء السامية مايجعلها تنظر الى المستقبل بتفاؤل كبير، وأمل عظيم، لتقوم بدور بناء في حضارة الانسان وأمنه ورخائه.

وأثناء القرون الماضية من تاريخها الطويل مرت عليها أيام عز ورخاء ويسر، وأيام هوان وبؤس وعسر وشقاء، فلم تبطر أيام النعمة، ولم تيأس أيام المحنة، بل ثبتت مؤمنة صابرة رصينة في كلتا الحالتين، وقوفا عند قول رب العالمين: "لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ". وقد وجدت عناية الله تحف بها كلما توجهت اليه، واعتصمت بحبله.

لقد اختارت أمة الاسلام - بإجماع الصحابة أيام عمر بن الخطاب في السنة ١٧هـ - هجرة النبي (ص) من مكة الى المدينة مبدأ لتاريخها، وروي عن عمر، رضي الله عنه، عبارة ستظل خالدة خلود مواقفه، حيث قال: "الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها" انها كلمة صدق وادراك عميق لايقولها الا مثله، لان الهجرة بالفعل كانت للاسلام أعظم انتصار، وللكفر والعدوان أكبر اندحار، وبفضلها نشأت الأمة الاسلامية.

وماجاء الاسلام الا بإيمان عميق، وتصحيح للعقيدة عريق، واستقامة في السلوك، وعمل صالح لخير الدنيا وسعادة الآخرة، وتعاون بين الناس على البر والتقوى، وكف عن الاثم والعدوان، واحسان كامل، يعم الناس، وعدل مطلق شامل بينهم كلهم، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى. فقضى الاسلام بتعاليمه الخالدة السمحاء على الطبقية، ورَفَع شأن المرأة، وجعل أمر الناس شورى بينهم.

وكان الاسلام حريا أن يجد قبولا وتفهما من بني الانسان في كل زمان ومكان. ولكن العقوق شنشنة طوائف من البشر منذ كانوا على ظهر الأرض، لقد بعث الله بمكة في الأميّين رسولا منهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويخرجهم من الظلمات الى النور. غير أن المترفين من قومه كبر عليهم ما كان يدعو إليه، فأعلنوا الكفر والعصيان، وبادروا بالاثم والعدوان، ولم يكتفوا بالكفر لانفسهم بل تجاوزوا به الى غيرهم، وصدّوا الناس عن الايمان، وعذّبوا مَنْ قَبِل الاسلام، فمن قتيل وجريح، ومن سجين وسليب، ومن عار وجائع ومفتون، لم يكد ينجو أحد من أذاهم، وبلغوا الى الرسول وذويه اذ وقفوا دونه ولم يسلموه اليهم ليقتلوه. واستمر عدوانهم يستشري مدة ثلاث عشرة سنة. حتى اذ استيقن المجرمون أن نور الله لا يطفئونه

بأفواههم. وأن الإيمان سطع نوره بيثرب، اجتمع كبراؤهم بدار الندوة وردّدوا الرأي في واحدة من المكر الكبّار يقترفونه: إما أن يسجنوه سجنا أبديا حتى الموت، وإما أن يخرجوه من مكة مشردًا، وإما أن يقتلوه، فأجمعوا على قتله بكيفية شيطانية بحيث يهدر دمه، وبادروا بحصار بيته "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ، وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ" فأي جريمة عظمى لو تمّ مكرهم؟

لقد خرج الرسول إلى الهجرة بإذن ربه - ليلا - من بينهم، فأعمى الله أبصارهم عنه، والتجأ - مع صاحبه أبي بكر الصديق - إلى الغار بجبل ثور جنوبي مكة، واشتد الطلب وبلغ الاعداء الى فم الغار، بحيث لو طأطأوا رؤوسهم لأبصروه. وخفق قلب الصديق أن يصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

بأذى، وكان قلب الرسول في اطمئنان الى ربه ونصيره " إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " ومن ينصره الله فلا غالب له . ووصل الى المدينة بأمان وسلام في يوم الاثنين 12 من ربيع الأول ،فوجد جند الله مدججين بالسلاح مستعدين لدفع العدوان بالعدوان .

لقد كانت الهجرة نصرًا عظيما للاسلام : بنجاة الرسول عليه الصلاة والسلام ،وبناء الدولة الاسلامية الأولى ، واتخاذ المدينة عاصمةً لها يجب على كل مسلم أن يهاجر اليها للتجمع فيها تاركا أرضه وأهله وماله إن حال شيء من ذلك بينه وبين الهجرة . وبإنشاء جيش قوي لحماية الدعوة ، وتنفيذ الأحكام ، وسيادة النظام

وضمان الامن، والدفاع عن الأمة. وبناء المسجد ليكون معبدا وبيتا لله يذكر فيه اسمُه ويسبَّح له فيه بالغدو والآصال، وليكون مدرسة جامعة للفقه في الدين، وتعلم العلم المطلق، وفهم الحياة، وليكون مجلس أمة تجتمع فيه وتدبِّر شؤونها وتتشاور في أمورها من الخوف والأمن. فالهجرة حققت وجود أمة الاسلام ودولتِه الأولى، وبيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يكون التعايش بين الجماعات المتخالفة من المتساكنين متحدين في الدين أو مختلفين: آخى بين المسلمين من الانصار والمهاجرين، وعقد لليهود بالمدينة عقودا ينالون بها حرية عقيدتهم وتدينهم، والأمن في أموالهم وأنفسهم وأهليهم، على أن لا يعينوا عدوًّا على المسلمين، لقد طبَّق بالفعل ما كان قد أُنزل عليه "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ" وما أُنزل عليه من بعد "لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"

ولكن اليهود خانوا وغدروا، فنالوا جزاء الغادرين الخائنين.

لهذا اتخذ المسلمون سنة الهجرة، من أول المحرم مبدأ لتاريخهم،

ومنذ السنة الأولى من الهجرة توالت على المسلمين الدروس والعبر بعناية من ربهم الذي وعدهم النصر المبين ما اعتصموا بحبله المتين، وماساروا على سنة الله في الخلق أجمعين، وإنّ الحياة دفاع ومغالبة وجهاد، "وَلَوْ لَا دِفَاعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ". وان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم، وانه قد جعل العاقبة للمتقين الصابرين، وقد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ليكونوا أبدًا مجاهدين الجهاد الأصغر في ميادين القتال، والجهاد الأكبر في ميادين الحياة، يدفعون بقوة وعزم كيد الأعداء وشهوات النفس الأمارة بالسوء

إن السنوات العشر بعد الهجرة كوّنت من المسلمين أمة قوية متينة متماسكة لا تقهر، وماكانت وفاة رسول الله إلا محنة زادتها صلابة وقوة، واستطاعت ان تقهر المرتدين، وتخمد فتنة المنحرفين، ثم أسِّسَت جمهوريةُ الخلفاء الراشدين جمهورية مثالية لم يعرف البشر على مختلف الأزمان أقوم ولا أعدل ولا أرحم من حكامها. وفي زمنها انتشر الاسلام واتسعت حدود دولته، وبلغ وطننا في بلاد المغرب: حمله اليه أجدادنا من الصّحابة والتابعين، وتقبّله منهم أجدادنا من الأحرار الامازيغ، وانصهر الفريقان في بوتقة الاسلام، وألّف الله بين قلوبهم "لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ".

إنّ تاريخ الاسلام تاريخنا، وأمجاد أمته أمجادنا، وعزته عزتنا. "وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ"

وبفضل الاسلام تماسكت أمتنا، واحتفظت بشخصيتها القوية، واستطاعت أن تخرج من المحنة سالمة قوية. وها هي دولتنا قائمة، ورايتنا مرفوعة، وأمتنا صامدة، رغم أن قرنا وثلث قرن من تاريخها كان ظلما وظلاما وعوامل فتنة وانحلال.

أيها الشعب الجزائري المسلم،

لقد كان جزء من القرن الثالث عشر، ومعظم القرن الرابع عشر من الهجرة أيام بلاء وجهاد وعسر وظلم وظلام في تاريخنا، لكننا لم نيأس من رحمة الله، وما اليأس من طبيعة المؤمن، فجاهدنا وثبتنا وصبرنا حتى جاءنا نصر الله. فالحمد لله والشكر.

وقد ودعنا القرن الرابع عشر، واستقبلنا القرن الخامس عشر فعلينا أن نحقق في هذا القرن ما تصبو إليه أمتنا، بمتابعة الجهاد في كل الميادين، وان ميادين الجهاد في داخل البلاد كثيرة، ومن أعظم

اعدائنا الجهل والتخلف، والفساد، والانحلال، والانحراف، والأنانية، والكسل.

وهي في الخارج ذود عن الكيان، ونصرة للمستضعفين في كل مكان حتى لا يحرموا حقهم في الحياة الذي كتبه الله لهم يوم أن خلق الأرض ومن عليها فاستخلفهم فيها مثل ما استخلف غيرهم. ورحم الله عمر بن الخطاب صاحب القولة المشهورة "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارًا".

ونحن لا نريد لأحد شرًا، وانما نريد لشعبنا وأمتنا الاسلامية الأمن والرخاء والحرية والرقي والازدهار.

ومن الله نستمد العون والنصر.

وهنيئًا لأمة الاسلام عامة وللمسلمين بالجزائر خاصة بالقرن الخامس عشر م

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



المعجزة الخالدة

الاستاذ محمد الصالح الصديق

تمهيـــــد :

عندما طلبت منى مجلة (الأصالة) الغراء ـ مشكورة ـ أن أكتب عن القرآن الكريم بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجرى قبلت الطلب مبتهجا ورأيت انها فرصة ثمينة للمساهمة فى هذه المناسبة العلوية ، والسانحة المباركة ، التى تهل على المسلمين وهم فى حاجة أكيدة ملحة الى هذا الكتاب العظيم الذى أحدث أكبر انقلاب عرفته البشرية فى مختلف عصورها ، ليشحذوا به عزائمهم ، وعقولهم ، ويقوموا أخلاقهم وسلوكهم ، ويوحدوا صفوفهم وكلمتهم ، ويجمعوا فى ظله كل ما فيهم من عناصر القوة استعدادا للجهاد الاكبر من أجل حياة أفضل تجتمع فيها عزة الاسلام وعزة الاوطان .

ولكنى عندما فكرت فى الموضوع تضاءلت أمام عظمته ، وشعرت برهبة الموقف وقلت فى نفسى : ماذا عسى أن أقول عن هذا الكتاب الذى وصل الارض بالسماء ، ورفعها اليها ، وانار ظلمتها ، وفجر فيها الحياة .. وايقظ الشعور العالمى ، ونهض بالبشرية الى المستوى اللائق بها بعد أن كانت فى الدرك الاسفل من الانحطاط ؟

ولكنى عندما تصديت للموضوع وامسكت بالقلم تشجعت وجمعت قواي ، ولكن تداخلنى الغرور واعترانى ما يعترى الانسان فى بعض الفترات وقلت فى نفسى : الست قد عشت على هذا الكتاب منذ نعومة الاظفار وكتبت فيه كثيرا وما أزال أكتب ، فلتكن كلمتى عن القرآن جامعة وافية تليق بالمناسبة ..

ولكن سرعان ما أفقت الى نفسى ، وانفلت من غرورى ، وتبينت خطاي ، وتخيلت طيرا صغيرا ، يحوم على شاطىء البحر ، يتسامى ويتدانى ، ويسرح بنظره فى عرض البحر وطوله، وأحيانا يركز بصره فى أعماقه ، وهو فى كل ذلك يريد أن يتعرف على هذا المخلوق العجيب بكل ما عليه من الافلاك والسفن العظيمة ، وبكل ما فيه من الحيوان ، والنبات ، والزهر ، واللؤلؤ، وان يدرك ما يعكسه من روعة الجمال الطبيعى ، وما ينطق به من حكمة المبدع، وعظمة الخالق ··· ونسي الطير المسكين انه بجانب البحر ضعيف عاجز ، ان رأى شيئا خفيت عنه أشياء ، وان علم أمرا غابت عنه أمور ، وان أدرك سرا دقت عنه أسرار ، فأنا الطير ·· والقرآن البحر ·· ان أنا حاولت أن أفى بما يستحق هذا الموضوع ، وان أقدم عنه دراسة جامعة ··

ولكن ان تعذر ذلك فلا أقل من أن أقدم محاولة دراسية لبعض جوانب القرآن وموضوعاته ، فان وفقت فذلك غايتى ، وان تجافانى التوفيق فعزائى ان لى أجر من اجتهد وأخطأ ·

القرآن الكريم:

القرآن هو كتاب المسلمين الاكبر ، ودستور البشرية الاعظم ، ووحى السماء الذى نزل به الروح الامين على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان أعظم معجزة لاعظم نبي ·

وأقل ما يوصف به هذا الكتاب انه المعلم النصوح ، والمربى المخلص ، والمعيار الصحيح ، والحجة القاطعة ، والبرهان الساطع ، والنبراس الهادى ·· يثبت العقول المضطربة ، ويداوى القلوب المريضة ، ويروى النفوس المتعطشة ، ويندى الجوانح الصادية ، ويهدى الانسانية الضالة ، ويحيى الضمائر ، ويجلو صدأ الارواح ، ويزيل ما ران على الافئدة ، بالبراهين الواضحة والآيات البينة ، ويحقق لمن اهتدى بهديه وسار على ضوئه سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ·

(وليس فى وسع القلم أو اللسان مهما كانت مقدرته البيانية أن يحيط بشأن القرآن ووصف ما احتواه من الدقائق والحقائق والاسرار ، اذ هو كتاب الدهر كله ، وما الفرد فى جيل الا ذرة فى فضاء ، وما الجيل فى زمن الا لبنة فى بناء ، وما الزمن أو الدهر الا مقدمة محدودة لعالم البقاء ، فكيف الاحاطة به وعقول البشر جميعا تلتقى عليه فتجد نفسها مع الكون جميعه ، ومع الدهر كله) ·

فلنترك وصف القرآن اذن ليصفه من أنزله ، ووصفه أبين وأفصح ، وأدل وأوضح ، وأصدق وأقوم ، قال الله تعالى : « **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** » وقال : « **هذا بلاغ**

للناس ولينذروا به وليعلموا انما هـو اله واحد وليذكر أولوا الالباب » وقال : «**كتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم**» وقال : « **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** » وقال : « **كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب** » وقال : « **ان هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا** » وقال : « **انه لقول فصل وما هو بالهزل** » ·

أما من نزل عليه القرآن فقد وصفه بأبلغ وصف ، وصوره أصدق تصوير، أخرج الترمذى فى سننه عن علي بن أبى طالب كرم الله وجهه **قال** : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(اما انها تكون فتنة ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تعالى ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى ، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الاهواء، ولا تلتبس به الالسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق علي كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا : « **انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به** » من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه ، هدي الى صراط مستقيم) ·

فالقرآن اذن حافل بالزمن كله ، ماضيه وما حوى ، ومستقبله بما سيحدث فيه ، مما يخطر على بال وما لا يخطر ، وحاضره بما يعج ويجيش من مشاكل مختلفة ، وقضايا متنوعة ، يقف منها جميعها موقف الطبيب النصوح ، والحكم العدل ، والقائد الامين ، والموجه الرشيد، فيعالج المرض ، ويحل المشكل ، ويضع الحدود ، ويرفع معالم الهدى ، ويثير دوافع الرحمة ، ونوازع الوئام والاخوة والتضامن ·

اسمه :

اسمه القرآن ، وللقراء فى أداء هذه الكلمة طريقان : تحقيق الهمزة فيها ، واهمالها منها ·· فمنهم من يقرأها (القرآن) بالهمزة ، ومنهم من يقرأها (القران) فهذا اللفظ اذا همز ــ وهو الاكثر ــ مأخوذ من قرأ بمعنى تلا · وتنص بعض المعاجم العربية على أن القرآن مهموزا مأخوذ من (قرأ) بمعنى جمع لانه يضم السور ، بعضها الى بعض · وقد ذهب الى هذا الراي كثير من المفسرين ، وهو قول يرضخ للنقد وبالتالى للبطلان ·

وذلك لان القرآن سمي قرآنا لاول مرة فى سورة (المزمل) فى قوله تعالى : « **ان علينا جمعه وقرآنه** » وهي السورة

الثالثة بحسب النزول فلم يكن قد جمع السور حينئذ ·

والرأي المنطقى المختار الذى نرتاح اليه هو انه مأخوذ من قرأ بمعنى تلا ، فيكون القرآن هو كتاب الله تعالى المتلو ·· وعلى هذا قول الشاعر العربى فى مرثية عثمان :

ضحو باشمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

واذا لم يهمز هذا اللفظ فهو من (قرن) بمعنى ضم لضمه السور والآيات والحروف بعضها الى بعض ، وقيل من القرائن لان الآيات يصدق بعضها بعضا، ويشابهه ، وقد نسب الى الفراء ·

والرأي المختار ان اللفظ مهموز ويحذف همزه للتخفيف ·

ويعبر عن القرآن أيضا بأسماء أخرى كـ (الفرقان) و (الكتاب) و (الذكر) وقد تبلغ أسماء القرآن نيفا وتسعين اسما ، ولعلماء القرآن ورجال اللغة فى معانى هذه الاسماء واشتقاقها وتصرفها أبحاث وتآليف ·

وهذه الاسماء فى الغالب ليست الا صفات للتنزيل كالهدى ، والشفاء ، والرحمة ، والموعظة ، والحكمة ، والبركة ··

نزوله :

جاء التعبير بمادة (نزول القرآن) وما تصرف منها فى الكتاب والسنة قال تعالى : « **وبالحق انزلناه وبالحق نزل** » وقال صلى الله عليه وسلم : (ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف)

وشرف الله القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزلات :

التنزل الاول الى اللوح المحفوظ ويدل عليه قوله تعالى : « **بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ** » وكان ذلك جملة لا مفرقا ، لانه الظاهر من اللفظ عند الاطلاق ، ولا صارف عنه ، ولان أسرار التنجيم لا يعقل تحققها فى هذا التنزل ·

التنزل الثانى الى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ويدل على ذلك قوله تعالى : (فى سورة الدخان) « **انا أنزلناه فى ليلة مباركة** » وفى سورة القدر « **انا أنزلناه فى ليلة القدر** وفى سورة البقرة « **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** » ·

التنزل الثالث الى العالم الارضى بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام ، ينزل به على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، ودليله قوله تعالى : « **نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين** » (1) ·

وكيفية أخذ جبريل للقرآن من الله تعالى قضية تناولها كتاب ومفكرون بالبحث ، ولكن الذى ينبغى التسليم به انها من قضايا الغيب التى لا يعلمها الا الله ، وكل ما قيل من الآراء يعوزه الدليل عن المعصوم ، على ان الذى يهمنا اكثر فى موضوع التنزيل هو ما نزل به جبريل من رب العالمين هل هو

القرآن بلفظه ومعناه ؟ أو هو بمعناه دون لفظه ؟

الذى لا مجال للشك فيه هو ان ما نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن بلفظه ومعناه ٠

أما المعنى فأمر لم يرتق اليه شك عاقل منذ نزل القرآن ، واما اللفظ فقد زعم بعض المتقولين المسفين ان اللفظ لجبريل وان الله كان يوحى اليه المعنى فقط ، ومنهم من ذهب الى أن جبريل كان ينزل بمعانى القرآن على الرسول وهو يفرغها فى قالب عربى ، والقولان باطلان ، بل هما سخيفان لا يقول بهما عاقل منصف ، لانهما يعارضان صريح الكتاب والسنة والاجماع ٠

فجبريل نزل بالقرآن لفظا ومعنى لا دخل له ولا لمحمد فى لفظ من ألفاظه، ولذا كان معجزا ، وانما جبريل أوحاه الى محمد ، ومحمد وعاه وحفظه ، ثم بينه وفسره ، وطبقه ونفذه ، وفى القرآن الكريم نصوص، كثيرة على ذلك منها : **« واذا لم تأتهم بآية قالوا لو اجتبيتها ، قل انما أتبع ما يوحى الي من ربى » « وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم» «واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى أن اتبع الا ما يوحى الي انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم»** ٠

ونزل القرآن الكريم منجما (مفرقا) فى المناسبات التى تتطلب ذلك ، واستغرق هذا النزول مدة تبتدىء بمبعثه صلى الله عليه وسلم ، وتنتهى بقرب انتقاله الى الرفيق الاعلى ، وتقدر هذه المدة ببضعة وعشرين عاما ٠

ودليل التنجيم قوله تعالى فى سورة الاسراء « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا»** وقوله فى سورة الفرقان **«وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك ، لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا »** ٠

ولنزول القرآن منجما حكم وأسرار يمكن اجمالها فيما يلى :

١) تثبيت النبى صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه ، لان فى تجديد الوحي وتكرار نزول الامين من قبل الله تعالى على نبيه سرورا يملأ قلب الرسول ، وبهجة تشرح صدره ، وأنسا يغمره بالطمأنينة والامن ٠٠ وفى كل نوبة من نوبات التنزيل المنجم معجزة جديدة تقرع آذان المشركين ، وتتحداهم ، وتحمل فى كل كلمة ، وفى كل معنى سرا دقيقا، وحكمة بليغة ، وحجة واعجازا ، ولا ريب ان المعجزة تقوي عزمه ، وتشد أزره ، وتضاعف صبره ، باعتبارها مؤيدة له، ومشجعة ، وخاذلة لخصومه ومخزية ٠

وفى التنجيم أيضا تيسير من الله على الرسول فى حفظه وفهمه ومعرفة حكمه وأسراره ، وفيه كذلك تعهد من الله لنبيه عند اشتداد الخصام واحتدام النزاع بينه وبين مناهضى الدعوة وأعدائها بما يروح على قلبه ويسرى عن نفسه ، ويهون عليه المحن والشدائد، فكلما تأزم الوضع ، وحرج الموقف ، وضاقت عليه الارض بما رحبت ، سلاه ربه وانسه ، وخفف عنه بطرق مختلفة، وفى أساليب متنوعة ، كالاخبار بقصص الانبياء والمرسلين ، والوعد بالنصر والتأييد أو التخويف بعواقب الحزن من كفر الاعداء .

وفى القرآن نصوص على ذلك كثيرة منها قوله تعالى فى سورة هود : « **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** » وقوله فى سورة الطور : « **واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا** » وقوله فى سورة المائدة « **والله يعصمك من الناس** » وقوله فى سورة القمر : « **سيهزم الجمع ويولون الدبر** » وقوله : فى سورة فصلت : « **فان أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**» وفى سورة الاحقاف : « **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** » وفى سورة الشعراء : « **لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين** » وقوله فى سورة الانعام : « **وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الارض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون** » .

وهذه الحكمة بمختلف وجوهها نستشفها من قوله تعالى فى سورة (الفرقان) « **كذلك لنثبت به فؤادك** » .

2) التدرج فى تربية الامة الاسلامية الناشئة علما وعملا .

ذلك ان الامة العربية كانت أمية يندر فيها الكاتبون ، وعندما جاءها الاسلام اشرأبت اليه أعناق ، واستشرفت اليه أعين ، ورحبت به قلوب ، وتسابقت اليه نفوس ، وجافته قلوب ، وتنكرت له نفوس ، فكان العرب فريقين : فريقا مع الدعوة الجديدة يناصرها ويؤازرها ويستبسل فى الدفاع عنها ، وفريقا ضدها وحربا عليها يناوئها ويحاربها ، فلزم الدفاع عن الدين بالحديد والدم .

فاشتغل المسلمون بالجهاد والمقاومة بالاضافة الى الاشتغال بمصالح المعيشة التى تتطلب هي الاخرى صراعا ومقاومة وكفاحا ، فكانت الحكمة الالهية أن ينزل القرآن منجما ليتيسر عليهم حفظه واستظهاره .

وفى تنجيمه أيضا تمهيد للعرب على الانسلاخ من العقائد الباطلة والعادات الفاسدة ، وترويض على التخلى عن الحياة المتعفنة المألوفة ، فتنجيم القرآن وتدرجه فى التنزيل يساعدهم على ترك ما تعودوه وهجر ما ألفوه لا سيما

والامة العربية أبية معاندة تتحمس لموروثاتها ٠

وبجانب هذا يلاحظ ما فى التنجيم من رشد السياسة فى تربية العرب على العقيدة الحقة ، والعبادات الصحيحة ، والاخلاق الفاضلة ، مقدما الاهم على المهم ، والمقدمة على النتيجة وهي خطة حكيمة لا أنجع منها فى قيادة الامم ، وسياسة الشعوب ، وتهذيب الجماعات ٠٠

ونستشف كل هذا من قوله تعالى فى سورة الاسراء : « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث** » ٠

3) مسايرة الحوادث والطوارىء فى تجددها وتعاقبها على مسرح الحياة، فكان ينزل من القرآن ما يناسب كل طارىء وحادثة ، فتارة يكون ذلك اجابة للسائلين عن أسئلتهم التى يطرحونها على الرسول صلى الله عليه وسلم فى أوقات مختلفة ، ونوبات متعددة ٠

وهذا النوع غالبا ما يكون مصدرا بمادة السؤال : كقوله تعالى فى سورة الكهف : « **ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا** » (الآيات) وقوله فى سورة الاسراء : « **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا** » وقوله فى سورة البقرة : « **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** » « **ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير** » ٠

وتارة يكون مجاراة للوقائع والاقضية والحوادث ، فينزل القرآن مبينا لحكم الله فيها ، وأمثلة ذلك كثيرة فى القرآن منها قوله تعالى فى سورة النور عن قضية أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها : « **ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم** ـ الآيات » وقوله تعالى فى سورة المجادلة عن شكوى خولة بنت ثعلبة الى الرسول صلى الله عليه وسلم « **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله ، والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير**» ٠

وطورا آخر يكون بلفت أنظار المسلمين فى مناسبات مختلفة الى أخطائهم وهفواتهم الى الصواب ، وتبصيرهم بالغاية المطلوبة ، والمصلحة المنشودة ، وانظر ذلك فى قوله فى سورة آل عمران « **واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم** » (الآيات) التى نزلت فى غزوة أحد ارشادا للمسلمين الى اخطائهم وتوجيهاتهم الى مصالحهم فى هذا الوضع العصيب ، وفى قوله تعالى من سورة التوبة « **ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت**» (الآيات) وهي آيات أنزلت فى ردع المؤمنين عن رذيلة الاعجاب والاغترار، وتربية حتى لا يعودوا الى الغرور بالكثرة ، وتنبيههم الى انها فى الحقيقة ليست الا أحد الاسباب المادية للنصر ، والاسباب المعنوية ـ كالصبر ، والثقة بالله والاتكال عليه ، والثبات ، ـ أعظم منها ٠

وقد يكون لكشف حال المنافقين ، ورفع الستار عن وجوههم الحقيقية ، ليأخذ الرسول منهم حذره ويعاملهم حسب وضعهم الحقيقى ، وحتى يتوب من يشاء منهم أن يتوب ·

وتجد هذا فى مثل قوله تعالى من سورة البقرة « **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون الا أنفسهم وما يشعرون** » (الآيات) ·

وهذه الآيات وهي ثلاثة عشرة آية فضحت المنافقين ، وهتكت استارهم ، وكشفت للرسول سرائرهم ، كما فضحتهم آيات كثيرة من سورة التوبة وسور أخرى من القرآن ·

ونستشف كل هذا من قوله تعالى فى سورة الفرقان : « **ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** » ·

4) النص والتقرير بأن هذا القرآن كلام خالق ولا يمكن أن يكون لمحمد أو مخلوق آخر ·

وهنا نلاحظ فى غمرة من الدهشة والاعجاب سمة الاعجاز الالهى فى هذا التصنيف والتنظيم ، وهذا التناسق والتسلسل ، وهذه الملاءمة الكاملة التامة بين الآيات والاحوال ، والدواعى والاحكام ·

وتتضخم سمة الربوبية ، وتبرز أكثر عندما نلاحظ ان مدة التنزيل تجاوزت العشرين سنة ، وأن دواعى التنزيل ، مختلفة متنوعة ·

وبديهى ان الانفصال الزمانى والاختلاف بين تلك الدواعى، يستلزمان عادة التفكك والانحلال ، ولكن ذلك فى كلام المخلوق ··· أما فى كلام الخالق فلا تجد الا الترابط والانسجام ، والوحدة والانتظام ، والترتيب والاتساق · فسبحان من قال : « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** » وقال : « **قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والارض انه كان غفورا رحيما** » ·

الوحي وكيفيته وانواعه :

ان الحديث عن القرآن الكريم يتقاضانا التعرض للوحي ولو بكلمة قصيرة ، فكل ما يذكر عن القرآن من قريب أو بعيد ، لا يقبله ولا يسلم به الا من آمن بالوحي وصدق بالاتصالات الروحية بالملا الاعلى ·· وهو موضوع هام وخطير خاضت غماره عقول عباقرة ومفكرين من مختلف المذاهب والاديان ··

واذا كان أعلام الفكر الذين يؤمنون بالشرع يثبتون الوحي ويرونه ممكن الوقوع فان العقلية العصرية المتلوثة بالالحاد والاباحة ، والمرتكسة فى حمأة المادة ، تستبعد الوحي وتعتبره نوعا من الوهم والخرافة ، أو ظاهرة من ظواهر الهوس ، وتنظر الى من يؤمن به نظرة احتقار وازدراء ·

واذا كان هذا الموضوع يتطلب بحثا خاصا وتأليفا منفردا فلا أقل ـ ونحن نكتب عن القرآن بمناسبة مضي أربعة

عشر قرنا على هجرة من نزل عليه ـ أن نلم به ولو المامة خاطفة ٠

ولنقف أولا عند الـوحي من حيـث مدلولـه :

اذا تتبعنا القرآن الكريم وجدنـا لفظ الوحي يرد مفيدا لمعان كثيرة منهـا (الالهام الفطرى) يقول الله تعالى : « **وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون**» أي الهمها وعلمها تنظيم شئونها على **ذلك الوجه العجيب ، والصنعة الدقيقة، التى تحير العقول وتشهد بقدرة الخالق سبحانه وتعالى ٠ ومن معانيها (الايماء والاشارة)** يقول الله تعالى فى شـأن زكرياء عليه السلام « **فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحـوا بكرة وعشيا** » اي أشار اليهم ٠ ومنهـا (الالهام) الذى يقع فى النفس وهـو اخفى من الايمـاء يقـول الله تعالى : « **وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيـه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنّا رادوه اليك وجاعلوه من المرسـلين** » أي الهمناها ٠ ومنهـا الوسوسة وفى ذلك يقول الله تعـالى : « **وان الشياطين ليوحون الى أوليائهـم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون**» أي ليوسوسون اليهم ٠

ويرد الوحي فى القرآن بمعنى الموحى به وهو القرآن الكريم الذى نزلَ عـلى محمد صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى : « **ان هو إلا وحي يوحى** » (2) ٠

ويجيء الوحي بمعنى الكتابة والرسالة والكلام الخفى والمكتوب والامر والصوت كما ذكر اللغويون ، وهذا هـو المعنى العام للوحي ٠ أما معناه الخاص فهو اعلام الله تعالى لنبيـه كـل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والمعرفة٠ وهو المراد فى قوله تعالى : « **انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيئين من بعـده** » ٠

وعرفه الامام محمد عبده بقولـه ٠ (**ان الوحي عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بانه من قبل اللـه بواسطة أو بغير واسطة ، والاول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ، ويفـرق بينه وبين الالهام ، بأن الالهام** وجدان تستقيه النفس وتناسق ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبـه بوجدان الجوع والعطش والحـزن والسرور (3) ٠

وهذا التعريف يشمـل أنواع الوحي الثلاثة التى أوردها القرآن الكريـم فى هذه الآية : « **وما كان لبشر أن يكلمـه الله الا وحيا أو من وراء حجـاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انـه علي حكيم** » ٠

والآية الكريمة تقرر صورا ثلاثـة للـوحي :

الاولى أن يكون الاتصال بين اللـه ورسوله وحـيا ، أي الـقاء المعنى فى القلب ، وهو المعبر عنه بالنفث فى الروح بحيث لا يعرف دلالة ما أوحي بـه الا الرسول وحده ، وفى الحديث أن الرسول

صلى الله عليه وسلم قال : (ان روح القدس ، نفث فى روحى، ان نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله واجملوا فى الطلب) .

الثانية أن يكون الاتصال بين الله ورسوله بالكلام من وراء حجاب ، أي أن يسمع الموحى اليه كلام الله من غير أن يراه ، حيث لا يمكن أن تقع الرؤية للبصر المحدود الذى لا يتعامل الا مع ما هو محدود ، والله تعالى منزه عن التجسد والحد ، ولذا كان قول الله لموسى عندما قال : « **رب أرنى أنظر اليك ، قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخرّ موسى صعقا ، فلما أفاق ، قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين** » .

ومث هذا النوع من الوحي ما وقع للرسول ليلة الاسراء والمعراج ، ولموسى لما سمع النداء من وراء الشجرة ، وسجله القرآن فى قوله : « **قال لأهله امكثوا اني ءانست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون، فلما أتاها نودي من شاطيء الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى انى أنا الله رب العالمين** » .

الصورة الثالثة أن يكون الاتصال بواسطة ملك من عالم الروح يرسله الله الى نبيه حاملا آياته وكلماته ، فيتلقاها منه النبي . وقد روي ان الرسول صلى الله عليه وسلم سئل يوما ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : (أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشد علي فيفصم عنى وقد وعيت عنه ، ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول) قالت عائشة رضي الله عنها : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا) .

وهناك طريق آخر للوحي غيرهذه الطرق الثلاثة وهو ما يراه النبي فى منامه فان رؤيا الانبياء حق ، ومن هذا القبيل ما رآه ابراهيم عليه السلام فى منامه بشأن ذبح ولده ، وحكاه القرآن الكريم فى قوله : « **فلما بلغ معه السعي قال يابني انى أرى فى المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين** » .

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضي الله عنها انها قالت : (أول ما بدىء رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مث فلق الصبح) .

الوحي من الناحيتين : العلمية والعقلية :

ذلك هو الوحي وكيفيته وأنواعه . أما الوحي من الناحيتين العلمية والعقلية فنوجز القول عنه فيما يلى :

ان الذين ينكرون الوحي لا يؤمنون الا بالعقل على الطريقة التى يستسيغونها وبالعلم الذى تواضعوا عليه فى

اصطلاحهم الحديث وهو جملة المعارف التى انتجها دستور البحث الجديد فى الوجود وكائناته من جعل الشك أساسا للبحث والاستناد الى القاطع الـذى يؤيده الحس دون سواه ، فهم يضعون الشك مقدمة لكل شيء ويعتمدونـه أساسـا للبحث ثـم لا يعترفـون الا بالحساسيات ، ومن ثم كانوا سجنـاء المادة لا وجود فى نظرهم لـما وراء جدرانها ، والالهيات والنبوات والوحي وكل ما يدور فى هذه الافلاك يعد عندهم من الوهم لا يبوىء من يؤمن به الا فى مصاف الخرافيين المتجمدين (4) وظلوا فى سجنهم هذا حتى باغتهم بحقائـق ناصعة عندما ظهرت آيـة الارواح فى أمريكا سنة 1846 وسرت منها الى أوروبا كلها واثبت الناس بدليل محسوس وجود عالم روحانى آهل بالعقـول الكبيـرة والافكار الثاقبة ، فتغير رأيهم فى المسائل الروحانية ، وحييت مسالة الوحي بعـد أن كانت فى عداد الاضاليل القديمة ، وأعاد العلماء البحث فيها على قاعـدة العلم التجريبى المقررة على أسلـوب التقليد الدينى ، فوصلوا الى نتائـج وان كانت غير ما قرره علماء الاسلام، الا انها خطوة كبيرة فى هذا السبيل (5)

ولقد تغير بهذا النظر الجديد موقف العلماء مما وراء المادة ولم يبـق الا ضحايا العناد والغطرسة ، وضحايـا الكفر والجحود ، وصرعى المذاهـب المتطرفة فى العالم يلجون فى الغواية ، ويتلهفون جريا وراء السراب يحسبونه مـاء .

ولا يتسع المقام لعرض أدلة الـوحي العلمية والعقلية مع الملاحظة والتعليل، لان ذلك يتطلب مؤلفا خاصا ولكن حسبنا أن نعرضها مجردة ، فعلى من يريـد التوسع والاستفاضة أن يراجعهـا فى مظانهـا .

أدلة الوحي العلمية :

ان هذه الادلة تقرب العقل من الوحي وتجعله يؤمن بامكان وقوعه ، واستساغة العقل للوحي خطوة ايجابية أولى فى الموضوع ، فالدليـل الاول التنويـم المغناطيسى وهو من المقررات العلميـة الثابتة كشفه الدكتور الالمانى الشهيـر (مسمير) فى القرن الثامن عشر وبذل هو وأتباعه جهودا كبيرة طوال قـرن كامل من الزمن ، فى سبيل اثباته وارساء قواعده ، ونجحوا فى ذلك نجاحا باهرا، واعترف العلماء به علميا ، وقد أثبتوا به حقائق تدعو الى الدهشة والاعجاب . وممن نبغوا فى هذا العلـم واشتهـروا بتجارب فيما وراء المادة (جون لـوك) و (جـلاد ستـون) و (بـاركس) و (هود دسن) و (كاميـل فلامريون) و (ساردون) و (فرولبى) و (زولنر) وغيرهم كثير .

الدليل العلمى الثانى :

الاختراعات الحديثة .. ان العلـم الحديث استطاع أن يخترع عجائب لم

تكن تخطر على بال الاقدمين ، فلـــو بعث أحدهم اليوم ورآها لاستبـد بـه الذهول وحسب انه فى الحلـــم لا فى اليقظة ، فالطيارة والسيارة والقطـار والتلغـراف والتيليفـون والمكروفـــون والراديو ، والحاكى ، والتليـفزيون ، والمراكب الفضائية المختلفة ، والعقـول الالكترونيـة ٠٠ كل ذلك مخترع حديث ٠ وبـواسطـــة هـــذ هالمخترعـــات العجيبة أمكن للانسان أن يقرب المسافات النائية ويعيش فى مختلف أرجاء الدنيا وهو جـالس فى بيتـه بيـن أولاده ، ويكشف عوالم وحقائـق وهـــو فى مختبـره ٠٠

فهل يعقل بعد حدوث هذه المخترعات المادية المدهشة وتحقيقا لما لم يكـــن يحلم به أجدادنا ان يعجز الاله الحـق خالق السماوات والارض على أن يوحى الى بعض عباده مما شاء بواسطـة أو بغير واسطة ؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيـــرا ٠

الدليل الثالث العلمى :

أشرطة التسجيل والاسـطوانـات ، انها جامدة جاهلة ، ولكن العلم الحديث استطاع أن يملاها أصواتا وأنغاما وأغانى وكلاما ، على كيفية تجعلها تنطق بهـا بدقة واتقان ٠٠٠ وقد كان مما لا يخطر على العقل أن يحتفظ بصوت شخص مدة بعد موته ، وأصبح الآن بهذا المختـرع أمرا ميسورا بل بديهيا ، فقد يسمـــع الحفيد صوت جده الذى واراه التراب قبل ولادته بعشرات السنين ، كما كان مما لا يخطر على بال أحد أن تبقى صورة المرء بعد موته بسنين تتكلم وتقوم بأدوار كما لو كان حيا ، وأصبح الآن بمخترع (التليفزيون) أمرا عاديا بديهيا ٠

أبعد هذا يستبعد على الله تعـالى ــ خالق هذه المخترعات كلها ــ ان يملأ بعض نفوس بشرية صافية من خواص عباده بكلام مقدس على وجه يجعل ذلك الكلام منتقشا على قلب رسوله يحكيه بدقة واتقان ؟

تلك بعض الادلة العلمية ولا نـــرى ضرورة لايراد الادلة الاخرى لان المقام سيتمدد بها ويتسع ، ولان همنا أيضا الايجاز والاكتفاء بما يضىء جوانـــب الموضوع لا التقصى والاستقراء (6) ٠

أما الوحي من الناحية العقليـــــة فحسبنا مما طفحت به الكتب من الابحاث والاقوال عن هذا الموضوع ان نلاحـظ ان الوحي الذى ثبت امكان وقوعه قد وقع بالفعل ، وأخبر به الصادق المعصـــوم محمد صلى الله عليه وسلم ، وكـــل ما أخبر به الصادق المعصوم حق ثابت لا يتطرق اليه شك ٠

وأي امرىء له مسكة من العقل يشك فى أن هذا الكتاب أوحي الى محمد من الله عندما يعلم انه نشأ أميا لا يقـــرأ ولا يكتب ، ثم أتى قومه وهم أئمـــة الفصاحة ، وفرسان البلاغة ، بكتـاب معجز ، كل آية منه حجة قاطعة ، وبرهان ساطع ؟

يضاف الى ذلك ان هذا الذى أوحي اليه هذا الكتاب جمعت فى نفسه كل خلال الخير التى يستحيل أن يتصور العاقل معها ادعاء أو كذبا أو مبالغة ٠ من الصدق والامانة والحلم والصبر والمروءة والعدل والنزاهة والتواضع والشجاعة والحياء والجود والرحمة ، حتى كان له من كل هذه الصفات قوة تخر أمامها الجبابرة ، ونور ساطع سار فى ضوئه الدانى والقاصى ، ودليل قاطع صدق نبوته ٠

أما من يؤمن بأن للعالم خالقا مدبرا، وصانعا حكيما وفاعلا مختارا ، فلا مناص له من الايمان بأن القرآن كلامه أوحي به الى خاتم انبيائه ، ليهديهم به الى أقوم طريق ، ويكون به أقوى وأفضل مجتمع عرفه التاريخ فى مختلف عصوره ٠

والمنصفون من ذوى العقول الحرة من مختلف المذاهب والنزعات يعترفون بمعجزة القرآن الخالدة ٠ ويعجبنى فى هذا المقام قول الفيلسوف الدكتور شبلى شميل :

دع من (محمد) فى صدى قرآنه
ما قد نحاه للحمة الغايات

انى ، وان أك قد كفرت بدينه
هل اكفرن بمحكم الآيات ؟

ومواعظ لو أنهم عملوا بها
ما قيدوا العمران بالعادات

من دونه الابطال فى كل الورى
من غائب أو حاضر أو آتى (7)

أول القرآن وآخره نزولا :

أصح الاقوال وأرجحها ان أول آية نزلت من القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يتعبد فى غار حراء بمكة قوله تعالى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** » من سورة العلق، وعن عائشة أم المؤمنين ـ فيما رواه البخارى وغيره ـ انها قالت : (أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي : الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح) ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه (وهو التعبد) الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة.ثم أرسلنى فقال : « **اقرأ باسم ربك** ٠٠٠ الآيات) ٠

والعبرة الضخمة ، والدرس العظيم الذى تأخذه البشرية من هذه الكلمة التى بدىء بها الوحي ان المادة الاولى من الدستور الاسلامى تأمر بالقراءة :

القراءة ـ الكتابة ـ العلم وفى ذلك عبرة وأية عبرة لاولى الابصار ٠٠

أما آخر ما نزل من القرآن فهو مثار اختلاف العلماء ، فمن قائل انه خاتمة سورة النساء : « **يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة** » ومن قائل انها آية الدين فى سورة البقرة : « **يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه** » ٠ ومن قائل انها قوله تعالى فى آل عمران : « **فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى** ٠٠٠ » ٠ ومن قائل انها قوله تعالى فى سورة المائدة : « **واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله** ٠٠٠ » ٠

والقول الفصل انه لا سبيل الى القطع بآخر آية نزلت من القرآن وان كان النفس تستريح الى ان آخر القرآن نزولا قوله تعالى من سورة المائدة : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » ٠

اسباب نزوله :

القرآن الكريم قسمان : قسم أنزله الله تعالى غير مرتبط بسبب من الاسباب، بل هو لمحض هداية البشرية الى الحق وارشادها الى خير الدنيا ، وسعادة الآخرة ، وهذا القسم كثير يدركه المتتبع للقرآن بالتلاوة والدراسة ٠ وقسم نزل مرتبطا بسبب من الاسباب ٠

وأسباب النزول هو مانسميه اليوم فى اللغة العصرية بما حول النص من ملابسات ومناسبات وظروف مختلفة بالنص الادبى الذى ندرسه ٠

وسبب النزول اذن هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه ، أي ان الآية أو الآيات انما تنزل لمناسبة من واقعات حياة الاسلام والمسلمين ٠

ولمعرفة أسباب النزول أهمية كبيرة فى فهم القرآن ، وقد قدر القدماء هذه الاهمية ، فكان منهم من قال (بأن سبب النزول طريق قوي فى فهم معنى القرآن (8) وقد أخطأ من زعم انه لا فائدة فى معرفة الاسباب لانها لا تعدو ان تكون جارية مجرى التاريخ ٠

والطريق الى معرفة أسباب النزول هو النقل الصحيح لا غير ، (ولا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الاسباب وبحثوا عن عللها (9) فقد روى الواحدى بسنده عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا الحديث الا ما علمتم ، فانه من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار) ومن هنا لا يحل القول فى أسباب النزول الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الاسباب وبحثوا عن علمها (10) ٠

نزوله على سبعة أحرف :

كثيرا ما سئلت عن هذا الموضوع وخاصة من طرف الطلبة الوعاة المعنيين بالقرآن ، وهو موضوع خطير شائك ، صالت وجالت فيه أقلام الفرسان من علماء الثقافة الاسلامية من مختلف أنحاء العالم ، ومن المحققين الكبار من عني بالموضوع وأفرده بالتأليف قديما وحديثا ، نذكر منهم العلامة أبا شامة من محققى القرن السابع الهجرى ، والعلامة الشيخ محمد بخيت من محققى القرن الرابع عشر الهجرى ٠

وليس لى من الشجاعة والسلاح ما يسمح لى بالنزول الى ميدان هؤلاء وهم المسلحون بأقوى سلاح ، والمتفرغون لمثل هذا الكفاح ، فحسبى أن أعرض هنا من أقوال المحققين ما يسلط على الموضوع ولو بصيصا من نور :

روى البخارى ومسلم ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (سمعت هشام بن حكيم ، يقرأ سورة الفرقان فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكدت أساوره فى الصلاة فانتظرته حتى سلم ، ثم لببته بردائه أو بردائى ، فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟ قال : اقرأنيها رسول الله (ص) قلت له : كذبت فوالله ان رسول الله (ص) اقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرأها، فانطلقت أقوده الى رسول الله (ص) فقلت : يا رسول الله انى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها ، وأنت اقرأتنى سورة الفرقان فقال رسول الله (ص) ارسله يا عمر : اقرأ يا هشام ، فقرأ هذه القراءة التى سمعته يقرأها ٠ قال رسول الله (ص) هكذا أنزلت ثم قال رسول الله (ص) ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) ٠

والاحرف جمع حرف وهو يطلق فى اللغة على معان كثيرة ذكرها صاحب القاموس ، والحرف اذن من قبيل المشترك اللفظى (والمشترك اللفظى يراد به أحد معانيه التى تعنيها القرائن وتناسب المقام ، وانسب المعانى – التى ذكرها اللغويون – بالمقام هنا الوجه فيكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم (انزل القرآن على سبعة أحرف) على سبعة أوجه وهو مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى وتخفيفه على عباده ، وتيسيره لكتابه على كافة الشعوب الاسلامية من كل جيل وقبيل ٠

والوجوه السبعة على ماذكرالامام أبو الفضل الرازى فى (اللوائح) وهي كما يلى :

الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف فى الاختلاف :

1) اختلاف الاسماء من إفراد ، وتثنية، وجمع ، وتذكير ، وتأنيث ٠

2) اختلاف تصريف الافعال من ماض ومضارع وأمر ٠

3) اختلاف وجوه الإعراب ٠

4) الاختلاف بالنقص والزيادة ·

5) الاختلاف بالتقديم والتأخير ·

6) الاختلاف بالابدال ·

7) اختلاف اللغات (يريد اللهجات) كالفتح والامالة ، والتفخيم ، والترقيق، والاظهار والادغام ، الى غير ذلك · وقد مثل العلماء لهذه السبعة حسب ترتيبها بالامثلة التالية :

فللاول بقوله تعالى : « **والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون** » قرىء (لاماناتهم) (وأمانتهم) بالجمع والافراد ·

وللثانى بقوله تعالى : « **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا** » قرىء (ربنا) بالنصب على انه منادى ، وقرىء (ربنا بعد) بالرفع على انه مبتدأ وبتشديد عين بعد على انه ماض مضعف العين والجملة الفعلية خبر ·

وللثالث بقوله تعالى : « **ولا يضار كاتب ولا شهيد** » قرىء بفتح الراء على ان لا ناهية والفعل مجزوم وانما فتحت الراء للادغام ، وقرىء بالضم على ان (لا) نافية فالفعل مرفوع ·

وللرابع بقوله تعالى : « **وما خلق الذكر والانثى** » قرىء هكذا بزيادة (ما خلق) وقرىء بنقصها (والذكر والانثى) ·

وللخامس بقوله تعالى : « **وجاءت سكرة الموت بالحق** » قرىء هكذا وقرىء (وجاءت سكرة الحق بالموت) ·

وللسادس بقوله تعالى : « **وانظر الى العظام كيف ننشرها** » قرىء (ننشزها بالزاي) و (ننشرها) بالراء ·

وللسابع بقوله تعالى : « **وهل أتاك حديث موسى** » تقرأ بالفتح والامالة (فى أتى ـ ولفظ ـ موسى) (II) ·

وتلك هي الوجوه السبعة التى نزل عليها القران · وللمحققين كلام طويل فى الموضوع (كما قدمنا) ، وما ذكرناه عنهم هو الخلاصة المختارة ·

كتّاب الوحي :

اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا يسجلون ما ينزل من القرآن وهم فضلاء الصحابة أشهرهم الخلفاء الاربعة (أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي) فكانوا يحفظونه فى الصدور كما يحفظونه فى السطور ، ولم يكن الورق معروفا فى عهدهم فكانوا يكتبونه على ما اتفق لهم من الجلود ، وجريد النخل، وصفيح الحجارة ، وعريض العظام ·

القرآن مكى ومدنى :

لعلماء القرآن فى معنى المكى والمدنى كلام طويل ، وأهم ما يجدر بنا ذكره هو ان المكى ما نزل قبل الهجرة النبوية الى المدينة ولو نزل بغير مكة ، والمدنى ما نزل بعد الهجرة وان نزل بمكة ، وهذا ما ذهب اليه المحققون من العلماء ، وهو أضبط فى التقسيم ، وأحصر ، بحيث لا يرد عليه اعتراض ولا ترتقى اليه شبهة ·

ويبتدىء الدور المكى من (17) رمضان سنة 41 من ميلاد الرسول صلى اللـــه عليه وسلم الى سنة 54 من ميـــلاده أيضا · وأما الدور المدنى فينتهى بوفاة الرسول ، ونسبة المدنى الى المكى كنسبة $\frac{11}{30}$ نسبة كلية ·· والطريق الى معرفة المكى والمدنى من القرآن فمـرده الى السماع عن الصحابة والتابعين ، اذ لم يرد عن الرسول صلى الله عليـه وسلم بيان للمكى والمدنى ، لان المسلمين لم يكونوا فى عهده بحاجة الى هـذا البيان ، حيث كانوا يعيشون بأنفسهـم الوحي والتنزيل ، ويعينون مكانـــه وزمانه · قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (والله الذى لا اله غيره ، ما نزلت سورة من كتاب الله الا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله الا وأنا أعلم فيما نزلت ؟ ولو أعلم أن أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه) ·

ولكن هذا لا يمنع من معرفة المكـــى والمدنى ببعض الضوابط والعـلامات ، فقد قالوا ـ مثلا ـ

ان كل سورة فيها لفظ (كلا) أو فيها سجدة فهي مكية ، وكل سورة فيهـــا قصص الانبياء والامم السابقة فهي مكية سوى البقرة ، وكل سورة فيها قصة آدم وابليس فهي مكية سوى البقرة أيضا ·

وقالوا فى معرفة المدنى كل ســورة فيها الحدود والفرائض ، أو فيها اذن بالجهاد ، وبيان لاحكامه ، فهي مدنية ، وهي بعض الضوابط والعلامات الكثيرة التى يهتدى بها الى المكى والمدنى ، ومن أراد استيفاء القول فيها فعليه بمظانها فى أبحاث القرآن ، وهي كثيرة ·

جمعـه وتدوينـه :

جمع القرآن فى الصدور ، وانتقش فى القلوب الواعية عندما كان ينـــزل منجما ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر الصحابة بوضع كل آية فى موضعها ، فيقول لهم مثلا (ضعوها قبل آية كذا ، أو بعد آية كذا ، حتى تتـــم السورة) ويعرضها على جبريل عليـه السلام فيعارضه بها ، ثم يعرضهـــا الرسول بعد ذلك على أصحابه ، وكـان جبريل يعارضه بالقرآن فى كل عام مرة حتى عام الوداع فعارضه به مرتين ·

ويتضح من هذا ان ترتيب الآيـــات فى سورها كان بتوجيه من الرسول عن جبريل عن ربه ·

وانتقل الرسول الى الرفيق الاعـلى والقرآن لم يجمع فى مصحف واحـد ، وان كان كتّاب الوحي قد دونوه مفرقـا فى الرقاع والالواح والعظام ، كما تقدم آنفـــا ·

وكان جماعة من الصحابة قد حفظوه على ظهر قلب فى عهد النبى · وقد نظم بعض العلماء أسماء عشرة منهم فقال :

لقد حفظ القرآن فى عهد أحمـد
علي ، وعثمان ، وزيد بن ثابت

أبيّ ، أبو زيد ، معاذ ، وخـالد
تميم، أبو الدرداء، وابنٌ لصامت

وفى خلافة الصديق بعد وفاة الرسول (ص) وقعت حروب أهل الردة التى منها غزوة اليمامة ، وكان أكثر المحاربين فيها من الصحابة ومن حفظة القـرآن، فقتل فى هذه الغزوة كثير من الحفظة ، وخيف على القرآن من الضياع ، فأشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق بجمع القرآن فى مصحف خشيـة ان يذهب بذهاب الحفظة ، فتوقف فى بادىء الامر ، فلم يزل به عمر حتى اقتنع بسداد الرأي وصواب الفكر ، فدعا زيد بن ثابت ، لانه كان الزم الصحابة لمجلس الرسول ومن أحفظهم للقرآن ، فكلفه بجمعه ، فجمع كل الصحف • فى مصحف ولكنه غير مرتب السـور ، واحتفظ أبو بكر بتلك الصحف الى أن توفي ، فانتقلت الى عمر بن الخطـاب، ثم جمعها عند بنته حفصة •••

وفى عهد عثمان رضي الله عنه انتشر المسلمون فى الآفاق ، واختلط العرب بالعجم ، وكثر قراء القرآن فى مختلف الاقاليم التى فتحها المسلمون ، واختلفت لهجاتهم حتى صار بعضهم يخطىء الآخر فى قراءته ، أو يقول قراءتى خير من قراءتك ، فأشار حذيفة بن اليمان على عثمان بتدارك الامر ، فوقف عثمان عند مشورته ، وامر باستحضار الصحـف ، ووكل الى زيد بن ثابت وجماعة ممـن اشتهروا بالحفظ والضبط والدقـة فجمعوه ، ونسخوا منه صورة رتبوا سورها على الذى نقرأه الآن ،وكتبوا من هذه الصورة خمس نسخ ، أستبقى عثمان واحدة بالمدينة ، وبعث بأربعـة الى مكة ، والكوفة ، والبصرة ، والشام، وهذا هو المشهور ، خلافا لمن رأى انها أربعـة •

ومما تقدم عرضه ـ من ظروف التنزيل، وعناية الصحابة بالقرآن حفظا ، وفهما، وكتابة ، ـ تتجلى لنا أصالة القـرآن وصحة نصوصه ، تلك الميزة التى انفرد بها هذا الكتاب دون غيره من الكتب السماوية الاخرى • وهي ميزة سجلها كثير من الكتاب الغربـيين باعجاب ، حيث قالوا (ان لاصالة نص القـرآن مكانة منفردة بين كتب الوحي لا ينازعه فيها العهد القديم ولا الجديد) (12) •

القرآن آيات وسور :

تطلق الآية فى اللغة ويراد بها عـدة معـان :

(المعجزة) قال الله تعالى : « **سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة** » •

(العلامة) قال اللـه تعالى : « **ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينـة من ربكم** » •

(العبرة) قال الله تعالى : « **ان فى ذلك لآية •••** » •

(الامر العجيب) قال الله تعالى :

« **وجعلنا ابن مريم وأمه آية** » •

(البرهان والدليل) قال الله تعالى :
« **ومن آياته خلق السماوات والارض** » ·

(الجماعة) ومنه قول الشاعر :

خرجنا من النقبيـــين لا حي مثلنا
بآياتنــا نــزجى اللقـــاح المطافلا

أي خرجنا (بجماعتنا) نسوق سوق النوق وصغارها ·

والآية من القرآن : جماعة من الحروف مكيفة بتراتيب خاصة وصور مستقلـــة تحدت البشر فأعجزته · والمناسبة بين هذا المعنى والمعانى اللغوية المذكـورة واضحة ، فالآية القرآنية معجزة وعلامة على صدق من جاء بها ، وعبرة لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ، وهي من الامـــور العجيبة (سموها واعجازها وأثرهـــا وحلاوتها) ، وفيها أيضا معنى الجماعة ــ كما قدمنا ــ لانها مؤلفة من الحروف ·

أما السورة فلاهل اللغة والتفسيـــر كلام طويل فى أصلها واشتقاقها ومعناها، وبعضهم همزها ، وبعضهم ترك همزها، ويرجح انها من أصل سامى ، اشتــرك فيها العرب وغيرهم (13) · وقيل انها من أصل (صورت) السريانى تسربت الى العرب الحجـازيين عـن طريـــق السريانيين (14) اللاجئين الى الحجاز، ولا تزال الى اليوم عندهم تدل عــــلى الوحي المنزل المجهور به · وقد أفاض العلمـــاء فى هـــذه المـباحث حـــتى المستشرقون (15) ·

وفى لسان العرب : السورة هي كل منزلة من البناء ، ومنه سور القـــرآن الكريم لانها منزلة مقطوعة بعد منزلـــة مقطوعة عن الاخرى ·

ولكل سورة من القــرآن اسم خاص بها ، فهي اما أن تسمى بأول كلمة فيها مثل سورة طه ، ويس ، والصافات ، و ص ، والفجر ، والضحى ، والشمس، والليل ، والتين ، والقارعة ، والعاديات، والعصـــر ، الخ ·

واما أن تسمى باسم شيء أو لفـــظ له ذكر وارد فى أثناء السورة بعد أوائل آياتها ، مثل سورة ، البقرة ، والنساء ، والنحل ، والكهف ، ومريم ، وابراهيم ، ومحمـــد ، الخ ·

واما أن تسمى بلفظ له منطوق فى أوائل آياتها كسورة الاسراء ، والانفال، وغافر ، وفصلت ، وفاطر ، الخ ··

واما أن تسمى بمعنى خاص ملحوظ فيها من غير أن يكون له ملفوظ مذكور فى آياتها ، مثل سورة الفاتحة ، سميت بذلك لانها أول الكتاب وفاتحته ، وسورة الاخلاص لانها فى جملتها داعية الـــى الاخلاص لله وحده لا شريك له ــ وليس فى القرآن غير هاتين السورتين شيء آخر من السور بمعنى ملحوظ لا بلفـظ ملفـــوظ ·

واما أن تسمى بأسمـــاء مواضيعهـــا كسورة الطلاق، والتحريم، ونحو ذلك ··

أما معانى فواتح السور القرآنية فقد قيل فيها كلام طويل ، وما يزال المجـــال واسعا أمام المفكرين والباحثين من جميع

النحل والمذاهب ٠ ولاهمية الموضـــوع نلاحظ ان من العلماء من رأى ان بعــض الفواتح رمز لاسماء الله تعالى ، ومنهم من قال انها للدلالة على ان القرآن مؤلف من تلك الحروف (الم) (حم) (يس) (ق) و (ص) التى عرفها العرب ، ومع ذلك فقد عجزوا عن الاتيان باقصر ســورة منه ٠ وبهذا الرأي أخذ المبرد وتبعه كثير من العلماء (16) ، كما أخذ به الفـــراء أيضا (17) ٠ وقال الكلبى : انها قســم ٠ ويرى ابن قتيبة فى ذلك أن يكون اللــــه أقسم بالحروف المقطعة كلها ، واقتصـــر على ذكو بعضها من ذكر جميعها ، وهــو يريد جميع الحروف المقطعة ، كما يقول القائل : تعلمت ا ، ب ، ت ، ث ، وهـــو لا يريد تعلم هذه الحروف الاربعة فقــط دون غيرها ٠ وتقول (قــرأت الحمــد) وتريد الفاتحة (18) ٠ وتناول ابن أبى الاصبع فواتح السور بالتحليل والتفسير وأتى بالعجب العجاب ، حيث بحثها بعقل الفلكى الريــاضى ، فبيــن عددهـــا ، وأقسامها ، وأصولــها من الحروف ٠ وينتهى (الدكتور حفنى محمد شرف) فى تعليق له على رأي هذا النابغـــة : ان بعض الفواتح بسورها وحروفهـــا والعدد الذى يخصها مشيرة الى الصانع والمصنوعات من جميع أحوال الدنيـــا والآخرة وعوالمها وكل موجود فيهمـــا الآن وما وجد من قديم الزمان وما يوجد بعد فناء الاكوان (19) ٠ وتوضيح ذلك كله لا يسعه المقام ٠

أما العالم الكيميائى المصرى الدكتور رشاد خليفة الذى يعيش فى أمريكا فان له رأيا جديدا فى هذه الحروف توصــل اليه بعد تجربة طويلة مثيرة ، استخدم فيها العقــول الالكترونــية ، وهي أول تجربة من نوعها وتعد جريئة فى محاولة تفسير هذه الحروف ٠

وقد قام الدكتور رشاد بتسجيل نتائج أبحاثه فى مكتبة الكونجرس الامريــكى تحت رقم (27386) ، وكان من أهـــم أغراضه فى هذه المحاولة الفذة أن يطلع العالم الغربى على نتائج أبحاثه الــتى أكدت معجزة القرآن الكريم ٠

ولقد سئل الدكتور رشاد بعد انتهائه من هذه التجربة عما اذا كان قد وجــد تفسيرا لفواتح السور فقال :

(ان العمليات الحسابية التى قام بها العقل الالكترونى خلال ثلاث سنوات قد أثبتت ان القرآن الكريم قد وضع للناس طبقا لحساب غاية فى الدقة والتعقيد ، بحيث يستحيل ان يكون من صنع البشر ٠٠ كما ثبت ان كـــل حــرف من الحروف الابجدية فى كلماته قد تم اختيار زمانه طبقا لعــــدد من القواعد الحسابيـــة المتداخلة ٠٠ وان القرآن كتاب أحكمت آياته ثــم فصــلت مــن لــدن حكيـــم خبير) ٠ (20)

ودلت عملية الاحصاء الاليكترونيـــة ان استهلال (سورة بحروف معينة يقابله دائما تفوق حسابى لمعدل توارد وتكرار

هذه الحروف فى نفس السورة) فحرف (الصاد) مثلا متفوق حسابيا فى سورة (ص) وحرف (القاف) متفوق حسابيا فى سورة (ق) وحرف (النون) متفوق حسابيا فى سورة (القلم) وهي (ن والقلم وما يسطرون) ٠

ويطول بنا المقال اذا نحن تتبعنا السور المبدوءة بحرف والمبدوءة بأكثر من حرف : (الم) (المر) (يس) (حم) الخ ٠ فيكفى أن نلاحظ ان العقل الالكترونى أثبت ان الاحرف فى هذه الفاتحة (كهيعص) التى بدأت بها سورة مريم تتفوق فيها الاحرف (ك ـ هـ ـ ي ـ ع ـ ص) على بقية أحرف فى غيرها فى سور القرآن المختلفة ٠

عناية المسلمين بالقرآن :

لم يعرف التاريخ فى مختلف عصوره أمة فى العالم عنيت بكتاب سماوى أو أرضى كالامة الاسلامية ، ولا سيما فى العهود الاولى ، ولم يعرف التاريخ فى مختلف عصوره كتابا سماويا أو أرضيا أحيط بسياج من الرعاية والتقديس بمثل ما أحيط به القرآن الكريم ٠

فقد كانت تنزل الآية أو الآيات فيحفظها النبى ثم يتلوها عند نزولها على المحيطين به ، ثم يأمر عشرة بتدوينها ، فلما جمع القرآن وارسلت منه مصاحف الى مكة والكوفة والبصرة والشام (21) أقبل المسلمون فى ظمأ وتلهف على تلك المصاحف ينسخون عنها مصاحفهم ٠ وقد كتب عبد العزيز بن مروان (أمير مصر) مصحفا بالغ فى ضبطه ، وأعلن ان من وجد فيه خطأ كان له فرس وثلاثون دينارا ، فوجد فيه أحد القراء كلمة (نجعة) مكان (نعجة) فنال الجائزة (22) ٠

أما تعلق السلف بالقرآن وشدة حرصهم على حفظه وتلاوته واستظهاره واستماعه ، فشىء يكاد لا يرتقى اليه الخيال ٠ قال الامام الشافعى رضي الله عنه : (رأيت سفيان بن عيينة قائما على باب كتاب فقلت له ما تصنع هنا ؟ قال : أحب أن أسمع كلام ربى من فم هذا الغلام) ٠

وبلغ تعلق المسلمين بالقرآن وعنايتهم به فى مختلف العصور أقصى الحدود ، فلم يكتفوا بحفظه وفهمه والكشف عما فيه من علوم ومعارف وأسرار ، واحصاء كلماته وحروفه ، بل أحصوا أيضا المرار التى ورد فيها كل حرف من أحرف الهجاء ٠ ونحن نورد ذلك فيما يلى ، ليعتبر أبناؤنا وبناتنا الذين لا يعرفون حتى عدد سور القرآن الكريم وأجزاءه

الكلمات	73440
الحروف	722332
الالفات	40792
الباءات	1140
التاءات	1299
الثاءات	1291
الجيمات	3293
الحاءات	1179
الخاءات	2419

الدالات	4399
الذالات	4840
الراءات	10903
الزايات	9583
السينات	4591
الشينات	25133
الصادات	1284
الضادات	1200
الطاءات	840
الظاءات	9320
العينات	1020
الغينات	7499
الفاءات	2500
القافات	5230
الكافات	22000
اللامات	14591
الميمات	205610
النونات	2036
الواوات	13700
الهاءات	700
الياءات	502

ترجمة القرآن :

اشتد الجدل ، وكثر النقاش بين أهل العلم قديما وحديثا حول ترجمة القرآن الى اللغات الاجنبية ، فذهب جمع منهم الى التحريم محتجين بأن ذلك بدعة يترتب عليها ضرر كبير ، اذ ان ذلك يؤدى الى ترك المسلمين ـ من غير العرب ـ تعلم اللغة العربية ، ويقتصرون فى تعلم القرآن على الترجمة ، وهذا سيفضى حتما الى الاختلاف فيه ، لان الترجمات قد لا تتفق ، فيحدث بذلك للمسلمين ما حدث لبنى اسرائيل من اختلاف نسخ التوراة السامرية والعبرانية والسريانية واليونانية ، بالاضافة الى ان معانى القرآن الكريم كثيرة عميقة ، فيتعذر على المترجم أن يحيط بها حتى يترجمها ترجمة دقيقة وافية تتسم بسمة القرآن ، وتحمل طابعه فى اعجازه اللفظى والمعنوى ، وتغوص فى أعماقه ، لتصور دقائقه وأسراره . وقد قالوا :

ان أشهر وأدق ترجمة للقرآن فى اللغة الفرنسية ترجمت فيها هذه الآية « **أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** » فكانت الترجمة هكذا : (هن بنطلونات لكم وأنتم بنطلونات لهن) وكيف يمكن أن نترجم هذه الكنايات الدقيقة بشرح وبسط ، تؤدى فيه الكلمة الواحدة بجمل طويلة (24) وأمثال هذه الكنايات وجه من وجوه اعجاز القرآن للغات العالم كله .

وذهب آخرون الى جواز ترجمة القرآن ، بل دعوا الى ذلك فى حث وترغيب ، فمنهم الامام أبو حنيفة الذى يقول بترجمة القرآن وبصحة الصلاة بالترجمة ، وعلى هذا الدرب سار كافة الحنفية ، ومنهم الامام الشاطبى الذى استدل فى الموافقات على جواز الترجمة بالقياس على ما أجمعت عليه الامة من تفسيره للعامة ، ومنهم الامام البخارى

الذى استدل فى صحيحه على جواز ترجمة القرآن الى لغات الاعاجم بالقياس على ما كان من ترجمة التوراة الى العربية بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم · (25)

هذا موقف القدماء من ترجمة القرآن، فما هو موقف العلماء المعاصرين منها ؟

لقد ثارت مناقشات حادة منذ ما يقرب من نصف قرن بين علماء الازهر ، واحتدمت بينهم معركة جدلية عنيفة كان السلاح فيها العقل والقلم واللسان ، وانتهت بأن قررت مشيخة الازهر ترجمة تفسير القرآن ، وتألفت لجنة من كبار العلماء ورجال من وزارة المعارف المصرية لوضع تفسير عربى دقيق ، ووضعت دستورا تسير عليه لتحقيق هذا العمل الضخم الجليل ، وبعثث به الى كبار العلماء والجماعات الاسلامية فى أرجاء العالم الاسلامى ليدلوا بآرائهم فى هذا الدستور (27) · وقد نشرت مجلة الازهر هذا الدستور وقواعده فى عددها (648 ـ 649) ·

والرأي الصحيح الذى يركن اليه العقل ويستسغيه ، وترتاح اليه النفس وتطمئن اليه ، وتقتضيه الدعوة الاسلامية بطبعها العالمى ، هو جواز ترجمة القرآن بلوجوبها الضرورى الاكيد ، لما يترتب على ذلك من فائدة تختفى بجانبها المضرة ولكن بشروط لابد من توفرها فى المترجم ، وهذه أهمها :

ـ أن يكون على دراية تامة، ومعرفة مستبحرة باللغة العربية واللغة التى يترجم اليها ·

ـ أن يكون عليما بدقائق العربية وأسرارها من نحو وصرف واشتقاق وبلاغة ·

ـ وان يكون واسع الافق باسباب النزول مع تمكنه من اللغة الاجنبية من حيث أحوالها وقواعدها وأساليبها وألفاظها وآدابها ، حتى تتهيأ له امكانيات الترجمة المنشودة ·

بل هناك من رجال العلم فى العصر الحاضر من افتى بجواز ترجمة القرآن الكريم مطلقا ولو كانت الترجمة مقتصرة على بيان أصل المعنى المدلول عليه بالصراحة ، أو بالظاهر للجملة المترجمة ، ولو خلت من بيان الدقائق والمعانى التى لا يتفطن لها الا مهرة العلماء ·

وممن ارتأوا هذا الرأي العالم المغربى الاستاذ محمد بن الحسن الحجوى ، من علماء العصر الحديث ويقول بالخصوص :

(ان ترجمته من الامور المرغوب فيها ، وانها من فروض الكفاية التى يجب على الامة القيام بها ، فاذا قام بها البعض سقط عن الباقين القيام بها، ولم يكن عليهم حرج ، وان لم يقم بها أحد أثم الكل) (30) ·

وبالرغم من الصعوبات الكثيرة المتنوعة التى تواجه من يتصدى لترجمة القرآن ويمارسها ، فقد ترجم الى عدة لغات شرقية وغربية تجاوزت أربعين ترجمة ..

وقد دخل القرآن الكريم الى أوروبا عن طريق الاندلس (اسبانيا) . وأول ترجمة له هي التى ترجمها العلامة (روبرت كنت) الى اللغة اللاتينية (لغة العلم والادب آنذاك فى أوروبا سنة 1143) واستعان على ترجمته بعالمين عربيين هما بطرس الطليطلى ، وسمعان المالطى ، ولكن الكنيسة ورجال الحكم لم يسمحوا للقراء باقتنائه ومداولته الا مصحوبا بالردود عليه. (31) واصدر (هنكلمان) ترجمة سنة 1594 ، ثم جاءت على الاثر سنة 1598 طبعة (مراتشى) مصحوبة بالردود ، وبعد هذا أخذ القرآن فى الظهور مترجما الى اللغات الاوروبية الحديثة (انجليزية ، وفرنسية ، والمانية ، وايطالية ، وهولندية ، وروسية ، حتى لا تخلو الآن لغة من ترجمة أو ترجمات للقرآن . (32)

ومن أقدم هذه الترجمات ترجمة (سالى) الى الانجليزية سنة 1734 ، ثم ترجمتها القاديانية والاحمدية اللاهورية فى القرن العشرين باللغة الانجليزية .

ومن التراجم الحديثة للقرآن ترجمة ايطالية لبوللى (ميلانو 1929 وأخرى باللغة التشيكية) ا. رنكيل 1934 وثالثة باللغة الانجليزية (مولاي شير على بباكستان 1955) .

وينبغى بعد هذا العرض الوجيز لتراجم القرآن ألا ننسى ان نلاحظ ملاحظتين :

الاولى ــ ان ترجمة القرآن فى بداية الامر لم تكن الا للرد والتمكن من الطعن فيه ، فان أعداء الاسلام الكثيرين جندوا وما يزالون يجندون عقولهم وأقلامهم لمحاربة الاسلام والطعن فى دستوره . وأمامى الآن عشرات من الكتب والابحاث والدراسات التى تفيض سما وحقدا على القرآن ، كتبها أمثال (ادوارد فرمان) و (ادوين كالفرنى) و (ارثر جيفرى) و (ارنولد توينبى) .

الثانية ــ ان بعض التراجم ــ المذكورة وغير المذكورة ــ بعيدة عن الروح العلمية التى يجب أن يتسم بها الباحث وخادم الحقيقة ، فكانت مشوهة بالتحريف والتزييف .

محتويات القرآن :

من تتبع القرآن الكريم بتأمل ووعي، وجده كتاب البشرية جمعاء فى مختلف الامكنة والازمنة ، فى حالها العاجل ، ومصيرها الآجل ، فى حضارتها وبداوتها، فى قصورها وخيامها ، ويحتوى من الآيات ما يفتح العيون ، ويقرع الآذان، ويهز المشاعر ، ويوقظ القلوب ، ويحيى الضمائر ، ويشرح الصدور ، ويهذب النفوس ، ويلقح العقول ، ويرقى

المدارك ، ويجلو الصدأ عن الارواح ، ويضمن العزة والكرامة ، ويقى من التردى والضياع . غير انه يمكن حصر محتوياته فى ثلاثة أصول أساسية ، تتفرع عليها سائر الاغراض والمقاصد الاخرى :

1) العقائد وما يتعلق بها من أصول الدين كالايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه، ورسله ، واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، والصراط ، والميزان ، والحشر، والنشر ، والثواب ، والعقاب . وقد جاء ذلك كله فى أسلوب محكم وآيات مفصلات .

2) الشرائع وكل ما يتعلق بأفعال الجوارح من الاوامر والنواهى ، وهما قسمان : العبادات والمعاملات ، فالاولى هي التى تتعلق بصلة العبد بربه ، وأما الثانية فهي التى تتعلق بصلة العباد والافراد بعضهم ببعض ، وكلا القسمين معروض فى مختلف السور القرآنية ، فى عبارات بليغة ، وأسلوب مشرق ، وآيات بينات .

3) الفضائل الخلقية والآداب الاجتماعية، ، التى بها تسمو الارواح ، وتتهذب النفوس ، وتستقيم الطباع ، وتحسن الشمائل والخلال ، فتنتظم المجتمعات البشرية ، ويسودها التفاهم، والمحبة ، والعدل ، والجمال .

وقد فصل ذلك كله فى آيات بينات كانت منطلق علماء الاخلاق فى أبحاثهم وكتبهم وأعمالهم .. كما كانت آيات العقائد والشرائع ارضية لكل أعمالهم الفكرية ، وثمارهم العقلية ، التى تزخر بها المكتبات الغنية فى مختلف أنحاء العالم .

وقد أقر مؤتمر المستشرقين المنعقد بأكسفورد سنة 1347 هـ النظم القرآنية وهي كما يلى : (33)

1) العقائد، 2) الفرائض الدينية ، 3) الاوامر والنواهي ، 4) الانذار والتبشير ، 5) الجدل والتحدى ، 6) القصص ، 7) التشريع ، وهو أقسام أ) التشريع السياسى ، ب) التشريع الجنائى ، ج) التشريع الحربى ، 8) المواعظ والارشاد .

ومن تأملها وجدها ترجع الى الاصول الاساسية المذكورة .

قراءات القرآن :

القراءات جمع قراءة وهي الطريقة التى يتلى عليها القرآن وينطق بألفاظه، مخففة ، أو مشددة ممالة ، أو مشمومة، ممدودة ، أو مقصورة .

ولابد فى القراءة من التلقى والسماع ..

والقراءات على نوعين : 1 مقبولة ، وهي التى ثبتت بالاجماع والتواتر ووافقت رسم المصاحف العثمانية ، ومنها القراءات السبع الصحيحة ، وهي قراءات (أبو عمرو بن سليمان) شيخ الرواة المعروف بحفص ، وحمزة، والكسائى ، وعاصم ، وابن عامر ، وابن كثير ، ونافع .

وقراءات هؤلاء السبعة هي المتفق عليها اجماعا ولكل منهم سند في روايته وطريق في الرواية عنه ، وكل ذلك محفوظ مثبت في كتب هذا العلم (فن القراءات) ·

وقد يضاف الى هذه القراءات ثلاث فتصبح عشرا وهي رواية أبي جعفر يزيد بن القعقاع المدنى ، ويعقوب بن اسحاق الحضرمي ، وخلف بن هشام بن ثعلب ·· وقراءة هؤلاء صحيحة متواترة أيضا (34) ·

التفسير والمفسرون :

التفسير هو الايضاح والتبيين ومنه قوله تعالى : « **ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** » ويطلق على الكتب التى تشرح كتبا أخرى (كشروح كتب أرسطو ـ مثلا ـ التى ترجمت الى العربية ·

ويراد بالتفسير عند الاطلاق العلم الذى يوضح كتاب الله ، ويبين معانيه ، ويستخرج أحكامه ، وحكمه ··· والتأويل مرادف للتفسير فى أشهر معانيه اللغوية يقال : أول الكلام تأويلا، وتأوله : تدبره وقدره وفسره ومنه قوله تعالى : « **فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله**» ويرى الماتريدى ان التفسير مباين للتأويل : فالتفسير هو القطع بأن مراد الله تعالى من الآية كذا ، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع، والذى يبدو ان التفسير للالفاظ ، والتأويل للمعانى البعيدة المستنبطة وهناك أقوال كثيرة فى الموضوع يراجعها فى مظانها من يريد التوسع · (36)

والتفسير على نوعين : تفسير جاف عقيم هامشى لا يتجاوز شرح الالفاظ واعراب الجمل وبيان ما يحتويه نظم القرآن من صور البلاغة واشارات فنية، وهذا النوع من التفسير لا يختلف كثيرا عن التطبيقات العربية ، ولا يشعر قارئها الا بما يشعر به قارىء كتب القواعد العربية ·

وتفسير تتموج فيه روح الحياة، وتتهلل عليه اشراقات الهداية ، وتنبثق منه أنوار الحكمة والرشد والخير ··· تفسير خصب مشرق يتجاوز هذه الحدود أو يمر عليها كجسر الى الآفاق العليا ، فيجعل هدفه الكشف عن تعاليم القرآن، والغوص على أسراره ومكنوناته ، واستجلاء كنوزه ودفائنه ، على طريقة تفتح القلوب ، وتجتذب الارواح وتجلو البصائر ، وهذا النوع من التفسير هو الجدير بالاقتناء ثم بالعناية والاهتمام، والعالم به حقيق بكل تقدير ، لانه استطاع بقدرته العلمية والبيانية ان يرفع الستار عن كنوز القرآن وذخائره ، ويقدمها الى الافهام واضحة مجلوة ، فيها هدى ونور ، وفيها شفاء لما فى الصدور (فالقرآن الكريم حجة الله البالغة على دينه الحق ، فلا بقاء

للاسلام الا بفهم القرآن فهما صحيحا ، ولا بقاء لفهمه الا بحياة اللغة العربية · (37)

والقرآن الكريم وان نزل بلغة العرب الا انها تعلو عن مستوى العامة من العرب ، ولذلك كان الناس فى العهد الاول من الاسلام يسالون كبار الصحابة عن تفسيره ، وشرح الغريب من الفاظه·

فهذا الصحابى الجليل عبد الله بن عباس كان يسأل عن ألفاظ من القرآن ، فيفسرها للسائلين ، ويستشهد على تفسيرها بالشعر العربى ، فلقد قال الامام السيوطى فى كتابه (الاتقان فى علوم القرآن) انه (بينما عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن · فقال نافع بن الازرق لنجدة بن عويمر : قم بنا الى هذا الذى يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما اليه ، فقالا : انا نريد أن نسالك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب ، فان الله تعالى انما أنزل القرآن بلسان عربي مبين فقال ابن عباس : سلانى عما بدا لكما · فقال نافع : اخبرنى عن قول الله تعالى : « **عن اليمين وعن الشمال عزين** » قال : (العزون) حلق الرفاق · قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم · أما سمعت عبيد بن الابرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون اليه حتى
يكونوا حول منبره عزينا

قال : اخبرنى عن قوله تعالى : « **وابتغوا اليه الوسيلة** » قال : (الوسيلة) الحاجة · قال : وهل تعرف العرب ذلك قال : نعم ، أما سمعت عنترة وهو يقول :

ان الرجال لهم اليك وسيلة
ان يأخذوك تكحلى وتخضبى

ويمضى نافع بن الازرق يسأل وابن عباس يشرح ويفسر ويستشهد على ما يقول بأبيات من الشعر العربى فى حوالى مائتي لفظة من الفاظ القرآن الكريم · (38)

ومن هنا يتبين لنا أهمية الشعر العربى فى فهم الغريب من ألفاظ القرآن ، كما يتبين لنا خطأ بعض المتشدقين من المعاصرين الذين ينعون علينا تمسكنا بالشعر العربى القديم وروايته وحفظه ، ويرون فى ذلك اضاعة للوقت فى شىء قد مضى عهده ، وفاتهم ان الشعر العربى مفتاح مغاليق الالفاظ والاساليب الغريبة فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم · وقد قال أبو حاتم الرازى : (ولولا ما بالناس من الحاجة الى معرفة لغة العرب والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والائمة الماضين ، لبطل الشعر ، وانقرض ذكر الشعراء، ولعفى الدهر على آثارهم ونسي الناس أيامهم · (39)

ويقول ابن عباس : (الشعر ديوان العرب فاذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب ،

رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منـــه · (40)

واشتهر بالتفسير عشرة من الصحابة الكرام : الخلفاء الراشدون ، وابـــن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الاشعرى ، وعبد الله بن الزبير ·

أما الخلفاء فأكثر من روى عنه منهم علي بن أبى طالب كرم اللـه وجهـه ، والرواية عن الثلاثة قليلة جدا ، وكان السبب فى ذلك تقـدم وفاتهـم ، وورد تفسير عن طائفة من الصحابة منهم أنس وأبو هريرة وابن عمر وجابر وعمرو ابن العاص وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم أجمعين ، ولكنه قليل · (41)

وأكثر الصحابة تفسيرا للقرآن الكريم ابن عباس أيضا ، ولعل ذلك لتأخر الزمان به ، حتى امتد ظلال الاسلام ، واستبحر العمران ، واشتدت الحاجة الى الاخـذ عنه ، ولتفرغه أيضا للدعوة والتعليـم والارشـــاد ·

ويعتبر ابن عباس ترجمان القـــرآن الكريم ، ويشهد بذلك من نزل عليـــه الوحي · فعن مجاهد قال : ابن عباس : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم (نعم ترجمان القرآن أنت) وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود رضي اللـه عنه قال : (نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس) وقد دعا له النبى (ص) بقوله :

(اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل)

ثم جاء مفسرون كثيرن يتعاقبون على مسرح الحياة كل بطريقته ومنهاجـه ، وكل بكفاءته ومقدرته ، وكل قد ساهـم بالجهد المستطاع فى استخراج كنـــوز هذا الكتاب وذخائره ، لتوضع للانسانية أسسا وأصولا لحضارتها المجيدة الحقة·

أشهر التفاسير :

ومـن أشهـــر التفاسيـــر فى القديـم والحديث (تفسير ابن جرير الطبرى) 224 ـ 310 قال النـووى فى تهذيبـــه : (كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله ·

وقال أبو حامد الاسفراييني شيـــخ الشافعية : « لو رحل أحد الى الصيـــن ليحصل تفسير ابن جرير لم يكن ذلـــك كثيرا عليه » ·

تفسير الامام جلال الدين السيوطى (الـدر المنثور فى التفسير بالمأثور) وقد ذكر فى مقدمته انه لخصه من كتاب (ترجمان القرآن) وهو التفسير المسند الى الرسول صلى الله عليه وسلم ·

تفسير ابن كثير (وهو من أصـــح التفاسير بالمأثور ان لم يكن أصحهـــا جميعـــا) ·

تفسير بقى بـن مخلـــد الانـدلسى القرطبى وهو من أعلام الثقافة الاسلامية المشاهير قال ابن حزم (اقطع انه لـــم يؤلف فى الاسلام مثل تفسيره، لا تفسير ابن جرير ولا غيره) ولكن المؤسف انـه لم يكتب له البقاء ولم يحظ بما حـظي به تفسير ابن جرير من البقاء والخلود، ولم نعرفه الا على ضوء ما كتب عنـــه العلمـــاء ·

تفسير (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) للامام العلامة جار اللـــه

محمود الزمخشرى . قال الامام السيوطى فى (شواهد الابكار) بعد ذكر قدماء المفسرين : ثم جاءت فرقة أصحاب نظر فى علوم البلاغة التى بها يدرك وجه الاعجاز وصاحب الكشاف هو سلطان هذه الطريقة) .

وقد جاء تفسيره آية فى البيان العربى الاصيل ، ولذا نال الشهرة الواسعة، والصيت الذائع فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى . وقد أدرك الزمخشرى هذه الحظوة الكبيرة التى حظي بها تفسيره فسجل ذلك فى هذين البيتين تحدثا بنعمة ربه وشكرا له على مننه :

ان التفاسير فى الدنيا بلا عدد
وليس فيها لعمرى مثل كشافى
ان كنت تبغى الهدى فالزم قراءته
فالجهل كالداء والكشافكالشافى (41)

تفسير (روح المعانى) المشهور بتفسير الالوسى لعمدة المحققين مفتى بغداد وامام أهل العراق العلامة شهاب الدين محمود الالوسى وهو من أعظم التفاسير الحديثة ان لم نقل أعظمها علما ، واجادة وبراعة ودقة وصحة ولا بدع فى ذلك (وكم ترك الاول للآخر) .

تفسير المنار : لفريد عصره وعلامة زمانه الامام المصلح السيد رشيد رضا ، وقد جرى فيه على الطريقة التى سلكها فى التفسير حكيم الاسلام الامام محمد عبده ، وقد كانت دروسه فى التفسير فتحا جديدا فى الدين حيث كان يلفت أنظار المسلمين الى هداية القرآن ، ويوقظ ضمائرهم ، ويثير عقولهم بصيحاته التى تدوى فى أرجاء الجامع الازهر .

وقد كانت أغلى أمنيات الاستاذ رشيد رضا أن يتمدد أجله حتى يكتمل تفسيره ويراه كالمصباح المنير يبدد الظلام ، وينير الطريق أمام المدلجين ، ولكن الشيخ اختفى ولم تتحقق له هذه الامنية فترك تفسيره ينتظر من أعلام الاسلام من يتقدم اليه بفكر ثاقب ، وعلم واسع، وهمة عالية ، وجد دائب ، فيتمه على النهج الذى سار عليه صاحبه .

ولكن يبدو ـ لحد الآن ـ ألا أحد يأنس فى نفسه الشجاعة والكفاءة والقدرة على التضحية بالوقت والراحة والجهد. ولذلك سيبقى هذا التفسير ينتظر حتى يمن الله على المسلمين بمن يخلف الرشيد فى رشده وعلمه وجهاده ، وعزيمته ورغبته الشديدة فى خدمة المسلمين ودستورهم .

وصدق الكاتب الاسلامى الكبير محب الدين الخطيب فى قوله من كلمة أبن بها المرحوم الاستاذ رشيد رضا : (آفتنا نحن ـ المسلمين ـ فى هذا العصر أن تموت أعمالنا بموت مؤسسيها ، فالخطب الذى نزل بنا بوفاة السيد رشيد كنا نعرف انه سينزل وان لم نعلم متى ينزل ، أما الخطب الذى لا يزول أله فهو ان يكون الميدان خاليا الآن ممن يعتمد عليه فى نماء الاعمال التى أسسها السيد ، ولا سيما اكمال التفسير الذى

أصدر منه هذا الراحل الكبير (12) جزءا وشـــرع فى جزئـــه (13) ، ومـــا أظن ان مسلما خدم الاسلام فى هـــذا العصر مثل ما خدمه السيد رشيد بهذا التفسير العظيم . (43)

والحديث عن التفسير والمفسرين يطول ويتشعب ، ولا يسع الاسهاب والافاضة فيه الا مجلدات ضخام ، حسبك ـ قارئى الكريم ـ ان التفاسير تعد بالآلاف ، وكل تفسير له منهاجه ، وله خصائصـــه ، ومميزاته ، وكل هذا دليل واضح على عظمة هذا الكتاب المعجز وأهميته عند المسلمين ، وادراكهم انه نزل لاصـــلاح البشر ، وانقاذ الناس ، والكشف عـــن حقائق الكون .

وكلما تقدم الزمن وازدهرت الحياة العلمية ، واتسعت المدارك الفكريـــة ، ونبغ المخترعون والمكتشفون ، واستقام العقل السليم على جادة الانصـــاف ـ كلما ظهر جلال القرآن وعظمتـــه ، وبدت آفاق جديدة ، لم يتطلع اليهـــا متطلع ، ومجالات فسيحة لم يجل فيها جائل ، وقمم شامخة لم يرن اليها ران، ولم يوجد على وجـــه الارض ولا يرجى ان يوجد كتاب حظي أو يحظى بمثل ما حظي به القرآن من العناية والاهتمـــام والتقديس .

وهنا ملاحظة يجب الانتباه اليها وهي أن هناك تفاسير لا ينبغى أن يعول عليها ولا أن يركن اليها لما تحتويـــه مـــن الاسرائيليات التى ابتدعها واضعوها ، فكلفوا كتاب الله تعالى من التأويلات، وغريب الروايات ، وسخيف الاخبار ، ما أخرجه فى بعض آياته عن الغرض الذى أنزل من أجله ، وجعله مثار الطعن والنقد أمام أعداء الاسلام وخصومه ، وأما ذوو الطوايا النقية ، والعقـــول النيرة ، والافئدة الذكية ، فانهم يعلمون أو يدركون ان القرآن أجل واكرم من أن يكون وعاء لتلك الاباطيل السخيفـــة التى لا يقبلها العقل البصير .

واذا أردت أن تعرف هذه السفاسف التى أضلت بسطاء المسلمين وكانت مثار استهزاء وسخرية الاجانب ـ كمـــا قدمنا ـ فارجع الى ما ذكـــره بعض المفسرين فى شرح (**ارم ذات العماد**) (**وثمود الذين جابوا الصخر بالـــواد وفرعون ذى الاوتاد**) والى ما ذكـــروه فى الزلازل والثـــور الحامـــل للارض ويأجوج ومأجوج) وما عللوا ما يشعر به الانسان من سخونة مياه الآبار ، فى الشتاء ، وبرودتها فى الصيف حيـــث عللوا ذلك بأن ليالى الشتاء طويلة ، ولما كانت الشمس تغرب ، فتدخل فى جوف الارض ، كان تأثيرها فى الميـــاه التى فى جوف الارض ، خلال الشتاء ، أشد من تأثيرها فى أثناء الصيف !!

ومما يبعث على التحسر والاسى ان من المفسرين المشهورين من وقـــع فى هذا الافك المبين وفى هذا الجهـــل الفاضح . فقد جاء فى الجزء الثـــانى عشر من تفسير الطبرى على قولـــه

تعالى : « **وقيل يا أرض ابلعى مـــاءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضـــي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين** » حديث موضـــوع فى وصف سفينة نوح حيث قال عن ابـــن جريج انه قال : كانت السفينة ، أعلاهـــا للطير ، ووسطها للناس ، وفى أسفلها السباع ، وكان طولها فى الجو ثلاثـــين ذراعا ، ودفعت من عين وردة يـــــوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجـــب وارسلت على الجودى يوم عاشـــوراء، ومرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقـــد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت ..

وجاء فى كثير من التفاسيـــر فى شرح قوله تعالى : « **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** » ذكر حديث روي عن كنانة العـــدوى قال : دخل عثمان بن عفان على رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم فقال : اخبـــرنى عن العبد كم معه من ملك ؟ قال : ملك عن يمينك على حسناتك ، وهو أمين على الذى على الشمال ، وملكان من بيـــن يدك ومن خلفك يقول الله تعالى : « **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** » وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لله رفعك ، واذا تجبـــرت على الله قصمك ، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ، وملك على فيك لا يدع الحية تدخل اليه ، وملكان عـــلى يمينك . فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى ، وابليس بالنهار وولده بالليل . هذا نص الحديث كما روي .. وواضح انه افتراء وبهتان على من نزل عليـــه الوحي ، بالاضافـــة الى انـــه سخيف العبارة ، يتبرأ منه سياق الآية الكريمة، وكل من له معرفة بطبيعة القرآن ، وذوق بجو بيانه يشفق من أن يشوه جـــــو الخفاء والرهبة والتعقب الذى يشيعـــه السياق وتوجيه هذه الجملة (**لـــه معقبات**) .

والحفظة التى تتعقب كـــل انسان ، وتحفظ كل شاردة ، وكل واردة ، وكل خاطرة ، وكل خالجة ، والتى هي مـــن أمر الله لا يتعرض لها السياق بوصف ولا تعريف ولا اشارة ، فلا نتعرض لها نحن بتساؤلات غيـــر مجدية : ما هي ؟ وما صفاتها ؟ وكم عددها ؟ وكيف تتعقب؟ وأين تكون ؟ ولا نشوه ذلك الجو المثير بالتحليلات والتأويلات والتفصيـــلات فضلا عن تلك السخافات التى تحط من قيمة القرآن ، وتذهب بجلاله وروحه . (44)

ومن هذه السخافات ما قاله بعضهم فى شرح قوله تعالى : « **تنزل الملائكـــة والروح فيها** » حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم الســـموات الســـبع ، والارضين السبع ، كانت له لقمة واحدة، أو هو ملك رأسه تحت العرش ، ورجلاه فى آخر الارض السابعة ، ولـــه ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا ، وفى كل

وجه ألف فم ، الى آخر هذه الاباطيل والخزعبلات التى يفسر بها كلام الله ٠

قل لى بربك ألا يكون كل هذا مثارا لسخرية خصوم الاسلام ، وداعيا الى القول بأن هذا الدين خرافى يؤدى الى حياة الركود والجمود والضعف ؟ وشاغلا عن القيام بجوهر الدين الصحيح الذى من أجله جاء ؟ وباعثا على عدم التأثر بروعة الاسلام والاخلاص فى التقيد بأحكامه ؟

ذكر الاستاذ المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش انه رأى ترجمة للقرآن بالانجليزية أتى واضعها بما سطر اولئك الجهلة المتعالمون ، ثم أعقب ذلك بما شاء من الانتقاد والتشهير بدين ذلك الكتاب ٠ (45)

وهذا كله مما يفسر لنا شيوع استخفاف بعض الناس بالاسلام لانهم لم يفهموا جوهره وروحه وانما فهموه كما يصفه هؤلاء المتنطعون وكما يصورونه ٠

ولن ينتفع المسلمون بالقرآن الا اذا فهموه فهما صحيحا ولن يفهموه كذلك حتى يقرأوه كما نزل بعيدا عن الخرافات والاوهام ، التى تشدهم الى الوراء ، وتنشر الضعف والارتخاء فى أجسامهم، وتبعد بهم عن الجادة المثلى التى يهدى اليها القرآن ٠٠

أسلوب القرآن الكريم :

اذا عدنا الى المعاجم العربية وجدنا هذا اللفظ (الاسلوب) يطلق فى لغة العرب على معان مختلفة ، منها الفن والوجه والمذهب والطريق بين الاشجار والشموخ بالانف وطريقة المتكلم فى كلامه ، وهذا الاخير هو الانسب بالاصطلاح ٠

وأسلوب القرآن هو الطريقة التى امتاز بها فى تأليف كلامه ٠٠

وواضح ان الاسلوب غير المفردات والتراكيب التى يتألف منها الكلام ٠٠٠ وأساليب المتكلمين فى عرض كلامهم تتعدد بتعدد أشخاصهم وقد تتعدد فى الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التى يطرقها والفنون التى يتناولها ٠

وبالرغم من أن المفردات التى يوظفها الجميع واحدة ، والتراكيب فى جملتها واحدة ، والقواعد المرعية فى صوغ الجمل واحدة ، فان الاساليب تختلف من متكلم الى آخر ، ومن ثم كان للقرآن الكريم أسلوبه الخاص الذى انفرد به عن سائر الاساليب ٠

فهو من حيث الحروف والمفردات والجمل والقواعد جار على النهج العربى المألوف ، ولكنه من حيث أسلوبه الفذ ومذهبه الكلامى خارج عن المعهود ، ومباين للمألوف (فما هو شعر ولا هو سجع ٠ متكلف ملتزم ، ولا ازدواج متعمد دائم ، ولا نثر مرسل ارسال الحديث ، ولا خطابة طنانة

متفيهقة ، وانما هو نهج بديع من الكلام العذب المحكم البالغ الروعة فى أدائه الشريف غاية الشرف فى معانيه ومقاصده · (46)

وقد سمع أعرابى رجلا مسلما يقرأ قوله تعالى : « **فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا**) فقال : اشهد ان مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام ·

وسمع عمر بن الخطاب آيات من سورة (طه) فاهتزت مشاعره ، وارتعدت فرائصه ، وتحول من ذلك **الرجل الجاهل الكافر الغليظ الذى جاء ليقتل منقذ البشرية ، وسيد الخلق** محمدا صلى الله عليه وسلم ويقترف اكبر الجرائم فى حياة الانسانية ـ تحول الى عمر المسلم الصادق ، والمؤمن القوي ، والعبقرى العظيم الذى أصبح يدير وحده احدى عشرة دولة من دول اليوم ، وكان القاضى فيها والامام ووزير المالية ووزير الداخلية والمحتسب ، وكان قائد (ثلاث جبهات) ، وكان الى ذلك يحمل الدقيق على ظهره ويطبخ للمرأة الفقيرة ويطعم أولادها ··

وقال الاصمعى سمعت : بنتا من الاعراب خماسية أو سداسية ـ أي بنت خمس سنوات أو ست ـ تقول :

استغفر الله لذنب كله
قتلت انسانا بغير حله

مثل غزال ناعم فى دله
وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها : قاتلك الله ، ما أفصحك فقالت : ويحك ، أيعد هذا فصاحة ؟ مع قوله تعالى : « **وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين** » فجمع فى آية واحدة بين خبرين ، وأمرين ، ونهيين ، وبشارتين · (47)

وبذلك الاسلوب الفذ أعجز القرآن العرب وهم أمراء البيان ، وأرباب الفصاحة ، وافحمهم وهم أساطين البلاغة وفرسان النظم والنثر ·

خصائص أسلوب القرآن :

والخصائص التى امتاز بها أسلوب القرآن كثيرة يمكن أن نلخص أهمها فى الامور التالية :

1) مسحة القرآن اللفظية ، فانها جذابة أخاذة تتجلى فى الاتساق والائتلاف على طريقة عجيبة لا يمكن أن يرتقى اليها كلام بشر مهما توفر له من عوامل الابداع ·

2) ارضاؤه العام ، ومعنى ذلك انه اذا تلي على العامة شعروا بجلاله ، وأحسوا بعظمته ، وذاقوا حلاوته ، وانصاعوا بعقولهم على قدر استعدادهم، وكذلك الخاصة اذا قرأوه أو قرىء عليهم انقطعوا اليه بقلوبهم وعقولهم يستروحون فى ظلاله ، ويستشعرون روح الطمأنينة والثقة فى حماه ، فتشيع فى صدورهم أنوار الايمان والانس بالله تعالى ·

3) ارضاؤه العقل والعاطفة، فالقرآن يخاطب العقل والقلب معا ، ويجمع الحق والجمال معا ، وهي غاية صعبة المرتقى، عزيزة المنال . فارهف أذنيك ـ قارئى الكريم ـ واستمع اليه وهو يسوق الاستدلال العقلى على البعث كيف يهز القلوب ، ويمتع العاطفة معا . قال الله تعالى : « **ومن آياته انك ترى الارض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، ان الذى أحياها لمحيى الموتى انه على كل شيء قدير** » . وقال فى سورة (ق) : « **أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج** » أرأيت كيف جمع بين مخاطبة العقل والقلب معا ، وبين الاستدلال المنطقى والامتاع العاطفى ؟

4) جودة السبك ، فالقرآن الكريم بلغ أقصى الدرجات ، وأبعد الغايات فى ترابط كلماته ، وتماسك جمله ، وتعانق آياته ، مع طول نفسه ، وتنوع مقاصده ، فاذا فتحت المصحف دون أن يكون لك قصد أو غرض بآية معينة فقرأت ما وقعت عليه عيناك وتأملته ، وجدته وحدة متماسكة الاجزاء ، متآلفة الاعضاء ، متآخية الاوصال ، فجل من قال : « **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون**» .

5) البراعة فى تصوير القول وثروته فى أفانين الكلام ، أي ان القرآن يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة ، بمقدرة فائقة خارقة ، تنبهر أمامها أنفاس الفصحاء والبلغاء . والامثلة على ذلك واضحة لا تعزب عن الذكى البصير ، وهو يتلو القرآن الكريم .

ويكفى دليلا على ان القرآن معجز بأسلوبه ، ان التأليف فى البيان العربى ولد ونشأ وأينع وترعرع فى جو القرآن .

سأل ابراهيم بن اسماعيل من كتاب الوزير الفضل بن الربيع ومن جلسائه ـ سأل أبا عبيدة معمر بن المثنى عن قول الله تعالى : « **طلعها كأنه رؤوس الشياطين**» كيف وقع هذا التشبيه والمشبه به غير معروف ؟ وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله . فقال أبو عبيدة : انما كلم الله العرب على قدر كلامهم . أما سمعت قول امرىء القيس :

ايقتلنى والمشرفى مضاجعى
ومسنونة زرق كأنياب أغوال ؟

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به .

وعزم أبو عبيدة منذ ذلك الحين أن يضع كتابا فى القرآن ، فى أشباه هذا، وما يحتاج اليه من علمه ، ثم وضع

كتابه (المجاز) فكان أول كتاب ألف في البلاغة (48) ·

اعجاز القرآن : المعجزة هي أمر خارق للعادة خارج عن حدود الاسباب المعروفة ، يجريه الله تعالى على يد أنبيائه مقرونا بالتحدى ودعوى الرسالة، وطلب المعارضة ، وهي فوق مستوى العقول والافهام · أما ان تأتى أمرا خارقا للعادة على العموم كمعجزة سيدنا ابراهيم الذى لم تحرقه النار ، وكمعجزة سيدنا صالح فى الناقة التى تشرب النهر · واما أن تأتى من جنس شىء اشتهر عند المرسل اليهم ، كاشتهار السحر فى عهد موسى ، والطب فى عهد عيسى ، والبلاغة فى عهد محمد ·

وقد تدرج هذا النوع من الاعجاز حسب تدرج العقل البشرى فى سلم العلم والمعرفة والادراك ·

ففى زمن فرعون موسى (منفتاح) بمصر كان السحر عدة العلماء وزادهم، ومثار فخرهم واعتزازهم ، فكانت المعجزة التى أظهرها الله على يد موسى حينما تقابل مع علماء السحر عصا تلقف ما صنعوا ·· حيث القوا عصيهم وحبالهم فاذا هي حيات وثعابين ، فأوجس موسى فى نفسه خيفة ، فأمره الله أن يلقى عصاه فاذا هي حية تزحف وتسعى ، واذا هي تبتلع حيات السحرة وتلقفها (49) فأصابهم العي وادركوا ان ذلك من صنع الله تعالى فخروا له ساجدين ·

ثم مضت قرون وتطورت العقول والافهام ، وانتشر فن التحنيط ، وارتقى علم الطب ، وظهرت الكيمياء ،فكانت المعجزة التى أظهرها الله على يد سيدنا عيسى فوق ما نبغ فيه قومه من الطب والكيمياء والتحنيط ، انها احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص ، والنفخ فى قطعة من طين فتكون طيرا باذن الله ·

ثم مضت قرون ، وتطورت الانسانية، وانطلق العقل البشرى فى باحات النظر ، والتأمل والتفكير ، فكان للعرب فى هذا العهد النبوغ المطلق فى الفصاحة والبلاغة والعبقرية الفذة فى فن الكلام نثره ونظمه ، فكانت المعجزة التى أظهرها الله على يد سيدنا محمد من جنس ما اشتهروا به ، وتفوقوا فيه ، انه القرآن الكريم ، الذى : « **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** » ·

واذا كانت معجزات الانبياء جميعها محدودة بقوم معينين ، وموقتة بزمان معين ، فان معجزة محمد صلى الله عليه وسلم عامة وخالدة ·

وبالرغم من حرص العرب على تكذيب محمد ، وتكالبهم على اخفاء أمره ، وتألبهم على اطفاء نوره ، ورفضهم الصارم لدعوته ، لانه سفه أحلامهم ، ونعى عليهم زيغهم وضلالهم، وتحداهم بلسان القرآن ، بأن يعارضوه أو يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة ،

وليس الا النظم والاسلوب (50) ولــــن تضيق أساطيرهم وعلومهم أن تسعهــا عشر سور ، ثم قرن التحدى بالتأنيـب والتقريع ، ثم استفزهم بعد ذلك ، جملة واحدة فقال : « **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** » ·

بالرغم من كل ذلك عجز العرب عـن معارضة القرآن بسورة من مثله، وقامت عليهم الحجة ، فهي قائمة على غيرهم (لان عجز الجماعات وهم متعاونون أفرادا ومجتمعين عن معارضة عمــل جاء على يد بشر مثلهم وهو وحــده لا معين له دليل على ان ما جاء به هذا الفرد الوحيد من عند الله ، لا يقدر أحد أو جماعة على معارضته ، فأفحم كـل حجة ، واسكت كل لسان ، وأعيا كــل بيان ، وأبطل كل محاولة ، وهزم كـل مكابر ، وحطم كل عناد وجدال ، فظـل القرآن وسيظل فى فم الدنيا لسانا ناطقا، وآية باهرة ، و (معجزة خالدة) ·

وسيبقى هذا التحدى المثير المدهش : « **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين** » ـ سيبقى قائما ما بقيت الحياة ، فكل انسان مـن يوم أن نزل القرآن الى نهاية الحياة على هذا الكوكب السفلى يواجه هذا التحدى وبالتالى هو محكوم عليها مسبقا بالعجز والفشل والاخفاق ·

وفى كتب التاريخ محاولات ممــــن طاشت عقولهم ، واستبد بهم الغــرور، فتصدوا لمواجهة هذا التحدى ، ومــا دروا انهم فى ذلك كمن أراد أن يقطع المحيط سبحا ، أو يسابق النفاثـــــة مشيــا ·

ومن هذه المحاولات ما وقع مــــن الشاعر العربى لبيد بن ربيعة الشهيـر ببلاغة منطقه وفصاحة لسانه ، ورصانة شعره (فعندما سمع أن محمدا يتحدى الناس بكلامه ، قال بعض الابيات ردا على ما سمع ، وعلقها على باب الكعبة وكان التعليق على باب الكعبة امتيازا لم تدركه الا فئة قليلة من كبار الشعراء العرب ، وحين رأى أحد المسلمين هـــذا أخذته العزة ، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم ، وعلقـها الى جـوار أبيــات لبيد ، ومر لبيد بباب الكعبة فى اليـوم التالى ولم يكن قد أسلم بعد فأذهلتـه الآيات القرآنية ، حتى انه صرخ من فوره قائلا : والله ما هذا بقول بشر ، وانا من المسلمين) (51) وكان من نتيجـــة تأثر هذا الشاعر العربى العملاق ببلاغة القرآن انه هجر الشعر · وقد قال لــــه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومـا : يا أبا عقيل ، انشدنى شيئا من شعرك · فقرأ سورة البقرة وقال : ما كنت لاقول شعرا بعد اذ علمنى الله سورة البقرة وآل عمران ·

وهناك محاولة أخرى أغرب من هذه وبطلها الكاتب الشهير عبد الله بن المقفع ، وخلاصتها ان جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير القرآن الكبير فى عامة الناس ، وهيمنته على قلوبهم ، فقرروا مواجهة تحدى القرآن ، واتصلوا لاتمام خطتهم بابن المقفع ، وكان معتدا بقدرته الادبية الواسعة ، فقبل الدعوة للقيام بالمهمة ، واخبرهم ان هذا العمل سوف يستغرق سنة كاملة ، واشترط عليهم أن يتكلفوا بكل ما يحتاج اليه خلال هذه المدة ..

ولما مضى على الاتفاق نصف عام عادوا اليه وفى أنفسهم تلهف وشوق ، وتطلع الى معرفة ما حققه الكاتب العملاق لمواجهة تحدى القرآن . وحين دخلوا غرفة الاديب وجدوه جالسا والقلم فى يده وهو مستغرق فى تفكير عميق .. وأوراق الكتابة متناثرة أمامه على الارض ، بينما امتلات غرفته بأوراق كثيرة ثم مزقها .

لقد حاول الكاتب العبقرى ، وبذل أقصى جهوده من أجل أن يتم له ما أراد ، ويحقق للزنادقة والملاحدة أمنيتهم الغالية ، ولكنه أصيب بالفشل الذريع ، فلم يستطع أن يأتى بآية واحدة من طراز القرآن ، بالرغم من مضي ستة أشهر . (52)

والذى يعنى بهذا الموضوع ويتتبع مظانه فى كتب التاريخ ، يجد أمثلة لمحاولات مواجهة هذا التحدى القائم المثير على ممر الدهور والعصور، فممن حاولوا ذلك واخفقوا ـ طبعا ـ وتحطمت آمالهم على صخرة الاعجاز ، مسيلمة الكذاب ، والنضر بن الحارث ، وطليحة بن خويلد الاسدى ، والاسود العنسى .

وان شئت ـ قارئى الكريم ـ ان تعرف لونا من هذه المعارضات السخيفة المخجلة لتدرك ضياع البلاغة ، وفشل البيان ، وتفاهة التصوير عند هؤلاء المغرورين المتطاولين على وحي السماء، فدونك فقرة من (قرآن) مسيلمة الكذاب فأقرأها ثم ألعنه ، وارث لبلاغته وبيانه :

(والمبذرات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما، اهالة وسمنا .. لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والباغى فناوئوه) .

وممن عارضوا القرآن ، أو حاولوا ، أبو الحسين المعروف بابن الراوندى ، وأبو الطيب المتنبى ، وأبو العلاء المعرى، وقد أدرك هذا الاخير ان القرآن كلام الله الذى لا يجارى ولا يعارض ، والوحي السماوى الذى لا يتسامى اليه بيان . فقال من رسالته فى الرد على ابن الراوندى :

(واجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد ، ان هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

كتاب بهر بالاعجاز ، ولقى عدوه بالارجاز ، ما حذى على مثال ، ولا أشبه غريب الامثال ، ما هو من القصيد الموزون ، ولا فى الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ، ذوى الارب ۰۰۰ وان الآية منه أو بعض الآية لتعترض فى أفصح كلم ، يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه ما لشهاب المتلالئ فى جنح غسق والزهرة البادية فى جدوب ذات نسق) ۰

وروعة الاعجاز قد فعلت فعلها حتى فى غلاة المشركين وأشدهم عدواة للقرآن، فكان أبو جهل وابو سفيان والاخنس بن شريق من ألد أعداء النبى صلى الله عليه وسلم وأشدهم بغضا للقرآن ، ومع ذلك فقد كانوا يتسللون فى الليل فرادى الى جدار بيت الارقم ليتسمعوا من النوافذ والكوى الى النبى وهو يتلو القرآن ۰

كان كل واحد من هؤلاء يجلس فى مكان مظلم حيث لا تراه العيون ، وهو يظن انه وحده الذى جاء ليستمع ، حتى وقعت المفاجأة ذات ليلة ، حيث التقى الثلاثة وجها لوجه وهم يهمون بالانصراف بعد أن انتهى الرسول صلى الله عليه وسلم من التلاوة ، وسأل كل واحد منهم صاحبه من أين جئت ؟

فأطرق الجميع برؤوسهم ولم يحر أحدهم الجواب ، وجميعهم متهمون ، ولم يسعهم أمام ما فعلوا الا أن يقسموا ألا يعودوا مرة أخرى خشية أن يؤدى بهم سماع القرآن الى الايمان واتباع محمد ۰

وفى الليلة الثانية فكر كل واحد من الثلاثة فى الموضوع، وتحدث الى نفسه، ان أحدا لن يذهب الليلة لسماع القرآن من محمد ، فماذا لو حنثت فى قسمى وذهبت وحدى ۰۰

وذهب الثلاثة واستمعوا ، ولما انتهى الرسول من التلاوة أخذ كل منهم يطوف حول دار الارقم ليستيقن من أنه جاء وحده ، فكانت المفاجأة ۰۰۰ وكان التلاحم والتشاجر ، وكاد الخصام ينقلب الى التقاتل ۰۰

وهكذا ظل الثلاثة يقسمون ويحنثون ويستمعون ۰۰ ولم يقدروا على مغالبة هذه النوازغ الجياشة ، وكبت هذه الرغبة الملحاحة ۰۰ فاتفقوا على أن يجتمعوا كل ليلة فى بيت أحدهم ليراقب بعضهم بعضا حتى لا يذهب منهم أحد ۰

الى هذاالحد بلغ تأثير القرآن فى نفوس الكفار والمشركين ، أعداء الوحي وأعداء من نزل عليه ۰۰۰

وهل أتاك ـ قارئى الكريم ـ نبأ الوليد ابن المغيرة أحد فرسان البلاغة وسادة البيان العربى ؟

لقد سمع آيات من القرآن فهاله اعجازه ، واستبدت به روعته ، فسارع الى قومه ليقول لهم : (لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ۰ ان له لحلاوة ۰ وان

عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه·

وهكذا عجز خصوم القرآن عن مواجهة تحديه ، وسيظل ما بقيت الحياة معجزا للانسان والجن ، وهو ما سجله الوحي فى قوله تعالى : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » ·

وجوه الاعجاز :

لاهل العلم فى بيان اعجاز القرآن كتب ودراسات ، وأبحاث لا يحصرها العدد ، وممن خاضوا هذا البحر الباقلانى ، والسكاكى ، وعبد القاهر الجرجانى ، والزمخشرى ، والقاضى عياض والرافعى ، وما تزال أقلام الكاتبين مغموسة فى الحبر ، وأوراقهم مبسوطة ، ولكل باحث وكاتب رأيه واجتهاده ·

والدارس لابحاث هؤلاء والواقف على أرائهم يرى أولا ان هناك خلافا فى اظهار السر الكامن من وراء اعجاز القرآن ، فمنهم من ارتأى ان القرآن فوق طاقة البشر ومقدورهم ، وهم عاجزون عن معارضته ومجاراته بالقوة والفعل ، وهو رأي العلامة الباقلانى فى كتابه (اعجاز القرآن) ·

وذهب آخرون الى أن القرآن تحت طاقة البشر ومقدورهم ، وهم عاجزون عن معارضته ومجاراته بالفعل لا بالقوة، فالله تعالى هو الذى أعجزهم عن مناظرته ومباراته · وممن ذهب الى هذا الرأي ابراهيم النظام ·

والرأي الاول أقرب الى العقل وأدعى الى الرضى والاقتناع · ولا يتسع المجال لعرض أدلة الترجيح ، وهي مبسوطة فى المطولات ·

أما وجوه الاعجاز فكثيرة يمكن عرض طائفة منها فيما يلى :

ذكر القاضى فى كتابه (الشفاء) وجوها كثيرة منها :

1) حسن تأليفه ، والتئام كلمه ، وفصاحته ووجوه ايجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب فيما يأتون من بيان ·

2) صورة نظمه العجيب ، وأسلوبه الغريب ، المخالف لاساليب العرب ومناهج نظمها ونثرها ، فلم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه فى فواصله ، وما انتهت اليه مقاطع آيه ·

وذكر الباقلانى من وجوه الاعجاز ثلاثة :

أولا ـ ما تضمن من الاخبار عن الغيوب بما لا يقدر البشر عليه ولا سبيل لهم اليه ·

ثانيا ـ اتيانه بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الامور ، ومهمات السير ، من حين خلق الله آدم الى حين مبعثه ، صلى الله عليه وسلم ، مع انه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يقع له شيء من

كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ، ومن أمثلة ذلك قصص الانبياء، وأصحاب الكهف وذى القرنين ، ويأجوج ومأجوج الخ ·

ثالثا ـ انه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة الى الحد الذى عجز الخلق عنه · (53)

ويعجبنى فى موضوع اعجاز القرآن قول السكاكى (ان اعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه) ولكن هذا الادراك لا يتهيأ الا لارباب الفصاحة والبيان · ومن هنا يتبين ان غير العرب الفصحاء من سائر الناس أعيا وأعجز فى ميدان المعارضة ·

ويقول الامام محمد عبده عن معجزة القرآن : (معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما ما يتناوله العقل بالفهم هو معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها ، ونشر ما انطوى فى أثنائها ، وله منها حظه الذى لا ينقضى ، فهو معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منه) · (54)

ووجه اعجاز القرآن فى نظرى هي (روحانيته) أي انه روح من رب العالمين « **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان** » · وهذا وحده كاف فى ارشادنا الى جهة اعجازه وقصور الانس والجن عن محاكاته ، وبقائه خالدا يمد البشرية نورا وهداية ·

والحقيقة الجديرة بالملاحظة هي ان معجزة القرآن لا تستمد خلودها من كون القرآن معجزة فقط بل من كونه أيضا قد جاء بتخطيط محكم سليم للانسانية فى مختلف العصور وفى مختلف أنحاء المعمورة ·

انه هدية الخالق للمخلوق ، وصلة السماء بالارض ، ومنهج السلوك للانسان ، فما من كبيرة أو صغيرة، دنيوية أو أخروية ، فردية أو اجتماعية، الا وفى هذا الكتاب الخالد تصريح لها أو اشارة ··· واتسع مجاله ، وبعد أفقه ، فى كل فن وفى كل نظام ··

ولئن كانت شمس الكون لها مع الناس فى هذه الارض حدود ، فان شمس القرآن لا تعرف الحدود ولا السدود ، ولا تعرف زمنا دون زمن ، ولا وجودا دون وجود ، فهي مع الناس فى كل مكان وفى كل زمان وفى كل حال، فى حضارتهم وبداوتهم ، فى قصورهم وأكواخهم ، فى سلمهم وحربهم ، فى صحتهم ومرضهم ، فى صغرهم وكبرهم، فى ليلهم ونهارهم ، فى حياتهم وبعد موتهم ·· انها شمس القرآن ·

وهذا ما جعل رجال الغرب فى نهضتهم الحديثة يعنون بهذا الكتاب ويهتمون ، حتى تخصص فيه علماء أجلاء وقفوا عقولهم وأقلامهم على دراسته واستخراج ما فيه من الكنوز

والذخائر ، واستوحوا منه نظريـــات واستلهموه دروسا وعبرا فى الحـــق والجمال ، والخير والشر ، وغيرها من المفاهيم والنظريات ٠

صحيح ان هناك من الغربيين مـــن تخصصوا فى دراسة القرآن لا لغرض شريف ، وانما من أجل الطعن والنقد ٠ ولكن حتى هؤلاء لم يقدموا على دراسته الا تحت تأثيره ، والايمـــان بأنه شيء عظيم يدعو الى النظر فيه ، والانقطاع لدراسته ، فخدموه خدمة جلى بمـــا كتبوا عنه من دراسات وأبحاث كشفت عن عجزهم ، وأكدت سمو القرآن ، وانه وحي من الله لا يأتيه الباطل من بيـــن يديه ولا من خلفه ، فمنهم من آمن ومنهم من انطوى على نفسه فى خـجل ٠٠٠ الا عملاء التبشير الذين ارتكسوا فى حمأة الحقد والحسد والبغضـاء فهـــم عمي الابصـــار ، وطـمس العقـــول ، لا يؤمنون بالحق لانهم أعداؤه ٠

وستظل العقول المفكرة الناضجـــة الجبارة التى تكتشف وتستنتج وتخترع ٠٠ وتبحث عن الحق من أي جنس ومن أي بلد تعلن اعجابها الى حد الدهشة بهذا الكتاب الخالد المعجز ٠٠

يقول الفيلسوف الفرنسى (الكسى لوازون) فى كتابه (حياة محمـــد) : (خلف محمـــد للعالـم كتابا ، هو آية البلاغة وسجل الاخلاق ، وكتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفـــة حديثا ، والمكتشفات الحديثة مسالـــة تتعارض مع الاسس الاسلاميـــة ، فالانسجام تام بيـن تعاليـم القـــرآن والقوانين الطبيعية ٠

ويقول العلامة (فريد وجدى) : لا ترى قاعدة دلت عليها التجارب ، ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر ، يكون لهـــا أثر فى رقي الانسان ، وتحسين بنـــاء العمران ، الا وهي صدى صوت آيـــة قرآنية ، أو حديث من الاحاديث النبوية، حتى يخيل للرائى ان كل جد ونشـــاط يحصل من علماء الكرة الارضيـــة فى سبيل رفع شأن الانسانية لا يقصد بـــه الا اقامة الحجج التجريبية على صحة قواعد الديانة الاسلامية ٠

وجماع القول ان القرآن الكريم :

معجـــزة بحروفـــه ، وكلـماتـــه ، وتراكيبه ، ٠٠٠ معجز بطلاوته ولذاذته معجز بتأليفه ، والتئامه ، وتناسقه ٠٠٠ معجز بسلامته من التعارض ٠٠٠ معجز بأسلوبه ، ونظمه ، وفواصله ، ومقاطع آياته ٠٠٠ معجز برموزه العجيبـــة المدهشة فى فواتح السور ، معجـــز بموسيقاه ، وفصاحته ، النادرة ٠٠٠ معجز بأنبائه الغيبية عن كوامن الزمن وقضايا الامور ٠٠٠ معجز بأســـراره الدقيقة ، وقوانينه المحكمة ، وخطابياته البديعة ، وطرق اقناعه الفذة ٠

معجز باشاراته ، واستعاراته ،٠٠٠ معجز بالاسرار العلمية التى هدى اليها ولم تهتد اليها العقول البصيرة فى العصر

الحديث الا بالآلات الدقيقة والمخترعات الحديثة المدهشة ...

معجز بجذباته الروحية للمشاعر والاحاسيس ... معجز بالتحويلات الجذرية والانقلابات التاريخية عبر التاريخ ... معجز بمثله العليا التى بلغت الذروة فى ديموقراطيتها وانسانيتها ..

وأخيرا : ان القرآن معجز لانه (قرآن) وكفى .. والقرآن كلام رب العزة ، نزل به الروح الامين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم .

تلاوة القرآن :

القرآن الكريم كتاب الله تعالى ، تفضل به على هذه الامة المحمدية ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويهدى للتى هي أقوم . ورسالة القرآن اذن علمية عالية ، عظيمة ضخمة ، لا يفى بوصفها قلم أو لسان ، مهما أوتيا من مقدرة فى الفصاحة والبيان .

فاذا تتبعنا الآيات الكريمة التى تصف القرآن وتحدد رسالته وجدناها تنص أو تشير الى انه يحيى القلوب ، ويرقق الاحاسيس ، ويحقق الاخوة الصادقة ، وينظم العلاقات بين الافراد والجماعات ، ويضىء العالم بتعاليمه السمحة ، ويضمن سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، وهذا بعض ما تنطق به آيات من هذا الكتاب الكريم ، فأرهف أذنك - عزيزى القارىء - واستمع الى الله جل وعز يقول :

« **ان هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا** » ويقول « **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض، ألا الى الله تصير الامور** » .

ويقول : « **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم اليه صراطا مستقيما** » ويقول : « **ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون** » ويقول : « **ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ، ويهدى الى صراط العزيز الحميد** » ويقول : «**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** » .

والحقيقة التى ننتهى اليها من هذه المقدمة ، ونخرج بها من دراستنا لهذه الآيات ، وآيات أخرى فى مجراها ونسقها . ان القرآن لم ينزل لمجرد التلاوة ، كما انه لم ينزل ليقرأ فى المآتم والجنازات ، ولا لقضاء الحاجات ، ولا ليكتب فى التمائم ، وانما أنزل لغرض أجل وأهم ، ليكون مدرسة تربوية

يتخرج منها بناة الحياة الفاضلة ، وصناع التاريخ الماجد ، الذين أراد الله أن يعمر بهم هذه الارض : « **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون** » .

مدرسة فريدة فى نوعها يتلقى فيها المخلوق عن خالقه دروسا لا كالدروس، وعلوما لا كالعلوم ، ومعارف لا كالمعارف فاذا كان احضار العقل ، والتأمل والتدبر عوامل ضرورية لفهم كتاب تقرأه ، فانها مع كتاب الله تعالى أوجب وأوكد .

ومن ثم وجب أن تكون تلاوة القرآن تلاوة تأمل وتدبر ، وتلاوة نظر واعتبار، وتلاوة خشوع وانفعال ، وتلاوة درس واستنباط واهتداء ، يقول الله تعالى : « **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به** » . ويقول : « **كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب** » . ويقول : « **هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به ، وليعلموا انما هو اله واحد ، وليذكر أولوا الالباب** » .

فهداية القرآن اذن متوقفة على أمرين هامين لابد منهما لمن يبتغى الهداية والانتفاع بالقرآن : تلاوته بتأمل وتدبر، وفهمه فهما صحيحا .

هذان الامران لابد منهما لمن يريد ان يصلح بالقرآن وينتفع ، به وبدونهما لا صلاح ولا انتفاع ...

وفهم القرآن أمر ميسور ، خلافا لمن يعتقد انه صعب عسير ، أنزل للخاصة لا للعامة .. ولقد أثبتت التجربة وأثبت الواقع انه يفهم بشىء من العناية والاهتمام ، لان بعضه يفسر بعضا ، ولان معانيه أيضا تتسابق واضحة الى القلوب والاذهان . يقول الله تعالى : « **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** » .

فالقرآن يلتقى مع حقائق الوجود ، ويتفق وسماحة الفطرة ، ولم يكن ما فى القرآن من الآيات مبهما أو مغلقا أو معمى مع ما يرى الانسان فى الكون تفاسير وشروحا .. بالاضافة الى أن القرآن الكريم يواكب الانسان من مرحلته الاولى من تكوينه الى أن يفارق هذا الوجود ، بل القرآن مع الانسان قبل هذه المرحلة حيث يعتنى بالتربة التى ينشأ فيها ، والرحم التى يتطور فيها ، ثم يرافقه فى طفولته ، وفى شبابه ، وفى كهولته ، وفى شيخوخته .. ثم فى موته الذى هو نهاية وبداية .

فالقرآن اذن ميسور للفهم ، لانه كتاب الكون وكتاب الانسان ... وان حاد بعضهم عن الجادة وظنوا انه كتاب صعب عسير ... وكيف لا وهو مع الانسان فى جميع مراحل حياته فى هذا الكون ؟

ومما لا أزال أذكره بأسف وتحسر ، ما كان يتقوله بعض مشائخ الزوايا من أن القرآن يجب حفظه ، ولا يجوز شرحه ، وكانت العبارة التى يرددونها وسمعتها غير مرة من شيخ علمنى القرآن (من أصاب فى تفسير القرآن

فقد أخطأ ، ومن أخطأ فقد كفر) مما جعل كثيرا من طلبة الزوايا بالخصوص على الاكتفاء بحفظه ، والحذر من محاولة فهمه ، فالبقاء على الجهل بمعانى القرآن خير من الكفر فى نظرهم ·

وقراءة القرآن النافعة هي التى تستهدف المعنى ، وتتجاوز اللفظ الى ما وراءه من سر وروح ··

صحيح ان التلاوة نفسها عبادة تقرب المرء من خالقه ، ولكن الاجر يتضاعف ويعظم على قدر ما فى التلاوة من التأمل والتدبر ، وعلى قدر ما يحقق التأمل والتدبر من الغايات المطلوبة · تأمل جيدا هذه الآية الكريمة : « **فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الالباب** » ·· « **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء** » ·

فالذين يتلون القرآن (حق تلاوته) هم الذين يقرأونه وطنية وأخلاقا واجتماعا وعبادة ··

وما أشد حاجة البشرية اليوم الى هداية القرآن فى هذه المجالات بالخصوص : فالقرآن ضرورة وطنية لان الوطن فى حاجة ملحة الى ابنائه المخلصين ، والى سواعدهم وكفاءاتهم وتضحياتهم وامكانياتهم المتنوعة · وليس كالقرآن عامل قوي يبعث فى نفوس المثقفين ، وكافة طبقات الامة ، حب الوطن ، وحب التضحية فى سبيله ، والذود عن كيانه وحماه · وما حياة المسلمين الاوائل الملآى بأروع معانى التضحية والايثار الا صورة ناطقة بما فعل القرآن فى أنفسهم ·

والقرآن ضرورة اجتماعية ، فجميع الذين يحملون قلوبا حية وضمائر يقظة، ويغارون على مصالح الامة وكرامتها ، يشعرون بأن المجتمع الاسلامى مليء بالنقائص والمفاسد والعيوب ، وان القرآن خير وسيلة لمعالجة هذه الامراض، لانه الكتاب الوحيد الذى يكفل لكل مواطن حقه فى العلم والعقيدة والعبادة والحياة الكريمة ·

والقرآن ضرورة انسانية ، فانه أمر بالتعاون بين الشعوب على أساس الحق والكرامة ، وعلى مبادىء العدالة المطلقة التى لا تتأثر بالمصالح الشخصية، ولا ترضخ للفروق الجنسية ، وقد نزل من السماء ليقول للناس فى صوت عال « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » ·

وبهذا المفهوم الواضح استأصل تلك الفلسفة التى تمزق شمل الناس ، وتجعل عواطفهم رهنا بأراضيهم وحدودها · (55)

والانسان عندما ينقطع الى القرآن الكريم يتلوه بعقله وقلبه وروحه، يشعر بلذة لا تعادلها لذة ، وتغمره مشاعر

وأحاسيس لا يرتقى الى وصفها بيان ، ويحس من الاعماق انه يعبىء النفس بفيض متدفق يملأ عليه كل وجوده ، ذلك لانه يعيش مع الله خالقه وخالق الكون · ومن أسعد ممن يعيش مع الله يناجيه ويستهديه ؟

(من أجل ذلك يوصى الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين بمداومة التلاوة والذكر ، ويحذر من الجفوة والقطيعة بين المسلم وكتاب الله ، لكيلا تنقطع تلك الصلة الحية ، ولا ينقطع الرباط الذى يربط القلب المؤمن بالله ، ·· لكيلا يرين الران على القلوب ·· يغشاها ما يغشاها من جراء تعرضها الدائم (للتراب) المتناثر فى جو الحياة ·· سواء هو تراب (الجسد) أو تراب (المادة) وما يدور حولها من الصراع ·· وهو تراب يتراكم ويتراكم ان لم يمسحه الانسان عن نفسه وروحه ، حتى يتغبش صفاء النفس ، وتعتم شفافية الروح ، وتنطمس فى النهاية ، فلا ينفذ منها النور · والقرآن يمسح عن النفس ذلك الران حين يعيش الانسان فيه مع الله ، فتنطلق الروح من اسارها تقبس من النور العلوى ، وينسرب الحديث المتصل عن الله فى أعماق النفس فيشيع فيها النور · (56)

قال الله تعالى :

«الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شىء عليم » سورة النور ·

وتجدر الاشارة الى ان هناك آدابا وشروطا تجب مراعاتها عند قراءة القرآن الكريم :

فمنها الجلوس فى تواضع وتأدب وخشوع ، ومنها استحضار عظمة من أنزل القرآن على حال من يراه (فان لم يكن القارىء يرى ربه فانه سبحانه يراه) ومنها قراءته بتوءدة وتمهل وتفكر ، واعطاء الحروف ما تستحقه من حسن الاداء ، والبكاء لمن استطاع ذلك ··

فقد روى ابن ماجه باسناد جيد عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (اتلوا القرآن وابكوا ، فان لم تبكوا فتباكوا) ·

ومما تجب مراعاته فى قراءة القرآن تحسين الصوت بشرط أن يكون ذلك فى حدود الواجب شرعا بأن يخرج كل حرف من مخرجه موفى حقه من الصفات والاحكام ، قال الله تعالى : « **ورتلناه ترتيلا** » وقال : « **ورتل القرآن ترتيلا** » والترتيل : تلاوة بأداء صحيح بحيث يقرأ على توءدة وتمهل وتبيين حروف ·

قال الامام النووى : اجمع العلماء من السلف والخلف من الصحابة والتابعين وعلماء الانصار وائمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن . وقال الامام القسطلانى فى كتابه (لطائف الاشارات) قال البراء وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ فى العشاء (والتين والزيتون) فما رأيت أحدا أحسن صوتا منه أو قراءة). وقد امتدح النبى صلى الله عليه وسلم قراءة أبى موسى الاشعرى حين مر عليه وهو يقرأ فى بيته فأصغى اليه وقال له فى الصباح : (يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود) وكان داود عليه السلام أحسن الناس، فشبه حسن صوت أبى موسى وحلاوة نغمته بصوت آلة المزمار .

أما ما عليه كثير من قراء اليوم حتى المشهورون منهم بالتغنى المجنح بالقرآن والتمطيط والافراط فى المد واشباع الحركات حتى يتولد منها أحرف لم ينزل بها القرآن ، واضاعة صفات الحروف كالشدة والجهر فى الباء والدال واخراج الحروف من غير مخارجها .. والترقيص والترعيد والتطنين فى الغنات .. واضعاف بعض الحروف وقتلها ، وقياس قراءة القرآن على القطع الموسيقية بادخال النغمات والاصوات المخزية المنكرة كالاصوات الرقيقة المخنثة ـ أما هذا فحرام ، لانه يخرج بالقرآن العظيم الى الهزل واللعب ، ويتنافى أيضا مع قدسية كلام الله ويحط من مستوى القرآن الى مستوى الالحان المطربة ، وفى من يفعلون هذا يقول صلى الله عليه وسلم (مفتونة قلوبهم ، وقلوب من يعجبهم شأنهم) .

أما ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه من قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(ليس منا من لم يتغن بالقرآن) .

وما رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم وصححه ، وابن حبان من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (زينوا القرآن بأصواتكم) ـ فالمراد منه مد الصوت ، وحسن الترتيل ، ومراعة قواعد التجويد ـ كما قدمنا ـ وابراز الحروف والكلمات فى صورة قوية مؤثرة ، تستولى على القلوب ، وتأخذ بالالباب ، مع الخشوع والتعظيم والتوقير .

يضاف الى ما تقدم وجوب مراعاة المعنى عند التلاوة ، فيلون القارىء صوته باللحن الموسيقى الذى يناسبه ، فالنغمة التى تناسب مواضع القوة والعظمة والقدرة غير النغمة التى تناسب مواضع أخرى . كالضعف والعطف والحنان مثلا .

فقوله تعالى : « **قال كذلك قال ربك هو علي هين** » من سورة مريم تناسبه نغمة تشعر بالقوة ، لان هذا المقطع من القرآن يتحدث عن قدرة الله تعالى

فى خلق عيسى من غير أب ، فيجب على القارىء أن يراعى ذلك فى صوته ·

أما قوله تعالى فى نفس السورة عن مريم عليها السلام :

« **يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** » ·

فالنغمة التى تناسب المقام هي نغمة الحسرة والحزن ·

وما أزال أذكر زيارة الدكتور طاهر الخميرى الى جامع الزيتونة بتونس وكان ذلك سنة 1950 وكنت حينذاك طالبا فيه ، فدخل ووجدنا محلقين حول شيخ يجود القرآن وهو من مشاهير المقرئين، فوقف ردحا من الزمن يستمع باهتمام ، ثم انطلق وهو يهز رأسه ، ويمط شفته ، شأن المتعجب او المنكر ··

وبعد ثلاثة أيام حضرت له محاضرة ألقاها بقصر الجمعيات ، لا أذكر الآن موضوعها بالضبط ، ولكنها حول (الموسيقية اللغوية) لاحظ فيها انه زار الجامع فجذبه صوت مجود ، فوقف يستمع ، ولكنه اطلع بعد حين انه ـ وان كان يحسن الابتداء والوقوف ، وله صوت رخيم مؤثر ـ لا يحسن استعمال الالحان فى قراءته حيث لا يفرق بين النغمة التى تمثل القوة ، والتى تمثل الضعف ، والحزن والحسرة ··

وهذا اللون من التلاوة أو هذه الطريقة هي المطلوبة والمرغوب فيها لانها تجتذب القلوب ، وتستميل النفوس ، فتقبل على القرآن بلهفة وشغف (وربما أثمر ذلك فى تدبر آياته ، والتفكر فى غوامضها ، والغوص على أسرارها ، فيحصل بذلك الامتثال لاوامر القرآن والانتهاء عن نواهيه) ·

وتلك هي الحكمة فى مشروعية الانصات الى تلاوة القرآن فى الصلاة أو غيرها قال الله تعالى :

« **واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** » ·

ثورية القرآن :

اذا كانت الثورة من أجل التحرر، وتغيير الاوضاع الفاسدة التى لا تستقر معها حياة الفرد والمجتمع من ابرز مميزات هذا العصر الى حد اننا نفخر بأنه عصر الثورات ، فان الثورة من أبرز مميزات القرآن الكريم ·

وهذه الخاصة من مميزات القرآن أيضا عن سائر الكتب السماوية ،·· وهي التى ضمنت الخلود للاسلام، وبالتالى ضمنت مواكبته للبشرية فى تطورها وتجددها وتقدمها ·

وقد يتبادر الى الذهن من عنوان هذا المحور ما يتشدق به المستشرقون المتعصبون وضعاف العقول من انصاف المتعلمين من ان الاسلام لم ينتشر ولم تثبت قدمه فى هذا الوجود الا بحد السيف الذى كان يمهد له الطريق ، ويذلل أمامه الرقاب ···

وهذا ـ طبعا ـ من لوثات المتعصبين وتشكيكاتهم ، لا يقول بها ذكي الفؤاد ، ونقي الطوية ، وسليم العقل ، وانما نعنى بثورة القرآن ، (وثورية الاسلام) طبيعته فى المواجهة ..

فالملاحظ أولا ان القرآن الكريم لا يرضى بالصور الباهتة ، ولا المظاهر الخادعة ، ولا الالوان البراقة ، ولا الاشكال الخلابة ، ولا المعانى التافهة ، ولا التماثيل الكاذبة ، ولا الظلال التى تخفى وراءها حقائق مموهة .

ولا يرضى للانسان ـ هذا الذى استخلفه فى الارض ـ ان يكون (ضعيفا فى طلب ، أو مريضا فى عزم ، أو هزيلا فى هدف ، أو مقصرا فى غاية ، أو متأخرا فى ركب ، أو قانعا فى خير ، أو نائما عن مجد ، أو متهاونا فى كسب ، أو متوانيا فى واجب ..

بل يريد القرآن من الانسان ويطلب منه بالحاح أن يكون قويا فى كل شيء :

قويا فى بدنه ، قويا فى تفكيره ، قويا فى ايمانه ، قويا فى أخلاقه ، قويا فى سلوكه ، قويا فى عمله ، قويا فى كل جانب من جوانبه ، وفى كل حالة من حالاته ، وان يكون طوال عمره كما يقول أبو فراس :

وانا أناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وهكذا .. فالقرآن لا يرضى الا أن يكون أهله (أصحاب عضلات مفتولة ، وسيوف مسلولة ، (57) ولكن لا على أساس أن يستخدموها للتدمير ، ويسخروها للعدوان ، ويوجهوها للشر، ويرصدوها لاقلاق راحة الآمنين الوادعين، وانما من أجل حراسة الحق ، وصيانة الحدود ، ورعاية الحرمات ، ونصر الفضيلة ، وارساء مكارم الاخلاق، وبناء حياة كريمة عزيزة) وهو الذى يقول : « **وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** » .

ونتبين بوضوح ثورية القرآن من هذه الآيات التى نكتفى بها عن مجموعة كبيرة موزعة فى مختلف أجزاء القرآن : « **يا أيها المدثر قم فأنذر** » .. « **يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » .. « **فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون** » .. « **يا أيها النبيء حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان تكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون** » .. «**قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة** » .. « **فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** » .. « **ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** » .

ونحس بثورة القرآن فى الآية الاولى التى قيل انها أول ما نزل من القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم (**يا أيها المدثر**) (58) وندرك عظمة النداء العلوى

وجلالته وقوته (**يا أيها المدثر**) وندرك ايثار الخالق الكريم «فى انتداب محمد لمهمة عظيمة خطيرة شاقة هي انقاذ البشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والهلاك ٠

وندرك خطورة الموقف ، وعظمة المهمة، التى انتدب لها محمد من انتزاعه من النوم والتدثر والدفء الى اليقظة والاستعداد ، والكفاح والجهاد ، والسهر والمشقة « **يا أيها المدثر قم فأنذر** » ٠

وندرك من وراء الامر بالقيام وهجران النوم والراحة الى السهر والتعب ما يتطلبه الموقف العظيم من التهيؤ والاستعداد ، وصرامة الارادة ، وقوة العزم ، وشجاعة النفس ، واستقرار القلب ، والحزم والاصرار ٠٠٠

وأي وضع أشد وأخطر من الوضع الذى انتدب محمد صلى الله عليه وسلم لتغييره ؟

يجب اذن أخذ العدة ، ويجب هجر النوم والراحة ، ويجب اعلانها ثورة لا لين فيها ولا هوادة ، وذلك لعمرى ما فعله رجل القرآن محمد صلى الله عليه وسلم ٠

انها ثورة على الوثنية والشرك ، وثورة على الظلم والجور ، وثورة على الاخلاق الفاسدة والاوضاع العفنة ٠

واننا لنلاحظ ثورية القرآن فى الاساليب التى استعملها فى تغيير الوضع المتعفن الذى أصابه الانهيار والاساليب التى استعملها فى طريقه للدفع بالانسانية الى الانطلاق من الاسار :

فالقرآن يهدد « **ذرنى ومن خلقت وحيدا** »

والقرآن ينذر « **سأرهقه صعودا** » ٠

والقرآن يدعو بقطع اليدين « **تبت يدا أبى لهب وتب** ٠٠

والقرآن يزجر « **كلا انه كان لآياتنا عنيدا** »

والقرآن يلعن الخراصين الذين يقدرون الاشياء بحدسهم وظنهم من غير تعقل وتدبر ودون ان يستندوا فى ذلك الى وعى وعلم وادراك « **قتل الخراصون الذين هم فى غمرة ساهون**»٠

ويكشف عما يلقاه أهل الكفر والضلال من العذاب الاليم فى الآخرة ، ويعبر عنهم بالمجرمين ، لانهم اهل جنايات جنوها على أنفسهم وعلى غيرهم : « **ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون** » ٠

ويهدد بالويل والبلاء لمن يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يضيق بها ويتنكر لها ويستعلى عليها ٠ « **ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم** » ٠

ويستفهم للسخرية وينبه للقوة : « **واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم**

من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون، أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » .

ويستهجن العقيدة الحائرة ، المأفونة فى جعل الملائكة اناثا « **وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن اناثا ، أأشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون »** .

ويعرض بأخلاق المرأة الجاهلية عن طريق التنويه بفضائل المرأة المسلمة ومحاسنها « **محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان »** .

ويوعد المتلاعبين بالكيل والوزن فيغشون وينحرفون عن القسطاس ويبخسون الناس أشياءهم « **ويل للمطففين ، الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين »** .

ويحكم على الذين يحاربون الله ورسوله ، ويفسدون فى الارض بالسلب والنهب ، واهلاك الحرث والنسل ، أو اثارة القلق والفزع ـ بالقتل أو الصلب أو بتقطيع الايدى والارجل من خلاف « **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الارض فسادا ان يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الارض، ذلك لهم خزي فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »** .

ويشبه الكافرين بالانعام « **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تاكل الانعام والنار مثوى لهم »** .

ويمثل هذه الاساليب الثورية واجه القرآن الكريم عناد الكفار وتعصبهم ، وتمردهم وعتوهم ، واصرارهم على المضي فى الظلام الدامس ، وعلى الطريق الملتوى ..

وبهذه الثورة العرمة غير الوضع العربى المتعفن الى وضع آخر لم يكن يحلم به الفلاسفة المصلحون ... وانتشل الانسانية من وهدة الانحطاط الفكرى والعقيدى والاجتماعى ، ونقل الاجلاف العربية من حمأة الصغار والضياع الى أعلى الذرى .. الى « **خير أمة أخرجت للناس »**

وتهدأ ثورة القرآن عندما يخاطب المسلمين الذين شبوا على الجاهلية ، فيجمع لهم بين الشدة واللين ، والتأديب والتهذيب ، حتى يألفوا حياة الاسلام الجديدة ، ويتطبع بطابعها ، فتراه يلفت أنظارهم الى نعمة الاسلام ، نعمة تأليف القلوب ، ورأب الصدوع ، تلك النعمة التى حولت شتات العرب فى جاهليتهم وحدة وعداوتهم فى الجاهلية مودة ، ويدعوهم الى الاعتصام بحبل الله من خطر الفرقة ، ومن التيه فى متاهات الشهوات والعداوات والحزازات :

« **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ**

كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها » ·

وينصحهم بالتخلى عن بقايا الجاهلية ومساوئها « **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن** » « **يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** » ·

ويهديهم وفق ما تتطلبه الحياة الجديدة من ضرورة التعاون ودوام الصفاء ونبذ الفوارق الطبقية وجعل معيار الفضيلة الطاعة والتقوى « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » ·

ونلمس هذه الثورة القرآنية نفسها فيمن نزل عليه الوحي محمد صلى الله عليه وسلم عندما توسط عمه أبو طالب بينه وبين المشركين ، فاندفع فى صدق وحراة ايمان، وفى لهجة قوية صارمة وقال قولته المشهورة : (والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الامر أو أهلك دونه) ·

ولما حطم بيده آخر صنم للمشركين فى الكعبة يوم فتح مكة هدأت ثورته ولان أسلوبه ، وقال فى جمع من أعدائه الالداء الذين آذوه وأخرجوه من بلده العزيز وهموا بقتله مرارا وقاتلوه : (يا معشر قريش ما ترون انى فاعل بكم ؟ فقالوا : خيرا · أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء) ·

من هذه المدرسة القرآنية الكبرى التى كان يعلم فيها نبي الانسانية ، تخرجت أفواج من الرجال الاقوياء الصادقين الذين فتحوا الدنيا وعمروها ، وكان فيها سادة العالم ، تدين لهم رقاب الجبابرة، وتنحنى لعظمتهم هامات المتغطرسين ، وبذلك الاسلوب الحكيم فى الدعوة (ثورة وسلم ، وشدة ولين ،) انتصرت دعوة الاسلام ·

وسيظل القرآن ينتصر بثوريته وعمق ارشاده وسماحة تعاليمه ، وسيبقى المنهج القويم لتربية البشرية وتوجيهها خير توجيه الى الحياة الكريمة المثلى ·

ولها الطابع الثورى الذى امتاز به القرآن عن سائر الكتب السماوية ، وتميز به الاسلام عن كافة الاديان ·· (كان الاسلام ولا يزال المعين الاول للبطولة ، والمنبع الاول للشجاعة ، **فهو مصنع** البطولة والابطال ، ومعرض الشجاعة والشجعان) ·

أثر القرآن :

حدث القرآن الكريم عن فعله وتأثيره فقال : « **كتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم** » ·

فالقرآن اذن كتاب هداية ـ وقد تقدمت الاشارة الى هذا ـ يهدى به الله مـــن يؤمن به ، ويبحث عنه ، ويعمل بآياته وتعاليمـــه ..

والى أين يهديه ؟ يهديه الى سبـــل السـلام :

ســبـل الســلام الروحى : وذلك بالاطمئنان الى العقيدة الواضحة التى لا غموض فيها ولا تعقيد . وقد طلـب القرآن الكريم الايمان بالله والالتجاء اليه فى كل شىء ، وافراده بالعبـادة ، والاستعانة والدعاء .. والانسان فى حاجة الى هذه العقيدة فى كل وقــت وخاصة فى عصرنا هذا ، وهـــو يعيش فى ظلام المادة ويكتوى بلهيبها المسعور، ليحيا آمنا مطمئنا .

سبل السلام الدينى : وذلك باخلاص العبادة لله تعالى ، فالانسان ضعيـف عاجز ، بل ما هو فى هذا الكون الهائل الا ذرة تائهة ليس لها كيان ولا وجود ، ولكنه باتصاله بالخالق ، واخـــلاص العبادة له يصبح قويا لا يغلب ، خالدا لا يفنى ، عزيزا لا يذل .

وسبل السلام الاجتماعى : وذلـك بالتواد ، والتكافل ، والتلاحم ، حـتى يكون المؤمنون بالقرآن أينما كانوا ومـن أي لون أو جنس كانوا أسرة واحـــدة أو جسدا واحدا ..

تلك هي السبل التى يهدى اليهـــا القرآن الكريم : « **كتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل الســـلام** » وهكـــذا :

فمن آمن بالقرآن واهتدى بهديـــه فانه يخلص لله فى عبادته ، لانه يحس بقربه منه ، ومراقبته له فى جميـــع حركاته وسكناته ، وذلك يبعثه دوما على السير فى الجادة نحو الغاية المثــلى التى من أجلها خلق ...

فمن آمن بالقرآن واهتدى بهديه تنقى قلبه من شوائب الخيانة والغدر والبغضاء والختل والريـاء ، وبـذلك يعيش فى المجتمع عضوا محبوبا ، وعنصـــرا نافعـــا ..

ومن آمن بالقرآن واهتدى بهديه خرج من ظلام الجهالة ، وظلام الشـبهـات ، وظلام العداوات ، وظلام الشهـوات ، الى نور العلم والمعرفة ، الى نور الادراك واليقين ، فى دنيا التفكير الصحيح .. الى آفاق الحقيقة فى عالم العقل والقلب والضمير .. : « **ويخرجهم من الظلمات الى النور** » .

وأي انسان يتفاعل مع القرآن الكريم : مع نظمه وتوجيهاته ، مع أحكامه وحكمه، الا ويهتدى ويستقيم على الجادة، ويكون منه عضو صالـــح ينفع نفســه ، وينفع غيره ، ويتكون منه ومن أمثاله مجتمع قوي فاضل . فالقضية قضية ايمـــان وتفاعل ، واستقبال .

فاذا قوي ايمان المرء بالقرآن، وأحسن القلب استقبال آيات الله بتفرغه اليهـا وتفاعله معها ، ـ ارتبط بالملا الاعلى ،

وعاش زمنا فى الصفاء المؤنس، وأحس من الاعماق انه مع الله ، يمده بطاقات من العون ، وشحنات مـــن الارادة ، والعزم ، ويؤنسه ، ويضيء نفســـه وقلبه ، ويثير فى أعماقه عالما مـــن المشاعر والاحاسيس ، لا سبيـل الى وصفها ·· فينزل بعد ذلك الى الميـدان مزودا بسلاح لا يفل ، وقوة لا تغلب ، ونور لا يخبو ·· وهكـــذا يعيش محمى العقل والضمير ، والنفس ، فلا يحيـد عن الحق ، ولا يميل عن الصـــدق ، ولا ينحرف عن الجادة ·

وآية واحدة من كتاب الله الخالد اذا انفعل معها القلب ، والتقت مع أسراره المشاعر والاحاسيس ·· وعملت موجاتها الاثيرية عملها فى النفس ، تفتح القلب لحياة جديدة ، وتغير السلوك ، وتحول الانسان من شخص الى آخر ·

وهذا اثر القرآن وتلك هدايته ··

واذا أردنا أن نتبين أثر القرآن الكريم فى صورة أوسع وأوضح ، وفى صورة ناطقة من واقع الحياة فلنعد الى التاريخ نسأله عن حياة جاهلية كانت فيهـــا البشرية ممزقة الاوصال ، ضاربة فى مهامة الضلالة ، تعانى الجهود الشاقة فى صراعها مع الحياة ، بعيدة عن نور القرآن الهادى ··· وعن حياة انسانية أشرق فيها وحي الله بما يحمل مـــن التوحيد ، والعبادة الصحيحة ، والحب، والشفقة ، والعدل ، والرحمة ، والحياة الكريمة لبني الانسان ···

نسأل التاريخ عن ذلك فينبئنا بمـا يثيـر دهشتنـا ، ويحبس اللفـــظ فى أفواهنا ، ويضاعف ايماننا بأن هـذا القرآن يهدى للتى هي أقوم · واليـك البيان :

لو قدر لاحد أن يرى شبه الجزيـرة العربية منذ أربعة عشر قرنا فمـــاذا يرى ؟ وماذا كان يتوقع لذلك الجزء من العالـــم ؟

انه يرى القبائل المنتشرة هنا وهناك فوق رمال الصحراء القاحلة ، قد طغت عليها الجاهلية فسلختها من انسانيتها، وتملكها حب المادة فباعد بينها وبيـــن سماء الرحمة ، وكانت من العقائد فى غواية ، ومن الاخلاق فى همجية ، ومن الدين فى وثنية ، ومـــن العـــادات فى وحشية ، ومن الاجتماع فى انقسامات قبليـــة ، وتحزبـات عصبيـــة ، لا دين يجمعها ، ولا قانون يردعها ، ولا قيـم تؤلف بينها ·

وكانت جميع معالم الحياة الفكريـــة والسياسية والاخلاقية والاجتماعية تنذر بسوء المصير ، وتدل مـن يراهـا لاول وهلة ان بقاء الانسانية على تلك الحالة الشاذة لابد أن يفضى بها الى التلاشى العاجل ، وتريه بوضوح ان تلك العقول الجامدة ، والقلوب المتحجرة ، والعواطف الجافة ، والفطر الفاسدة ، لابد لها من صيحة توقظها ، وهزة تنفض عنها غبار الماضى : غبار الوثنيـــة والهمجيـــة والعبودية ، وروح سماوية تردها عن

غيها ، وتكبح جماحها ، وتردهـــا الى الطريق السوي • (58)

بالاضافة الى ان العالم فى ذلك الحين كان كله يتخبط فى ظلام دامس ، وغيوم معتمة من الاضطرابات والفتن والقلاقل•

(كتب (ج • هـ • دينسون) فى كتابه (العواطف كأساس للحضارة) يصـف الفترة التى سبقت بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(ففى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدن على شفا جرف مــن الفوضى ، لان العقائد التى كانت تعين على اقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ،، وكان يبدو ان المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وان البشرية توشك أن ترجع ثانية الى ما كانت عليه مـن الهمجيـة ، اذ القبائـل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام ، أمـا النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار ، بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالـم كلـه ـ واقفة تترنح وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب ••• وبين مظاهر هـذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحـد العالم جميعه • (59)

وهكذا كانت البشرية قبل مجـىء القرآن تتيه فى ظلام دامس مـوحش ، وتتخبط فى حمأة مسنونة ، وتوشك أن تنهار وتضيع •

فكان نزول القرآن الى الدنيا ، كما قال أحد المفكرين المعاصرين ، كالضوء ينبثق فى أعقاب الليل شيئا فشيئـا ، فيبدد ظلمة الكون تدريجيا ، ثـم تكون اشراقة الصبح ، مؤذنة بانجلاء الظلام وانحسار الليل ، عن طلائع النهـار ، وتبتدىء الشمس فى بهجتها فتنير جوانب الدنيا وتكشف للابصار عن مسالـك الحياة فى آفاقها الواسعة •

غير ان ضوء القرآن لم يكن يتضاءل بعد بزوغه ، أو ينكمش بعد اشراقـه ، كما يتضاءل وهج الشمس وهي تجـرى الى مستقرها فى السماء •••

وظلت آيات القرآن تتوالى عن طريق الوحي ، وهي تبدد الظلام ، وتقشـع السحاب ، وتحـرر العـقول ، وتحيى القلوب ، وتوقظ الضمائـر ، وتصنـع الانسان الذى يليق بالحياة وتليق بـه الحياة •

وتمسك المسلمون بالقرآن فحفظـوه وتأملوه وتدبروه وغاصوا على ما فيه من حقائق وذخائر وأسرار ••• وطبقوه على أنفسهم وعلى ذويهم بدقة ، لانهـم أدركوا انه دستور دينهم ، وأسـاس عقائدهم ، وشرائعهم ، وانه أنزل لصلاح الدنيا وصلاح الآخرة • فأعزهم بعد ذل، وحررهم بعد عبودية وبدلهم بالضعـف قوة ، وبالانحطاط رفعة ، وبعبادة الاوثان عبادة الله ، وانتظمـهـم فى وحـدة

الانسانية اخوانا متحابين متراحمين ، ينصر بعضهم بعضا ، ويعين بعضهم بعضا ، فى ايثار وانكار ذات ·

واستماتوا فى سبيل اعلاء كلمة الله ، ورفع شأن الوطن ، وباعوا أنفسهم فى سبيل المبادىء والقيم ، وصغرت الدنيا فى أعينهم فلم يفكروا فى ذواتهم ، وانما فكروا فى مبادئهم وأهدافهم وأوطانهم ، فضحوا فى سبيلها ، وهزموا بايمانهم مع قلتهم الفرس والروم مع كثرة عددهم وعدتهم ، وحققوا النصر المبين ، وبسطوا ظل العدل والمحبة والاخاء فى كل بلد فتحوه ، وكل قطر حلوا به ، حتى قال الفيلسوف الهولندى الكبير (ديوتش) :

(كان القرآن الكتاب الذى استعان به العرب على فتح عالم كبير ، من العالم الذى قهره الاسكندر الاكبر ، بل أكبر من عالم الرومان ·· لقد جاء العرب مع قرآنهم الى أوروبا كملوك ، وهنا رفعوا مشعل النور ، لينيروا الطريق أمام البشرية التى كانت منغمسة فى غياهب الظلمة ، وليعلموا الناس الحكمة والعلم والمعرفة والفلسفة والطب وعلم الفلك والفنون · (60)

وكان المسلمون اذا فتحوا بلدا كان هدفهم اعلاء كلمة الله ، وتطبيق نظم القرآن ، والقضاء على الفساد ··

وكيف لا والقرآن قد حدد لهم هذا الهدف فى قوله : « **الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتووا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبه الامور** » ·

وكانت أخلاق القرآن التى طبقها المسلمون على أنفسهم تغزو القلوب والنفوس قبل أن تغزو البلدان والجيوش :

(لما بلغ الجيش الاسلامى وادى الاردن ، وعسكر أبو عبيدة فى فحل ، كتب الاهالى المسيحيون فى هذه البلاد الى العرب يقولون :

(يا معشر المسلمين ، أنتم أحب الينا من الروم ، وان كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، واكف عن ظلمنا ، واحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا · (61)

وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين ان ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الروم (62)

وكل هذا من أثر القرآن وفعله وصنعه وهدايته ···

أجل ـ قارئى الكريم ـ ان هذا الانقلاب الجذرى الذى حدث فى حياة العرب ، وهذا التحول الغريب الذى غير مجرى التاريخ ، وتلك الحضارة الزاهرة التى لم يشهد التاريخ نظيرا لها فى مختلف العصور ، وذلك المجتمع القوي الفاضل الذى أصبح طاقة زهر لا شوك فيها ، واسرة واحدة لا فضل لاحد على آخر الا بالتقوى ـ ان ذلك كله من أثر القرآن وفعله وصنعه

وهدايته . هذا الكتاب الذى « **يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه، ويهديهم الى صراط مستقيم** » .

تلك صورة مجملة عن أثر القرآن الكريم فى العرب وفى سائر المؤمنين به، ويعنينا بعد هذا الاجمال أن نصنف هذا التأثير ونتوعه، ونكتفى منه بالاهم فى ايجاز خاطف :

أثر القرآن فى الحياة العقلية :

لقد غير القرآن الكريم من طابع الحياة الجاهلية ، فبعد ان كانت عقلية الأنفة الباغية ، والعزة الحمقاء ، الطاغية ، والحمية الجاهلية ، جعلها القرآن عقلية الاسلام تقوم على المحبة والسلام ، وطاعة الله تعالى ، وامتثال أوامره ونواهيه .

أثره فى الحياة العقائدية :

غير القرآن مفاهيم الالوهية لدى العرب ، فبعد ان كانت عقيدتهم الدينية تقوم على تعدد الالهة وعبادة الاوثان ، والتقرب بها الى الله ، جعلهم يخلصون ايمانهم وعبادتهم لله وحده ، هو رب كل شىء .

أثره فى الحياة الاخلاقية :

استبدل العرب بالاخلاق الجاهلية المقيتة أخلاقا اسلامية فاضلة ، تقوم على التضامن والتعاون والتضحية والعمل الصالح المثمر .

أثره فى الحياة الاجتماعية :

أبطل القرآن الكريم القوانين والنظم الجائرة القاشية بين العرب التى تقوم عليها القومية العربية ، ورسم لهم نظما وقوانين يسعد بها الفرد ، وتنتظم بها الاسرة والمجتمع ، ووضع نظاما لوسائل العيش ، وكسب القوت فى عزة وكرامة، كما سوى بين الجميع فى الحقوق والواجبات الدنيوية ، والشعائر والتكاليف الدينية ، وفى أنواع العقوبات والجزاء الخ ...

أثره فى نفسية العرب :

فبعد ان احتبست نفوس العرب فى الجزيرة الضيقة ، فلا يستوحون من الرسوم والاطلال والاودية والجبال والصخور والرمال والناقة والبعير والبيد والسراب — لا يستوحون الا ما يلبى نوازعهم فى وصف المرأة أو الناقة أو غيرها من المعانى الفطرية البدوية ، ولا يدرون ما وراء الكون من وجود، ولا ما فى الوجود من سر وحكمة — جاء القرآن يدعو الى النظر والتفكير فى الكائنات وفى النفس البشرية، فصفت قلوبهم ، وذكت عقولهم ، وسمت مداركهم ، وكبرت نفوسهم ، واتسعت أمامهم آفاق الجلال ، وعوالم الجمال، وباحات الكمال .

أثره فى اللغة العربية :

أدى القرآن الكريم رسالة لغوية أدبية لم يؤدها أي كتاب سماوى أو

أرضي ، فلولا القرآن الكريم لاندثـرت اللغة العربية كما اندثر غيرهـــا مــن اللغـــات ٠

ويمكن اجمال أهم مظاهر هذا التأثير فى أمور أربعة :

بقاء اللغة العربية هذا الامد الطويل توحد لهجاتها ، وزوال ما كــان فيهـــا من تناكـــر ٠

جعلها لغة رسمية فى جميع الممالك التى دخلها الاسلام ٠

جعلها لغة تعليمية بعد ان كانت ملكة راسخة ٠ وتفصيل هذه الامور يتطلـب كتابا مستقلا (62) ، وحسبنا أن نسوق هنا جواب العالم الشهير الدكتـــور (ستينجاس) الذى أجاب به عن هـــذا التساؤل :

(ماذا كان يكون مصير هذه اللغــة العربية لو لم يكن القرآن ؟) فقال :

(نحن لا ننكر ان اللغة العربية انتجت قبل الاسلام ألوانا عديدة من الشعــر هي غاية فى الحسن والرقة ، الا انها كانت كلها محفوظة فى أذهان النــاس غير مكتوبة ، زد على ذلك ان الشعــر ليس هو الادب كله ، وكان العرب فيما بينهم منقسمين الى قبائل متفرقـــة ، مختلفين فيما بينهم ، فى ظروف طاحنة دائمة مما أثر على كيانهم وعلى ألسنتهم المختلفة ، ولولا القرآن لذهبوا ، وذهب معهم لسانهم وشعرهم المليء بالغــزل والحرب ، وكان للسائح المجازف مجال للبحث والمخاطرة فى سبيل جمع ما باد من هذه الكنوز ، وزال بسبب شحنائهم وتعاملهم ، فلما جاء القرآن ابقى بطبيعته على هذا التراث ، وأوجد من مختلـف اللهجات العربية لغة موحدة مكتوبـــة هي لغة الادب العربى الى اليوم ، وزاد على ما كان موجودا من الشعر شيئـا كثيرا ، وجعل له أساسا يرتكز عليــه ، بل انه نظم الحياة العامة والخاصـــة للمسلمين فى صور كلها أدب ، وحكمة، ونثر عذب ، لا يزال حتى يومنا نبراسا للادب العربى فى أعلى صوره) ٠ (63)

وهكذا وحد القرآن اللغة العربيــة ، فجعلها لغة الدولة الاسلامية ، وجعلها لغة سرمدية باقـية ما بقى القـــرآن ، والقرآن باق خالد ، بالاضافــة الى ان القرآن هذب العربية وسما بها الى أعلى المستويات ، ووسع نطاقها وحملها الى البلدان التى دخلها ٠

والخلاصة ان القرآن الكريم قـــد أحدث أعظم انقلاب فى تاريخ البشــر ، أحدثه فى نفوس المسلمين ، واحــداثـه بواسطتهم فى المجتمع الانسانى ، وكان هذا الانقلاب غريبا فى كل شيء (غريبا فى سرعته ، غريبا فى عمقه ، غريبا فى سعته وشموله ، غريبا فى وضوحه) ذلك سر القرآن ، وذلك أثره ، وذلـــك عمل منهجه التربوى فى صنع الافراد والامـــم ٠

خلود القرآن وسلامته من التحريف :

أعلن الله تعالى عن خلود القرآن وسلامته من التحريف فى هذه الآية الكريمة : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » ٠

كتاب باق خالد ، كتاب محفوظ لا يندثر ، ولا يتبدل ، ولا يلتبس بالباطل، ولا يمسه التحريف ، ولا تنال منه حيل الزنادقة ، وجهود المبشرين ، ومحاولات خصوم الاسلام ٠

وكم بذل أعداء القرآن من حيل وجهود ، وكم انفقوا من أعمار فى سبيل البحث عن مطاعن فى القرآن أو لاثبات نقص أو زيادة أو لنفي الاعجاز له ، أو لنفي قداسته ، أو للتقليل من قيمته ، أو للحط من اثره ، فكانوا والقرآن كما قال الشاعر العربى :

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فضاعت حيل الزنادقة ، وجهود المبشرين ،وخصوم الاسلام فى اختراع المزاعم وتلفيق الاوهام والاباطيل ، فبقى القرآن ٠

والسبب واضح جلي ، هو ان الله تعالى هو الذى تولى حفظه ، وسيظل يتولاه ، لانه كتاب الانسان ، وكتاب الكون ، وكتاب الدنيا ، وكتاب الآخرة ٠٠

والذى أصبح من البديهيات ان التاريخ لم يعرف طوال عمره أمة فى هذا الوجود عنيت بكتاب سماوى او أرضى كالامة الاسلامية فى عنايتها بالقرآن ٠ ولم يحظ كلام الهى او بشرى بمثل ما أحيط به القرآن من وسائل الحفظ والرعاية والتقديس ، حتى ان الرسول صلى الله عليه وسلم نهى أن يكتب حديثه حتى لا يختلط بالقرآن ، وتم تدوينه كاملا باشراف الرسول وتحت رقابته ـ كما أشرنا الى ذلك فى موضع من هذه الدراسة ـ ٠

والسبب فى بقاء القرآن محفوظا من كل ما من شأنه أن يعرضه للتحريف أو التبديل او التغيير أمران :

1) طريقة نزوله ٠

2) شيوع القرآن بين عامة الناس ، وهذا من الفوارق الاساسية بينه وبين الكتب المقدسة التى سبقته ، فالقرآن عام شامل بين سائر المسلمين ، يتعبدون بتلاوته ، ويتلوه الطفل فى كتّابه ، والصبي فى مدرسته ، والطالب فى معهده ، والاستاذ فى درسه ، بالاضافة الى انه الحكم الذى يحتكم فى الشؤون الدينية والاجتماعية ٠

ولا يعقل ـ والحالة هذه ـ أن يتطرق اليه تبديل أو تحريف ٠

كما نلاحظ ـ بازاء ذلك ـ انتشار القرآن فى مختلف انحاء العالم عن طريق الترجمة ، وهذا ما لم نعرفه عن اي كتاب آخر سماويا كان أو أرضيا ٠

فقد ترجم القرآن الى اكثر من أربعين لغة وهي ظاهرة تعد من معجزاته البارزة ٠

كتاب ينفرد بهذه العناية ، والاهتمام، وينتشر هذا الانتشار المدهش ، ويبقى كيوم نزل من السماء نصا ومعنى بالرغم من المزاعم الباطلة ، والحيل المخترعة ، والمساعى المبذولة ، والسفاهات والبذاءات التى توجه الى القرآن الكريم طعنا ، ونقدا ، وتجريحا ، وتشكيكا ... أليس ذلك من معجزات هذا الكتاب ؟

وكم تقول كفار مكة ، وتشدق يهود يثرب ، وقالوا انه شعر ، أو انه سحر، أو انه أساطير الاولين ، فذهبت الاقوال وذهب أصحابها أدراج الرياح وبقى القرآن ، كالحياة ، كالزمان ، كالشمس ...

وكم من معارك ضارية ، وهجومات عنيفة طائشة شنها الاستعمار الثقافى ، والصليبية الفكرية ، وطوائف من المستشرقين والمبشرين والكاتبين ، ضد القرآن الكريم ، فقالوا فيه ــ حقدا وبغضا ــ انه بشرى ، وانه مادى ، وانه يدعو الى الحيوانية ، ويدعو الى الاستغراق فى الملذات الدنيا ، وانه يدعو الى الاعتداء والاغتيال ، ويحرض على القسوة على غير المسلمين ، ويدعو الى الدنيا ، ولا يدعو الى صفاء النفوس والمحبة الخ : ولكن القرآن بقى قويا صامدا كالطود الاشم ، لم تنل منه هجوماتهم المسمومة الا كما ينال نباح الكلاب من الشمس المشرقة الساطعة .

وظهرت منذ بضع سنوات فى بعض الاوساط الفكرية والثقافية مقالات بأقلام أنصاف المسلمين وانصاف المتعلمين ، تزعم ان القرآن نزل بالمعنى وان النبى والصحابة كانوا مفوضين فى أن يقرأوه كيف شاءوا ، يغيرون لفظا بآخر يؤدى معناه . وزاد الطين بلة ــ كما يقولون ــ ان مهزوزى العقيدة وضعاف الايمان، يتأثرون بهذه الاباطيل . ومن شطحات المراهقة (ان طالبة عربية مسلمة تقدمت ــ منذ سنوات ــ الى جامعة الاسكندرية برسالة لنيل (الماجستير) كان موضوعها اثبات (تلك الشبهات والترهات التى نشرها انصاف المتعلمين) ولم تعدم الطالبة المغرورة أن تجد لها من صغار النفوس ومرضى الاقلام من يدافع عن عملها هذا باسم حرية الرأي والبحث والدرس . (64)

ولكن القرآن بالرغم من هذه الهجومات التى تتوالى عليه من أعداء الاسلام وانصاف المسلمين بقى قويا ثابتا ناصعا مشرقا .

فاذا كانت الشمس منذ أمد سحيق هي الشمس فى مرآى العين ، بشعاعها الوهاج ، وشكلها القرصى ، ومكانتها العليا ، لم تتبدل ولم تتغير ولم تنل منها اية قوة ، فكذلك القرآن ...

وجل من قال : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » .

والعوامل التى جعلت القرآن يحتفظ بنفسه ، ويبقى غالبا غير مغلوب ، ويظل خالدا يمد الانسانية بطاقة لا تنفد مدى الحياة ــ كثيرة ولكن أهمها وأبرزها

ن القرآن الكريم انفرد بخصائص جعلت نزوله يأخذ منهجا طبيعيا ، ونسقـــا منطقيا ، يرتبط بأحوال الحياة ، وشؤون الناس فترة كافية للاحاطة بكل دقيـــق منها وجليل ٠

(فالمدة التى استغرقها نزول القرآن وهي ثلاث وعشرون سنة ـ كما قدمنا ـ يمكـن اعتبـارهـا دورة اجتماعيـــة كاملة (65) ، تم فيها البيان الالـــهى لسياسة الحياة والاحياء ، وليس ما تفد به القرون بعد ذلك من أحوال نفسيـــة واجتماعية الا صورة مكررة لما سبق أن جاء به القرآن) ٠

ولقد قضى القرآن من عمره الطويل الخالد أربعة عشر قرنا وهو يسايـــر الانسان فى حياته وفى تطـــوره ، فى بداوته وحضارته ، فى طفولته وشبابه وكهولته وشيخوخته ، وما من شـــأن من شؤونه الفردية أو الاجتماعية ، الا ووجد له فى القرآن مبداه وقانونه ٠

ومهما تقدم الانسان وتطور ، ومهما اتسعت آفاق علمه ومعرفته ، ومهمـــا اكتشف من قوانين لتنظيم الاسرة ، كلبنة فى المجتمع وتنظيم المجتمع ، كوحـــدة بشرية ، وتنظيم العالم كوحدة انسانية ٠ ففكرة القرآن عن الكون والحياة والانسان أكبر منها وأرحب وأعظم قابلية للنمـو والتجدد ، وأكثرها توازنا ومراعـــاة للفطرة البشرية ٠ (66)

ومن أجل ذلك بقى القرآن أربعـــة عشر قرنا كما نزل (نصا ومعنى) ٠

وعلة بقائه هذه المدة هي نفسها علـة خلوده الدائم ٠

والسر اذن فى (حفظ الله تعـــالى للقرآن) يكمن فى الحقائق الثابتـة ، التى احتواها ، (67) فاذا كانت هنـاك معارف قد يطرأ عليها تغيير أو تبديـل أو خطا فان معارف القرآن ـ سـواء فى ذلك الكونيات ، أو الاسس والعبر ، أو النظم والتوجيهات المختلفة ـ ثابتة ثبوت الحقائق التى لا يغض من شانها قدم ، وهي قديمة وجديدة فى آن واحد ، تتناسب مع تقدم الحضارة الانسانيـة فى شتى مجالات الحياة ٠

وجل من قال : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » ٠

الى القرآن الكريم :

لقد كان القرآن الكريم هدى للمسلمين، منه استمدوا قوتهم ونشاطهم وحيويتهم وعزتهم وسلطانهم ، يوم جعلوه قبلتهم، وامامهم ، وقائدهم ، وعدتهم وزادهم ٠٠

وكانت عناية المسلمين بالقرآن فـوق كل عناية يتنافس فى استظهاره ، وحفظه المسلمون ، ويتسابقون الى مدارسته ، وتفهمه ، ويتفاضلون فيما بينهم عـلى مقدار ما يحفظون منه ، وكانوا يتجافون عن المضاجع ايثارا للذة القرآن الكريم، يتلونه فى الليل والناس نيام ، وكان من يمر ببيوت الصحابة فى جوف الليـــل يسمع فيها دويا كدوي النحل ، بالقرآن، وكان الرسول صلى الله عليه وسلـــم

يرغب فى تعليمه ونشره ، وفى تدبره وتفهمه ، ويرسل بعثات القراء الى كل بلد يعلمون أهلها القرآن ، (وربما كانت قرة عين السيدة أن يكون مهرها فى زواجها سورة من القرآن يعلمها اياها زوجها) ٠

وعلى هذا الدرب سار المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ، حتى ان حفظ القرآن واستظهاره شرط ضرورى لدراسة اللغة والعلوم ، فلاحق لاحد فى طلب العلم حتى يكون قد وضع القرآن أساسا له وأرضية ٠

وانتشرت المعاهد والزوايا فى مختلف البلدان الاسلامية لتحفيظ القرآن ومدارسته ، وما من عالم أو مصلح أو مفكر ، أو كاتب أو فيلسوف ، الا وقد حفظ القرآن الكريم فى هذه المعاهد والزوايا ٠

فاقرأ تاريخ من شئت من علماء الجزائر ــ مثلا ــ فانك تجده قد حفظ القرآن فى زاوية أو معهد أو على والده فى بيته ، ثم اتجه الى مناهل العلم يغترف ويكرع ، فابن باديس ، والابراهيمى ، والعقبى ، والميلى ، والتبسى ، والشرفاوى ، والحافظى ، والورتلانى ، وغيرهم من العلماء ورجال الدين ، وابطال المقاومة الجزائرية ، كلهم خريجو هذه المدرسة (المدرسة القرآنية) ٠

فخلف من بعدهم خلف قل اهتمامهم بالقرآن ، وصار أكثرهم عناية واهتماما من يحفظ طائفة من السور القصار ، واصبح أبناؤنا ، لبعدهم عن القرآن ، لا يفرقون بين كلام الله وكلام الرسول، بل منهم من لا يفرق بين القرآن ، والامثال، والحكم العربية ٠

وقد قال لى يوما طالب جامعى يعمل مراقبا باحدى الثانويات، انه لم يعرف ان قوله تعالى : « **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، انه لا يحب المسرفين** » من القرآن حتى دله على ذلك أستاذ ، وذكرنى هذا بما قاله الاستاذ عبد السميع البطل أحد محررى (منبر الاسلام) ، انه صلى اماما باحد المساجد بالقاهرة ، وشرح فى الخطبة قوله تعالى فى تربية البيوت « **يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر** ــ الخ » ثم قرأها فى الصلاة وعند الانتهاء منها تقدم اليه موظف كبير فقال له : لم أعرف ان الآيات التى شرحتها فى الخطبة ، من القرآن الا حين سمعتها منك فى الصلاة ٠٠٠

فاهتمام المسلمين بالقرآن قليل جدا فى أغلب البلدان الاسلامية ، وقد صليت الجمعة منذ أسبوعين فى جامع صاحب الطابع بتونس ، وتعاقب على تلاوة القرآن خمسة قراء ، فأثار عجبى أن يخطئوا جميعا فى القراءة مرة أو مرات ، فأين الاهتمام بالقرآن والحرص على حفظه ، وخاصة فى المغرب العربى؟

وقد سرنا قرار اللجنة المركزية فى اجتماعها الاخير بالجزائر بانشاء المعاهد لتحفيظ القرآن ودراسته ، وبجعل المادة الدينية من المواد الضرورية الاساسية ٠

وجدير بالملاحظة ان القرآن كتاب العامة والخاصة ، ومن ثم يجب أن يهيأ لهم جميعا ، فالائمة فى المساجد ـ مثلا ـ يجب أن يقرأوا فى الصلاة من مختلف أجزاء القرآن ، لتتعود أذن المسلم على القرآن كله ٠ ولكن الغريب فى الامر ان جلهم ـ ان لم نقل كلهم ـ لا يقرأون الا السور القصيرة المشهورة ، حتى صار القرآن غريبا عن المسلمين ، واستماع المسلمين الى القرآن كثيراً فى المساجد والمدارس والاذاعات ، مما يقربهم منه، ويجعلهم يألفونه ولا يستغربونه ٠

هذا من حيث العناية بالقرآن حفظا ودراسة ٠٠٠

أما من حيث العناية به تفهما وعملا واهتداء ، فللمسلمين فيه شأن آخر ٠٠

فقد كان القرآن اماما يتبع ، وفيصلا يحكم ، ونورا يهدى ، ومعلما يوجه ويرشد ، وطبيبا يداوى النفوس والارواح، حتى ساد الجهل ، وأخذ من المسلمين مأخذه ، فاستعملوا آيات القرآن للتطبيب، والفتك بالاعداء ، وكشف عالم الغيب، وقضاء الحاجات ، وحل الطلسمات ، وتسخير الجن ، وتوسيع الرزق ، والتعاويذ والتمائم ، ولم يقفوا عند هذا الحد المخجل المخزى ، بل سولت لهم انفسهم أن يتجرأوا على جلالة القرآن ومكانته ، فأولوه طبقا لاهوائهم واغراضهم السافلة ، وأخرجوا آياته عن معناها ، فأولوه وحرفوه ليلبوا به نزعات (المشرعين) المفسدين ٠ والقرآن حجة على غيره وليس غيره حجة عليه، والقرآن لا يرضخ لرغبة غيره ، وانما غيره يرضخ لرغبته ، فهو مسير وغيره مسير ، وهو قائد وغيره مقود ٠٠

و (ما اضاع المسلمين ومزق جامعتهم ونزل بهم الى هذا الدرك من الهوان الا بعدهم عن هداية القرآن ، وجعلهم اياه عضين ، وعدم تحكيمهم له فى أهواء النفوس ، ليكفكف منها ، وفى مزالق الآراء ليأخذ بيدهم الى صوابها ، وفى نواجم الفتن ليجلى غماءها ، وفى معترك الشهوات ليكسر شرتها ، وفى مفارق سبل الحياة ليهدى الى أقومها، وفى أسواق المصالح والمفاسد ليميز هذه من تلك ، وفى مجامع العقائد ليميز حقها من باطلها ، وفى شعب الاحكام ليقطع فيها بفصل الخطاب ٠ وان ذلك كله لموجود فى القرآن بالنص أو بالظاهر أو بالاشارة والاقتضاء مع مزيد تعجز عنه عقول البشر ، مهما ارتقت ، وهو تعقيب كل حكم بحكمة ، وكل أمر بما يثبته فى النفس ، وكل نهي بما ينفر عنه ، لان القرآن كلام خالق النفوس ، وعالم ما تكن وما تبدى ، ومركب الطبائع ، وعالم ما يصلح وما يفسد وبارىء الانسان وسطا بين عالمين : احدهما خير محض ، والآخر

شر محض ، فجعله ذا قابلية لهما من غير أن يكون أحدهما ذاتيا فيه ، ليبتليه أيشكر أم يكفر ، وليمتحنه أي الطريقين يختار ، كل ذلك ليجعل سعادته بيده، وعاقبته باختياره ، وتزكيته أو تدليسه من كسبه ، وحتى يهلك عن بينة أو يحيا عن بينة · (68)

وامام المذاهب الفكرية المتعارضة ، والفلسفات السياسية المتناقضة ، والتيارات المختلفة المنافية للاسلام وما استحدثه المسلمون من البدع والخرافات والاوهام ، وما ألحقوه بدينهم من مظاهر وأشكال ، و (عبادات) وعادات، صار القرآن غريبا ، وأصبحت بينه وبين المسلمين هاوية سحيقة واسعة ، حتى انك لتجد القرآن فى واد والمسلمين فى واد آخر ·

ولن يكون المسلمون بخير ، ولن تكون لهم مكانة تحت الشمس ، الا اذا عادوا الى القرآن ، وتواردوا على الاستمساك به ، وتدبروه ، وتفهموه ، وعملوا بسننه ونظمه وقوانينه فى مختلف الميادين ، فى نظم الحكم والاقتصاد والمال ، فى اكتشاف أسرار الكون ، بل فى الحياة الخاصة لكل فرد ، وفى الحياة الاجتماعية لكل مجتمع ، وفى الصلات بين الشعوب فى كل مكان ·

على انه قد يكون هناك من يجهل طبيعة القرآن ، ويجهل رسالته ، ويستهين بدوره فى الحياة، ويتساءل هذا التساؤل:

ماذا يصنع القرآن اليوم ، وقد بلغت الانسانية بالعلم درجة لم تكن تخطر بالبال ، واصبحت تحقق بين فينة وأخرى ما كان يعد بالامس القريب حلما وخيالا؟

والجواب عن هذا السؤال ان الحقائق التى احتواها الدستور السماوى لا تتعارض مع هذا التقدم العلمى الرائع المدهش ، بل ترحب به ، وتشجع عليه، وتدعو اليه ·

ألم يحرر القرآن الكريم الفكر من الوهم والخرافة ؟

ألم يطلق العقل يرتاد الآفاق العليا ؟

ألم يكن حربا على الجهل والخمول والجمود والكسل والبطالة ؟

أليس أول ما نزل من القرآن « **اقرأ باسم ربك** » ؟

ألم يطلب الايمان بالله عن طريق النظر والتأمل ، لا عن طريق التقايد والمحاكاة ؟

ألم يعد البحث القائم على العقل والعلم عبادة ؟ ألم ير العلم فى روح البحث الحر جوهر الحياة ؟

ألم يقر للبشرية أصول الحق، وانار لها مسالك الحياة ، ووضع لكل داء من أدوائها دواء ناجعا ؟

هل يحسب أصحاب النغمات الناشزة المرتفعة هنا وهناك ان القرآن لو نزل فى هذا العصر ، عصر البخار والكهرباء، عصر الذرة والصواريخ ، ينقص مبدأ من مبادئه أو يعدل عن رأي من آرائه ؟

ماذا ينقص ؟ أينقص مبدأ الاخـــوة فى المجتمع ؟ أو ينقص مبدأ التعارف بين الامم ؟ أو ينقص مبدأ العدالة فى الاحكام ، ومبدأ التواطؤ بين القـــول والعمل ، أو مبدأ حرية الفكر ، وحرية العقيدة ، أو مبدأ التوازن بين الجسم والروح ؟ أو مبدأ السلوك القويم الذى خططه للفرد والمجتمع فى المعاملات ؟

هل يحسب هؤلاء المتفيقهون انه ينقص أو يعدل من ذلك شيئا ؟؟

أو يحسبون انه يعدل عن تلك القصص العلمية الواقعية التى قدمها فى مجـال الفضيلة والاخلاق ، وفى مجال التربية الصادقة لانشاء جيل مثالى ؟؟؟

القرآن فى مرآة الفكر الغربى :

ولقد أدرك الاجانب المفكرون الذين انصفوا القرآن فأشادوا به فى تقديـر واعجاب ، وأكدوا ان المسلمين لن ينهضوا الا اذا عادوا الى القرآن ، يهتدون به ، ويسيرون على ضوئه ٠ فهذا (ريتشارد وود) يقول :

(ان كثيرا من المستشرقين يزعمـون ان المسلمين لن يتقدموا ما زالـــوا مقيدين بنصوص القرآن التى لا تتلاءم – فى زعمهم – مع المعارف والفنـون الحديثة ٠ وهذا وهم باطل نشأ عـــن الجهل بمقاصد القرآن ٠ ويكفى برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام، وعناية علماء العرب بالعلوم والفنون ، ودراستهم لكتب الحكماء الاقدمين ٠ (69)

ويقول الدكتور (بنوه) الفرنسى : (ان نصوص بعض آي الكتاب الموحى به الى محمد منذ ما يزيد عن ثلاثة عشر قرنا ، تتناسب وأحداث مبادىء العلوم العصرية ٠ وكـان من جراء هـــذه الملاحظات ان آمنت نهائيا (70) ٠

ويقول (فون بابن) مستشار الرايخ الالمانى قبل هتلر :

(اننا نقف على حافة هاوية ، ذلـك لاننا تعلقنا بأهداب العلم وظنناه كـل شىء ٠٠ حتى استبعدنا العلم وبالغنـا فى الآلة والاختراع حتى صرنا عبيـد الآلة والاختراع ، ولم تبق الا بارقـــة أمل وحيدة فى النجاة ، وهو ان نؤمن ٠ ان هذا الكون له خالق ، وان هذا الخالق قد وضع لنا سننا وقوانين ، فان سرنا على هدى من هذه السنن والقوانيـــن سخر لنا العلم ، وسخر لنا الاختراع ، ونجونا ولم نسقط فى الهاوية ٠ (71)

ويقول الاستاذ (ادوار جيبـون) : (ان القرآن معترف بـه مـن حـــدود الاوقيانوس الاطلنطى الى نهر الكانج : انه الدستور الاساسى ليس لاصـول الدين فحسب ، بل للاحكام الجنائيـة والمدنية والشرائع التى عليها مدار حياة البشر وترتيب شؤونهم ٠ (72)

ويقول (غوستـــاف لوبون) : ان التعاليم الاخلاقية التى جاء بها القرآن هي صفوة الآداب العالمية والمبـادىء الخلقية الكريمة) ٠ (73) ووقف رئيس

الحكومة البريطانية فى عهد الملكــــة فيكتوريا (غلادستون) وأعلـــن فى مجلس العموم البريطانى وهو ممسـك فى يده بالقرآن الكريم : قائلا :

(انه ما دام هذا الكتاب باقيافى الارض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم • (74)

تلك ـ قارئى الكريم ـ هي المعجزة الخالدة ، التى من الله بها على هـــذه الارض ، ففعلت فعلها ، وصنعت صنعها، وأحدثت العجب العجاب •••

وذلك هو القرآن الكريم الذى نقـــل العرب من الجزيرة الضيقة التى يتناحرون فيها ، الى العالم الفسيح الواســـع •

نقلهم الى العالم ليقودوه من ناصيته، على أساس العقيدة الواحدة ، والايمان العميق ، والصلة الروحية القوية •

وذلك هو القرآن الكريم ، فى أعجازه واثره ، وفى هدايتـــه ورسالتـــه ، وفى تحولاته الجذرية العميقة التى غير بهـا مجرى التاريخ فى العالم •••

فليقرأه المسلمون قراءة تدبر وتفهم ، وليعملوا بمبادئه وقوانينه ، وليعلموا ان المسلمين الاولين لم يكونوا صالحيـــن بالجبلة والطبع، وانما أصلحهم القرآن لما اعتصموا به ، واهتدوا بهديه ، وساروا على نهجه ، ولن يصلحنا القرآن الا اذا فهمناه وطبقناه ••• اذن ، الى القرآن الكريم •

الى القرآن الكريم ، نستضيء بـــه ، ونسير على هداه ، ونمضى على سننه ، ونحيا فى ظلاله ، ونتسلح به ، ثم ننـزل الى الميدان ونحن المنتصرون بحول الله •

وهنا ، أقف بفكرى ، وقد أتعبه الغوص فى هذا البحر الواسع الذى لا ساحـل له ، والتحلق فى هذا الفضاء الرحـــب الذى لا حد له ، وأرفع هذا القلم الذى أحفاه احصاء ما لا يحصى ، وحصـر ما لا يحصر ، ووصف ما لا يوصف ••

وانى اذ أقف هنا ، اعترف اننى لـم أف الموضوع حقـه ، فالحديث عـــن (المعجزة الخالدة) فى كل جانب من جوانبها مع الاجادة والاتقان أمر ستظل جهود الانسانية متضافرة عليه الى يوم القيامة ، (وتجد نفسها دائما أمام بحر زاخر واسع لا تنقضى عجائبه ، ولا تنفد خوارقه ، ولا تنتهى كنوزه وذخائره) •

وأودعك ـ قارئى الكريم ـ وأملنـا أن يشاهد القرن الجديد ، الخامس عشر الهجرى ما شاهده القرن الاول مــن التطور العظيم الذى أحدثه القرآن الكريم فى جميع الميادين •••

وطريق المسلمين الى ذلك هو الطريق الذى جربه أجدادهم من قبل (العقيدة الصحيحة ، والايمان القوي ، والعمـل من أجل مستقبل أفضل فى ظل الاسلام، وتحت راية القرآن) •

(المصـــــادر والمـراجـــع)

1) انظر مناهل العرفان ـ محمد عبد العظيم الزرقانى ، ج 1 ص 36 ·

2) تفسير المنار والالوسى ·

3) رسالة التوحيد للامام محمد عبده ص 125 ·

4) انظر مناهل العرفان ج 1 ص 58 ·

5) دائرة المعارف ـ فريد وجدى ·

6) يراجع فى الموضوع مثل (الاسلام فى عصر العلم) لفريد وجدى و (ارتفاع الجسم الانسانى) للعالم الانجليزى الفذ فى علم الكيمياء (وليم كروكس) وكتاب (الحادثة الروحية) للاستاذ (دولن) ·

7) ثورة الاسلام للدكتور أبى شادى ص 235 ·

8) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ·

9) السيوطى فى الاتقان نقلا عن الواحدى ·

10) مناهل العرفان للزرقانى ص 107 ج 1 ·

11) انظر العرفان للزرقانى 6

11) انظر المرجع السابق ، والانتصار لنقل القرآن ـ لابى على الباقلانى ·

12) التوراة والانجيل والقرآن للكاتب الفرنسى (موريس بوكاي) ص 119 ·

13) معجم القرآن لعبد الرؤوف المصرى ص 181 ·

14) الاب مرمرجى ، فى (معلمته) ·

15) المعلمة الاسلامية م 4 ـ 5890 ·

16) مفاتيح الغيب ـ 1 ـ 156 ·

17) الجامع لاحكام القرآن ـ 1 ـ 155 ·

18) انظر (مشكلة القرآن) 1 ـ 23 ·

19) منبر الاسلام ـ العدد الثالث س 21 ـ اغسطس 1963 ·

20) يراجع آخر ساعة ـ العدد 1996 ـ 24 يناير ـ 1973 ويراجع أيضا كتـــاب (من أسرار القرآن) للدكتور مصطفى محمود ·

21) المصاحف خمسة ـ كما قدمنا ـ خلافا لمن قال انها أربعة ·

22) الاخلاق والواجبات ـ عبد القادر المغربى ص 8 ·

23) الهلال ـ ج 18 س 10 ـ يونيو سنة 1902 ٠

24) أطوار الثقافة ج 1 ص 316 لجماعة من المؤلفين ٠

25) ينظر فى أمهات الكتب الاسلامية ومنها مناهل العرفان فى علوم القـــرآن للــزرقـــانى ٠

26) وهو الاسم الذى أطلق على المخطط المتفق عليه ٠

30) أطوار الثقافة 1 ص 320 .

31) معجم القرآن لعبد الرؤوف ج 2 ص 92 ٠

32) المصدر السابـــق ٠

33) المصدر نفسه ج 2 ص 93 ٠

34) يراجع (اعجاز القرآن) للرافعى و (مناهل العرفان) للزرقانى وللموضوع مراجع كثيرة ٠

35 يراجع (طبقات القراء) لابن الجزرى الذى عنى به المستشـــرق الالمـانى ج٠ برجستراس ٠

36) مقدمة تفسير المنار ٠

37) المنار ـ محمد عبده ٠

38) الاتقان ـ 1 ـ 120 ٠

39) كتاب الزينة 1 ـ 116 ٠

40) الاتقان 1ـ 119 ٠

41) انظر نفس المرجع ٠

42) نموذج من الاعمال الخيرية فى ادارة الطباعة المنيريـــة ـ محمـــد منيـــر عبـــده ص 166 ٠

43) الشهاب نقلا عن مجلة الفتح ـ جانفى سنة 1935 ٠

44) انظر (الاسلام دين الفطرة والحرية) ـ عبد العزيز جاويش ص 21 ٠

45) المرجـــع السابـــق ص 26 ٠

46) أطوار الثقافـــة ٠

47) نموذج من الاعمال الخيرية ، لمنير عبده ص 297 ٠

48) مجلة (رسالة الاسلام) العدد الثانى ـ أبريل سنة 1954 ٠

49) فى التاج العروس ، وفى المحكم (اللقف سرعة الاخذ لما يرمى اليك باليـــد أو باللســـان) ٠
50) اعجاز القرآن ـ الرافعى ٠
51) الاسلام يتحدى ـ لوحيد الدين خان 109 نقلا عن المؤرخ (ج٠ ساروار) ٠
52) المصدر نفسه نقلا عن المستشرق (ولاستن) ٠
53) انظر (الشفاء) للقاضى عياض و (نكت الانصار لنقل القرآن) للامـــام الباقـــلانى ٠
54) العلم بين الاسلام والنصرانية ٠
55) انظر مجلة (المسلمون) العدد الثامن ـ يونيو 1953 ٠
56) دراسات قرآنية ـ محمد قطب ص 488 ٠
57) والراجح ان أول القرآن نزولا قوله تعالى (**اقرأ باسم ربك ٠٠٠**) كما قدمنا ٠
58) راجع فى هذا الموضوع (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لابى الحسن النـــدوى ٠
59) (المسلمون) العدد العاشر ـ يولية 1953 ٠
60) منبر الاسلام العدد الخامس يوليو 1968 ٠
61) (الدعوة الى الاسلام) ارنولد ٠
62) انظر بسطة تفصيلية عن هذا الموضوع فى كتاب (أثر القرآن الكريم) فى اللغـــة العربية) ، للباقلانى ٠
63) أطوار الثقافة والفكر ص 285 ج 2 ٠
64) منبر الاسلام العدد الخامس ـ أوت سنة 1966 ٠
65) يراجع فى مظانه من كتب التفسير ٠
66) يراجع كتاب (الدعوة الاسلامية) دعوة عالمية) لمحمد الراوى ٠
67) تنطق بهذه الحقائق المختلفة المتنوعة آيات القرآن ٠
68) المسلمون ـ العدد العاشر يوليو سنة 1953 ـ كاتب المقال البشير اسبراهيمى
69/70) على مائدة القرآن ـ للدكتور أحمد محمد جمال ٠
71) الدعوة الاسلامية للاستاذ محمد الراوى ص 526 نقلا عن محاضرة للدكتور مصطفى الحفنـــاوى ٠
72) على مائدة القرآن ٠
73/74) منبر الاسلام ـ العدد الثالث ـ مايو 1968 ٠



بدايَة مظلمة ونهايَة مشرقة

الشيخ أحمد حماني
رئيس المجلس الاسلامي الأعلى - الجزائر

البداية المظلمة 1300 ـ 1341 هـ :

كانت بداية القرن الرابع عشر الهجرى بداية مظلمة ، ثم كانت آخرته نهاية مشرقة بالآمال العريضة والاماني الجميلة.

اطل علينا هذا القرن الذى مضى بما فيه ـ باهلال المحرم من عام 1300 الموافق 12 نوفمبر 1882 ، ثم اختفى بنهاية يوم الثلاثاء 30 ذى الحجة 1399 هـ الموافق 20 نوفمبر 1979 م • وكانت أحوال المسلمين يوم البداية كلها تنذر بالويل والثبور ، وعظائم الامور ، دينية كانت أو اجتماعية أو سياسية • وحتى الاربعين منه كانت تزداد سوءا على سوء ، فلا يوم الا كان الذى قبله خيرا منه ، ولا تزيد الهاوية فيه الا عمقا واتساعا ، ولا الامال فى النجاة الا بعدا وعسرا • ثم طلعت بشائر فى الافق ، واخذ الظلام ينجاب شيئا شيئا ، وادركتنا نهايته ـ والحمد لله ـ وقد تحررت معظم اوطان الاسلام ، وتطلعت أممه الى المستقبل البسام ، المليء بالاحلام •

وقد كان القرن الثالث عشر الهجرى اسوأ القرون فى حياة المسلمين ، واظلم فترة فى تاريخهم ، خسروا فيها مساحات شاسعة من أراضيهم ، واطيح بدول عزيزة من دولهم ، وكانوا ـ كما قال عنهم مؤلف (أطلس التاريخ الاسلامى) السيد هارى ، و• هازارد : فى هذه الفترة قد « احرز الاوروبيون فيها نجاحا باهرا على العالم الاسلامى ، وكان الفضل فيما بقى لهذا العالم من استقلال سياسى يرجع الى تنافس الدول » ثم عدد خسائر الاسلام فيها من الاوطان ، فحسب فيها سقوط دولة الجزائر بين مخالب فرنسا ابتداء من عام 1246 هـ (1830 م) واقسام بُريطانيا ، والمانيا ، وايطاليا ، والبرتغال سواحل افريقيا الشرقية ، وسكانها مسلمون ، وامتداد نفوذ بريطانيا الى الجزيرة العربية نفسها ، فاحتلت جنوبها وجزائرها ، وبسطت حمايتها على بعض

سواحلها ، وتعرض بلاد فارس والافغان للضغط الشديد من بريطانيا ، وروسيا ، التى استولت على آسيا الوسطى وابتلاعها أوطان ما وراء القوقاز ، واحتلالها بيساربيا (رومانيا) ، ومساعدة دول أوروبا النصرانية على انفصال ما كان تابعا للدولة العثمانية (دولة الخلافة) من رومانيا ، وبلغاريا والعرب والمجر واليونان (1) .

هذه بعض خسائر العالم الاسلامى فيه ولم يشاء هذا القرن ان يودع دون ان يسجل ضحيتين غاليتين يضيفهما الى قائمة الخسائر الطويلة فى أواخر ايامه : تونس ومصر ، فقد أهل القرن الرابع عشر على العالم فوجد تونس قد سقطت بين مخالب فرنسا ابنة الكنيسة البكر فى ربيع عام 1298 هـ (1881 م) وبدأت ايامه والفريسة تتخبط بين يدى الوحش الاستعمارى يشد وثاقها باتفاقيات ومعاهدات ليس لتونس منها الا الامضاء وعليه الوضع والاملاء ، كما وجد مصر قد وثب عليها الاسد البريطانى الذى لا يشبع ، فعصف بامنها وغصب استقلالها ، واستعبد شعبها ووثب منها الى السودان يقطع أوصاله ويستبيح خلاله وحرامه . وبسقوط تونس ومصر فتح فى الجسم الاسلامى جرح جديد عميق وثلم فى حصونه ثغرة واسعة خطيرة ، واصبح الطريق ممهدا أمام الاستعمار الصليبى للقيام بهجمات مسعورة على بلاد الاسلام وضد شعوبه ليعيث فى الارض فسادا ، ويجوس خلال دياره فى بلاد السودان شرقا وغربا وجنوبا يفتك بدوله ، ويبطش بأممه ، ويروع الآمنين من أهله ، ويعلن فى زهو وخيلاء بتمكينه من الاسلام والانتصار عليه ، ثم يخيل اليه انه من القوة والتمكن بحيث يستطيع الاجهاز عليه واذلال بنيه نهائيا وتسخيرهم لدولته .

يعرب عن ذلك بوضوح قول وزير خارجية فرنسا المسيو هانوتو فى جريدة الجرنال الباريسية بعد بضعة عشر عاما من حلول القرن ما نصه :

(صارت فرنسا بكل مكان فى صلة من الاسلام ، **بل صارت فى صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه ، واخضعت لسطوتها شعوبه** ، وقامت تجاهه مقام رؤسائه الاولين وهى **تدبر اليوم شؤونه وتجبى ضرائبه ، وتحشد شبابه** لخدمة الجندية، واتخذت منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ، ومواطن القتال) (2).

---

(1) اطلس التاريخ الاسلامى ، ص 30 .

(2) من مقال لهانوتو نشر فى جريدة الجرنال الباريسية ترجمة العلامة محمد مسعود ونشرته جريدة (المؤيد القاهرية عام 1317) وهو موجود فى تاريخ الاستاذ الامام محمد رشيد رضا ، ج 2 .

وأى فرنسا هذه التى صارت فى صدر الاسلام وكبده ؟ انها فرنسا الصليبية التى ردت العرب عن أوروبا ، والتى تواجه الاسلام وهلاله الذى (لا يزال طرفاه ينتهى احدهما من جهة بمدينة اسطمبول والآخر ببلدة فاس فى **المغرب الاقصى ، معانقا بذلك الغرب كله • فى تلك البقعة الافريقية التى اصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة** الفرنسية لمباغتته : جاء القديس لويس الذى ينتمى الى اسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده بالايالات الافريقية ، وعاود هذا الخاطر نابوليون الاول • فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا فى القرن التاسع عشر حيث **أخذوا على دولة الاسلام** التى كانت لا تنى فى متابعة الغارات على القارة الاوروبية **فاصبحت الجزائر فى ايديهم منذ 70 عاما** ، وكذلك **القطر التونسى منذ 20 عاما** وقد وصلت طلائع قواتنا الآن الى اصقاع من الصحراء تنتهى اليها كثبانها الرملية فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم ••• وقد حلق عليهم الاوروبيون من جميع الجهات 3) • وفى هذا المقال ذكر الوزير ما أصاب ـ أو سيصيب ـ السينغال ، ومالى ، والنيجر ، وتشاد والكونغو وكل أقطار وسط وغربى افريقيا الاسلامية •

فهذا الوزير مزهو بان فرنسا حققت أحلام القديس لويس الصليبية فى حرب الاسلام واطماع من جاء بعده من ملوك فرنسا وساستها ، **شامت بالاسلام الذى صارت حراب فرنسا مغروسة فى صدره وكبده** ، متفائل بدوام تدبير فرنسا لبلاده واستغلال ثرواته ، واذلال شعوبه ، باحث عن أمر الوسائل التى بها (تختلس) فرنسا الاسلام من قلوب وعقول المسلمين ، وصرفهم نهائيا عن مكة • فقد زعم ـ افكا ـ انهم توصلوا فى تونس بحسن السياسة فى أحكام الحيلة والتدبير من استغفال أهلها وصرفهم عن الاسلام (تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئا فشيئا وأجريناه من المراقبة على الامور الادارية والسياسية من التدخل فى شؤون البلاد والقبض على أزمته بدون شعور من أهلها • تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتالم منه الاهلون ، ولم تنخدش منه احساساتهم ••• اذا يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصل الحبل بينه وبين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال

---

(3) انظر تاريخ الاستاذ الامام محمد رشيد رضا ، ج 2 ص 401 وما بعدها •

عضها ببعض ، اذا توجد أرض تتفلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضى الاسيوى ··· أرض يصح ان تتخذ مثالا يقاس عليه ، ونموذجا ينسج على منواله الا وهى لبلاد التونسية (4) ·

والوزير الفرنسى فى هذا الرأى الذى يزهو بان فرنسا توصلت به الى فصل بلد من بلاد الاسلام عن القافلة وصرفته عن مكة الى باريس انما يرد على رأى آخر يذهب أصحابه الى اخذ المسلمين بالعنف والشدة ، فقد قال مواطنه المسيوكيون فيما نقل عنه من كتابه (باثولوجيا الاسلام) :

« ان الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس واخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هى مرض مريع وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الانسان على الخمول والكسل ··· والمسلمون وحوش ضارية وحيوانات مفترسة كالفهد والضبع ··· والواجب ابادة خمسهم ، والحكم على الباقى بالاشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر (5) » · والمسيو هانوتو الوزير الكيس لا يمانع ـ مبدئيا ـ فى هذا الحل ولا يسفه هذه الاحكام على المسلمين ، الا للمخاطر المتوقعة من تنفيذه اذ يقول : (وهو حل بسيط ، وفيه مصلحة للجنس البشرى ··· أليس كذلك ؟ وقد برح عن خاطر الكاتب انه يوجد 130 مليون مسلم ، وان من الجائز ان يهب هؤلاء المجانين للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم (6)) · فمحو الاسلام كدين والقضاء على دوله ، وابادة أهله لم يكن ـ حتى مطلع القرن العشرين الميلادى ـ فكرة شعبية عند الاوروبيين فحسب ، وانما كانت فكرة فى أذهان (المؤلفين) من الكتاب والعلماء والمفكرين ، وخطة عند الوزراء والسياسيين ، وغاية للدول والقادة المسيرين ، وقد كانوا يسمون دولة الخلافة ـ رمز الاسلام ـ (الرجل المريض) ويعملون بكل حقدهم ودسائسهم للتعجيل بوفاته لقسمة تركته ، بل يخططون ـ بمعاهدات سرية أو علنية ـ لتوزيع أجزاء مملكته · ولم تستول فرنسا على تونس ولا بريطانيا على مصر الا بالرضى والقبول من الاخرى عن صنع صاحبتها وقد باركت المانيا

(4) المصدر المذكور ، ص : 413 ـ 414 ·

(5) المصدر المذكور ، ص 409 ·

(6) المصدر المذكور ، ص : 409 ـ 410 ·

فعل فرنسا فى تونس ودفعتها اليه حتى تسكت لها عن الالزاس واللورين ، وكادت فرنسا وبريطانيا تصطدمان فى السودان ، ثم اتفقتا واصطلحتا ٠

ولما أنهى الجيش التركى عهد السلطان عبد الحميد رحمه الله عام 1908 واستلم الحكم ضباط شبان كان ينتظر منهم تجديد شباب الدولة ، والنهوض بالجيش والقضاء على الفساد ـ تألبت ضدهم الدول الاوروبية الحاقدة ، وأغرقتهم فى مشاكل ومصائب لا نهاية لها ، بل بادرت بالفعل الى غزو أرضها ، واقتطاع أطرافها وانتهزت الفرصة فى البقية الباقية من البلدان فى أيدى المسلمين ، ففى عام 1911 سلطت ايطاليا على طرابلس الغرب ، وانزلت جيوشها بسواحلها ، وارتكبت اثناء حربها من الموبقات والفظائع ما تقشعر من هوله الابدان ، وكل ذلك مباح فى عرف أمم النصرانية ضد الاسلام ٠

وكان فى مؤازرتها كل الدول الاوروبية الصليبية كى تنال ايطاليا حصتها تحت الشمس من افريقيا الاسلامية ، وفى السنة الموالية عام 1912 امتدت يد فرنسا بالعدوان الى المغرب الاقصى ، وقبضت على الطرف الغربى من الهلال الاسلامى ، كما لمح الى ذلك من قبل الوزير الفرنسى هانوتو ٠ وفى هذه السنة نفسها (1912) دفعت أوروبا دول البلقان الى اعلان الحرب على دولة بنى عثمان ، مخططين سياسة صليبية رهيبة أعلنوا عنها ولم يخفوها (ما أخذه الصليب من الهلال فلن يرجع الى الهلال ، وما أخذه الهلال من الصليب فلابد أن يرجع الى الصليب) وهكذا قرروا عاقبة الحرب ومآلها وبتروا من جسم الاسلام كل أراضيه فى شبه جزيرة البلقان ما عدا مساحة ضئيلة من تراقيا الشرقية ، وأثناء هذه الحرب القذرة ارتكب البلغار والصرب واليونان من الفظائع ما لا يتصوره انسان له دين وخلق يقول كاتب تركى : « الجيش البلغارى قد علمنا درسا لا ننساه ، وهو انه يجب على كل جندى فى ساحة الحرب ان يقاتل مقاتلة البربرية والوحشية ، ويشرب الدماء كالماء ، ويذبح النساء والاطفال والشيوخ الشيب تذبيحا ، ويسلب وينهب السكان الآمنين ، ويمتهن حرمتهم وشرفهم ويزهق أرواحهم » (7) ٠ وقد حققت بعثة جمعية امريكية الى البلقان (ما روى من الفظائع التى ارتكبها البلغار واليونان والصرب بالمسلمين سنة 1912 فثبت لديها كل ما قيل بل زيادة على ما شاع ،

(7) لوتروب ستودار فى كتابه حاضر العالم الاسلامى ، ج 4 ص 17 ٠

وحررت خلاصة الفحص وقررت ان الترك ارحم جدا وارأف واشرف فى حربهم من الامم البلقانية المسيحية ، ولكن الصحف الاوروبية لم تنشر هذا التحقيق ولا أشارت اليه ، وكان أكثر الاوروبيين ينظرون الى ما حل بمسلمى الروميلى بنظر الشماتة » (8) ·

وهكذا نرى ان عام 1912 كان من أسوا الفترات فى تاريخ الاسلام بما تحقق فيه من خسارة جسيمة فى بلاده ، وهزائم متلاحقة لجيوشه ، وتسلط الاعداء على أممه ، وزيادة عما ضاع فعلا ، فان أمم الاستعمار الصليبى كانت تتعاقد فيما بينها على اقتسام ما بقى من اجزائه وتدبر الخطط لاحتلاله ، ولم يكن هذا خافيا على ساسة المسلمين ووزراء دولهم وانما كان قصارى همهم ان يحاولوا الانفلات والتملص من شباكهم ، يقول الامير شكيب ارسلان رحمه الله ــ وهو يترجم للمرحوم أنور باشا احد قادة الانقلاب فى تركيا ، ورجال الحرب والسياسة فيها فيما بين 1908 ــ 1918 م ما نصه : (كان أنور يرى ان الحلفاء تقاسموا بلاد الدولة فيما بينهم شق الابلمة قبل الحرب العامة ، ففرنسا وانقليترا تقاسموا سرا سوريا وفلسطين منذ سنة 1912 كما اعترف بذلك المسيو بوانكرى فى مجلس الشيوخ الفرنسى » (9) · **وما خفى عن السلطان ما كان يدبره الامير حسين ضد حكم الدولة فى الجزيرة العربية وانذر بذلك وزراءه ·**

وقد سعى هذا الامير ــ بواسطة أمير من أمراء البيت المالك فى مصر ــ لدى حكومة الانقليز فى لندره عام 1912 لتمده بالسلاح والعتاد قصد (تحرير) بلاد العرب من الترك فرفضت ذلك (ولم تكتم السبب فى رفضها هذا المشروع وهو ان انقلترا تريد هى الاستيلاء على بلاد العرب ، فلا يوافقها أن تعطى جزيرة العرب سلاحا) (10) · وكانت انقلترا تمنع دخول السلاح الى الجزيرة العربية منذ زمان ، بل حاولت جمعه من أيدى العرب بواسطة شراء ما عندهم بضعف ثمنه ، كما حاولت جمعه من سكان امارة

---

(8) شكيب أرسلان (حاشية) فى المصدر المذكور وفى الصفحة نفسها ·

(9) حاضر العالم الاسلامى ، شكيب أرسلان ، ج 4 ص 375 ·

(10) حاضر العالم الاسلامى ، شكيب أرسلان ، ج 4 ص 391 ·

عمان بالقوة بواسطة أميرهم فنشبت ثورة عارمة أجبرتها على العدول عن تنفيذ مشروعها بالقوة (11) ·

ثم اضطروا من بعد نشوب الحرب الى محالفة الامير حسين ، ومنوه الامانى ، وضربوا به الدولة من الخلف ، ولكنهم خانوا عهوده ، واقتسموا البلاد العربية ، واستعملوه وابناءه لخدمة سياستهم واغراضهم ·

وكما عرض حسين صداقته على الحلفاء والدخول فى صفوفهم منذ عام 1912 فان دولة فارس فعلت ذلك فى مستهل الحرب لاتقاء شرهم فكان الجواب الرفض ، وعرضت ذلك مصر اثناء الحرب بشرط ان يجلوا الانقليز من بلادهم فرفض الطلب لان فى المحالفة مشاركة توجب حقا وتفرض وفاء ، وتمنع اساءة وما كان هدفهم الا اقتسام بلاد الاسلام واحتلالها ·

وقبل دخول تركيا الحرب العالمية الاولى بجانب الالمان وحلفائهم (عرضت على الحلفاء أن تكون معهم بشرط ان تامن شرورهم في المستقبل ، فابى الحلفاء محالفة تركيا لهم ، وكل ما طلبوه منها كان التزام الحياد التام ، وبمقابلة ذلك تتعهد الروسية بان لا تهاجم تركية مدة ثلاثين سنة (12)) ··· و « بديهى ان رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامى مبنى على أساس واحد ، وهو ان الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الاسلامية اثناء الحرب العامة لما كان لائقا ان يقتسموا فيما بعد الحرب بلاد الاسلام الباقية الاقتسام الاخير كما كانوا ينوونه اثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب ولو رضوا دخول تركية معهم وقبلوا عضدها ··· لما كان يجوز بعد الحرب انفاذ برنامج التقسم الذى كان مقررا بين انقلتيرا وفرنسا منذ عام 1912 م ··· ولو رضوا بدخول العجم (فارس) فى الحلف لما كان يحل لهم ان يجهزوا عليها الاجهاز الاخير ـ بعد الحرب ـ كما كانت النية منهم مبيتة ، ولو قبلوا اقتراح مصر لتعين عليهم الجلاء عن مصر بعد الحرب على وجه المكافأة » (13) · فاقتسام بلاد الاسلام التى كانت ما تزال محتفظة على استقلالها كان من اهداف نشوب الحرب العالمية الأولى وقد رأينا ما اتفق عليه الانقليز والفرنسيون ومثلهم غيرهم (مما لا ينكر أن الاستيلاء

---

(11) حاضر العالم الاسلامى ، شكيب أرسلان ، ج 4 ص 391 و صفحة 445 ·
(12) حاضر العالم الاسلامى ، شكيب أرسلان ، ص 329 ، ج 1 ·
(13) نفس المصدر ، ص : 329 ـ 330 ·

على الاستانة كان أول أهداف الروسية فى دخولها هذه الحرب ، ومع ذهاب الاستانة يذهب الاناضول » (14) ... ولو خرجت الروسية من الحرب العامة غالبة لكانت السلطنة العثمانية أثرا بعد عين (15) (وكذلك ثبت ان بعض الدول الغربية الكبرى كانت عرضت على المانيا تقسيم السلطنة العثمانية وان تكون حصة هذه الاناضول) (16) . فقسمة العالم الاسلامى واستعباد أهله ، واستباحة حماه كان قدرا مشتركا بين الدول الاوروبية الشرقية منها والغربية . وقد ظن الحلفاء انهم بانتصارهم فى هذه الحرب الكونية يستطيعون ان يحققوا كل احلامهم فى القضاء على الاسلام ودوله ، ووسوست لهم شياطين اطماعهم انهم قاب قوسين أو ادنى من الوصول الى أهدافهم الصليبية ، ولم يخف ذلك قادتهم فان الجنرال اللنبى لما دخل القدس عام 1917 قال : (الآن انتهت الحروب الصليبية) ولما دخل الجنرال الفرنسى المغرور غورو دمشق من بعد وقف فوق قبر صلاح الدين الايوبى وقال : (صلاح الدين ها نحن احفاد غود فروى فأين احفادك ؟) . لقد انسلت روسيا من الحرب عام 1917 اثر ثورة أكتوبر الاشتراكية ، ثم خرج منها الالمان وحلفاؤهم ـ ومنهم دولة الخلافة ـ عام 1918 خاسرين ، وخرج الحلفاء الفرنسيون منها ظافرين بعد ان رجحت الولايات المتحدة الامريكية كفتهم بوضعها كل ثقلها المادى الرهيب ، وثقلها السياسى الخلاب فى ميزانهم ، باعلان رئيسها ويلسون مبادئه الاربعة عشر لتكون قاعدة السياسة بين الامم ، ومنها اعلان حق الشعوب المغلوبة فى تقرير مصيرها بيدها ، فاستبشرت الانسانية ، وتفاءلت الشعوب خيرا .

ولكن الحلفاء الغربيين ، دهاقين الاستعمار الطامعين ، والصليبيين الحقودين كانوا من وراء اطماعهم يهرعون ، فقد احتلوا من تركيا تراقيا الشرقية وهى البقية الباقية من تركية أوروبا ، كما احتلوا المضائق التركية ، والاستانة (اسطمبول) عاصمة الخلافة الاسلامية ، وتعففوا عن احتلال برلين ، وفيينا ، وبودابيست ، وصوفيا عواصم المانيا وبقية حلفائها ، ثم اخذوا يقتسمون بلاد الاسلام غنائم ، يوزعونها بينهم ، ويمنحون منها ما شاء ولمن شاءوا من

---

(14) شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامى ، ج 4 ص 376 .
(15) نفس المصدر ونفس الصفحة .
(16) المصدر السابق والصفحة السابقة .

أصدقائهم ، ولم يبقوا منها شبرا واحدا لاهله يتمتعون فيه باستقلال حقيقى يليق بانسان حر ، وقد ولدت الناس أمهاتهم أحرارا • كان من جملة ما صنعوا انه ليس لتركيا أى حق فيما قرب من شواطئها وما بعد من جزر البحر الابيض المتوسط أو بحر ايجى ، ووزعت هذه الجزر منذ 1912 ما بين ايطاليا واليونان وكانت جزيرة قريطش (كريت) قد سلخت من جسم الدولة العثمانية عام 1898 م (1300 هـ) ومنحت لليونان ، كما ان قبرص سطت عليها بريطانيا منذ عام 1878 فاحتلتها ، ثم أخذت تعمرها باليونان ، واعلنت الحاقها بمستعمرات التاج عام 1914 ، كما أجبرت تركية على ان تتخلى عن كل مطلب فيما كان تابعا لها أو مرتبطا معها من الدول والاقطار العربية ، ومنها طرابلس ومصر وبقية البلاد العربية ، حتى يكون احتلالهم لها شرعيا ، وميراثهم اياها سائغا •

ومع ان الملك حسين وأبناءه ومن تبعهم من العرب حاربوا اخوانهم فى الدين منخدعين بوعود الحلفاء التى امضاها ملك الانقليز أو نوابه المفوضون فان الحلفاء خانوا عهدهم ولم يوفوا بشىء من عقودهم ، و (عومل العرب بعد الحرب معاملة الاعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم والذى هو باق اليوم بدون احتلال فعلا ، فالنية وضع اليد عليه عند أول فرصة (17) • ثم ظهرت نياتهم المبينة فى جعل وطن الاتراك مستعمرة يونانية اذ حرضوا دولة اليونان على النزول بشواطىء تركيا فى آسيا ، واحتلال مدنه ، ثم الزحف منها على الاناضول واحتلوا ازمير وزحفوا على الاناضول ، واحتلوا العاصمة العتيقة لدولة آل عثمان (بروسيا) حيث يوجد ضريح مؤسس دولة الخلافة العظمى وابنائه من عظماء السلاطين واخذوا يعيثون فى الارض فسادا ، تحت سمع الحلفاء وبصرهم بل وتحت حماية اساطيلهم ، وباسلحتهم ، واهازيج النصر والغبطة العارمة فى أوروبا كلها وجميع بلاد النصرانية • ثم كانت ارادة الشعب التركى المسلم الذى ابى الاستسلام الذليل الذى قبلته حكومته ، وكانت معركة مسقارية التى دفنت فيها أحلام النصرانية •

لقد كانت فترة 1337 ـ 1341 هـ (1918 ـ 1922) اظلم فترة فى تاريخ الاسلام ، اذ لم يبق له فيها دولة مستقلة الاستقلال

---

(16) شكيب ارسلان ، حاضر العالم الاسلامى ، ج 1 ، ص 335 •

التام بعد ان أصبح بالاستانة (خليفتهم) فى قفص يقول ما له يقال ، وحول دولة فارس والافغان كانت المؤامرات تحاك لمحوه والحاقه بسائر الاوطان فى الذل والهوان ، ولكن بقى الايمان فى الصدور وما بقى الايمان فلا يأس ولا خسران ·

النهاية المشرقة :

انتهى القرن الرابع عشر ، وقد اشرقت شمس الحرية على معظم بلاد الاسلام ، وتطلع المسلمون الى مستقبل تتوحد فيه كلمتهم ويعتز دينهم ، وتتخلص البقية الباقية منهم تحت الاغلال التى تكبلهم ــ من أغلالهم ·

ولقد كان سقوط دولتهم نتيجة انحطاطهم وتأخرهم عن ركب الامم المتحضرة فى كل مناحي الحياة : الدينية والاخلاقية والعلمية والثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والمادية والفلاحية فما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم · وبينما يوجب عليهم دينهم ان يكونوا خير أمة اخرجت للناس ــ أصبحوا فى الحضيض الاوهد ، حجة على دينهم وفتنة للذين كفروا قد هجروا القرآن وانحرفوا عن هديه ، واتخذوه وراء ظهورهم · فلم يكن بد من تسلط عدوهم عليهم ، ثم استيقظوا وارادوا ان يغيروا ما بأنفسهم فانجز الله وعده لهم ·

بداية النهضة :

أول نذير لهم كان من بيت النبوة ومعدن الرسالة ، وهو السيد جمال الدين الافغانى الذى عاش نشاطه العلمى والثقافى والسياسى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ومات عام 1314 · يقول المستشرق الامريكى لوثروب ستودارد فى كتابه حاضر العالم الاسلامى · ج 1 ص 305 ــ 306 ما نصه :

(ان السيد جمال الدين الافغانى أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الاسلامى وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها وامتدت حياتها ··· وادرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها · فهب جمال الدين يضحى نفسه ويفنى حياته فى سبيل ايقاظ العالم الاسلامى وانذاره بسوء العقبى ويدعوه الى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير · فلما اشتهر شأن جمال الدين خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب فنفته بحجة أنه هائج المسلمين) ·

وقد بدأ جمال الدين حياته العملية فى بلاده الافغان حيث تولى رئاسة الوزارة فى أول شبابه اثناء الربيع الاخير من القرن الثالث عشر وحاول

اصلاح الحكم فيها والنهوض بالمسلمين فلم يرق عمله للطامعين فيها فاصطدم بهم ، وكان الانقليز من الجنوب ، وقياصرة روسيا من الشمال ، يطمعون فى الاستيلاء على الافغان ، ويعمل كل منهم لبقائها فى تأخر وانحطاط ليسهل ابتلاعها فقد علموا انه لا يتم لهم مرادهم اذا استيقظ الشعب ، فكادوا لجمال الدين ـ وخصوصا الانقليز ـ واسقطوا حكومته والامير الذى استوزره واضطروه الى الهجرة ، ولم يسمحوا له باستيطان الهند فقصد دولة الخلافة وحاول هنالك الاصلاح فطارده اذنابهم ، فرجع الى مصر واستقر بها فى عهد اسماعيل حينا من الدهر فى غفلة الرقيب فبذر فيها بذور النهضة العربية الاسلامية والثورة الشعبية وهذا ما يقوله الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله :

« جرت سنة الله فى خلقه بان عظائم الامور تتولد من صغارها ، كما ان ضخام الاشجار تبسق من بذورها ، جاء الى هذه الديار فى سنة 1286 هـ رجل غريب بصير فى الدين عارف بأحوال الامم واسع الاطلاع جم المعارف جرىء القلب وهو المعروف بالسيد جمال الدين الافغانى وركن الى الاقامة بمصر فتعرف اليه بادىء الامر ـ يعظ طلبة العلم ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والاعيان ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد فكان ذلك داعيا لطلب الاجتماع به ... وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ويتردد على مجلسه كثير من العلماء وغيرهم وهو فى جميع أوقات اجتماعه لا يسأم من الكلام فيما ينير العقول أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس الى معالى الامور أو يستلفت الفكر الى النظر فى الشؤون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد» (18)

وصادف وجوده بمصر قيام الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا عام 1293 هـ وكانت روسيا قد قضت قرونا فى عداوة الدولة واقتصت من أطرافها مساحات شاسعة ، وكان هدفها احتلال العاصمة (اسطمبول) والاستيلاء على المضائق لتصل الى البحر الابيض المتوسط لتسيطر على مصير أوروبا وآسيا الغربية فاستغل جمال الدين هذه الحرب لبث الوعى والهاب مشاعر المسلمين وتنبيههم الى الخطر العظيم فأخذ فى انشاء جرائد وتكوين كتاب قادرين (على التحرير

(18) تاريخ الاستاذ الامام للشيخ رشيد رضا ، ج 1 ، ص 37 .

وانشاء الفصول الادبية والعلمية فى مواضيع مختلفة ... فتسابقت الكتاب وتبارت الاقلام واخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه فى عالم خيال (19) ، واشتد ساعد الحركة التى كونها بمصر وأسس حزبا سياسيا يعمل لانشاء مجلس شعبى يحاسب الحكومات ، ويضع قوانين الاصلاح والحكم النيابى الدستورى . ولم يرق هذا للحكومات الاستعمارية الطامعة فى احتلال مصر - وخصوصا انقليترا - فضغطت على الخديو توفيق - وكان قبل تولية الحكم من تلامذته فأمر بنفيه أواسط رمضان 1296 هـ (سبتمبر 1879 م) بتهمة افساد البلاد . واذا كان توفيق واسياده قد استطاعوا نفى جمال الدين فانهم لم يقدروا ان ينفوا مبادئه التى غرسها ، وقامت الثورة العرابية اثر خروجه يقودها تلميذه ، فاستنجد توفيق بالانقليز فاحتلوا مصر عام 1882 فلم يطب لهم فيها مقام حتى طردوا منها وتخلصت مصر من مكرهم نهائيا بعد أكثر من خمسين سنة ، وكان الذى قاد المقاومة لمدة طويلة هو سعد زغلول وحزبه وهو تلميذ جمال الدين ومحمد عبده .

واذا كان جمال الدين هو مؤسس النهضة الثورية فى مصر فانه هو المؤجج نيرانها ببلاد فارس ، فقد عرفه الشاه ناصر الدين فى أوروبا والح عليه ان يصحبه الى ايران ليوليه رئاسة الحكومة وقال عنه « هذا رجل العالم السياسى الحربى الجدير بان يكون رئيس وزارة ويقوم بتدبير الشعب » (20) . ونجح فى اقناعه ، ولم يكن جمال الدين راغبا فى ذلك . ولكن لما حل بطهران انصرف الشاه عن وعده ، واتصل جمال الدين بالعلماء ، والمثقفين والشعب واخذ يبشر بالمبادىء الثورية وآرائه فى اصلاح حالة المسلمين ، وبناء الحكم على قاعدة الدستور والشورى وازعجت حركته الشاه ، وهم بالقبض عليه فالتجأ الى حرم آمن عند الشيعة هو مقام عبد العظيم وقضى فيه سبعة أشهر يؤجج الثورة ضد الحكم الفاسد وممثله وهو الشاه حتى اخرج منه - وهو مريض يرتعد من الحمى - مسحوبا مهانا فاقسم أن ينتقم من الشاه وقد فعل ، وكانت رحلته هذه بداية النهضة الثورية فى ايران - يقول السيد صاحب حسن الصادق فى كتاب له صدر حديثا عن ثورة ايران عنوانه :

---

(19) المصدر المذكور ، ص 38 من الجزء الاول .

(20) المصدر المذكور ، ص 55 من الجزء الاول .

(الثورة والقائد) فى صفحتى 7 ـ 8 ما نصه (مع ظهور جمال الدين الاسد أبادى المعروف بالافغانى بدأت موجة التحرر تتصاعد فى المسرح السياسى فى ايران وبلدان الشرق عموما • مصحوبة بالفكر الاسلامى الاصيل واخذ المسلمون الذين استعادوا صحوتهم الاسلامية يخطون خطوات كبيرة فى ساحة النضال والنهضة التحررية ضد الاستبداد والاستعمار ، وكان أول موقف سياسى وشعبى للفكر الاسلامى المناضل الذى عم ايران من ادناها الى أقصاها هو فتوى المرحوم آية الله ميرزا حسن الشيرازى بتحريم التمباك عام 1892 مصحوبا بجهود السيد جمال الدين فى تهيئة الارضية المناسبة ، وفى هذه القضية وجد ناصر الدين شاه ـ الذى كان قد باع امتياز التمباك للغزاة الانقليز بثمن بخس ـ نفسه ـ ولاول مرة ـ مع المستعمرين الانقليز مهزومين ومفضوحين ومن المعلوم ان جمال الدين هو الذى كشف لحجة الله الشيرازى تغلغل نفوذ الانقليز وسيطرتهم الاستعمارية على دولة ايران وطلب منه اصدار هذه الفتوى ، ثم يقول صاحب الكتاب (وطرد جمال الدين مرتين من ايران وبأسوا الاشكال ، وكان ناصر الدين شاه ـ من خلال عمليات القمع والمطاردة الوحشية لدعاة التحرر ـ ان يضاعف الاستبداد ويضيق الخناق على البلاد ، لكنه فى النهاية قتل على يد (ميرزا رضا كرمانى) احد تلاميذ السيد جمال الدين وباشارة منه والذى كان قد لاقى اقسى عمليات التعذيب فى سجون ناصر الدين شاه وكان ذلك عام 1897 م) اهـ •

واثر احتلال مصر انتقل الى أوروبا من الهند ـ التى كان معتقلا بها ـ واستدعى الى باريس تلميذه محمد عبده حيث أنشآ حزب (العروة الوثقى) وجعلا جريدة (العروة الوثقى) لسان حاله ، وأضرما الحرب ضد الاستعمار ، وكان « الغرض البعيد منها اعادة الحكم الاسلامى وهداية الدين الى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال فى العصر الاول بتأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة فى الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الاسلام من أمور الدنيا ويتبع هذا انقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم ، واما الغرض القريب فهو انقاذ مصر والسودان من الاحتلال » (21) • وقد ناصرت جريدة (العروة الوثقى)

(21) حياة الاستاذ الامام ، ج 1 ، ص 283 •

ثورة المهدى بالسودان ، والذى انتصر جيشه على جيش الانقليز مرارا وأمده حزب (العروة الوثقى) ، بالعون المادى والادبى · وشهد كاتب انقليزى بما أصاب قومه هناك فقال : ــ بعد ان بين ما أصاب السودان من رزايا من فقد الرجال وسفك الدماء ــ ما نصه :

« ولم يكن نصيب الانقليز من الرزية اقل من نصيب تلك البلاد فأنفقوا أموالا وافرة وفقدوا رجالا من أعز أبطالهم واشجع رجالهم وهتكوا استار قوتهم الحربية ، ثم عادوا بالخيبة والفشل والصق بهم عار الهزيمة وسوء المفر» (22)

لقد كان جمال الدين يبث فى مبادئه أن (العالم النصرانى على اختلاف اممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد وروح الصليبية لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ··· وهى أبدا ناظرة الى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى الممقوت ··· ان العالم الاسلامى جميعه يجب عليه ان يتحد اتحادا دفاعيا عاما متمسك الاطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذيادة عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول الى هذه الغاية الكبرى يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته (23) هذه هى دعوته التى افنى حياته فى سبيل نشرها ·

ولم يكن وحده فى الميدان ، فقد (بات اعتداء الدول الفرنجية وعدوانها وبغيها منتشرا فى كل قطر من أقطار العالم الاسلامى (24) · وبعد احتلال ايطاليا طرابلس الغرب عام 1911 ، وفرنسا المغرب عام 1912 وتالب دول البلقان على تركيا وافتكاكها منها جميع أراضيها فى البلقان عام 1912 واتفاق الانقليز وروسيا على خنق الثورة الفارسية (اخذ العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتعلا غضبا ··· وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان تنبأ به ــ على غير انقطاع ــ دعاة الجامعة الاسلامية منذ 50 سنة : الحرب الصليبية لدك الممالك

(22) من مقال للسير صمويل باكر عرب ونشر فى جريدة ثمرات الفنون فى 14 ذى القعدة 1302 · انظر تاريخ الاستاذ الامام ، ج 2 ، ص 355 ·
(23) لوثروب ستودار ، حاضر العالم الاسلامى ، ج 1 ، ص : 306 ــ 307 ·
(24) المصدر المذكور ، ص 308 ·

الاسلامية دكا • وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الافغانى الحكيم العظيم (25) •

ومن تالب دول النصارى على الاسلام وأرضه أخذ المسلمون وزعماؤهم دروسا مهمة ، وعدلوا موقفهم من أهل الكتاب ، واخذوا يتآزرون ـ ضدهم ـ مع الهندوس والبوذية والوثنية ، وذلك منذ الحرب الروسية اليابانية عام 1904 التى انتصرت فيها دولة بوذية على دولة نصرانية (فهب غالب المسلمين يبتهجون لانتصار اليابان هذا ابتهاجا ملؤه الفخر الشرقى والحماسة الاسلامية (26) • ووضع المسلمون ايديهم فى ايدى الهندوس لمقاومة الانكليز فى الهند (27) وتآزر الصينيون المسلمون مع غير المسلمين فقالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان تدعو الى اتحاد الصينيين قاطبة للوقوف فى وجه الغرب المعتدى ! « ان أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغا لاحد له فهى لا تنفك تنازعنا على حريتنا التى هى اقدس شيء لدينا وأوروبا ثم أوروبا ضاربتنا الضربة القاضية ، اذا لم يستنصر بعضنا بعضا ونهب معا فى يوم آت هبة المدافعين عن الاوطان دفاع الابطال » (28) • وكان شيوخ السياسة ودهاتها من الاوروبيين يدركون الخطر الشديد من هذه الهجمات ويخشون رد الفعل من عالم الاسلام • فقد كتب وزير الخارجية الفرنسى هانوتو يستنكر هجمة ايطاليا على طرابلس : « لماذا وجدت ايطاليا طرابلس كوكر الزنابير ؟ أفليس ذلك لانها لا تحارب تركيا وحدها بل العالم الاسلامى اجمع • فايطاليا جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها » (29).

ومع تكالب المستعمرين وزحفهم على اقطار الاسلام واحتلالها واستعباد أهلها واختلاس خيراتها حتى لم يبق اثر الحرب العالمية الاولى قطر يصدق عليه انه يملك تمام حريته واستقلاله كانت اليقظة تهب ، والحركات الثورية والفكرية والسياسية تمتد وتخترق الحدود ، وتهز الجماهير من الشعوب • وبينما كان المستعمرون ـ اثناء هذه الحرب ، تم فى مؤتمر فرساى للصلح

---

(25) المصدر المذكور ، ص 314 •
(26) المصدر السابق ، ص 314 •
(27) المصدر السابق ، ص 315 •
(28) المصدر السابق ، ص 312 •
(29) حاضر العالم الاسلامى ، ج 1 ، ص 312 •

ـ يقتسمون بقية أراضى الاسلام بينهم بمقتضى معاهدات سرية واتفاقات دولية ـ كانت آمال المستضعفين تتضاعف فى الخلاص من نير استعبادهم وطردهم من بلادهم ، وقد أجج الثورة فى صدورهم مبادىء ولسون رئيس الولايات المتحدة التى تعلن حق الشعوب المغلوبة فى تقرير مصيرها ، وانتشار هذه المبادىء بين شعوب العالم ، والمصادقة المبدئية من الدول الكبرى عليها وتأسيس (عصبة الامم) فى جنيف للسهر على تطبيقها ثم خيانة هذه الدول لها واقتسامها فيما بينها أراضى تركيا والشعوب التى كانت مرتبطة بها ، والمستعمرات الافريقية الالمانية ٠

وانفجرت الثورات فى كل مكان ، وعمت اليقظة كل الشعوب المستعمرة قديما أو حديثا واغلبها من المسلمين ٠

فى تركيا : واول ثورة اثر الحرب العالمية الاولى كانت فى تركيا بقيادة الغازى مصطفى كمال ، وتمكن الشعب التركى من طرد (الحلفاء) من عاصمة دولته ، وسحق الغزاة اليونانيين المتوغلين فى الاناضول ، والقائهم فى البحر ، وتوصل الاتراك الى ذلك بصدق ايمانهم ثم بالعون الذى جاءهم من جارتهم الكبرى دولة الاتحاد السوفييتى لا حبا فى سواد عيون الاتراك ، ولكن رغبة فى طرد الانقليز والفرنسيين من مضائق البسفور والدردنيل ٠

وفرح المسلمون بنصر الله فى كل أنحاء الارض ، وتحفزوا للجهاد ، ولكن مصطفى كمال الذى احيى انتصاره الآمال سرعان ما خيب الظنون ، وانحرف عن الاسلام وأخذ يعمل على عزل الشعب التركى عن العالم الاسلامى ، فالغى الخلافة عام 1924 والغى مجلة القوانين الاسلامية واستبدل بها القوانين الوضعية السويسرية ، الايطالية ، واجتهد فى الفصل بين العرب والترك خصوصا ، فمنع قراءة القرآن بالعربية وكتابة اللغة بالحروف العربية ، والاذان بها وحاول ان يلصق تركيا بأوروبا فى الاخلاق والعادات واللباس ففرض البذلة الاوروبية والقبعة على الشعبولولا صدق الاتراك فى ايمانهم وصلابتهم فى دينهم لمحى الاسلام من تركيا ٠ وأخطر ما فى عمله ان اعداء الاسلام طبلوا له وزمروا ودعوه اصلاحا ، وجعلوا مصطفى كمال من كبار المصلحين لانه تنكر للاسلام واحكام شريعة القرآن ولا رقى ـ فى زعمهم ـ الا بالتخلص من القرآن ! واغتر بذلك كثير من (الزعماء) والكتاب فى بلاد الاسلام فأخذوا يروجون لهذا

« الاصلاح » وينفذونه اذا وصلوا الى الحكم • وتركيا الى اليوم ما تزال من دول العالم الثالث سبقتها أكثر الامم التى كانت دونها مع تمسكها بالدين ، واخلاصها لتاريخها •

ولم يلبث شعب مصر ان ثار على (الحماية) المعلنة عام 1914 م ، وعلى الاحتلال الجاثم فوقها منذ عام 1882 ، فطالب وفد بزعامة سعد زغلول برفع الحماية وانسحاب جيش الاستغلال فلقى من المندوب السامى صلفا وعجرفة وسجنا وابعادا ، ولم يجد الوفد المسافر الى فرساى من المؤتمرين من يسمعه منهم ولا يعرض عنه اعراضا فانفجرت الثورة عام 1919 واستمرت حتى اعلنت بريطانيا اصدار تصريح فى 1922/2/28 من طرف واحد تعطى فيه مصر «استقلالا» وتحتفظ لنفسها بأربعة نقاط تفرغ هذا الاستقلال من كل معنى واستمر الكفاح والثورة حتى بدت علامات الحرب العالمية الثانية فى الافق منذ عام 1935 م ، فاضطرت لمفاوضة المصريين بزعامة حزب الوفد وعقدت معهم معاهدة الاستقلال التى أمضيت عام 1936 م ، وجاءت حرب 39 ــ 1945 م ، فوجدت مصر نفسها محتلة اشنع احتلال ثم استؤنف الكفاح من بعد واجبرت بريطانيا على سحب آخر جند لها من مصر عام 1956 م ، وحاولت بعد ذلك بشهور ان تعود ليس وحدها ولكن مع فرنسا واسرائيل باحتلال قناة السويس فباءت بالفشل وطردت مذمومة مدحورة • ونشبت فى المغرب ثورة الامير عبد الكريم الخطابى عام 1925 م ، والحق بالجيش الاسبانى الهزائم المتكررة ، فسارعت فرنسا لانجادها ، وبعثت ماريشالها بيتان ، وزحف عبد الكريم حتى أشرف على فاس • كما نشبت الثورة فى دمشق ، ونال الانكليز هزائم متكررة فى العراق، وطرد صنائعهم آل حسين بن على من الحجاز ، فاطمأن المسلمون على أماكنهم المقدسة بزحف السعوديين وتحريرها من نفوذ الحسين وابنائه ، وتأججت ثورة عظمى فى وسط آسيا بقيادة أنور باشا رحمه الله لتحرير بلاد المسلمين ، واستعرت الحرب فى طرابلس بقيادة الشهيد عمر المختار عدة سنين وتأزم وضع الانكليز فى الهند ، وتحالف المسلمون والهندوس ضدهم فذاقوا مرارة كفاح الاحرار، والعذاب المهين • ونهض شعب اندونيسيا يطالب بحقه فى استقلال بلاده • وهكذا وجد المستعمرون انفسهم ــ فى كل مكان ــ مفضوحين عراة امام العالم اجمع قد انكشفت سوءاتهم ، وبانت عوراتهم • ثم جاءت هجمة ايطاليا على الحبشة عام 1935 م ، فضيحة

عظمى للاستعمار وتهديدا خطيرا لدولـه الهرمة · فاشتد النكير عـلى ايطاليا ، وارتعبت بريطانيا وفـرنسا خوفا مـن توسع موسولنى على حسابهم ، وقـد صرح بهذا وما اخفاه ، فاخذوا ينكرون عمله ويؤلبون العالم عليه ، فساعد كل ذلك مساعدة عظمى فى استيقاظ الشعوب واشتداد الرأى العالمى فى حكمه ضـد الاستعمار ·

ثم كانت الحرب العالميـة الثانيـة وأساسها « المتسع الحيوى » الذى كان يطالب به هيتلر لشعب ألمانيا ، وامتاز النازيون عن غيرهم بما ذهبوا اليه من أن (استعمار) شعوب أوروبا ممكن واحتلال الاراضى لا ينبغى ان يختص بافريقيـا وآسيا وانما يجـوز أيضا فى أوروبا وهكذا آذنوا لجيشهم ان يتوجـه نحـو تشيكوسلوفاكيا ثم بلونيا زحفا نحـو أوكرانيا وبترول القوقاز · وبعد قليل من بداية الحرب ، وجدت أوروبا نفسها ـ الا قليلا ـ محتلة من الجيوش النازية تذيق شعوبها « نعم » الاحتلال وطعم الاستعمار ولذائذ نزوات قادة وساسة المحتلين · لقد قدم النازيون للشعـوب المستعمرة الضعيفة خدمة جليلة مـن حيث لا يشعرون فقد أذاقوا شعوب أوربا مـن البلاء وألوان العذاب مما أفهمهم جيدا قيمة الاحتلال الاجنبى وقسـاوة المستعمرين ونعمة الحرية والاستقـلال الوطنى وفهم الفرنسيون والهولانديون والبلجكيون والانكليز ـ وان لم يحتلوا ـ ما يصيب الشعوب المستعمرة من جراء احتلالهم وفقدان استقلالهـم واضطـر ساستهم ان يقبحوا الاحتلال ويحكمـوا ضد استعبـاد الشعوب رغم ارادتهـا ويصادقوا على ميثاق المحيـط الاطلسى أولا ثم على ميثاق الامم المتحدة ـ فى سان فرانسيسكو ـ ثانيا التى تخول لكـل شعب حقه فى الحرية والاستقلال ·

ومع ذلك فان قادة الاستعمار وساسته كانوا ينوون خيانة العهود بمجرد نهاية الحرب والعودة الى تركيز نفوذهم مـن جديد · ففى أول أيـام النصر ، فى 8 مايو 1945 م ، وثبت فرنسا على الجزائر لتبطش بشعبها لانه تجرأ على رفـع الراية والمناداة بالاستقلال ، وفى نفس هذا الشهر وثبت على دمشق عاصمـة سوريا ، واستعادت جيوشهم بلاد الهند الصينى بعد انسحاب اليابان كما استعاد الانكليـز برمانيا ، وساعدوا هولاندة بجيوشهم واساطيلهم فى النزول مـن جديد بجزر اندونيسيا التى اعلنت ـ من قبل ـ جمهوريتها وعملت لطرد اليابان من بلادها وحاولت ايطاليا ان تعود بأى سبيل ـ على الاقل ـ الى ليبيا والصومال،

ولكن الشعوب التى تفتحت أعينها جيدا ، ورأت اندحار فرنسا وايطاليا وخروج بريطانيا هزيلة من الحرب – رغم انتصارها – أبت ان تقر الضيم من جديد وان تخضع للاحتلال اذ أخلدت الى الثورة العارمة فى كل مكان وقد تمكن بعضها بيسير من التضحيات من الاعتراف له باستقلاله ، وبذل بعضها أغلى التضحيات قبل ان يجبر الاعداء ، والاصدقاء على الاعتراف بالاستقلال •

ان المسلمين الذين خرجوا من حرب 14 – 18 19 بدون دولة مستقلة ، نال أغلبهم ما كانوا يصبون اليه من حرية واستقلال ، وأصبح لهم فى المجتمع الدولى كلمة مسموعة ونفوذ قوى : لقد طردت جيوش المحتلين اثر الحرب مباشرة من العراق وسوريا ولبنان عام 1945 م، كما اعترف باستقلال اندونسيا وخرجت جنود بريطانيا من الهند عام 1948 بعد ان اعترفت للمسلمين بدولة الباكستان، واعترف باستقلال ليبيا اثر ذلك ، ونشبت الثورة فى المغرب وتونس ، وفى كينيا ومدغشقر ، وفى الفيتنام ، وقبلهم كانت قد نشبت فى الجزائر فى مايو 1945 م ، ومع اخفاقها ظاهرا فان هذا الاخفاق كان درسا مهما جعل القادة يدبرون لها جيدا ويستعدون لها استعدادا كاملا ، حتى اذا أعلن الجهاد فى يوم 6 ربيع الاول 1374 هـ (أول نفامبر 1954 م) وجد العدو نفسه امام جيش ، وشعب يريد الحياة • حدثنى المرحوم الحاج مصطفى بن باحمد انه ذهب الى مقابلة الجنرال دوقول عام 1956 م ، مبعوثا من جبهة التحرير ليوضح له ما يرتكبه الجيش الفرنسى من فظائع فانصت له الجنرال جيدا – وهو المحامى اللبق – فلما انتهى من بيانه رفع دوقول رأسه وقال له : (ليس لكم حق فى الشكوى من أعمال الجيش فقد كلف باخماد الثورة ولابد ان يرتكب فى سبيل الوصول الى غايته ما تشكون منه ومع ذلك فانى أوكد لكم بانكم ستنالون الاستقلال لانكم قبلتم ان تموتوا من أجله وكل أمة تستقل اذا قبلت الموت ، وانتم قد قبلتم ذلك فلابد ان تستقلوا ، لا أقول لكم ان ذلك قريب أو بعيد ولكنه آت لا ريب فيه » •

وقد جاء الاستقلال للجزائر بعد تضحيات دامت سبع سنوات وخمسة أشهر ، وبعد نحو مليون ونصف مليون من الشهداء • ولم يكن هؤلاء الشهداء فداء لاستقلال الجزائر فحسب ولكنهم دعموا استقلال تونس (الوهمى) ، واستقلال المغرب (الخيالى) فجعلوا من كل منهما استقلالا حقيقيا • كما اجبروا

فرنسا على ان (تمنح) الاستقلال للدول الافريقية التى كانت تحت استعمارها • المسلمة منها وغير المسلمة ، ومن هـذه موريطانيا، والسنيغال، ومالى، والغابون، وغينيا ، والكامرون ، والنيجر ، وتشاد وفولتا العليا ، ثم جزر القمر، وجيبوتى• كلها دول اسلامية • كما نال هذه المنحة الداهومى (بنين) والطوغو ـ والكونغو ـ وافريقيا الوسـطى ، وساحل العـاج ومدغشقـر •

وبفعل الثورة فى الجزائر (منحت) بريطانيا الاستقلال لنيجيريا المسلمة ، وتنجانيقا وزنزبار (تانزانيا) واغلب السكان فيهما مـن المسلمين ، وأوغاندة واضطرت بلجيكا الى الاعتراف باستقلال زائير (الكونغو) وأورندى وبوروندى واعانت الجزائر اعانة فعالـة انغـولا وموزنبيق ، كـما عاونت على احباط المكيدة ضد وحدة نيجيريا •

ان الثورة الجزائرية كانت معجـزة القرن الرابع عشر حقا (القرن العشرين) وقد ضرب الشعب الجزائرى أروع الامثلة فى الثبات والصبر والاحتمال والتضحية الى حد العناد فجاء استقـلاله حقيقيا لا وهميا بفضل الله ثم بفضل الاخلاص والوعى الكامل فى القيادة واليقظة فى الجماهير •

واذا كان الثلثان من المسلمين قـد تحررت بلادهم ، واطمأنوا تحت رايات دولهم فان الامل القوى فى اللـه وفى جهاد المسلمين ان يتحرر الباقون اثناء القرن الخامس عشر وان ينفض المسلمون اثناءه كل غبار الخمـول والكسـل والتخلف عن ركب الامم الراقية ، وان يتجنبوا فى نهضتهم الوقوع فيما وقعت فيه الحضارة الغربية من مادية بحتة ، لتكون حضارتهم اسلامية جامعة بـين المادة والروح مرتبطة بالدين من غـير جمود ولا تزمت وعليهم ان يوحـدوا صفوفهم ، ويعتبروا أنفسهم أمة واحدة لا تذل الا لله كما حكم الله فى قوله : « **ان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكـم فاعبـدون** » • وان اللـه لفى عونهـم ونصرهم اذا أوفوا بعهد الله •

ولهم عبرة فى (جهاد شعب الجزائر) القائم على أساس الدين ، ثم فى ثـورة شعب ايران التى أعلنها (ثورة اسلامية لا شرقية ولا غربية) بعيدة عن المذهبية وعـزة الجاهلية (ثـورة اسـلامية ، لا شيعيـة ولا سنيـة) فاستطاعـوا ـ بالاسلام ـ ان يحطموا كل الاصنام وان يطيحوا بالشاه الذى لم يغن عنـه ما جمعه من مال وما حشده من جند كلهم (سفاك) للدماء سفاح • وخذله حماته

من الصهاينة والامريكان وخنسوا عنـه فعل الوسواس الخناس . فعلى الايمان والعمل الصالح للدنيا وللدين ، والاتحاد المتين بين جميع المسلمين والتعاون على البر والتقوى ونفى التنازع والاختلاف والتخاذل يجـــب ان يبنى المسلمـون مستقبل حياتهم . ذلك هو سر قوتهم وخير ضمان لانتصارهم « **ولينصرن اللـه من ينصره ان الله لقوى عزيز** » .

وكان للاسلام فى القرن الرابع عشر دمعة وابتسامة : بداية مظلمة ، ونهاية مشرقـة .



الوحي والعقل في الإسلام
عند المعتزلة وبعض المفكرين المتأخرين

د. بوعمران الشيخ
أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

قد برزت صلة الوحى بالعقل فى الاسلام منذ القرن الهجرى الاول (القرن السابع الميلادى) وخاصة فى بداية المدرسة الاعتزالية • ثم اتضحت هذه الصلة من خلال المناظرات التى انتشرت فيما بعد ، حين التقى الاسلام بنظريات حديثة • وفى الواقع ان هذه المسألة كانت لها أهمية دينية وأخلاقية عظيمة فى الاعتزال حيث تميز بها هذا المذهب عن بقية المدارس الاسلامية المعاصرة له واللاحقة به •

أجمع كبار المعتزلة على وحدة الوحى والعقل • فيرى أبو على الجبائى وهو رئيس الاعتزال فى القرن الثالث الهجرى (القرن 9 بعد الميلاد) أن كل معرفة هى عقلية وسمعية فى آن واحد (1) • ويؤكد عبد الجبار (المتوفى سنة 415 هـ ـ 1025 م) هذا الرأى (2) ويضيف أحد تلامذته أن الافعال التى حرمها الوحى هى بالذات التى يرفضها العقل (3) • وينجم عن هذا كله أن من ينحرف عن العقل يبتعد عن الشريعة فى نفس الوقت ، اذ الشريعة لا يمكن أن تناقض العقل • والشىء الذى يعلمه الله مخالفا للعقل لا يمكن وجوده ، مثل وجود الدائرة المربعة أو عقوبة الاطفال فى جهنم (4) •

وتؤدى هذه النظرية الى طرح عدد من التساؤلات : هل التوفيق بين الوحى والعقل يناسب الاسلام ؟ واذا حصل هذا التوفيق الاساسى لماذا الوحى ؟ ألا يكفى العقل وحده ؟ وفى حالة الخلاف بينهما ما هو الذى يجب أن تكون له الاسبقية ؟ سنحاول فى هذا البحث أن ندرس هذه المسائل ونعرض الحلول

التي توصل اليها المعتزلة وميزات آرائهم عن آراء خصومهم ·

(1) ـ اعتماد المعتزلة على العقل :

يعتمد المعتزلة على العقل انطلاقا من القرآن والسنة النبوية ، فيستشهد المرتضى (ت 436 هـ/1045) بالآية الكريمة : « **ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون** » (سورة يونس 100/10) ، كما يذكر يحيى بن الحسين (ت 298/910) الآية : «**ان في السموات والارض لآيات للمؤمنين** » (سورة الجاثية : 2/45) · ويروى الماوردي (تـ 450 هـ 1058) حديثا شريفا يشير الى مكانة العقل في سلوك الانسان : « لكل شيء عمل دعامة ، ودعامة عمل المرء عقله » (6) ·

والعقل هو أساس جميع المعارف والافعال ، فجعله الله أساس الحياة الاجتماعية والدينية ، وبالعقل جعلنا الله مسؤولين عن أعمالنا ، والعقل هو الذي يسود وجودنا ويفسر تضامننا مع بني البشر ، رغم اختلاف الحاجات والمصالح ، والعقل هبة من الله للانسان (8) · وعملنا بمقتضى معرفة الله ، وهي تيسر لنا الشعور بحدود حريتنا وتبين لنا الواجبات ، غير أن معرفة الله لا تكسب الا بالعقل (9) ·

ان العقل شيء مشترك بين جميع الناس الذين يتمتعون بقدراتهم الفكرية ، ولكن بعضهم ينمونه أكثر من غيرهم (10) · والمعرفة العقلية واجبة على كل انسان لانها تضمن المسؤولية ، واستعمال العقل يساعد على تجنب الخطأ والخوف (11) ، وذلك لانه لا يصدر عن سلطة ظالمة أو عابثة ، والله ذاته لا يعير قيمة لعمل ما الا لسبب مشروع ، فانه لا يأمر الانسان بفعل معين ثم يعاقبه لتنفيذه ذلك الامر· ويحصر أبو علي الجبائي وظيفة العقل العملية في العلم الذي يبعد عن الشر ويحض على الخير ·

أما افعال الانسان فهي تنقسم الى ثلاثة اقسام : الافعال العقلية والافعال الشرعية والافعال التي يمكن أن تساهم في أحكام أفعال أخرى (12) ·

الاول على حرية الاختيار والتأمل ، فيعلم الفاعل مثلا أن من واجبه أن يرد الامانة الى صاحبها كما يعلم أنه يتعين عليه أن يعترف بالجميل لمن أحسن اليه ويستطيع كل انسان أن يقوم بهذه الافعال · فهي تقرب الانسان من الله ويشترط فيها معرفة الله أولا ، وذلك بفضل التأمل والاستدلال العقلي ، ونذكر من هذه الافعال الصلاة والصيام (13) ·

والعقل عند المعتزلة نوعان : العقل الفطري الذي يظهر في البديهيات الاولى

مثل أن « الشيء موجود أو معـدم » ، و « توحيـد المتناقضين مستحيـل » و « والواحد أقل من الاثنين » ، والعقل المكتسب ينطلق من البديهيات ويتطور ويتحسن بالعمل والتجربة المستمرة(14). وعلى هذا الاساس يميز المعتزلة بين نوعين من الافعال العادية وهى الافعـال التى تصدر عن العقل الفطرى والافعال التى تستند على التامل والاجتهاد (15) .

ويرى النظام (231 هـ/846 م) أن العقل هو الذى يوجه الفعل ويرشده ، ويتجلى دوره خاصة فى حرية الاختيار التى يشترط فيها دافعـان متعارضان ، واحد يحض على الفعل وآخر يمنعه (16)، فيسمح العقل باختيار أحد الدافعين(17). وفى القرآن الكريم أكثر من آية تدل على ذلك منها : « **وهديناه النجدين** » (سورة البلد : 10/90) وقد بين السجستانى ـ أستاذ التوحيدى ـ معنى النجدين وهو طريق الخير وطريق الشر (18) .

(2) صلة الوحى بالعقل :

أكد المعتزلة صلة الوحى بالعقل منذ نشأة المدرسة كما أشرنا الى ذلك سابقا الا انه وقع شيء من التطور فى نظرتهم الى طبيعة هذه الصلة . بدأ تركيزهم أولا على ربط الدين بالعقل من أجـل فهـم القرآن ، اذ العقل هـو الوسيلة لادراك معنى النص . ثم اتجهت عنايتهم فى مرحلة ثانية الى التوفيق بين الوحى والعقل فبينوا بأنهما متكاملان ومرتبطان على الرغم من أن كل واحد منهما متميز ومستقل عـن الآخـر . وفى النهاية جعلوا الاسبقية للعقل .

ولكن هل يكفى العقل البشرى فى توجيـه سلوكنا تـوجيها حسنـا دون الوحى ؟ كان هذا هـو رأى جل المعتزلة لانهم اعتمدوا على العقل بالدرجة الاولى وبنوا عليـه صحـة الافعال الانسانية . فذهبوا الى أن الله أمر بالافعال الحسنة لحسنها ونهى عن الافعال القبيحة لقبحها ولـم يكن الامـر هكذا بمحض ارادتـه تعالى (19) . وقالوا اننا لا نعرف الاسباب الالهية عندما نقوم بفعل ما ، فلا نحسب لها حسابا . وفى الواقع ان الناس تأملوا وفكروا قبل نزول الوحى ، فيمكن اذن أن نميز بين الخير والشر ونختار أحدهما عن بصيرة ، وذلك بفضل عقلنا ، وندرك أن علينا واجبات فنؤديها كما انه يتحتم علينـا أن نتجنـب الشر والظـلـم والكذب (21) .

ولا يقوم حسن الفعل على ارادة اللـه وحدها كما تزعم الجبرية ، ولو صحـت نظريتهم لترتبت عليها نتائج غريبة ، اذا أمرنا مثلا بالكذب أو الظلم كان فعلنـا

حسنا ، واذا نهينا عن الصدق والعدل كان فعلنا قبيحا ، فيكون الفعل الواحد حسنا وقبيحا فى آن واحد ، لانه يجوز فى الحالة الاولى ويحـرم فى الحالـة الثانية (22) ومـن جهـة أخـرى كيف يعقل أن يضفى النص القرآنى قيمـة اخلاقية على فعل هو خال منها ؟ وهذا أمر مستحيل لانه ليس هناك فـرق أساسى بين الافعال العقلية والافعـال الشرعية من الناحية الاخلاقية (23) ٠

غير أنه لا يجوز أن نخلط بين القانون الطبيعى والقانون الالهى ٠ قـد لاحظنا فيما سبق أن كل انسان مسؤول عـن أفعاله وان كان لا يؤمن بالوحى ٠ ومن المعلـوم أن الملاحـدة والماديين يميزون فعلا بين الخير والشر (24) ٠ واذا زعم أحـد أن هذا ليس فى مقدورهم حقـا فهو بعيد عن الصواب كل البعد ٠ وهل يمكن أن يقال أيضا انهم لا يميزون بين الابيض والاسـود ؟ هـذا رأى غـير معقول (25) ٠ والواقع أن البرهمانيين لا يؤمنون بالنبوة ورغم ذلك نلاحظ أن سلوكهم حسن (26) ٠

ان العقل البشرى يـدرك بطبيعته أن بعض الافعال حسنة او قبيحة كما أنـه يدرك بعض الواجبات ، فيعرف مثلا من الافعال الحسنة الفعل الصالح ويعترف بالجميل ورد الامانة لصاحبها ومن الافعال القبيحة يعرف الظلم والنكران والكذب بدون مبرر ، ويـدرك أيضا ان السلوك الطيـب ممـدوح والسلـوك القبيـح مذمـوم (27) ٠ ولـذا لا يـرضى بالعقوبـة الـتى لا يستحقها الفاعـل مثـل التى تسلط عـلى انسـان بـرىء فى مكان انسان ظالم لان كل عاقل يرفض المسؤولية الجماعية (28) ٠ وهذه اشارة الى موقف الخوارج الازارقة وكان المعتزلة يعارضونهم بشدة ٠ فيرى أبو هـاشم الجبائى أن الفعل الحسن يجب أن يقصد لذاته كما يجب أن يتجنب الفعل القبيح لذاته (29) ٠ والظلم مذموم ولو كـان صادرا عن الله تعالى وهذا الرأى يخالف موقف الجبرية بوضوح (30) ٠ وهكـذا يتبين أن الفعـل البشرى يكتسى قيمـة اخلاقية لذاته وهذا ما يقره العقل ٠

(3) الوحى يدعم العقل :

اذا كان العقل هو الاساس فى حيـاة الانسان ما هى وظيفة الوحى ؟ هل نحن فى حاجة اليه والى أى حد ؟ يرى المعتزلة أن السلوك العقلى يتميز عن الوحى فأثارت نظريتهم اعتراضات كثيرة مـن المعارضين سنقف عندها فيما بعـد ٠ ويتعين علينا هنا أن نبين آراء المعتزلة كما عبرت عنها كتبهـم ٠

ان الرسالة النبوية ضرورية وذلـك لسببين رئيسيين : انها تدعم أولا ما جاء

البقلانى (ت 403 هـ/1013) على المعتزلة بأن العقل لا يمكنه أن يوجه الافعال البشرية توجيها خلقيا ، اذ المصدر الوحيد لهذا التوجيه هو الشريعة الالهية ولا دخل فيها للعقل ولا توجد أية وسيلة عقلية تستطيع اجبار الانسان على فعل ما ، أو الامتناع عنه • والجدير بالملاحظة أن الكثير من الناس لا يمتثلون للعقل فى تصرفاتهم • ولو صح رأى المعتزلة فى أن الله وهب العقل الكامل لكل انسان لفقدت النبوة وظيفتها (38) • ويضيف الشهرستانى (ت 548 هـ/1153) أنه ليس هناك خير عقلى ولا شر عقلى والاخلاق تعتمد على الوحى فقط (39) ، واذا تخلينا عن الوحى فلابد أن نأخذ بعين الاعتبار عادات كل الشعوب وتقاليدها (40) •

وتعارض الصوفية أيضا رأى المعتزلة وخاصة منهجهم العقلى ، وتعتبر أن تأويل القرآن لا يخلو من الخطأ ، ويحصر المحاسبى (ت 243 هـ/848) واجب العقل فى المساعدة على فهم النص والبرهنة على صحته (41) ويعتقد أن المنهج الصوفى هو السليم لا منهج التأويل العقلى ، لان الاول يعتمد على الحدس ويوصل الى الحقيقة والثانى لا يتحرر كلية من الخيال الفردى ، ويحذر الشعرانى (ت 973 هـ 1566) من خطر التأويل العقلى للقرآن لانه قد يفقدنا الايمان ، فيجب أن نساير الوحى لا العقل (42) •

وينتمى الى المجموعة الثانية من خصوم المعتزلة عدد من المفكرين والفلاسفة نذكر منهم بعض الشخصيات البارزة ، ينتقد ابن الراوندى الملحد (ت 298 هـ/910) الوحى ويرى انه لا يفيد فى شىء ويتمسك بالعقل وحده اذ هو الذى يميز بين الخير والشر ، فالانسان ليس فى حاجة الى النبوة ولا الى المعجزات وذلك لانها تخالف القوانين الطبيعية • وقد رد عليه أبو على الجبائى الذى كان من معاصريه ، ثم أبو الحسين الخياط فى (كتاب الانتصار) ومن خصوم المعتزلة الطبيب الفيلسوف أبو بكر الرازى (ت 313 هـ/925) الذى أيد مواقف ابن الراوندى ، ورفض التوفيق بين الوحى والعقل بل رأى أن الفلسفة وحدها هى التى تستطيع أن تضمن السعادة للانسان والتقدم للمجتمع ولذا هاجم الرسالة النبوية وناظر كثيرا فيها أحد مواطنيه ، وهو أبو حاتم الرازى (ت 330 هـ/941) المنتمى الى الشيعة والمعتزلة ، فألف هذا الاخير فى الموضوع كتاب (أعلام النبوة) وفند فيه رأى أبى بكر الرازى •

(5) تطور الآراء فيما بعد

وتطورت آراء بعض الخصوم فيما بعد وتقبلوا الى حد كبير ما رفضه المتقدمون • يلاحظ هذا التطور عند الحنابلة أولا بعدما كان الامام ابن حنبل (ت 241 هـ 855) من أشهر المعارضين للمذهب المعتزلى • فتبنى ابن عقيل (ت 513 هـ

1119) الحنبلي التأويل العقلي (43) كما فعل بعده ابن الجوزى (ت 597 هـ 1200) الذى رد على المجسمة ، معتمدا على النص والعقـــل (44) · وصرح ابن تيميـــة (ت 728 هـ/1328) بالتوفيق بين العقل والوحى مؤكدا انهما متكاملان وبـين أن الدليل العقلى لا يناقض الدليل الشرعى ، وفقا لما أشار اليه القاضى عبد الجبار من قبل (45) · وأضاف ان الشريعة لهـــا أسس عقليـة (46) ، وقـد رأى تلميذه ابن قـــيم الجوزية (ت 751 هـ/1350) نفس الرأى (47) ·

أما الاشاعرة المتأخرون فانهم قـــالوا أيضا بالتوفيق بين الدين والعقل ورأى الغزالى (ت 505 هـ/1111) « أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ··· فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثـاله المتعرض لنـور الشمس مغمضـا للاجفان · فلا فرق بينه وبين العميان · فالعقل مع الشرع نور على نور » (48) ، ان العقل يدعم الايمان ويوصل الى اليقين (49) · ويـؤيد فخـــر الـدين الرازى (ت 606 هـ/1209) هذا الرأى ويتوسع فيه ، غير أنه لا يفضل العقل على الوحى ، لان الوحى هو أساس العقل (50) ·

وأقر الفلاسفة المسلمون سـواء كانوا من أهل السنة أو مـن الشيعة التوفيق بين الوحى والعقل·فيرى «اخوان الصفاء» أن ضرورة العقل لا يمكن الشك فيها ، لانه الدليل الذى يستدل به اللـه تعالى والحـــكم المعترف بـــه فى المعامـلات الاجتماعية ، وتوحيد الدين والعقل من دعـــائم فلسفتهم (51) · ويـؤكد رأى المعتزلة كـــل مـــن الفيلسوفين الكندى (ت 260 هـ/873) وابن رشد (ت 595 هـ 1198) ، فيقول الاول بتكامل العقـــل والنبوة ، ولكنه لا يفضل العقل عليها ، وخصص ابن رشد رسالته المشهورة ـ (فصل المقال) ـ لتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال (52) · فيذهب الى أن مصدرهما واحد وهو الحقيقة ، ولذا لا يمكـن الخـــلاف بينهما : فالحقيقة لا تعارض الحقيقة (53) ·

وعند ظهـور حركة النهضة الاسلامية الحديثة نـلاحظ انهـا تمسكـت ببعض الآراء من مذهب الاعتزال · وتكفينا هنا وقفة عند رائدى هذه النهضة وهما جمال الدين الافغانى ومحمد عبـده · قـــارن الافغانى (توفى سنة 1897) بين النبوة والحكمة ، فبين أن الاولى يهبها اللـه لمن يشاء ، فى حين ان الثانية تكتسب بالنظر ولكنه فضل النبى على الفيلسوف كمـا فعـل المعتزلة قبـــله ، فالنبى معصوم والفيلسوف معرض للخطأ ، ولذا يجب الامتثال لاوامر الاول ويسمع للثانى أو لا يسمع له (54) · والاسلام فى رأيه كاد

أن يكون من بين الديانات الاخرى الدين الوحيد الذى يعتمد على العقل ويذم من يؤمن بدون دليل (55) · واقتدى محمد عبده بآراء الافغانى وقال هو الآخر بالتوفيق بين الدين والعقل مؤكدا أن العقل هو أساس الاخلاق كما قال المعتزلة من قبل ، فيستطيع كل انسان أن يهتدى الى الاخلاق بقطع النظر عن الوحى ، انه يميز بين الخير والشر بفضل التأمل وبه يكتشف القواعد الاخلاقية ولا تقل قيمة هذه القواعد فى الواقع عن تعاليم الشريعة الالهية (56) فيقول محمد عبده فى هذا المعنى : « جاء الشرع مبينا للواقع ، فهو ليس محدث الحسن ، ونصوصه تؤيد ذلك » (57) . والفعل يعتبر حسنا لذاته والله يقره لحسنه ولا يصير الفعل القبيح حسنا لان الله أقره (58) ··· وأما النبوة فانها تدعم العقليات وتكملها ، والانبياء « يبينون ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ويؤدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة » (59) ·

وهكذا يبدو لنا تأثير آراء المعتزلة والعلماء المتأخرين واضحا فى الفكر الاسلامى الحديث بعدما تطورت مواقف أهل السنة نحو الاعتزال ، فرأينا ما توصل اليه اجتهاد العلماء الذين أرادوا أن يسايروا العصر ، فتجاوزوا الخلافات القديمة وراجعوا الكثير منها · واستمر هذا الاجتهاد الى يومنا هذا فى مختلف الاقطار الاسلامية ، بغية الوصول الى نظريات تناسب العقل من ناحية وتدعم الوحى من ناحية أخرى · ويلاحظ أن القضية الاساسية التى يجب مناقشتها الآن هى صلة العلم بالدين اذ تبلورت اليوم قدرة العقل البشرى فى مجالات العلم والتكنولوجيا ، وهذا موضوع بحث آخر نرجو أن يقوم به غيرنا فى مناسبة من المناسبات ، فنكتفى بالاشارة اليه هنا ولا نخرج عن اطار موضوعنا ·

الهوامش :

(1) على خشيم ، **الجبائيان** ، طرابلس (ليبيا) ، 1967 ، ص 282 ·

(2) عبد الجبار ، شرح **الاصول الخمسة** ، مكتبة وهبة ، القاهرة 1965 ، ص 142 .

(3) ابن متويه ، **المحيط بالتكليف** ، الجزء الاول ، القاهرة بدون تاريخ ص 235 ·

(4) ألبير نادر ، **فلسفة المعتزلة** ، فى جزئين، الاسكندرية 1950 ـ 1951 ، ج 1 ، ص 65 ·

(5) **رسائل العدل والتوحيد** ، تحقيق محمد عمارة ـ دار الهلال ، القاهرة 1971 ج 2 ، ص 178 ·

(6) الماوردى ، **أدب الدنيا والدين** ، مكتبة الحلبى ، القاهرة، 1965 ، ص 3 ·

(7) عبد الجبار ، **تنزيه القرآن عن المطاعن** ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص 111 ·

(8) التوحيدى ، **الامتاع والمؤانسة** ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج 2 ، ص 9 ·

(9) عبد الجبار ، **شــرح** ، ص 88 ·

(10) **رسائل العدل والتوحيد** ، ج 2 ، ص 177 ـ 178 ·

(11) عبد الجبار ، **شــرح** ، ص 68 ·

(12) أبو الحسن البصرى ، **المعتـــمد** ، المعهـد الفرنسى ، دمشـــق 1964 ، ج 1 ص 363 ـ 364 ·

(13) عبد الجبار ، **شــرح** ، ص 70 و 327 ·

(14) الماوردى ، **ادب الدنيا والدين** ، ص 5 ·

(15) الشهرستانى ، **نهاية الاقدام فى علم الكلام** ، مكتبة المتنبى ، بغداد ، بدون تاريخ ، ص 371 ·

(16) الشهرستانى ، **الملــل والنحــل** ، تحقيق الكيلانى ، القــاهرة، 1961 ، ج 1 ص 158 ·

(17) أبو ريدة ، **النظام** ، مطبعة لجنة التأليف ، القاهرة، 1946، ص 172 ·

(18) التوحيدى ، **الامتاع والمؤانسة** ، ج 2 ، ص 19 ·

(19) التهاناوى ، **كشــاف مصطلحات الفنــون** ، طبعــة القــاهرة ، ج 2، 1969 ، ص 149 ـ 150 ·

(20) عبد الجبار ، **شــرح** ، ص 313 ·

(21) أبو ريدة ، **النظــام** ، ص 16 ·

(22) عبد الجبار ، **شــرح** ، ص 311 ـ 312 ·

(23) « ، **المغنى** ، ج 6 ، 1 القاهرة، 1962، ص 24 و 123 ·

(24) عبد الجبار **المغنى** ، ج 6 ، 2، القاهرة، بدون تاريخ ، ص 232 ·

(25) » ، **شــرح** ، ص 72 و 479 .

(26) » **المغنى** ، ج 15 ، القاهرة،1965 ، ص 97 .

(27) » ، **المغنى** ، ج 11 ، القاهرة،1965 ص 384 .

(28) » ، **شــرح** ، ص 321 .

(29) » ، **المغنى** ، ج 15 ، ص 66 .

(30) » ، **المغنى** ، ج 6 ، 1،ص 128 .

(31) » ، **شــرح** ، ص 564 .

(32) » ، **المغنى** ، ج 15 ، ص 45 ــ 46 و 110 .

(33) التوحيدى ، **الامتاع والمؤانسة** ، ج 2 ، ص 12 ــ 14 .

(34) » ، **الامتاع والمؤانسة** ، ج 2 ، ص 9 ــ 10 .

(35) ابن متويه ، **المحيط بالتكليف** ، ج 1 ، ص 25 .

(36) عبد الجبار ، **تنزيه القرآن عن المطاعن** ، ص 41 ــ 42 .

(37) الشهرستانى ، **نهاية الاقدام** ، ص 371 .

(38) الباقلانى ، **كتاب التمهيد** ، دار الفكر ، القاهرة،1947 ، ص 371 ــ 372 .

(39) الشهرستانى ، **نهاية الاقدام** ، ص 223 و 370 .

(40) » » » » ص 373 .

(41) عبد الحليم محمود ، **المحاسبى** ، مكتبة غوتنير ، باريس،1940 ، ص 88 .

(42) روجير أرنالديز ، **ابن حزم** ، مكتبة فران ، باريس،1956 ، ص 27 .

(43) جورج مقدسى ، **ابن عقيل** ، المعهد الفرنسى ، دمشق،1963 ص 508 ــ 509 .

(44) ابن الجوزى ، **صيد الخاطر** ، دار الفكر ، دمشق،1960 ، ج 1 ، ص 128 .

(45) ابن تيمية ، **التفسير** ، بومباى،1964 ، ص 96،353،386 .

(46) » **مجموعة الرسائل** ، القاهرة،1341 هـ ، ج 5 ، ص 30 .

(47) ابن قيم الجوزية ، **شفاء العليل** ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 79 و 248 .

(48) الغزالى ، **الاقتصاد فى الاعتقاد** ، القاهرة ، 1962 ، ص 3 .

(49) » ، **احياء علوم الدين** ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ج 3 ، ص 410 .

(50) فخر الدين الرازى ، **التفسير** ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ج 2 ص 177 178 .

(51) اخوان الصفاء ، **رسائل** ، القاهرة، 1928 ، ج 4 ، 1 ، ص 391 ·

(52) ابن رشد ، **فصل المقال** ، طبعة الجزائر، 1978 ·

(53) ابن رشد ، **فصل المقال** ، طبعة الجزائر، 1978 ، ص 34 و 64 ·

(54) الافغاني ، **خاطرات** ، دار حراء ، القاهرة، 1963 ، ص 16 ·

(55) « ، **الرد على الدهريين ، دار الهلال** ، القاهرة ، ص 166 ·

(56) محمد عبده ، **رسالة التوحيد** ، مكتبة القاهرة ، 1960 ، ص 80 ــ 81 ·

(57) « « « « ص 81 ·

(58) عثمان أمين ، **محمد عبده** ، القاهرة، 1944 ص 99 ·

(59) محمد عبده ، **رسالة التوحيد** ، ص 120 ·



ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في المغرب الإسلامي ودورهما في نهضة أوروبا ويقظتها

د. يحيى بوعزيز
أستاذ بجامعة وهران
(الجزائر)

ان الحديث عن ازدهار الحضارة والفكر الاسلاميين باقليم المغرب الاسلامي، وجناحيه الاوروبيين ، ودورهما في نهضة أوروباويقظتها ، يتطلب العودة قليلا الى الوراء ، للتعرف على الاوضاع قبل ذلك ٠ فقد كان اقليم شمالي افريقيا الغربي ،أو شبه جزيرة المغرب ، قبيل الفتح الاسلامي ، يعيش في دوامة من الاضطرابات الخطيرة التي عرضته للتمزق ، والتشتت ، والتحطيم ، في معظم المجالات ٠ لانه بلي بالاستعمار الروماني الجائر ، والشرس ، ذي الطابع العسكري كما يتضح من آثاره الباقية حتى اليوم في لامبيس ، وتيمقاد، وجميلة ، وتبسة ، وتيبازة ،وشرشال ، وبطيوة ، وغيرها ٠ والذي كان كل همه تسخير امكانيات الاقليم الاقتصادية والبشرية ، لخدمة مصالح روما ، وايطاليا ٠

وبعد رحيل الرومان ، تسلط الوندال على الاقليم ، وكانوا بداة متوحشين ، فارتكبوا المزيد من التخريب ، والحرق ، والتحطيم ، لمظاهر العمران ، والاقتصاد، والثقافة ، في اطار مطاردة بقايا الرومان من جهة ، ومواجهة مقاومة شعب الاقليم الباسلة من جهة أخرى ٠ وليس هذا بالشيء الغريب عن الوندال ، لانهم جبلوا على التخريب في أوروبا وشبه جزيرة ايبيريا ، قبل أن يعبروا الى هنا، ولم تسلم منهم حتى المسيحية ورجالها الذين اضطهدوهم وقاتلوهم ، ومنهم القديس أوغسطين السوق أهراسي ، العنابي ، الذي تزعم مقاومتهم حتى توفي عام 430 م بعنابة ٠

وبعد حوالي قرن من الزمن ، حل البيزنطيون محلهم في استعمار هذا الاقليم ،وواصلوا نفس سياسة أسلافهم الرومان في ممارسة سياسة الارهاب ، والتقتيل ، والتشريد ، والتخريب

(*) ألقي هذا الموضوع في الملتقى العاشر للفكر الاسلامي بعنابة خلال شهر جويلية 1976 ٠

للعمران ، والاقتصاد ، ودخلوا فيما بينهم فى صراعات ، وتطاحن حول السلطة والنفوذ ، واشترك فى ذلك رجال الدين والعسكريون والاداريون المدنيون، وامتد هذا التطاحن الى عاصمة بيزنطة نفسها على ضفاف البحر الاسود الجنوبية الغربية ، فىشرق البحر المتوسط ·

وخلال هذا كله ، عانى شعب هذا الاقليم أعباء شاقة : اقتصاديا ، واجتماعيا ، وسياسيا ، تذكرنا بما عاناه حديثا خلال الاحتلال الفرنسى الذى يمثل المرحلة الثالثة والاخيرة للاحتلال الرومانى لهذه البلاد · ولم يجد وسيلة للتخلص سوى التمرد ، والثورة ، بأشكال جد عنيفة ، وبصورة متواصلة، فاندلعت الثورات وتوالت هذه وراء الاخرى ، ومد زعماؤها أيديهم الى حلفاء خارج الاقليم تمثلوا فى المسلمين العرب الوافدين من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى ·

وكان مما ساعد على فك عرى الارتباط بين شعوب شمال افريقيا الغربى ، والادارة البيزنطية ، هو انعدام وجود الانسجام بينهما رغم القرون الطويلة التى قضاها الغزاة البيزنطيون فى هذه البلاد · وهذا يذكرنا أيضا بالعهد الفرنسى حديثا الذى قضى قرنا وثلاثين عاما هنا ، ولكنه لم ينجح حتى فى أحكام مجرد الصلة مع شعب هذا الاقليم ·

ما قدمه الاسلام لهذا الاقليم :

وهكذا استطاع المسلمون العرب ، بسهولة ويسر ، وفى وقت قصير ، أن يفرضوا سيطرتهم السياسية على هذه البلاد ، ويندمجوا مع سكانها ، ويؤثروا فيهم ، بفضل المبادىء السمحة للدين الاسلامى الجديد الذى جاؤوا به ، ومن أجله ، الى هذه البلاد · وأعاد هذا الاندماج السريع بين المسلمين والوافدين الجدد ، والسكان الوطنيين ، الوحدة الوطنية ، والقومية للاقليم ، وازال ذلك التشتت والتمزق الذى خلقه العهد البيزنطى وما قبله · وبذلك انسجمت الوحدة الجغرافية والتاريخية للاقليم ، مع وحدته السياسية ، والدينية ، واللغوية ·

وبعد تحقيق هذه الوحدة السياسية، فى اطار الدين الاسلامى الجديد الوافد، ربط الاقليم بالخلافة الاسلامية فى دمشق أولا ، وبغداد ثانيا ، وبقي الوضع هكذا حتى عهد هارون الرشيد ، ثم حدثت تطورات جديدة ، فرضتها الاحداث الجارية ، تتمثل فى بروز الزعامات المحلية الاقليمية من جديد ، وسعيها لتحقيق استقلالها وانفصالها عن الخلافة بالمشرق · ولكن فى اطار الاسلام دائما على أي حال ، وهذا موضوع آخر ليس هذا مكان تفصيله ·

وكان أهم شيء قدمه الاسلام الجديد الوافد لهذا الاقليم ، وشعبه ، هو وحدة العقيدة ، واللغة ، الى جانب الوحدة السياسية ، والعرقية ، والتاريخية ، التى كانت له قبل ذلك ، وهو أمر هام

جدا لم يستطع الرومان ، ولا مسيحية بيزنطة ، أن تقدمه وتوفره لهما · وبفضل وحدة العقيدة واللغة هذه، انكب شعب الاقليم على الخلق ، والابداع ، والبناء الحضارى ، فى جو من الحرية السياسية ، والبحبحة الاقتصادية ، وقامت بالاقليم مراكز حضارية هائلة لا تقل مكانة عن مراكز الشرق الاسلامى مثل : القيروان وفاس ، وتيهرت ، وقلعة بنى حماد ، وبجاية ، ومراكش وتلمسان، الى جانب حواضر الاندلس الكبرى ، وصقلية ، التى تعتبر جزءا من هذا الاقليم ، ومن خلقه هو،وقد أخصب فيها الفكر ، ونفقت التجارة ، وتطور العمران، وازدهرت الفلاحة والحياة الاقتصادية فى معظم مجالاتها ، وتطورت الحياة الاجتماعية ، وانجب الاقليم أبطالا من عظماء الرجال ، وذوى مكانة عالمية ، أمثال ، طارق بن زياد ، وأسد بن الفرات وجوهر الصقلى ، وجعفر بن فلاح ، وبلكين بن زيرى ، وحماد بن بلكين ، وعبد المؤمن بن على ، وياغمراسن · امتد أثرهم الى خارج الاقليم ، وكان من نتيجة أعمالهم ، خلق الاندلس ، وصقلية الاسلاميتين بأوروبا ، وتاسيس القاهرة والازهر ، فى أرض الكنانة ، اللذين تحولا الى قلعة منذ ذلك اليوم للاشعاع الحضارى الاسلامى ·

كما أنجب الاقليم فطاحل الشعراء ، والادباء ،والكتاب ، والمفكرين ، والفقهاء ، أمثال : ابن رشيق المسيلى ، وسحنون القيروانى ، وابن عرفة التونسى ، والقاضى عياض السبتى ، والشريف السبتى الادريسى ، وابن مرزوق الخطيب ، والحفيد ، والمقرى التلمسانيين ، والغبرينى الجرجرى ، والثعالبى ، وابن معطى ، والشيخ ابن مروان العنابى ، وغيرهم · شاركوا كلهم فى بناء صرح تلك الحضارة الرائدة التى ستكون أهم رافد لنهضة أوروبا ، ويقظتها (1) ، لان حضارة هذا الاقليم الاسلامية هي التى حملها شعب هذا الاقليم نفسه الى أوروبا عبر جناحيه : شبه جزيرة ايبيريا فى شماله الغربى ، وجزيرة صقلية ، وجنوب ايطاليا فى شماله الشرقى ، ومن هناك انتقلت وتسربت الى معظم أنحاء أوروبا الغربية والوسطى كما سيأتى ، وهو صلب هذا الموضوع ·

حالة أوروبا فى العصر الوسيط :

وفى الوقت الذى كان فيه الغرب الاسلامى ، وشرقه ، يعيشان هذه النهضة الواسعة سياسيا ، واقتصاديا، وثقافيا ، واجتماعيا ، كانت أوروبا تمر بأزمة تخلف حادة ، وواسعة ، كثيرا ما يعبر عنها وعن زمانها ، بالعصر المظلم ، شملت معظم ميادين الحياة ·

ففى الميدان السياسى ، كانت صفات الاستبداد، والجور، والظلم ، هي الطابع

(1) يحيى بوعزيز : جهود الجزائر الفكرية فى موكب الحضارة العربية «**الاصالة**» عدد 19 · (الجزائر ـ مارس ـ أبريل 1974) ص 287 ـ 301 ·

الذى يميز الحكام ، والامراء ، والاباطرة . وكان الشكل الامبراطورى هو السائد على معظم شعوب أوروبا التى حشرت قسرا تحته ، رغم كونها تختلف فيما بينها عرقا . ولغة ، وتاريخا ، وعادات ، وتقاليد . ونتج عن كل ذلك انتشار الحروب والثورات والقلاقل ، فيما بينها حقبا طويلة من الزمن (2) .

وفى الميدان الاقتصادى كان الفقر هو الظاهرة الغالبة على شعوب أوروبا، لان الارض التى هي مصدر الثروة والغنى ، فى العصر الوسيط ، كانت ملكيتها احتكارا لفئة صغيرة وأقلية من الناس ، يدعون : رجال الاقطاع ، ويتمثلون فى الامراء والملوك ، وحاشياتهم ، أما أغلبية المجتمعات الاوروبية ، فكانت فقيرة معدمة ، سخرها هؤلاء الاقطاعيون لخدمة أراضيهم بأجور زهيدة جدا . وبما أن هذه المجتمعات لا مجال لها للعمل الا فى أراضى الاقطاعيين ، فقد أصبح يعبر عن أفرادها بأقنان الارض ، أو رقيق الارض لارتباط حياتهم بها ، ولكن لصالح غيرهم . ومن هنا كثر فيما بينهم تفشى الامراض المعدية ، والاوبئة ، والمجاعات الحادة (3) .

وفى الميدان الثقافى كان الجهل هو الطابع المميز لاوروبا نظرا لانتشار الفقر من الناحية الاقتصادية ، ولتحكم الكنيسة فى الفكر ، واحتكارها له وفرضها اتجاها خاصا لا يتلاءم الا مع مصالحها وسياستها الخاصة . وفى نفس الوقت حرمان الطبقة المثقفة من استعمال فكرها، وبذلك حبست الكنيسة أذهان الاوروبيين فى أقفاص مظلمة عدة قرون ، ومنعت شعوب أوروبا من التطور الفكرى والثقافى . وزاد فى الطين بلة جهل أوروبا بالوسائل التى تساعد على انتشار العلم ، كالورق الذى انتشرت صناعته بالعالم الاسلامى غربه وشرقه (4) . يضاف الى هذا أن أوروبا لم تكن تملك لغة للعلم مشتركة ، لان اللاتينية كانت لغة الكنيسة فقط ، واحتكارا لرجال الدين فيها وفى الاديرة .

وفى الميدان الدينى احتكرت الكنيسة لنفسها تفسير الكتاب المقدس ، وادعت لشعوب أوروبا ، بأن تعاليمها أزلية من عند الله ، وليس من حق أحد أن يناقشها أو يحاسبها على أعمالها ، وعلى هذا الاساس خلقت فى الدين المسيحى ما ليس فيه ، وفرضت سيطرتها حتى على الاطار السياسى المتمثل فى الامراء والملوك ، واستغل رجال الدين الاموال

---

(2) د. محمد فؤاد شكرى ، د. محمد أنيس : أوروبا فى العصور الحديثة . (القاهرة 1956 ــ 1057) ص 17 ــ 33 .

(3) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى . الجزء الثانى . نظم وحضارة . (القاهرة ــ 1959) ص 43 ــ 91 .

(4) نفس المصدر . ص 123 ــ 1550 .

الطائلة التى ترد على الكنيسة فى حياة اللهو والمجون والخلاعة ، وزاغوا عن الطريق المستقيم ، وتحولوا الى رجال أعمال بدلا من صبغتهم الدينية (5) ·

وفى الميدان الاجتماعى كانت الطبقية هي السائدة فى مجتمعات أوروبا التى قسمت الى ثلاثة فئات متفاوتة ، فالنبلاء والاشراف رقم 1 ، ورجال الدين رقم 2، هم الذين كانوا يتمتعون بكل الحقوق ، ويحتكرون لانفسهم كل الامتيازات ، السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية، والثقافية ، رغم كونهم يمثلون أقلية صغيرة جدا ، بينما الطبقة العامة رقم 3، التى تمثل الغالبية العظمى للشعوب الاوروبية ، كانت محرومة من كل الحقوق ، وعليها فقط الواجبات والاعباء، لخدمة الطبقتين الاولى والثانية ، النبلاء والاشراف ، ورجال الدين ، ودفع الضرائب التى لا تتناسب مع امكانياتها المادية المحدودة ، لهما وللدولة (6) · ان ظاهرة الطبقية هذه من أشنع خصائص تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، فى حين كانت المجتمعات الاسلامية فى الغرب الاسلامى ، وشرقه ، يسودها العدل ، والاخاء ، والمساواة ، الكاملة فى الحقوق والواجبات ·

معابر الحضارة الاسلامية الى أوروبا :

هكذا يتضح أن هناك عدم توازن من الناحية الحضارية بين العالم الاسلامى غربه وشرقه ، والعالم الاوروبى فى العصر الوسيط · فبينما بلغ الاول شأوا عاليا فى التطور والتقدم فى أوسع مجالاته ، انحط الثانى الى أقصى درجات التخلف ، ومع ذلك لا ينبغى المبالغة فى هذا الميدان ، لانه ليس معنى ذلك أن أوروبا ليس لها تراث أصلا ، وكل ما فى الامر انه عند المقارنة نجد فرقا كما بينا · ولا شك أن للعالم الاسلامى ، بحضارته وتقدمه ، تأثيرا كبيرا على العالم الاوروبى فى العصر الوسيط ، ومطلع العصر الحديث ·

وقد وصل هذا التأثير الاسلامى اليه عن طريق معابر أربعة أهمها : معبرا الغرب الاسلامى المتمثلان فى الاندلس ، وصقلية ، أما معبر مصر والشام ، ومعبر آسيا الصغرى ، خلال توسع العثمانيين فى شرق أوروبا ، فقد حالت الحروب الكثيرة ، والطويلة على أديمها دون ايصال هذا التأثير الاسلامى بشكل بارز، وهذا لا يعنى التقليل من دورهما على أي حال ، غير أن الاندلس وصقلية سيبقى دورهما بارزا ، ورئيسيا ، مع المغرب العربى ، فى تحضير أوروبا ، وتمدينها ، وايقاظها ، فعن طريقهما دخلت العلوم والمعارف العربية الاسلامية الاصيلة ، والاغريقية المترجمة الى أوروبا ابتداء من القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين بواسطة تجار

---

(5) نفس المصدر · ص 1 ـ 42 ·

(6) ج ، و · كوبلاند ، ب · فينوجرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا · ترجمة محمد مصطفى زيادة · (القاهرة 1958) ص 47 ـ 133 · عاشور ص 63 ـ 91 ·

ايطاليا ، والبندقية ، وجنوة ، وبيزا ٠ قال ديورانت ، فان النقل فى الحضارة كشأن التناسل فى الحياة (7) ٠

قبلاد الاندلس الاسلامية ، التى تمثل المعبر الاول ، هي التى قدمت لغرب أوروبا خلاصة الفكر الاسلامى فى الآداب والعلوم ، والفنون ، والفلسفة ، وعرفته بكثير من تراث الاغريق القديم الذى حفظه المسلمون من الاندثار ، وحموه من الضياع بفضل نقلهم له وترجمته الى اللغة العربية ، لغة العلم والحضارة فى العصر الوسيط (8) ٠

والعجيب فى الامر أن شبه جزيرة ايبريا (الاندلس) هذه قبل دخول الاسلام اليها كانت تعيش فى جو من الفوضى ، والاضطراب ، الدينى ، والسياسى ، والطبقية الاجتماعية، وذلك لسوء سياسة العناصر القوطية الحاكمة هناك ٠ والتى هي صنوة الوندال المتوحشين الراحلين ، غير أن شعوب المغرب العربى الاسلامى ، حملت اليها الاسلام ، وأصلحت أحوالها ، السياسية والاجتماعية ، ونشرت فى ربوعها وبين أهلها ، الامن والاستقرار ، ووجهت شعبها بعد ذلك الى عمل البناء والتشييد الحضارى كاحياء الاراضى ، وتنشيط التجارة ، وانعاش الصناعات ، وتطوير حركة العمران ، حتى أصبحت فى ظل الخلافة الاموية من أغنى بلدان أوروبا وأكثرها كثافة وسكانا ٠ ثم انكب بعد ذلك ، ومن ورائه دائما ، شعوب المغرب العربى التى تعتبر معينا له ، على الخلق والابداع فى ميادين : العلوم والآداب ، والفنون ، وفتح بأعماله وجهوده ، آفاقا كبيرة ، وواسعة ، لاوروبا خاصة ايطاليا التى ظلت تستفيد منه منذ أواخر القرن الحادى عشر الى ما بعد القرن السابع عشر ٠

وكانت طريقة الشعب الاندلسى المسلم فى الحصول على العلوم والمعارف ، فى بداية أمره ، من المغرب والمشرق الاسلاميين ، تتم اما باستدعاء بعض العلماء من هناك مثل ابى علي القالى ، أو بتسفير بعثات علمية الى هناك مثل بعثة يحيى بن يحيى الليثى (9) ٠

واما بجمع الكتب التى هي أهم وسائل النشاط العلمى والثقافى ، كما فعل الحكم الثانى المستنصر (10) ٠

وبعد أن تشبع المجتمع الاندلسى بالثقافة والحضارة العربية الاسلامية عن طريق شعوب المغرب العربى ، شرع

(7) ول٠ ديورانت : قصة الحضارة ٠ ترجمة محمد بدران ٠ جـ 17 ٠ ط 2 (القاهرة 1966) ص 169 ٠

(8) د٠ جمال الدين السيال : اثر الاسلام والعرب فى النهضة الاوروبية ٠ (القاهرة 1970) ص 365 – 378 ٠

(9) عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الاندلس ٠ (القاهرة 1958) ص 97 – 109 ٠

(10) نفس المصدر ٠ ص 140 – 144 ٠

فى الخلق والابداع والابتكار فى نفس الخط والاطار · ولم يحل النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى حتى بلغت الحضارة الاسلامية أوجها بالاندلس ، وغدت قرطبة احدى عواصم العالم الكبرى بسكانها الذين زادوا على مليون نسمة ، ومنازلها التى زادت على مائتى ألف مسكن ، وبأضواء شوارعها الليلية التى لم تعرف مثلها مدينة لندن الا بعد سبعة قرون من ذلك (II) ·

ومن أسباب وعوامل ازدهار النهضة الاسلامية بالاندلس ، تسامح الاسلام والمسلمين بها ، تجاه أهل الذمة من اليهود والنصارى ، واقبال المستعمرين الاسبان على تعلم العربية واستعمالها فى نشاطاتهم المختلفة ، خاصة التاليف والترجمة، باعتبارها لغة العلم والحضارة آنذاك ، ثم قيامهم بعد ذلك بدور الوسيط بين هذه الحضارة الاسلامية من جهة ، وشعوب غرب أوروبا وجنوبها الغربى، ووسطها من جهة أخرى ·

وعندما سقطت طليطلة عاصمة الثغر الاوسط فى يد النصارى الاسبان عام 1085 م ، تقاطر اليها الاوروبيون من كل الانحاء للاستفادة من الدراسات الاسلامية ، وثقافة المسلمين ، فنشطت حركة الترجمة من العربية الى الاسبانية القشتالية ، والى اللاتينية ، بشكل واسع منقطع النظير ، واستمرت كذلك الى ما بعد القرن الخامس عشر والسادس عشر ، سواء من العلوم العربية ، أو اليونانية المترجمة اليها مثل : جالينوس · وأبقراط ، وافلاطون ، واقليدس (أيوكليد) · ووجد من حكام اسبانيا المسيحيين من قدر الثقافة العربية الاسلامية مثل الفونسو العاشر الحكيم (1252 ـ 1284) الذى أسس مدرسة خاصة للدراسات الشرقية ، استخدم فيها أبا بكر الراقوطى كأستاذ ومدرس لاجيال من المسيحيين واليهود على ما قيل ، وكان هذا الرجل أعلم علماء عصره على ما قيل أيضا (I2) ·

وقد عاد هؤلاء الذين تقاطروا على الاندلس الى أوروبا بالعلوم والمعارف الاسلامية التى فتحت آفاق المستقبل لهم ، وأحدثوا فى الحياة الذهنية الاوروبية انقلابا عظيم الاثر على التطور الاوروبى (I3) ·

وبعد الاندلس تأتى جزيرة صقلية كجسر ثان ومعبر ، لحضارة المسلمين فى الغرب الاسلامى ، الى أوروبا · وهي شبه جزيرة مثلثة الشكل ، تقسم البحر المتوسط الى قسمين ، ولا تبعد عن الحذاء الايطالى الا بمضيق مسينا

(II) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب · اثر الحضارة العربية فى أوروبا · ترجمة : فاروق بيضون ، وكمال دسوقى (بيروت 1964) ص 499 ـ 502 ·

احمد أمين : ظهر الاسلام · (القاهرة 1953) ج 3 ص 22 ـ 23 ·

(I2) الفريد قيوم : تراث الاسلام · تعريب : جرجيس فتح الله · (القاهرة ط 2 أكتوبر ـ 1972) ص 354 ·

(I3) ديورانت : نفس المصدر · ص I4 ·

الصغير الذى لا يزيد عرضه على ثلاث كيلو مترات · وفتحها الاغالبة من القيروان بالمغرب الادنى أوائل القرن التاسع الميلادى ، (817 م) وبقيت تحت سيطرتهم حوالى قرنين ونصف قرن حتى عام 1060 م ، فاهتموا بالاعمال الفلاحية بها · وتطوير وسائل الري ، واصلاح الاراضى ، والترع ، والسدود، وأنشأوا المجارى المائية المعقوفة ، وأدخلوا اليها زراعة القطن ، وقصب السكر ، واستغلوا ثرواتها المعدنية كالحديد ، والنحاس ، والفضة ، فى صناعة العملات ، وبعض الآلات والادوات الاخرى ، كما أدخلوا صناعة الحرير ، وبعثوا الحركة التجارية وطوروها ، ونشطوها ، ثم اتجهوا الى النشاط العلمى والثقافى ، حتى حولوا الجزيرة الى معقل للعلوم والمعارف ، وتغنى الجغرافى الادريسى ، والرحالة ابن جبير ، بمفاخر هذه الجزيرة العمرانية، والاقتصادية : الفلاحية والتجارية وبقصور ، ومساجد ، ومتنزهات ، ومباهج ، وأحياء مدن : باليرمو ، وسرقوسة ، ومازرة ، ومرسى على ، وغيرها (14) ·

وعندما سقطت هذه الجزيرة فى أيدى النورمان فى مطلع النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ، اهتم ملوكهم بالتراث الاسلامى على عكس الاسبان بالاندلس ، فشجع روجر الاول Roger I مظاهر الحركة الاسلامية ، برعايته الجالية الاسلامية الافريقية ، وكتب على مراسيمه بالعربية الى جانب اللاتينية ، واليونانية ، كما كتب بالعربية على نقوده أيضا · وكذلك فعل روجر الثانى ، فكلف الشريف الادريسى بتأليف كتاب له فى جغرافية الارض ، وما يزال حتى اليوم فى متحف نور مبورج ، الرداء الحريرى الذى اعتاد ملوك النورمان على لباسه ، وهو مطرز بكتابات عربية بالخط الكوفى يرجع الى عام 1133 م · وحتى فريدريك الثانى فى القرن الثالث عشر ، أحاط نفسه بالمظاهر العربية الاسلامية ، وبحاشية اسلامية افريقية حتى دعي بالامبراطور نصف الشرقى · وشجع العلماء ، والجغرافيين ، والفلكيين ، والادباء المسلمين كثيرا (15) ·

ومن هذه الجزيرة الصغيرة حجما ، والعظيمة تقدما ، أخذت الحضارة الاسلامية الافريقية طريقها الى مدن الحذاء الايطالى مثل : أمالفى ، وبيزا، وجنوة ، ومنها الى فرنسا وغرب أوروبا، ووسطها ·

ومن دلائل تأثير الغرب الاسلامى على أوروبا ، حضاريا ، ان الملك الانجليزى جورج الثانى أرسل وفدا من ثمانية عشرة فتاة من بنات أمراء وأشراف انجلترا على رأسهن ابنة أخيه الاميرة دوبانت ، ورئيس ديوانه ، الى بلاط هشام الثالث

---

(14) الشيال : نفس المصدر · ص 379 ـ 389 ·

(15) أحمد توفيق المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا · (الجزائر ـ 12 ربيع الاول 1365) ط 1 · ص 284 ·

الاموى بالاندلس لدراسة نظم الحكم والدولة وآداب السلوك وكل ما يؤدى الى تهذيب المرأة ، وأرسل مع هذا الوفد هدية ورسالة ، نصها المهندس زكريا هاشم زكريا (16) ·

وعلى غراره فعل الملك الجرماني ، فأرسل وفدا برئاسة وزيره الاول ويليمين الذى سماه الاندلسيون وليم الامين ، للتعلم والتزود بالثقافة الاسلامية · وأرسل ملك بافاريا بعثة الى الاندلس ، بعد أن استأذن من الخليفة هشام الاول، لدراسة نظم التعليم ومناهجه ، وأساليب الادارة والحكم · وعند عودته زوده الخليفة بوفد من المسلمين كمستشارين وخبراء ليساعدوا الملك فيليب فى كل ما يراه · وأخذ ملوك أوروبا الآخرون يفعلون مثلهم وعلى غرارهم حتى ان كثيرا من الاعمال العمرانية بأوروبا كالسدود والجسور ، أقامها مهندسون مسلمون أندلسيون من ضمنها جسر هشام على نهر التايمز بانجلترا الذى سمي باسم الخليفة هشام الثانى على ما ذكره زكريا هاشم (17) ·

وقد أكد لوبون بأنه لا يوجد فى اسبانيا المعاصرة من أعمال الري الا ما انشأه المسلمون وخلفوه وراءهم رغم ما حاوله الاسبان من أجل محو وطمس آثار المسلمين بها (18) ·

لقد كان دور المسلمين فى الغرب الاسلامى وشرقه عظيما جدا ، فى ميدان الحضارة بالنسبة لاوروبا ، فقد حفظوا التراث من الاندثار ، وترجموه ونقلوه الى العربية ، لينقل بعد ذلك الى اللاتينية وباقى اللغات الاوروبية الحديثة ، فى أواخر العصر الوسيط ، ومطلع العصر الحديث ، وقاموا بدور الوسيط بعد ذلك بين الحضارات القديمة والحديثة من جهة ، وبين الشرق الاسلامى والآسيوى ، والغرب الاوروبى من جهة أخرى ·

هكذا وجد الاوروبيون عندما استيقظوا من نومهم ، تراثا هائلا ومعينا لا ينضب من المؤلفات العربية الاسلامية فى شتى العلوم والفنون فمالوا الى استغلالها بمختلف الوسائل خاصة بعد أن اشتد عليهم ثقل الكنيسة وكابوسها ، وتزمتها الشديد القاتل ، الذى حاول أن يفرض عليهم دائرة ثقافية خاصة وضيقة ، فأصبحوا يتطلعون الى حياة علمية وفكرية أكثر خصبا ، وتنوعا ، وفى جو من الحرية التى اعتاد عليها ابن رشد وأمثاله من المفكرين والفلاسفة المسلمين ، فانكبوا على دراسة مظاهر الحضارة الاسلامية بشغف وحماس ، ونهم ، وشراهة ، منقطعى النظير ، ترك

---

(16) زكريا هاشم زكريا : فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم (القاهرة 1970) · ص 24 ـ 25 ·

(17) نفس المصدر · ص 25 ·

(18) غوستاف لوبون : حضارة العرب · ترجمة عادل زعيتر (القاهرة 1964) ص 294 ·

آثارا واضحة فى الحياة الفكرية الاوروبية ، وفى جامعات أوروبا منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى • فقد اهتموا بتعلم اللغة العربية التى تساعدهم على فهم وترجمة ذلك التراث الى لغاتهم ، مما جعل روجى باكون (1215 ـ 1292) ، يؤكد بأن الفلسفة مستمدة كلها من العربية ، ولذلك لا يمكن لاي شخص أوروبى لاتينى ، أن يفهم فلسفة العلم ، الا اذا تعلم العربية التى أصبحت شرطا أساسيا للمثقف الاوروبى • فأولت الجامعات الاوروبية عناية بها فائقة حتى القرن الثامن عشر، بل وأوائل القرن التاسع عشر • وبقيت آراء ابن رشد المحور الاساسى فى تدريس الفلسفة بفرنسا منذ القرن الثالث عشر ، واعترف لويس 15 بذلك عندما نظم التعليم فى بلاده أواخر القرن 15 ، وأكد غوستاف لوبون بأن أساتذة جامعة مونبيلى Montpellier لم يكفوا عن شرح كتابات ابن سينا فى الطب الا منذ نصف قرن فقط (19) •

وحتى فى جامعات ايطاليا ، خاصة بادوا ، كان نفوذ الفكر العربى الاسلامى لا يقل شأنا عنه فى فرنسا ، وأصبحت الدراسات الاسلامية ذات شأن كبير ، جعلت بيترارك يصيح فى وجه مواطنيه قائلا : يا للعجب ! لقد استطاع شيشرون Ciceron أن ينبغ فى الخطابة بعد ديموستين Démosthène واستطاع فرجيل Vergil أن ينبغ فى قرض الشعر بعد هيوم ، فهل قدر علينا نحن الا نكتب بعد العرب ! لقد أدركنا الاغريق وجميع الشعوب ، وسبقناها فى بعض الاحيان ما عدا العرب (المسلمين) ، فيا للحماقة، ويا للجهل ، ويا للعبقرية الايطالية الخامدة (20) •

حركة الترجمة ودورها فى نهضة أوروبا :

والذى ساعد على ازدهار هذه النهضة، هو نجاح تيار حركة الترجمة الواسعة من العربية الى اللاتينية بواسطة جيل من العلماء والمثقفين ينتمون الى عدة فئات متنوعة • وهي نفس العملية التى قام بها المسلمون فى بداية نهضتهم العلمية فى المغرب والمشرق الاسلاميين، فالتاريخ يعيد نفسه هنا في هذه القضية •

لقد ترجم يوسف قمحى اليهودى (1105 ـ 1190) ، فى ناربونة كتاب « المرشد الى واجبات القلب » للفيلسوف اليهودى بهية • وترجم صمويل بن طبون اليهودى « دليل الحيران » لابن ميمون • وترجم موسى بن طبون كتاب : العناصر لاقليدس، وكتاب : القانون ، لابن سينا ، والترياق للرازى ، وشروح ابن رشد لارسطو ، ومؤلفات ابن ميمون • وترجم الطبيب والفيلسوف شم طب (1264) كتاب : المنصورى ، للرازى ، فى مرسيليا • كما

---

(19) د• غوستاف لوبون : (ص 518) •
(20) نفس المصدر • ص 591 •
(21) ديورانت : ج 17 ، ص 15 ـ 16 •

ترجمت كتب أخرى مثلها من العربية الى العبرية مثل كتاب اليسير لابن زهر فى بادوا (1280) ، وكليلة ودمنة ، وذلك من طرف هذه الفئة اليهودية التى تعرف العربية وهاجر البعض منها الى جنوب فرنسـا ٠

غير أن التيار الرئيسى للفكر الاوروبى من التراث الاسلامى ، كان عن طريق ترجمة الكتب العربية الى اللاتينيـة ٠ فجمع ريموند المستنير المتسامح (1130) كبير أساقفة طليطلة ، عددا كبيرا مـن المترجمين برئاسة دومنيكو جنديلسقى، وعهد اليهم بترجمة الكتب العربية فى الفلسفة والعلوم الطبيعية ، وكان مـن بينهم يهود يعرفون العربية ويتقنونهـا الى جانب العبرية واللاتينية ، مثل حنا الاشبيلى ابن داود الذى ترجم عـددا هائلا من المؤلفات العربية لابن سينـا ، والفارابى ، والغزالى ، والخوارزمى ٠ ومثل جيرارد الكريمونى الذى قـدم الى طليطلة عام 1165 وأعجب بتراث المسلمين فى العلوم والفلسفة ، فترجم احـدى وسبعين كتابا عربيا على ما قيل لعدد كبير من المفكرين المسلمين فى مختلـف العلوم والفنون والآداب (22) ٠

ويلى الاندلس فى الاهمية ، فى تزويد أوروبا بالثقافة الاسلامية ، صقليـة الاسلامية كذلك ، لان النورمان بعـد أن سيطروا عليهـا حافظـوا على التراث العربى الاسلامى ، وشجعوه ، واستعمل فريدريك الثانى فى بلاطه المفكر ميخاييل اسكوث الاسكتلندى الاصل للترجمة ، وعاش فى طليطلة ، وبولونيا ، وروما ، ثم فى فوجيا (نابولى) ٠ وقام بحركة ترجمة واسعة للتراث العربى على غرار جيرارد الكريمونى فى اسبانيا ، ففتـح بذلك آفاقا لروجى باكون Roger Bacon والبرت ماجنـا ، فى القـرن الثـالث عشر ٠ وواصل شارل صاحب أنجـو عـمل الترجمـة ، وشجعهـا فى جنوب ايطاليا ، واستعمل العالم اليهـودى موسى من أهل سالرنو فى هذه الحركة ، كما استعمل اليهودى فرج بن سالـم الجرجنتى ، الذى ترجم كتاب الحاوى للرازى ، وعددا آخر من المؤلفات العربية الاصليـة أو المترجمـة من اللاتينيـة ٠ ولعب نفس الدور ، قسطنطين الافريقى، والحسن الوزان ، الذى يلقب بليـون الافريقى ، فألفا وترجما عددا كبيـرا من المؤلفات العربية الى اللاتينية (23) ٠

نماذج مما قدمه الغرب الاسلامى الى أوروبا من مظاهر حضارية ، ودورها فى يقظتها ونهضتها ٠

لقد شملت جهود المسلمين الحضارية ميادين كثيرة ، فى الآداب ، والفلسفة، والرياضيـات ، والفـلك ، والعلـوم الطبيعيـة ، والطـب ، والجغرافية ، والفنون ، والصناعات ، وغيرها ٠ وكان لشعوب الغرب الاسلامى دور بارز فى

(22) نفس المصدر ٠ ص 16 ـ 17 ٠
(23) نفس المصدر ٠ ص 18 ـ 22 ٠

ذلك ، خلقا وابداعا من جهة ، وتأثيرا وايصالا الى أوروبا من جهة أخرى ·

ففى ميدان الآداب ، كان الفكـــر اللاتينى ، يتصف بالجفاف ، والجمود ، فى حين تتصف الآداب الاسلاميـــة بالخصوبة والابداع ، ولذلك اتجه اليها الاوروبيون ، ليشفوا غليلهم ، ويشبعوا نهمهم ، وليزيلوا الجمود الذى سيطـر على عقولهم حقبا طويلة من الزمن ، مما جعل روسكين جب يقول : « ولعـل خير ما أسدته الآداب الاسلاميــة لآداب أوروبا أنها أثرت بثقافتـها وفكرهـــا العربى ، فى شعر ونثـر العصـــور الوسطى » (24) · فتمكنوا بفضلها من خلق نزعة جديدة فى آدابهم الاوروبية تتمثل فى النزعة الرومانتيكية خاصـــة فى ميدان الغزل الرقيق ، والرثـــــاء البـاكى (25) ·

لقد أثر الادب العربى الاســــلامى المغربى ، تأثيرا كبيرا ، وبالغا ، فى الدراسات النثرية الاوروبية ، خاصـــة القصص الخرافية ذات المغزى والهدف الاخلاقى التى تتخذ الحيوان موضوعا لها · وكان الادب الاسبانى أول مـــن تأثر به ، فنقل بطرس الفنونس اليهودى مجموعة قصص هندية من العربية الى الاسبانيـــة عرفت باســم : التعاليـــم المسيحية · وترجمت كليلة ودمنة الى الاسبانية عام 1251 · وقصة الحكمـاء السبعة (سندباد البحرى) سنة 1253 · وتوالى بعد ذلك ترجمة الكتب والدراسات الادبية فى معظم أنحاء أوروبا · وأكد جب بأنه لا يستطيع أحـد أن ينكـر أن ما تمتاز به آداب جنوب أوروبا مـــن انبساط وخيال خصب انما يرجع الى تأثرها بالبيئة العربية ، والى ما خلفته الثقافة العربية فى أهل الاندلس مــن تأثيـــر (26) ·

وبفضل هذا التأثير ، برز وجه الشبه بين بعض القصص العربية الخياليـــة ، ومثيلاتها الاوروبية فى العصريـــن : الوسيط والحديث ، مثل قصة ايزولـــد ذات اليد البيضاء Isolde Blanche Main وفلوار والزهرة البيضــــاء : Floire et Fleure Blanche والقاسينى نيكولت : Au Cassinet Nicolette التى لا يرقى الشك الى أصلها العربى الذى حرف من القاسم الى قاسينى (27) ·

وتبدو روح الادب الاسلامى الانـدلسى واضحة فى قصـــة أمـاديس دوقـوالا Amadis de Gauala التى كتبت فى القرن 15 ، كما تبدو فى غيرها مـــن القصص الاوروبية، وقصص الموريسكيين، وبلغت الذروة فى قصة «الحرب الاهلية»

---

(24) السيرها ملتون اليكساندر روسكين جب : تراث الاسلام · (دار الطليعة للطباعة والنشر ــ بيروت 1972) ص 189 ــ 190 ·

(25) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ج 3 · ص 308 ·

(27) لوبون ، حضارة العرب ، ص 474 · وروسكين جب · تراث الاسلام · ص 277 ــ 279 ·

لجينزبيريز الهيتى Ginès Pérez de Hitai وهي كلها تشكل مجموعة من الثقافة العربية الاندلسية التى قدر لها أن تصبح نقطة تحول فى تاريخ الآداب الاوروبية الحديثة ، أدت الى ميلاد الرواية الحديثة ·

وقد أكد دبريسكوت Prescott الامريكى بأن قصة دون كيشوت Don Quichotte للكاتب الاسبانى الشهير ميقيل سيرفانتيس Miguel Cervantès (1547 – 1616) ، الذى كانت العربية فى عهده ما تزال متداولة بالاندلس ، تعتبر أندلسية قلبا وقالبا ، بأناقتها ، وحبكتها (28) · وأضاف تراند بأنها كتبت أصلا بالعربية ، وهي لمؤرخ عربى جغرافى اسمه سيدى حامد بنقالى Sidi Hamed Bengueli وذلك لان جميع قصص الفروسية قد أثر عنها بأنها أخذت من أصل عربى (29) · وهذا الحكم على قصة سيرفانتيس يسرى على قصص أخرى لا تقل شأنا عنها فى ميدان الادب مثل قصة رودينسون كروس : Rodinson Crusse التى اقتبست من قصة حي ابن يقظان للكاتب الاندلسى المشهور ابن طفيل التى ترجمت الى اللاتينية عام 1671 ، والى الانجليزية عام 1708 (30) ·

وكان للموشحات والازجال الاندلسية، تأثير كبير على الآداب الاوروبية الحديثة ، وبدأت تظهر أواخر القرن التاسع الميلادى على يد محمد بن حمود القبرى الضرير المدعو كذلك مقدم بن معافر القبرى ، وهي السبب فى ظهور ما سمي بشعر التروبادور ، أو الاداء الغنائى فى القرن الثانى عشر بشمال اسبانيا ، وجنوب فرنسا قبل أن ينتقل الى جهات أخرى فى جنوب ووسط وغرب أوروبا · وتولد عن هذا الشعر ، أو أدب التروبادور ، ما عرف بشعر الجونقلور : Jhon Gleurs أو أدب الصعاليك (31) والمشردين مثل قصة الفارس ثيقار Elcavallero Cifar ذات الروح العربية (32) ·

وأحسن مثل لتأثير الآداب الاسلامية المغربية على الآداب الاوروبية ، قصة الكوميديا الالهية الشعرية لدانتى ، التى استقاها واقتبسها على ما يظهر ، من قصة ابن عربى وأستاذه ابن مسرة، خاصة القسم المعروف بالفردوس والمعراج ، كما أكد ذلك القس بلاثيوس · اذ لا يوجد أي اختلاف بينهما سوى أن ابن عربى استعمل فى روايته بطلين، ودانتى استعمل بطلا واحدا فقط هو

---

(28) روسكين جب · ص 194 و 287 ·

(29) جون برنارد قراند : تراث الاسلام ، ص 71 – 72 ·

(30) جورج يعقوب : أثر الشرق · ترجمة فؤاد حسنين علي (القاهرة 1946) ص 81 – 84 ·

(31) د· سهير القلماوى ، د· محمود علي مكى : أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية · (القاهرة 1970) ص 36 – 58 ·

(32) روسكين جب · ص 188 ·

شخصه مقرونا مرة بفرجيل ، وأخرى بعشيقته بياتريسى · ولقصة دانتى هذه الشعرية ، شبه كذلك برسالة الغفران للمعرى (33) ·

وكذلك قصة الدوكاميرون Decamerone

النثرية المشهورة لجيوفان بوكاشيو : Giovanni Bocaccio أو الليالى العشرة، التى كتبها على لسان عشرة أشخاص : سبعة رجال ، وثلاثة نساء ، هربوا من الطاعون الذى تفشى فى ايطاليا وكل بلدان البحر المتوسط عام 1348 ، والذى خصه الكاتبان الاندلسيان : لسان الدين ابن الخطيب القرطبى ، وتلميذه ابن خاتمة الميرى ، برسالتين ما تزالان مخطوطتين على ما قيل حتى اليوم · وكذلك كتاب : Ilcorbaccio **الذى** وضعه بوكاشيو فى مثالب النساء وكيدهن ، وخيانتهن ، على غرار القصص العربية الاسلامية مما يدل على تاثير الادب العربى فيها (34) ·

وكما أثرت الآداب العربية الاسلامية للغرب الاسلامى ، فى الآداب الغربية الاوروبية ، أثرت كذلك فلسفة الغرب الاسلامى فى الفكر الاوروبى ، وكان لها باع طويل فى تطويره خلال العصرين الوسيط والحديث عن طريق الاندلس الاسلامية ومفكريها الكبار الذين اعترف الغرب الاوروبى نفسه بقدرتهم ، وبدروهم الكبير ، وأكد بيرنارد تراند بأن أعظم ما خلفه المسلمون للفكر الاوروبى هو أعمال فلاسفتهم (35) · ذلك أن الفلسفة الاسلامية فى الغرب الاسلامى فتحت أمام أوروبا آفاقا واسعة وجديدة ، ووجهت أنظارهم نحو ثقافات لم يكونوا يأبهون لها ، حببتهم فى الثقافة العربية، فجدوا فى طلبها ، والاخذ منها · وبواسطتها نفذوا الى ثقافة اليونان القديمة ، وعملوا على كشف ذخائرها (36) ·

فقد اهتم فلاسفة المسلمين بنقل فلسفة الاغريق الى العربية ، وشرحها، ونقدها ، وبفضلهم تعرف الغرب عليها، واشتد حماسه للتعرف عليها ويتذوقونها حتى ظهر فلاسفة المسلمين ، ونقلوها الى العربية وشرحوها ، وعرضوها بصورة شاملة · وأهم فلاسفة المسلمين الطبيعية ، والطب ، والجغرافية ، والفنون، الذين أثروا فى الفلسفة الاوروبية ، فلاسفة الغرب الاسلامى ، وعلى رأسهم : ابن باجة السرقسطى (1106) وابن طفيل (1107 ـ 1185) ، وابن رشد الذى علقت تعاليمه بتعاليم فلسفة أرسطو (37) ·

(33) سهير القلماوى · محمود علي مكى : أثر العرب والاسلام · ص 114 ـ 118
(34) نفس المصدر · ص 118 ـ 120 ·
(35) جون بيرنارد تراند : نفس المصدر · ص 55 ·
(36) د· ابراهيم بيومى : أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية· ص 191
(37) الفريد قيوم : تراث الاسلام · ص 240 ·

ان ابن رشد أبا الوليد (1136 ـ 1198) أو أفيروايز Averoès يعتبر أكبر شارح لفلسفة أرسطو التى أعجب بها أيما اعجاب ، ووضع لها ثلاثة شروح مما جعل أرنست رينان يقول : بأن ارسطو ألقى على الكون نظرة صائبة ففسره وشرح ما غمض فيه • وأن ابن رشد عندما جاء ألقى على فلسفة أرسطو نظرة خاصة ففسرها وشرح ما غمض منها (38) ، ولذلك اعتبر شارحا أعظم فى حين اعتبر أرسطو فيلسوفا أكبر • ويمتاز ابن رشد بالصراحة ، والجرأة فى النقد ، وفى اعلان آرائه التى عرضته لتهم الكفر والزندقة ، فقد انتقد بطليموس ، وهاجم ابن سينا ، ورد على الفارابى ، والغزالى ، وكان شديدا فى نقده قاسى اللهجة (39) •

ولم يحاول أن يقلب بين آراء أرسطو، والمبادىء الدينية ، كما فعل ابن سينا ، وابن ميمون • بل عبر عن تعاليم أرسطو بصورة صادقة ، وقال بأن العقل العام المطلق أبدي قابل للانفصال عن الجسم، وانكر الخلود والبعث ، وصرح بأن على المرء الا ينتظر ثوابا أو عقابا غير ما يلقاه فى هذه الحياة الدنيا ، واستنكر الاستبداد ، وأوضح بأنه لا فرق بين الرجال والنساء فى الطبع ، وانما فى الكم (40) •

وقد أثرت فلسفة ابن رشد تأثيرا كبيرا ، فى فلسفة أوروبا ، ومنها اقتبس الغرب كل أفكاره الفلسفية • وكان من حسناتها أنها حلت عقال الفكر الاوروبى، وفتحت أمامه أبواب البحث والمناقشة على مصاريعها (41) • غير أن أفكار ابن رشد عارضت اتجاه الكنيسة المسيحية وتعاليمها ، فنقمت عليه ، وعلى أرسطو بالتبعية ، وأصدرت عدة قرارات فى القرن 13 حرمت بها تعليم وتبادل آرائها مع توقيع قرار الحرمان ضد كل من يردد فلسفتهما ، ومع ذلك فان تأثير ابن رشد وأساتذته بقى حتى القرن 15 وما بعدهما • وأكد دانتى اليجرى الشاعر الايطالى ، بأن ابن رشد يعتبر من عظماء الفلاسفة الذين شهدهم التاريخ •

ان تعاليم ابن رشد الفلسفية هي التى دفعت الاوروبيين الى عصيان تعاليم الكنيسة ، والاخذ بمبدا الفكر ، وتحكيم العقل ، على أساس المشاهدة والتجربة، كما أثرت فى فلسفة توما الاكوينى (1225 ـ 1274) ، تأثيرا كبيرا لدرجة أن الفصول التى كتبها عن العقل والعقيدة ، وعن عجز العقل عن ادراك الاسرار الالهية ، عبارة عن مقابلة لما كتبه ابن رشد فى باب : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة » • وأكثر

---

(38) E. Renan : Averroès et l'averroïsme (Paris 1866). p. 12.

(39) قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب • (القاهرة 1960) ص 206 ـ 207

(40) د• سعيد عبد الفتاح عاشور : فضل العرب على الحضارة الاوروبية • (مكتبة النهضة المصرية 1957) • ص 24 ـ 29 •

(41) طوقان : نفس المصدر • 207 ـ 210 •

من هذا فان طريقته فى معالجة وجــود الله هي طريقة ابن رشد نفسه ، ويحوى كتابه الخلاصة ، مذاهب اسلامية الاصل مما يثبت أن الاثر الذى تركه ابن رشد فى عقلية الغرب لم يكن مجرد شــروح لكتابات أرسطو ، وانما كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير (42) • ويعــود ذلك الى تأثير ابن رشد ، وكتبه المختلفة مثــل : الكليات فى الطب ، وكتاب التريـــاق ، اللذين ترجما وطبعا عام 1552 بالبندقية، وكتاب السموم الذى ترجم وطبـــع فى بوغدونى عام 1517 ، وتوالى بعد ذلك طبعها مرات عديدة (43) •

وفى ميدان الرياضيـات ، خطـــا المسلمون خطوات هائلة ، فى تطويـــر علوم الحساب والهندسة ، والجبـــر ، والميكانيكا ، وحساب المثلثات ، والفلك • نقلوا أصول هذه العلوم من الاغريق والهنود ، ثم عكفوا على دراستهـــا ، والاستفادة منها ، فأصلحوا ما بها من أخطاء ، وأكملوا مــا بهــا من نقــص ، وأضافوا اليها بعد ذلك معلومات جديدة، خاصة مادة الحساب ، لم يكن الاوروبيون على علم بها ، ولم يتعرفــوا عليــها الا منهم وبواسطتهم • فهم الذين عرفــوا بنظام الاعداد الهندسية ، والصـــفر ، اللذين يمثلان ثورة بحق فى علم الحساب، واستطاعوا بهما أن يزيلوا ذلك التعقيد الذى كان فى النظام العددى الرومانى، واستعملوا نظام الترقيم بدلا من حساب الجمل الذى كــان ســائدا فى العصور القديمة خاصة عند الرومان •

لقد تمكن المسلمون من ايجاد خانات للاعداد ، ووضــع صــفوف الآحــاد ، والعشرات ، والمئات ، والآلاف ، ومــا بعدها • وصار بالامكان تغيير قيمـــة الرقم الواحد حسب الرتبة التى يوضع بها بينما فى النظام الرومانى لا يتغير أبدا حتى ولو غير مكانه • فالارقـــام التالية تكتب فى النظام العربى الجديــد بشكل يختلف عن النظام اللاتينى :

CCCCLXXXVII = 487
CCCLXXXIII = 383
MMMDCCCCLII = 3952
DCCCCXXXXVIII = 998

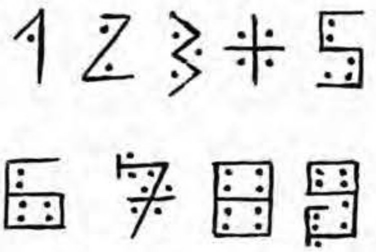
وذلك على أساس أن كل شكل لــه قيمة خاصة مثــل

10 = X ; 1 = L ; 1.000 = M ; 500 = D
100 = C ; 50 = L (44).

ولما كان لدى الهنود أشكال مختلفـة للترقيم فقد اختاروا من عندهم سلسلتين، عرفــت احداهمــا بالارقــام الهنديـــة (٥,٤,٣,٢,١) وهي التى تستعمل فى المشرق العربى الاسلامى ، حـــتى اليوم • وعرفت الثانية باسم الارقــام الغبارية وهي التى استعملت فى بـــلاد المغرب الاسلامى ، وسادت فى بـــلاد الاندلس بعد ذلك ، ومنهــا انتقلت الى أوروبا ، وعرفت باسم الارقام العربية ، ويرى البعض أنها مرتبة على أســـاس الزوايا • فرقم 1 يشتمل على زاويـــة

(42) Renan ص 237 ـ 246 •
(43) لوبون : ص 628 ـ 629 •
(44) زيغريد هونكه : ص 70 ـ 73 ـ و 91 •

واحدة ، و 2 على زاويتين ، و 3 على ثلاث زوايا وهكذا على الشكل التالى :



ثم دخل عليها تحريف وتعديل حتى أصبحت على ما هي عليها الأن · وفيما يخص الصفر استعمل الهنود نقطة (·) للدلالة عليه ، واسمه عندهم (سونيا) ، واستعملوا الدائرة (o) للدلالة على النقطة، فأخذ المسلمون النقطة بدلا من الدائرة حتى لا يلتبس رقم (o) عليهم ، ولكن مسلمى المغرب والاندلس استعملوا رقم الدائرة (o) صفرا ، وعنهم انتقل استعماله كذلك الى أوروبا (45) ·

والاصل فى تسمية هذه الارقام غبارية فى السلسلة الثانية هو أن الهنود كانوا ينثرون غبارا على لوح الخشب الذى يرسمون عليه هذه الارقام · وتأتى أهميتها هي والسلسلة الاولى من سهولة تركيب أي عدد منها مهما كان كبيرا لانها تقوم على النظام العشرى ، بحيث تتغير قيمة العدد أو الرقم حسب موقعه · فهو فى خانة الآحاد غيره فى خانة العشرات ، أو المائات ، وهكذا · وأعطى الصفر لهذا النظام ميزة خاصة بعد أن نقله المسلمون عن الهنود (46) ·

ومن أعلام المسلمين فى العلوم الرياضية بالغرب الاسلامى : مسلمة المجريطى ، الذى يعتبر اماما للرياضيين بالاندلس ، وتوفي عام 1007 م · وعنه تتلمذ كل من ابن السمح ، وابن الصفار، والكرمانى ، وأمية بن أبى الصلت ،ــ وغيرهم (47) ·

ومن ضمن الذين نقلوا نظام الحساب الغبارى ، ونظام الصفر ، الى أوروبا ، من الاندلس ، البابا سلفستر الذى كان يدعى جلبرت قبل أن يصل الى مركز البابوية ، وذلك خلال عهد الحكم الاموى أواخر القرن العاشر الميلادى (48) ·

ومن الذين نقلوه من الجزائر بالمغرب العربى ، الرياضى البيزى ليوناردو فيبونانشى الذى كان أبوه الطبيب Bonaccio رئيسا للمركز التجارى البيزى ببجاية · فقد ولد ليوناردو فى بيزا بايطاليا عام 1180 م ، والتحق بأبيه فى بجاية فى صدر شبابه فأهتم بتثقيفه، وأسند مهمة تعليمه الى أستاذ بجائى اسمه سيدى عمر ، يدعى فى البداية باسم ليوناردو فيليوش بونانتشى : *Leonardo Filius BONACCI* ثم اصبح

(45) جرجيس فتح الله : تراث الاسلام · ص 593 ــ 594 ·
(46) د· عبد الحليم منتصر : أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية · ص 216 ــ 217 ·
(47) أحمد أمين : ظهور الاسلام · ج 3 ص 270 ــ 273 ·
(48) زيغريد هونكه : ص 80 ــ 84 ·

يدعى بعد ذلك باسم ليوناردو فيبوناتشى : LIONARDO FIBONA CCI وأهتم الطفل منذ صغره بعلوم الرياضيات ، وساعده اختلاطه بالتجار البجائيين ، وغيرهم، على تعلم ما سماه : طريقة العد السريعة بوسيلة عجيبة ، استخدم فيها الارقام الهندية الغبارية التسعة · ودفعه شغفه هذا الى القيام برحلة طويلة الى كل بلدان المغرب العربى ، ومصر والشام ، واليونان ، وصقلية ، اطلع خلالها على جهود المسلمين فى العلوم الرياضية · وفى الاخير وضع عدة كتب من ضمنها : كتاب العد : Liber Abaci عام 1202 م وكتاب الهندسة التطبيقية :

Protica Geomitrica عام 1220 م ، وكتابان آخران ابتكر فيهما طرقا جديدة لحل معادلات حسابية وهندسية من الدرجة الاولى والثانية · وبذلك كان من الرواد الاوائل الذين أدخلوا الى أوروبا الارقام الهندية ، والصفر ، والطريقة العشرية، والحساب ، والجبر ، والهندسة العربية (49) ·

وكان لتقدم المسلمين فى الرياضيات، أثر كبير فى تقدمهم فى علم الفلك ، الذى نقلوا أصوله الاولى من اليونان ، فصححوا النظريات الخاطئة لبطليموس السكندرى (50) · وأقاموا مراصد بشرق العالم الاسلامى وغربه لرصد النجوم من ضمنها مراصد فاس ، وقرطبة ، والقيروان ·

ومن أعلام الفلكيين المسلمين فى الغرب الاسلامى أبو ابراهيم الزرقالى (1029 ـ 1087) الطليطلى الذى اخترع الازياج الفلكية التى هي عبارة عن جداول فلكية تعتمد على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب وحركاته ، ووضعه، وسرعته ، وانتقاله ، ورجوعه ، وما الى ذلك · وصنع اصطرلابا جديدا دعي « بصفيحة الزرقالى » تحدث عنها راجيو مونتانوس ، ونشر عنها دراسة فى القرن 15 ، وتحدث عنها الفلكى البافارى يعقوب زيقلر Jacob Ziegler عام 1504 م · وكتب عنها ترجمة جديدة ، يوحنا شونر Johan Schoner باللغة اللاتينية عام 1534 م ، تحت عنوان : فى عالم أبى العلوم الفلكية الزرقالى (51) ·

ومما يدل على تاثير الزرقالى ، أن الفونسو العاشر القشتالى اخذ ازجاله الفلكية وحاول أن ينسبها لنفسه ، وصارت تعرف فى الغرب الاوروبى باسم : الازياج الاذفونشية (52) ، وحتى المرصد الذى أقامه فى قشتالة اعتمد

---

(49) نفس المصدر · ص 88 ـ 94 · ديورانت · ج 17 · ص 170 ـ 171 ·

(50) M. Delambre : Histoire de l'Astronomie du Moyen Age. (Paris 1819). pp. 10 - 60.

(51) زيغريد هونكه : ص 152 ـ 153 ·

(52) حيدر بامات (ج· بريفوار) : مجالى الاسلام · ترجمة عادل زعيتر (القاهرة 1956) · ص 133 ·

فيه على الخبرة العربية المغربية ، وآلاتها الدقيقـــة (53) ٠

وتمكن ابراهيم السهلى البلنسى عام 1081 ، من صنع أقدم كرة معروفـة فى التاريخ ، على ما يظهر ، من النحـاس الاصفر طولها 209 مليم (81،5 بوصة)، وحفر على سطحها 1015 نجما مقسمـة الى 47 كوكبة ، تبدو النجوم فيها حسب أقدارها ٠ وجعلت خيـــرالدة اشبيليـة منارة ومرصدا فى آن واحد استعملهـا جابر ابن أفلح الاشبيلى فى أرصـــاده الفلكية التى نشرها فى كتابه : اصـلاح المجسيطى عام 1240 الذى انتقـد فيــه بعض آراء بطليموس ، واثبت أن المريخ والزهرة أقرب الى الارض من الشمس ٠ واليه ينسب اختراع بعض الآلات الفلكية، وبعض النظريـات فى حســاب المثلثات الكروية (54) ٠

وقد قام جيرارد الكريمونى بترجمة كتاب : المناظر ، وغيره ، من تراث ابن أفلح الى اللاتينية عام 1270 ، وطبع فى نور مبورج سنة 1533 (55) ، ومعلـــوم أن ابن أفلح كان ضمن من أشرف على بناء صومعة اشبيلية ، أو برج الخيرالدا الذى اعتبر من المراصد الاولى والكبرى بالاندلس (56) ٠

وفى عام 1229 م نشر الحسن المراكشى جداول فلكية تشمل جيوب الزوايا لكل درجة من الدرجات ، وجداول بجيـوب التمام ، وجيوب الاقواس ، والاقـواس المتماسـة ٠ وذلك فى كتابه : « جامـع المبادى والغايات فى علم الميقات » الذى ترجم سيديو بعضه فى القرن المـاضى عــام 1843 ٠

وحتى أبـو اسحــاق البطـروجى ، الاشبيلى الذى أصبح يعرف عند الغرب، باسم البتراجيوس Alpetragius انتقد نظريات بطليموس السكندرى الفلكية ، التى ادعى فيهـا بأن حركـات النجوم ومساراتها تنبنى عـلى نظريـة أفـلاك التدوير ، والدوائر المختلفة المركـــز ٠ وبانتقاده هذا مهد الطريق لكوبر نيكوس رائد الفلكيين الاوروبيين فى عصـــر النهضة ليخطو بهذا العلـــم خطـوات أخرى الى الامام (57) ٠

وللبطروجى كتاب فى هذا العلـــم سماه : كتاب الهيئة ، ترجمة ميشيــل اسكوث الى اللاتينية عام 1217 ، وترجمه الى العبرية موسى بن ميمون حـــوالى عام 1529 ٠

ان الفلكيين المسلميـن فى الغـــرب الاســـلامى هـم الذين زودوا أوروبـا

---

(53) زيغريد هونكه : ص 136 ـ 152 و 181 ـ 194 ٠ تراث الاسلام ٠ ص 566 ٠
(54) ديورانت ٠ ج 13 ٠ ص 356 ـ 357 ٠
(55) لوبون : ص 631 ٠
(56) جلال مظهر : أثر العرب فى الحضارة الاوروبية ٠ نهاية عصر الظـــلام وتأسيس الحضارة الحديثة (بيروت 1967) ص 291 ٠
(57) زيغريد هونكه : ص 191 ـ 192 و 201 ، ديورانت ٠ ج 13 ٠ ص 357 ٠ أثر الاسلام ٠ ص 566 ٠

بالمعلومات والنتائج الفلكية الهامة التى توصلوا اليها · وما يزال حتى اليوم علم الفلك مليئا بالاصطلاحات العربية ، وأسماء الابراج ، والنجوم، والكواكب ، كما هي دون تحريف مثل : الطرف : Altaref وكرسى الجوزاء Cursa والكف Caph والارنب Arneb والبطين : Botein والوزن ، Wezn وسعد السعود : Saadisud والراعى Errai وقرن الثور Tauri والسمت : Azimuth وغيرها (58) ·

وفى علم الطبيعة والكيمياء ، لعب الغرب الاسلامى أيضا دوره الكبير ، خاصة فى اختراع واستغلال القوة الناجمة عن انفجار مادة البارود الذى كان الصينيون أول من اهتدى اليه على ما قيل · وذلك بفضل استغلال ملح البارود أونترات البوتاسيوم ، والفحم ، والكبريت · وفى أواخر القرن 13 ألف حسن الرماح كتابا عن الاسلحة النارية، وملح البارود ، أشار الى اختراع ما يمكن تسميته بالقنبلة أو الطوربيد ، وذكر بأنها : « بيضة تخرج وتحترق » (59) ·

وأشار ابن خلدون الى ما يفيد استعمال المدافع النارية بالمغرب العربى منذ القرن 13 خلال استعراضه لحادثة استيلاء السلطان أبى يوسف على سلجماسة عام 1273 فقال :« نصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات ، وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة فى البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قوة باريها » ·

وسرعان ما تعلم الاوروبيون هذا الاكتشاف الجديد ، فكتب مرقص جريكوس بيانا بمسحوق ملح البارود والكبريت والفحم ، تحت التأثير العربى فى القرن 13 ، وعندما هاجم الفونسو الحادى عشر مدينة الجزيرة الخضراء فى جنوب الاندلس عام 1342 استعمل المسلمون ضده الاسلحة النارية ، وكان حاضرا آنذاك معه كونت دربى : Derby وكونت سالسبورى : Salisbury الانجليزيان ، فشاهدا نتائج هذا المخترع وأسرعا فى نقل كيفية صنعه واستعماله الى بلادهم ، واستخدمه الانجليز بعد أربع سنوات فى معركة كريسى Crecy (60) ضد الفرنسيين · كما استعمله الفرنسيون قبلهم عام 1339 للدفاع عن كامبرى Cambri (61) ·

ولا شك أن اكتشاف البارود واستغلاله من طرف المسلمين فى الشرق وفى الغرب الاسلامى كان له أهمية فى تاريخ العالم من جهة ، وتأثير على نهضة أوروبا الحديثة سواء فى الحروب أو فى المشاريع العمرانية الهائلة والمختلفة الانواع والاشكال · كما أن تقدم المسلمين وتفوقهم فى علم الكيمياء كان سببا فى

(58) عاشور : فضل العرب · ص 42 ·
(60) نفس المصدر · ص 52 — 54 · وجلال مظهر · ص 343 — 351 ·
(61) حيدر بامات · ص 141 ·

حذقهم لصناعات الدباغة ، واعداد الجلود ، وتنقية المعادن ، وسببيا في الشهرة العالمية لحرير غرناطة المتموج الالوان ، وموصلي قرطبة الابلق ، ونصال طليطلة • وما تزال المصطلحات العربية في هذا العلم كثيرة في اللغات الاوروبية حتى اليوم ومن ضمنها : الكحول : Alcool و Alcohol والقلويات : Alcail وغيرها •

وكان للمسلمين دور بارز وهام في علم الطب والجراحة • فبعد أن ترجموا تراث اليونان الى العربية ، اهتموا بدراسته وتطويره ، وتصدى لذلك جيل من العلماء خصص لهم ابن أبي صبيعة مجلدا خاصا من كتابه : عيون الانباء في طبقات الاطباء • للتعريف بهم ، وقد انصبت جهودهم على تعديل الكثير من الحقائق الطبية ، وتصحيح غيرها ، واضافة أبواب جديدة في الطب والصيدلة ، لم يسبقهم اليها أحد قبلهم ، وذلك في الوقت الذي كان رجال الدين بأوروبا يعتبرون المرض نوعا من الجزاء والعقاب الالهي لا ينبغي للانسان أن يعالجه بحيث اذا انتاب أحد منهم مرض أو حمى يهرع الى أقرب كنيسة أو دير اليه ، ويبقى هناك منتظرا حدوث معجزة تشفيه • وروى أسامة بن منقذ حوادث ونماذج كثيرة توضح الفرق الكبير بين مستوى المسلمين الرفيع في ميدان الطب ، ومستوى الفرنجة المنحط حتى لابسط مبادىء الطب خلال الحروب الصليبية (63) •

ومن أبرز أطباء المغرب والاندلس ، أفراد عائلة ابن زهر بمؤلفاتهم ، وابن رشد ، وابن البيطار المالقي ، وابن اندراس البجائي ، وابن حزم الاندلسي، وغيرهم ، الذين ترجمت كتبهم عدة مرات الى اللاتينية منذ 1509 م الى منتصف القرن 18 ، وظلت مرجعا هاما للاوروبيين في أبحاثهم الطبية طوال هذه الفترة •

فابن أندراس أبو القاسم أحمد بن محمد المرسي ، استقر ببجاية في بحر العشرية السادسة من القرن السابع الهجري (حوالي 1252 — 1260) وتصدى للتطبيب في قصر الامارة ، واشتهر بخبرته الواسعة في العلاج ، واستحضار الادوية ، مما جعل الامير المستنصر بتونس يستدعيه اليه ويضمه الى هيئة أطباء قصره • وله أرجوزة في أسماء أدوية الطب المفردة المختلفة (64) •

ويعتبر أبو القاسم الزهراوي القرطبي (936 — 1013) من الجراحين والاطباء الكبار ، بالغرب الاسلامي ، ابتكر عدة عمليات جراحية دقيقة في العيون ، والاسنان ، والولادة ، أهمها : سحق الحصاة في المثانة ، واستخراجها ،وكي الجراحات ، ولزوم تشريح الاجسام الحية والميتة • وهو الذي اقترح عندما

(63) نفس المصدر • ص 55 •

(64) أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية • تحقيق محمد بن أبي شنب • (الجزائر 1910) ص 45 — 47 •

كان طبيبا فى قصر الحكم الثانى ، استخدام مساعدات ، وممرضات ، فى حالات اجراء العمليات الجراحية للنساء ، لان ذلك أدعى فى نظره للرأفة، والحنان ، والاطمئنان ·

ويشتمل كتابه : « التصريف لمن عجز عن التآليف » المؤلف من ثلاثين فصلا ، على وصف لاكثر من مائة آلة جراحية الكثير منها من صنعه هو ، كان لها أبلغ الاثر فى الجراحة الاوروبية خاصة فى القرن 16 (65) · وقد قام جيرارد الكريمونى بترجمة كتابه هذا فى وقت مبكر ، وبقي مرجعا وعمدة فى الطب لاوروبا أكثر من خمسة قرون حتى عصر امبروازبارى : Ambroiseparé المتوفى حوالى 1590 (66) ، وذلك فى مدرستى سالرنو Salerno الايطالية ، ومونبيلى Montpellier الفرنسية ، الطبيتين (67)، وهو مقسم الى ثلاثة أقسام : أ) ــ الطب الداخلى · ب) ــ والاقرباذين والكيمياء · ج) ــ والجراحة (68) · ويقال ان مدرسة سالرنو التى أسسها أربعة أشخاص كان من بينهم واحد عربى يدعى عبد اللــه وحرف اسمه الى عقلة (69) ·

وتعتبر أسرة ابن زهر من العائلات المشهورة فى ميدان الطب ، والعلوم الطبيعية ، والكيمياء بالمغرب والاندلس · أنجبت ستة من مشاهير الاطباء كان كل واحد منهم علما على رأس القائمة فى عصره ، نخص بالذكر ثلاثة منهم وهم : عبد الملك ابن محمد الايادى الذى درس بالاندلس ، ومصر ، والقيروان ، وأولى عنايته بالطب · ومن بعده جاء ابنه أبو الفداء زهر الذى أولع بالطب والعلوم الطبيعية · وفى الاخير يأتى ابنه أبو مروان الثالث عبد الملك زهر الذى طارت شهرته الطبية فى الاندلس كخلف للرازى فى المشرق الاسلامى · لقد امتاز أبو مروان أو Avenzoar كما كان يسمى فى الغرب ، بالتخصص فى دراسة الطب على عكس غيره الذين جمعوا بين الطب والعلوم الاخرى · وبرز تفوقه فى الطب الاكلينيكى بعد الرازى (70) · وألف كتاب : « التيسير فى المداواة والتدبير » استجابة لرغبة صديقه وتلميذه الفيلسوف ابن رشد ، شرح فيه فن الاستشفاء ، والعلاج ، والاحتماء (اتباع أغذية الحمية) · واهتم بدراسة أنواع مختلفة من الاغذية والادوية البسيطة ، والصحية ، وخلد مآثر هامة فى وصف الامراض ، وترك تحليلات أثرت عنه فى الورم المحزمى ، والالتهاب التامورى ، والسل المعوى ، والشلل البلعومى ·

---

(65) جلال مظهر ، ص 248 ــ 260 ·
(66) لوبون · ص 519 ·
(67) طوقان · ص 154 ــ 155 ·
(68) زيغريد هونكه · ص 277 ــ 291 و 340 ــ 347 ·
(69) د · محمد كامل حسين · ص 283 ·
(70) ديورانت ج 13 · ص 360 ·

وتدين له الجراحة بأول فكرة عن جراحة الجهاز التنفسي ، وبتعليماته الدقيقة عن انتقال العظام ، والكسور ، وقد عارض جالينوس فى آرائه التشريحية وبعض نظرياته الطبية · وبذلك أصبح عضداً لاطباء أوروبا الذين عملوا على بناء علم التشريح على أسس جديدة فى القرن 16 وما بعده ، ومنهم فيساليوس (71) · ونظرا لاهمية آرائه الطبية ترجم الاوروبيون كتابه الى اللاتينية والعبرية منذ القرن 13 ، وظهرت أول طبعة له بالبندقية عام 1490م كان لها تأثير كبير فى عالم الطب · ومن كتب ابن زهر الاخرى ، كتاب : الاقتصار فى اصلاح الاجساد · الذى ألفه الى الامير المرابطى أبى اسحاق بن يوسف ابن تاشفين ، أثناء وجوده بمراكش ·

ويعتبر الطبيب ابن الجزار (أحمد ابن ابراهيم بن أبى خالد أبو جعفر) الذى عاش فى القيروان حتى توفى عام 1004 م) ، من رواد الطب فى الغرب الاسلامى ، تضلع فيه واتخذ لنفسه عيادة لاستقبال الناس ومعالجتهم فى الفصول الباردة · أما فى فصل الصيف فانه يغلقها ويذهب مع الاساطين الاسلامية الغازية فى البحار لمعالجة المرضى ، والجرحى · وساعده ذلك على تطوير معلوماته الطبية ، والصيدلية · ومن مؤلفاته الطبية : « قوت الحاضر » و « طب الفقراء والمساكين » و « كتاب الاقرباذين » و « كتاب الاعتماد » و « كتاب الابدال » ترجم معظمها الى اللاتينية ، وما يزال البعض منها فى الاسكوريال ، ودرسدن، وباريس ، وأكسفورد ، والجزائر (72) · وترجم الطبيب ستيفان Stephan كتاب الاقرباذين بعنوان : زاد المسافرين Via Ticum Peregrinantis

ومن أبرز الاطباء الافارقة الذين لهم دور كبير فى امداد الطب الاوروبى بالخبرة الطبية الاسلامية ، قسطنطين القرطاجنى الذى ولد بقرطاجنة فى تونس حوالى عام 400 هـ (1009 م) · فقد قام بجولات واسعة فى الشرق والغرب بعد أن تزود بالمعلومات الواسعة فى مسقط رأسه بتونس ، وذلك من أجل الاستزادة بالعلوم والمعارف · ثم رجع الى تونس ، ولظروف غامضة تنصر ، واتجه الى صقلية واتخذه الامير النورمانى روبير جيسكار Robert Guiscard كاتبا له مدة من الوقت ، ثم اعتزل منصبه ، واعتكف فى ديرمونت كاسينو Monte Cassino وأخذ يهتم بالتأليف والترجمة من العربية الى اللاتينية فى ميدان الطب غير أنه أهمل ذكر أسماء أصحاب هذه المؤلفات ، وحاول أن ينسبها الى نفسه ، كما أن ترجمته كانت رديئة · ومن الكتب التى ترجمها زاد المسافرين لابن الجزار باسم : Viaticus وكتاب علي بن العباس باسم : Pratica Pantegni وكتب الرازى ، واسحاق بن سليمان

(71) جلال مظهر · ص 244 ـ 245 و 262 ـ 263 ·
(72) زيغريد هونكه · ص 288 ـ 348 ·

الاسـرائيلى ، وألف نحو 22 كتابا فى مختلف فروع الطب وطريقة الوقاية من الامراض ، والعلاج ، طبعت كلهـا بين سنتي 1536 و 1539 (73) .

وقد اعتبر قسطنطين أول الـرواد الذين قدموا الطب العربى الى أوروبـا اللاتينية ، وهو الذى فتح الطريق لجيرارد الكريمونى (1114 ـ 1176) ، وأدى الى ظهور وقيام مدرسة وجامعـة مونبيلى التى أصبحت فيما بعد احدى المـراكز الهامة للثقافة بأوروبا الى جانب مدرسة سالرنو (74) .

ومن الاطباء الآخرين الذين اشتهـر بهم الغرب الاسلامى وأدوا دورهـم بارزا : أبو بكر بن باجة السرقسطى . والطبيب علي بن عبد الرحمن الطليطلى صاحب الشهرة الواسعة فى طـرق العلاج للمرضى . والطبيب الفلكى أمية ابن أبى الصلت الدانى الذى رحل الى القاهرة واعتقل عدة سنوات هناك من طرف الحكومة الفاطمية . ومن مؤلفاته : رسالة العمل بالاسطرلاب ، وكتاب الوجيز فى الهيئة ، وكتاب الادوية المفـردة ، وكتاب تقوية الـذهن . وقـد نفي الى تونس واستقر بالمهدية وألف لاميرهـا عدة كتب . والطبيب الفيلسوف أبو بكر ابن طفيل صاحب رسالـة « حى بـن يقظان » و « أسرار الحكمة المشرقية » و « الارجوزة الطبية المجهولة » و « رسـالـة فى النـفس » . والطـبيب الفيلسوف ابن رشد الذى نكبه المنصور ونفاه الى قرية اليشانة مدة من الزمـن قبل أن يسفر الى مراكش . والطبيب الفيلسوف أبو عمران موسى ابن ميمون القرطبى الذى عاش بالاندلس ، ثـم بمراكش ، ثم بالقاهرة ، حيث تـولى مهنة الطب للقائد الاسلامى الكبير صلاح الدين الايوبى (75) . والطبيب الكاتب والوزير لسان الدين ابن الخطيب الذى نشر رسالة عن العدوى وانتشارهـا بواسطة الاتصال والاختلاط بالمرضى ، وذلك عام 1348 م ذلك العام الذى كـان أكثـر هـولا وفضاعـة فى الامـراض والاوبئة (76) .

هكذا يتضح أن الطب الاسلامى قدم لاوروبا فوائد كثيرة كان للغرب الاسلامى دور بارز فيها من ضمنها الكتب الجامعة التى تناولت معظم فروع الطب ، والمادة العلمية الغزيرة المتعلقة بالطب الاكلينيكى، والمعرفة الواسعة للعقاقير والادويـة المركبة والمفردة ، والخبرة الواسعة فى ميـدان الجـراحـة ، ونظـام البيماريستانات (77) .

وقد أثبت الباحثون الاوروبيون أنفسهم أن الدورة الدموية التى يدعى الايطاليون أن مكتشفها هو ميقيل سيرفيد Miguel

---

(73) أحمد توفيق المدنى : ص 223 ـ 226 .
(74) جلال مظهر . ص 184 ـ 191 .
(75) زيغريد هونكه . ص 340 ـ 342 .
(76) نفس المصدر . ص 263 ـ 269 .
(77) د . محمد كامل حسين . ص 299 ـ 302 .

Served المولود فى فيلانوفا Villanouva من أعمال أرغون عام 1509 ، انما اكتشفها فى الحقيقة والواقع الطبيب العربى ابن النفيس البصرى المولود عام 1210 والذى كان كبير الاطباء فى مصر عشرات السنين ٠ ٠ وعنه أخذها واقتبسها ميقيل ، ونسبها لنفسه (78) ٠

وفى ميدان علم النبات برز ابن البيطار المالقى ، وأبو العباس الاشبيلى الذى اهتم بدراسة أنواع النباتات المختلفة التى تنمو فى المنطقة الممتدة بين المحيط الاطلسى والبحر الاحمر ٠

ويعتبر أبو محمد بن البيطار المالقى (1190 ـ 1248) رائد هذا العلم الى جانب خبرته الطبية ٠ تنقل فى عواصم الاندلس الكبرى ، وبلدان المغرب العربى ، ومصر والشام ، واهتم بدراسة الاعشاب والنباتات الطبية والصيدلية، حتى لقب فى مصر برئيس العشابين ، وبالطبيب الحاذق ، والعشاب البارع (79) ٠ وعني بذكر ماهيات الادوية ، وقوامها، ومنافعها، ومضارها، واصلاح ضررها ، والمقدار المستعمل فى جرمها ، أو عصارتها ، أو طبخها ، والبدل منها عند عدمها ٠ ووصف ما يقرب من 1400 نباتا ، وغذاء منها ما لم يكن معروفا اطلاقا قبل ذلك ، وحلل تركيباتها الكيمياوية وخصائصها العلاجية وطرق استخدامها ، ورتبها ترتيبا أبجديا ، وذكر أسماءها بعدة لغات (80) ٠

ومن كتبه التى ألفها فى هذا الميدان كتاب : الجامع فى مفردات الادوية والاغذية ، وكتاب : المغنى فى الادوية، وكتاب : الاقرباذين ٠ ويعتبر كتابه الاول، موسوعة كبيرة ، غزيرة المادة ، عظيمة الفائدة، بقيت مرجعا وحيدا لاوروبا حتى القرن 16 وما بعده ، وجعلت ابن البيطار من عظماء علماء النبات ، لانه جمع كل ما ذكره جالينوس وديسقوريدوس اليونانيان وكل ما عرفه المسلمون قبله ٠ وترجمت أجزاء من كتابه الجامع الى اللاتينية ، وطبعت فى البندقية عام 1598 ، ثم فى باريس ، وكريمونا ، والمانيا بعد ذلك (81) ٠ وترجمه لوكلير كاملا وطبعه فى باريس عامي 1877 ـ 1881 ٠

وكما اعتنى ابن البيطار بعلم النباتات، اهتم أيضا بوصف كثير من أنواع الحيوانات التى تستخلص منها بعض العقاقير العلاجية (82) ٠ والى جانب نشاط ابن البيطار وغيره فى علم النبات والحيوان ، نجد علماء آخرين بالغرب الاسلامى يهتمون بدراسة أنواع الترب ، والاسمدة ، وعلى رأسهم

(78) هونكه ص ٠ 275 ـ 276 ٠
(79) د٠ محمد كامل حسين : أثر العرب والاسلام ٠ ص 242 ـ 243 ٠
(80) زيغريد هونكه ٠ ص 322 ـ 323 ٠ طوقان ص 218 ـ 221 ٠
(81) جلال مظهر ٠ أثر العرب ٠ ص 273 ـ 275 ٠
(82) محمد كامل حسين ٠ ص 246 ٠

أبو زكرياء بن العوام الاشبيلى فى القرن 12 م · الذى ألف « كتاب الفلاحـــة » ووصف فيه طريقة زرع 585 نوعـا مـن النباتات و 50 نوعا من الاشجار المثمرة، وشرح طرق التطعيم ، وأغراض الامراض فى الفلاحة ، فجاء كتابه أكمل البحـوث فى العصور الوسطى، وبقيت أهميته حتى القرن التاسع عشر مما دفع كليمان موثر الى ترجمته وطبعه فى باريس عـــام 1866 (83) ·

وفى ميدان الجغرافية ، كان فضـل المسلمين عظيما على أوروبا ، لانهـم نقلـوا تراث اليونـان ، الجغـرافى ، واعتكفوا عـلى دراستـه وتطويـره ، فصححوا الاخطاء الموجودة به ، وأضافوا له معلومات وخصائص جديدة ، بفضـل رحلاتهم الكثيرة ، ومشاهداتهم الواسعة خلالها لتلك البلدان والامصـــار الـتى زاروهـــا ·

ومن الرحالة المسلميـن بالغـــرب الاسلامى ، ابن بطوطة ، ومن الجغرافيين اللامعين ، الشريف السبتى الادريسى، الذى أسهم هو وغيره بجهد كبير وفعال فى بناء علم الجغرافية ، وفى اثـرائـه بالمعلومات والبحوث النافعة التى استفاد منها الاوروبيون ، وترجموهـــا الى لغاتهم اللاتينية والاوروبية الحديثـة · وظل المسلمون فى هذا الميدان ، كما فى غيره ، أساتذة أوروبـا عـدة قـرون ، وجاءت المعلومات التى توصلوا اليها ، هى عين الحقيقة ، أو قريبة منها ، فى حين أخطأ بطليموس الاسكندرى ، وكذلك غيره من علماء الاغريق ، فى تقديـــر طول البحر المتوسط بحوالى 400 فرسخا، على عكس المسلمين (84) ·

ويعتبر الشريف الادريسى (1099 ـ 1166) رائد الجغرافيين المسلمين فى الغرب الاسلامى ، ولد فى مدينة سبتة بالمغرب الاقصى ، واعتكف على الدراسة والتحصيل ، ثم قام بعدة رحـــلات الى الاندلـس ، وبلدان المغـرب العـربى ، وجنوب فرنسا ، وايطاليا ، واليونان ، وآسيا الصغرى ، وحتى انجلترا ، وفى الاخير استقر به المقام فى باليرمـــو بصقلية ، وحظي بالتقدير لدى ملكهـا روجر الثانى Roger II (1101 ـ 1154م)، بفضل نبوغه وتضلعه فى علم الجغرافيا، فكلفه بوضع كتاب له فى هذه المادة ، أنجزه بسرعة ، وسماه : « نزهة المشتاق فى ذكر الامصـــار والاقطـار والآفـاق والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » (85)، وأصبح يعرف بالكتاب الرجاوى نسبة الى روجر فيما بعد · وقد زوده الادريسى بحوالى سبعين خريطة كانت أحسن من خرائط الجغرافيين السابقين له · وجمع بين الجغرافية الوصفية والفلكية (86) ·

(83) ديورانت : ج 13 · ص 358 ·
(84) عاشور : فضل العرب · ص 44 ـ 45 ·
(85) ديورانت · ج 13 · ص 58 · طوقان · ص 197 ـ 200 ·
(86) ج · ش · كرامرز : تراث الاسلام · س 141 ـ 143 ·

وقسم الارض الى سبعة أقاليم عرضية ، ووضع خريطة جامعة للكرة الارضيـــة رسمها على كرة من الفضة وزنها 1800 أوقية ، وخطط عليها تلك الاقاليم السبعة المتوازيـة عرضـيا ابتـداء من خـــط الاستـــواء (87) ٠

ولاهمية كتاب الادريسى اعتـــنى الاوروبيون به فترجموه الى اللاتينية فى وقت مبكر ، وطبع فى روما عام 1619 لاول مرة بصورة مختصرة ، وبقي مرجعا لعلماء أوروبا الجغرافيين طوال ثلاثـة قرون وزيادة ٠

وقد أشار الادريسى الى ما يثبت أن مسلمى الغرب الاسلامى كانوا أسبق فى اكتشاف أمريكا ، وعبور الاطلنطى ، من كولومبوس ، وذلك عند حديثه عن الاخوة المغرورين الذين خـرجـوا من لشبونة واتجهوا الى المحيط الاطلنطى غربا حتى اكتشفوا أكثر من جزيرة (88) ٠

وحتى فاسكو داجاما الايطالى لـم يستطع أن يصل الى الهند عبر سواحل افريقيا الشرقية الا بفضل الملاح العربى شهاب الدين بن ماجـد الذى لا يشير اليه الاوروبيون ، وقد اندهش فاسكـــو عندما وجد لدى ابن ماجد اصطرلابا من النحاس ، وخريطة بحرية دقيقة ، وعددا من الادوات البحرية الهامة ، بينما هو لم يكن يملك سوى اصطرلاب خشـبى صغير وغير دقيق (89) ٠

ومما ساعد المسلمين بالمغرب والمشرق الاسلاميين ، على تطوير علم الجغرافية، وفنون الملاحة البحرية اهتداؤهم ، منـذ وقت مبكر ، من نهضتهم ، للبوصلـــة أو بيت الابرة ، واستغلالهم لها استغلالا علميا ، رغم أن مبتكريها الاولين هـــم الصينيون على ما قيل ، وعن المسلمين نقله الاوروبيون الى أوروبا ليستغل بعد ذلك فى النشاط البحرى الاوروبى أواخر العصر الوسيط ومطلع الحديث ٠ وليس صحيحا ما قيل من أن المسمى فلافيوجيوبا الايطالى الامالقى هو الذى اخترع هذه الآلـة ، رغـم أن كـرامرز يـميل الى ذلك (90) ٠لان بطرس فـون ماريكور : Petrus Ven Maricourt هو الذى نقل عن العرب عام 1269 ، معلوماتـــه عـــن المغناطيس ، وعن كيفية استعمال البوصلة التى أشار اليها الادريسى فى كتابـــه قبل ذلك فى القرن الثانى عشر ٠ وأدخل الاوروبيون استعمالهـا الى أوروبـا ، وأشار اليها ماريكور فى رسالة خاصة سماها : Epistole de Magnete وبعـده بحوالى خمسين عاما ، أي حوالى عام 1320 اكتشف فلافيوجيوبا البوصلـــة كما زعموا ، وفى الحقيقة أخذ أسـرار استعمالها من غيره (91) ٠

(87) توفيق المدنى ٠ ص 236 — 237 ٠ جلال مظهر ٠ ص 314 — 329 ٠
(88) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج 3 ٠ ص 293 — 299 ٠
(89) زيغريد هونكه ٠ ص 416 — 423 ٠ كرامرز : تراث الاسلام ٠ ص 150 — 151
(90) كرامرز ٠ ص 152 — 153 ٠
(91) زيغريد هونكه ٠ ص 47 — 48 ٠

ومثلما انتفع الاوروبيون بتـــراث الادريسى الجغرافى المغربى ، استفادوا أيضا من تراث الحسن بن محمد الوزان الزيانى ، أو ليون الافريقى ، الذى ألف كتاب : وصف افريقيا ، فاعتمدوه عدة قرون للتعرف على شمال هذه القارة ٠ وقد كتبه الحسن الوزان بالعربيـة ثـم ترجم الى اللاتينية ، عندما كان مقيما بالفاتيكان خلال بابوية ليو العاشر (92) ٠ وبقى هذا الكتاب مرجعا كذلك لاوروبا حتى القرن التاسع عشر ٠ وما تـزال حتى اليوم مصطلحات بحرية وتجارية فى اللغات الاوروبية مثل : Admiral من أمير الماء (البحر) و Arsenal من دار الصناع (صناعة)، و Felouque من الفلك ، و Calfate من القلفطة، و Boussol من البوصلة ، و Tare من طرح السفينة ، و Fregar من الفرقاطة ٠ وغيرها (93) ٠

وفى ميدان الصناعة ، كان للمغرب الاسلامى دور بارز فى تعريف الاوروبيين بعدد هائل من الصناعات وفنونهـــا كـــالورق ، والنسيـــج ، والخـــزف ، والزجاج، والسكر، والبارود، والزخرفة، وغيرهـــا ٠

فصناعة الورق الـتى اخترعهـــا الصينيون أول مرة ، وصلت الى أوروبا عن طريق مسـلمى الغرب الاسلامى ٠ وكان لمصنع شاطبة الاندلسى ، شهرة واسعة فى صناعة الورق الجيد الـذى امتدحـه الشريـف الادريسى فى القرن 12 م ، وأطلق عليه اسم رقائق القماش تمييزا له عن رقائق الجلد ، لانه يصنع من أسمال القطن ، والقنب ، والكتان ، بدلا من الحرير ٠ ومن الاندلس وصقلية، والمغرب العربى ، انتقلت صناعة الورق الى ايطاليا ، وباقى أوروبا ، وأقيم أول مصنع فى فبريانوا بايطاليا عام 1276 ، ثم فى بادوا عام 1340 ، ثم فى المانيا بعد ذلك (94) ، وساعد ذلك على تطوير التعليم وتوفير الكتاب ٠

وقد تعرف الايطاليون على صناعتـه عندما كانوا يترددون على الانـدلس فى القرن 12 ، خاصة الذين كانوا يذهبون الى زيـارة قبـر القـديس يعقـوب فى سانتيوغادى كومبوستيلا Santiogadi Compostala شمال غرب اسبانيا ٠ وكان ذلك سببا فى انتشاره بايطاليا ثـــم فى أوروبا (95) ٠ وحتى القطن الذى يستغل فى صناعة الورق ازدهرت زراعته فى بلدان المغرب العربى والاندلس وصقلية، ومن هناك انتقل الى باقى بلدان أوروبا الغربية ليستغل فى صناعـة الـــورق والنسيج كذلك (96) ٠ وكان بفـــاس

(92) د٠ محمد محمود الصياد : أثر العرب والاسلام ٠ ص 317 ــ 318 ٠
(93) السير أرنست باركر : تراث الاسلام ٠ ص 96 ــ 98 ٠ لوبون ٥ ص 441 ــ 442
(94) جلال مظهر ٠ أثر الاسلام ٠ ص 337 ــ 340 ٠
(95) حيدر بامات ٠ ص 106 ــ 108 ٠
(96) زيغريد هونكه ٠ ص 32 ــ 41 ٠

وحدها حوالى 400 حجرة لصناعة الورق ، وكذلك الامر فى طرابلس الغرب، وبجاية ، والقيروان · ومسلمو الغرب الاسلامى هم الذين عرفوا أوروبا بزراعة قصب السكر ، وصناعة السكر ، أو الملح الهندى ، الذى كانت صناعته شائعة فى المغرب الاسلامى ، مثل طرابلس الغرب ، والقيروان ، وبجاية ، ومراكش، وفاس ، وعواصم الاندلس الكبرى ، وصقلية · ومن هناك انتقل الى جنوب أوروبا ، وغربها ، والى جزر ماديرا حوالى عام 1420 ، وجزر الكنارى حوالى عام 1503 ، ومن هناك انتقلت الى العالم الجديد (97) ·

وقد أشرنا فى السابق الى دور المسلمين فى الغرب الاسلامى ، فى صناعة البارود ، نظرا لخبرتهم الواسعة فى علم الكيمياء والطبيعيات ، ونضيف هنا دورهم فى صناعة الزجاج ، والخزف، بمدن المغرب الكبرى ، والاندلس ، وصقلية ، وفى نقلهما بعد ذلك الى أوروبا باشكالهما ورسومهما المختلفة، وزخرفتهما الجميلة التى كان يستغل فيها حتى الخط العربى خاصة الكوفى، وأثارت اعجاب الاوروبيين الذين قلدوا ذلك بشكل واسع ما تزال بعض آثاره حتى اليوم فى بعض التحف ، والصلبان (98) · ومن بجاية تعلم الاوروبيون صناعة الشمع ونقلوها الى أوروبا ، وأصبحوا يطلقون عليه اسم هذه المدينة Bougie (99) ·

هكذا يمكن القول ان الغرب الاسلامى بأقاليمه الواسعة ، هو الذى بعث الحياة فى أوروبا الجنوبية والغربية ، وعرفها بالعلوم والصنائع الاسلامية ، ومكنها من استغلال مزروعات لم تكن معروفة لديها قبل ذلك كالقطن ، وقصب السكر، والبرقوق ، والزعرور ، والياسمين ، والزعفران ، والقرمز ، والعنبر ، والقنب ، والزنجبيل (100) · ومن أقوال الدكتورة زيغريد هونكة فى هذا المقام قولها :

فى الواقع ان كثيرا من الكتاب العرب فى القرن العاشر الميلادى ، يشهدون بوجود تجارة مزدهرة بين عرب شمال افريقيا من جهة ، وبين كل من البندقية، وأمالفى ، وباليرمو ، من جهة أخرى ، تحمل سفنها الستائر الحريرية النادرة، وأكيسة الهياكل ، والاوشحة السوداء، والاردية ذات الالوان السماوية الجميلة، وسلال سكر طرابلس الغرب وأكياسه ، من القيروان ، وسوسة ، وقابس ، وطرابلس الغرب ، الى أوروبا.انها تحف عربية شائقة تستقر بعد طواف مديد فى

---

(97) جلال مظهر · ص 331 _ 334 · زيغريد هونكه · ص 49 _ 51 ·
(98) كريستى : تراث الاسلام · ص 96 _ 99 ·
(99) الجيلالى · ج 1 · ص 328 ·
(100) حيدر بامات · ص 106 _ 108 ·

مونت كاسينو Monte Cassino وفى أديرة شبه الجزيرة الايطالية، وكنائسها، بدليل أنها لا تزال حتى يومنا هذا (101) ·

هذه لمحات مختصرة ، عن مركز هذا الغرب الاسلامى ، وجهوده فى بناء الحضارة الاسلامية من جهة ، وعن دوره فى تحضير أوروبا ، وتأثيره فى تطورها وتقدمها ، بما قدمه لها من أسس حضارية هامة ، حية ، ومتنوعة، بعثت فيها دماء الحياة ، ودفعتها الى الامام بخطوات عملاقة ·

---

(101) زيغريد هونكه · ص 32 ·

بعض مراجع البحث المعتمدة

ـ أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية ·
أعدت الدراسة باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) · (القاهرة ـ 1970) · 466 ص ·

ـ أرنولد (سيرتوماس) :
تراث الاسلام · تعريب فتح الله (جرجيس) · ط 2 (بيروت ـ 1972) · 616 ص

ـ أمين (أحمد) :
ظهر الاسلام · ج 3 (القاهرة ـ 1973) ·

ـ بوعزيز (يحيى) :
جهود الجزائر الفكرية فى موكب الحضارة العربية · الاصالة · عدد 19 (الجزائر ـ مارس ـ أبريل 1974) ص 278 ـ 301 ·

ـ حيدر بامات (ج · ريقوار) :
مجالى الاسلام · ترجمة زعيتر (عادل) · (القاهرة ـ 1956) · 450 ص ·

ـ ديورانت (ول) :
قصة الحضارة · ترجمة بدران (محمد) · ج 13 و 17 (القاهرة ـ 1964 ـ 1966) · 398 ـ 365 ص ·

ـ زكريا (المهندس زكريا هاشم) :
فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم · (القاهرة ـ 1970) 610 ص ·

ـ شكرى (د٠ محمد فؤاد) ٠ أنيس (د٠ محمد) :

أوروبا فى العصور الحديثة ٠ الجزء الاول من النهضة الايطالية الى الثـورة الفرنسية (القاهرة ـ 1956 ـ 1957) ٠ 255 ص ٠

ـ طـوقان (قدرى حافـظ) :

العلوم عند العرب ٠ (القاهرة ـ 1960) ٠ 238 ص ٠

ـ عاشور (د٠ سعيد عبد الفتاح) :

أ) فضل العرب على الحضارة الاوروبية ٠ (القاهرة ـ 1957) ٠ 107 ص ٠

ب) أوروبا العصور الوسطى ٠ ج 2 ٠ نظم وحضارة ٠ (القاهرة ـ 1959) ٠ 316 ص ٠

ـ عاشـــور (د٠ سعيد عبد الفتاح) ٠ أنيس (د٠ محمد) :

النهضات الاوروبية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة ٠ (القاهرة ـ 1959) ٠ 292 ص ٠

ـ العبـــادى (عبد الحميد) :

المجمل فى تاريخ الاندلس ٠ (القاهرة ـ 1958) ٠ 216 ص ٠

ـ العقـــاد (عباس محمد) :

اثر العرب فى الحضارة الاوروبية ٠ ط 4 ٠ (دار المعارف بمصر ـ 1965) ٠ 179 ص ٠

ـ عنـــان (عبد الله) :

أ) دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى (القاهرة ـ 1960) 467 ص ٠

ب) عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ٠ مجلدان ٠ (القاهـــرة ـ 1964) 566 ـ 806 ص ٠

ـ الغبرينى (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله) :

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ٠ تحقيق بن أبى شنب (محمد) ٠ ط 1 (الجزائر 1910) ٠ 236 + 8 ص ٠

ـ كوبلانـــد (ج٠ و) ٠ فينوجردوف (ب) :

الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ٠ ترجمة زيادة (محمد مصطفى) ط ٤ (القاهرة ـ 1958) ٠ 140 ص ٠

ـ لوبون (غوستاف) :

حضارة العرب ٠ ترجمة زعيتر (عادل) ٠ (القاهرة ـ 1964) ٠ 656 ص ٠

ـ المدنى (أحمد توفيق) :
المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا (الجزائر ـ ربيع الاول 1365) · 284 ص ·
ـ مظهـــر (جلال) :
أثر العرب فى الحضارة الاوروبية نهاية عصر الظلام وتأسيس الحضـــارة الحديثة : (بيروت ـ 1967) · 439 ص ·
ـ هونكـــه (زيغريد) :
شمس العرب تسطع على الغرب · أثر الحضارة العربية فى أوروبا · ترجمـة بيضون (فاروق) ، دسوقى (كمال) · (بيروت ـ 1964) · 563 ص ·
ـ يعقـــوب (جورج) :
أثر الشرق · ترجمة على (فؤاد حسنين) · (القاهرة 1946) ·

— De Lambre (M.) : Histoire de l'astronomie du Moyen Age (Paris 1819).
— Renan (Ernest) : Averroes et l'Averroïsme (Paris 1866).



مجهودات المسلمين في علم الجغرافيا

د. عبدالقادر حليمي
أستاذ الجغرافيا - جامعة الجزائر

1 ـ المجهودات الجغرافية السابقة للاسلام

مقـدمــة :

لفهم مدى مساهمة المسلمين فى تطوير علم الجغرافية يجب البحث فيما وصل اليه هذا العلم قبل ظهور الاسلام سنة 570 م ، الموافقة لميلاد الرسـول عليـه السلام أو لهجرته سنة 622 م . وذلك حتى يمكن التمييز بين ما هو موروث وما هو مستحدث ، أو ما كان لهم وما كان لغيرهم ·

والحقيقة العلميـــة الـتى لا ينكرها الباحثون هى ان كل علم من العلــوم مهما كان نوعه أو سعته هو عبارة عن ارث بشرى لحلقات متواصلة من الابحاث والتجارب التى اجراها الانسان ولا يزال يجريها بغية الوصول الى التفسير الخالص والصحيح لمركب الحياة المعقدة ، وهذا العمل المستمر ناتج عن ان البحث عـن المعرفة من طبيعة البشر بـل هو جـزء منه منذ نشأتـــه الاولى ، ولا يمكن ان يتخلى عنه طالما بقى حيا ·

ومن ماهية البحث انه شديد التنوع وان ليس هناك بحث يتصف بالكمال الذى لا يمكن ان يأتى بعده بحث اصـح منه اذ كما يقال :

قـل لمـن يدعى فى العلم معرفة
علمت شيئا وغابت عنك أشياء

كما ان ليست كل نتائج البحث صحيحة صحة كاملة وليست كلها مخطئة خطأ كاملا ، بل ان نسبة الصواب والخطـأ تختلف باختلاف الزمان والمكان والمركب البشرى ، أو انها خاضعـــة للظـروف الطبيعية والبشرية التى اجريت فيهـا هذه الابحاث وهى ظروف كثيرا ما دفعت بالانسان الباحث نحو وجهة معينة ·

والانطلاق من هذه المفاهيم يدفع الى القول بان علم الجغرافية مثله مثل سائر

بقية العلوم يجد وصوله فى الانسان الاول الذى ولا شك انه فكر أول ما فكر فيما يحيط به من اشياء وحاول تفهمها أو ان يجد لها تفسيرا · وعندئذ أصاب بعض المرات واخطأ مرات أخرى ، وبتقادم العهد أدت التكرارات فى التفكير والتأمل الى نشأة ما يعرف بسلسلة التجارب والمعرفة التى بنيت عليها الحضارات القديمة مثل حضارات : بلاد ما بين الرافدين واليمن ووادى النيل وبحر ايجة · وسنتعرض بايجاز فيما يلي الى الجانب الجغرافى الذى ورثه المسلمون من هذه الحضارات ·

1 ـ الجغرافية عند العرب فى الجاهلية :

ولعل شبه الجزيرة العربية بموقعها الفلكى كانت تمثل منذ القديم منطقة الاحتكاك والاتصال للحضارات القديمة التى ازدهرت فى شرقها وفى غربها ، بل كذلك فى شمالها وفى جنوبها ، والمنطق يفرض ان نقول ان العرب لم يقوموا بدور الوسيط فقط بل كانت لهم آراء وردت فى اشعارهم ، آراء منها المقتبسة ومنها الاصيلة التى ولا شك انها اضافت معلومات لا بأس بها الى علم الجغرافية ·

كما ان الانصاف يفرض ان نقول ان البيئة الطبيعية لشبه الجزيرة العربية قد علمت الانسان العربى اشياء كثيرة لم تعلمها انسان بحر ايجي مثلا · فشبه الجزيرة العربية كثيرة القحط ، عديمة الانهار ، قليلة العيون ، نادرة الامطار ، فقيرة الاعشاب لذلك علمت ساكنها طول الدراية ودوام التفقد فى بطون الاودية عن منابت الشجر ، والطواف للبحث عن مواقع القطر والكلأ لعلف دوابه ولتلبية سائر حاجياته ·

ولا شك ان هذا التجوال المستمر قد اكسبه خبرة فى تحديد المواقع ومعرفة المواضع وفهم الانواء ، والتمييز بين السحب الممطرة وغير الممطرة ، والتفريق بين البرق الخلاب عن سواه ، ووصف المطر والغيث باقسامه ، والوقف على الرياح وخواصها ، وادراك ما يعقبها من حوادث ، من غير اسناد الى آلة حديثه ، بل كانت قوة شمه للتراب والنبات كثيرا ما أهدته الى مواقع المياه حتى ولو كانت فى باطن الارض ، وقوة بصره وبصيرته لحركات بعض الحيوانات البرية والطيور المعينة قادته أو أرشدته الى معرفة اشياء كثيرة ، منها على الاقل معرفة بقاع المياه والعيون والاعشاب · هذا من جهة ومن جهة أخرى فان هذه البيئة الجذباء المترامية الاطراف والواسعة الارجاء والمتيهة فى بعض

الاحيان قد دفعت بالعربى الى كثـــرة الترحال الذى يفرض بدوره على الانسان الاسترشاد ببعض المعالم ، لذلك نظر الى سطح الارض نهارا للاسترشاد بجبالها ووهادها وتلالها التى جاءت فى اشعاره ، ثم قلب وجهه نحو السماء ليـــلا وراح يبحث عن طلـــوع وافـول كواكبها ، وحركات نجومها ، وهنا حاول الربـط بين ما يجرى فى السماء وما يجرى على الارض فى اقامته وظعنه ، وفى مكاسبه ومعاشه ، وفى سائر متصرفاته من غزو واستباحة وانتجاع وتجارة ، بل ذهب الى ابعد من ذلك حيث حاول الربـط بين حوادث الارض وما يجرى فى السماء فى بحثه عن المستقبل والظفر بالمقصود والمطلوب • فآمن بالسحر والكهنوت ، واعتقد فى الارواح الخفية مثل الجن واللاهوت •

تلك هى الملامح الاصيلة التى سلكها علم الجغرافية عند سكان شبه الجزيرة العربية لكن هذه الملامح لم تكن خالية مما وصل اليه الانسان فى الحضارات العريقة مثل بابل وآشور واليمن وفارس حيث يحدثنا التاريخ ان هناك هجرات عديدة كان فيها الانسان المغلوب يلجأ الى ديار العرب مثل هجرة الآشوريين الذين فروا من بلادهم بعد ان تغلـب عليهم الفرس ، وهجرة اليمنيين بعد ان خربت السيول سدهم المعروف بســد مأرب الخ ••• ولا شك ان سكان شبه الجزيرة العربية قد تعلموا الكثـــير أو القليل من هؤلاء النازحين ، فاخذوا مثلا عن الآشوريين اسماء عديدة من النجوم ، وتعلموا منهم مواقع الابراج ومنازلها ، وحساب السنين والشهور ، كما ولا شك انهم فكروا فى شكل الارض وابعادهـا وتعلموا اشياء أخـــرى فى رحلاتهـم التجارية بين الشمال والجنوب •

هذا بأيجاز عن مدى مساهمة عـــرب الجاهلية فى تطور علم الجغرافية الــذى جاء فى اشعارهم ومعلقاتهم وايامهـــم المشهورة ، وهى مساهمة محـدودة اذا ما قورنت بما ورثـه المسلمون مـــن الحضارات القديمة •

2 ـ الجغرافية عند المصريين والبابليين :

لقـــد حـــاول المصريون والبابليون القدماء فى عصور فجـر التاريخ معرفة سر الكون والحوادث التى تجرى بـه • وظنوا ان العالم على شكل مستطيـل واعتقد المصريون ان مصر هى وسـط الدنيا وبالمثل اعتقد البابليون الذيـن زعموا ان العراق وسط الدنيـــا وان الارض قد انسلخت من البحر أو المحيط وان السماء التى تحيط بهــذه الارض

تظهر على شكل قبة تتحكم فيها قوة خفية كامنة وراء المحيط • ولعل السبب فى ذلك يرجع الى ان البابلى والمصرى فى تلك الفترة المبكرة من التاريخ لم تكن له اتصالات الا بجيرانه أو بمحيطه المعمور ، لذلك ظن ان العالم ينتهى حيث انتهى به الطواف وان كان طوافه هذا محدودا نظرا لصعوبة السفر وركوب المخاطر لمن حاول ان يتجاوز الحدود المعمورة ، فالمصريون القدماء مثلا لم يعرفوا أكثر من بلاد الحبشة وبونت جنوبا ، وبلاد كوش غربا ، وبلاد اليونان شمالا وما بين الرافدين شرقا • أما البابليون فلم يتركوا لنا آثارا قيمة عن البلدان التى كانت تمتد الى الشرق منهم مثل بلاد الهند والصين • لكن هذا لا يمنع من القول ان كل من المصريين والبابليين قد ساهموا مساهمة قيمة فى تطور علم الجغرافية بمفهومه الواسع ، ذلك ان علم الجغرافية لا يشمل جانب الاستكشافات ومعرفة البلدان فقط بل له الجانب العلمى البحت مثل الجانب الرياضى والفلكى والاستصلاح الاقليمى والتنظيم العمرانى ولقد كان كل من المصرى والبابلى بارعين فى هذا الميدان حيث جاءوا بنظريات عديدة واستحدثوا علوما جديدة كانت نورا واستنارة لمن جاء من بعدهم • اذ هم الاولون الذين ابدعوا فى حساب السنة وقسموها الى اثنى عشر قسما بحسب ما كانت لهم من معلومات بالنجوم وفيضانات النيل ودجلة والفرات ، ورسموا خرائط استغلال الارض والملكيات ، ورسوما تبين الابعاد بين النقطتين أو الاقليمين وطرق سفرهم وتنقلاتهم البرية والبحرية •

3 ـ الجغرافية عند الفينيقيين :

لقد اشتهر الفينيقيون بركوب البحر وطول الاسفار للتجارة والبحث عن الرزق ، وهذا طبيعى فى الانسان الذى اذا اكتمل عقله راح يبحث فى نفسه ثم فى بيئته ثم فى البيئة المجاورة لبيئته الخ ••• فالتاجر الفينيقى هو جزء لا يتجزأ من الحضارة المصرية وحضارة بلاد ما بين الرافدين أولا وقبل كل شىء ، لذلك راح انسان حضارة الشرق الاوسط الممثلة فى الفينيقى الذى بعد ان اكتسب خبرة محلية كصناعة السفن وضبط النقط ، وحساب الابعاد، راح طبيعيا يبحث عما وراء عالمه المعروف • فخرج من فينيقيا نحو الغرب وركب البحر المتوسط من سواحله الشرقية قصد المعرفة لسواحله الغربية وبذلك جاب سواحل شمال افريقيا

حتى جبل طارق وكذلك جزءا كبيرا من الشواطىء لشبه اجزيرة ايبيريا وبلاد الغال . بل حاول ان يخرج الى المحيط الاطلسى ، حيث قام بأول رحلة تاريخية الى السواحل الغربية للقارة الافريقية . واعنى بذلك رحلة هانو Hanno الذى ابحر من مدينة قرطاجنة سنة 520 ق.م متوجها نحو الغرب فعبر مضيق جبل طارق ثم توجه جنوبا على طول السواحل الاطلنطية الى ان وصل الى الجزائر الخالدات ومنها تابع سيره حتى مصب نهر السنغال وقيل دون ذلك ، لكن هذه الجهات اصبحت بمرور الزمن كقاعدة منها خرج الفينيقيون فى عديد من الرحلات الاستكشافية صوب الجنوب وربما وصلوا حتى بلاد الكامرون . ولقد دون هانو رحلاته هذه على لوح وضع فى معبد بقرطاجنة فيه ذكر عجائب وغرائب الطبيعة والمشاكل التى اعترضت سبيله ، وهى مشاكل لم تسلم من الخيال والتخمينات .

ومن هذا العرض السريع نخلص الى ان أهل فينيقية قد أدوا دورا هاما فى ميدان الكشف الجغرافى ، وهم على الرغم من احتفاظهم بأسرار مهنتهم لانفسهم فقد مهدوا بلا شك هذا الميدان أمام اليونان الذين عاصروهم والذين جاءوا من بعدهم .

4 ـ الجغرافية عند اليونانيين قبل بطليموس :

لقد ساعدهم موقعهم البحرى على ركوب البحر منذ القديم وذلك للتجارة أو للبحث عن المستعمرات . ولا شك ان اتصالاتهم بسكان مصر وبلاد ما بين الرافدين كانت قوية ، وبالخصوص احتكاكهم بالفينيقيين الذين بادلوهم التجارة ونافسوهم فى المستعمرات . وقد قام اليونانيون برحلات استكشافية فى البحر المتوسط والمحيط الهندى بل وصلوا مثل الفينيقيين الى السواحل الشرقية للمحيط الاطلسى بعد ان عبروا مضيق جبل طارق . ومن أهم رحالتهم سكيلاكس Scylax الذى أرسله ملك الفرس داريوس سنة 510 ق.م ، لاكتشاف نهر السند ، ورحلة نيورخاس Nearchus 327 ق.م ، أحد قواد الاسكندر الاكبر لنقل جزء من الجيوش اليونانية من بلاد الهند الى بلاد فارس وقد كانت لديه أوامر من الاسكندر بان يدرس طريق رحلته بدقة وان يأتى بتقرير مفصل عن كل الاماكن التى مر بها . ولعل أهم ما قدمه اليونانيون لعلم الاكتشافات الجغرافية هو ما صحب الحملات العديدة للاسكندر الاكبر ذلك ان هذا الرجل قد مكن من التقاء العالمين

الشرقى والغـــربى وجها لوجه عـــلى مساحات واسعة من وجه هذه المسكونة ومزج بين الحضارات القديمة ببعضهـا بعض ومكن اليونانيين من الاطلاع على ما لدى الغير من أخبار ومشاهدة البلدان بالعيان بدلا من افواه القصاصين والسياح والملاحين ، وتصحيح ما جاء فى اساطير أجدادهم مثل اسطورة الالياذة والاوديسة لهوميروس Homer (القرن 9 ق٠م) التى مزج فيها الخيال بالواقع ٠ وبعـد ان فتح الاسكندر المقدونى أو الاكبر مصر سنة 332 ق٠م ، أسست بها مدينة اطلق عليها اسمه وهى الاسكندرية العاليـة عند مصب وادى النيل المقدس فى البحر الابيض المتوسط ، فعمرتها عناصر مثقفة ومختلفة الاجناس من مصريين ويونانيين ويهود وبذلك أصبحت مركزا علميا عالميا لم يدانه مركز عالمى مـن قبـل ، كمـا جمعت فيها الآثار الحضارية القديمـة ، وأسست بها مكتبة الاسكندرية الشهيرة التى غرف منها عدد كثير مـــن العلماء وتخرج منها اساتذة كان لهم دور عظيم فى تطوير العلوم الدينية والدنيوية ٠

وعلى العموم فقد ظل كل من الفلاسفة والمفكرين اليونانيين قبـــل الاسكنـدر الاكبر وبعده يحاولون تفسير ثـــلاث مشاكل جغرافية أساسية هى :

أ ـ شكل الارض وابعادها ووضـع البحار بالنسبة لها ٠

ب ـ ثبوت الارض فى الفراغ ٠

جـ ـ علاقـــة الارض بالاجـــرام السماوية ٠

وحسب ما وصلتنا مـــن آثار تبـدأ سلسلة تفكير هؤلاء الفلاسفة والباحثين بالشـاعر أو القصاص هوميروس فـى القرن التاسع قبل الميلاد لتنتهى بالفلكى الرياضى بطليموس كلاديوس خلال القرن الثانى للميلاد اذ ولد هذا الاخير خلال سنة 168 ميلادية ٠

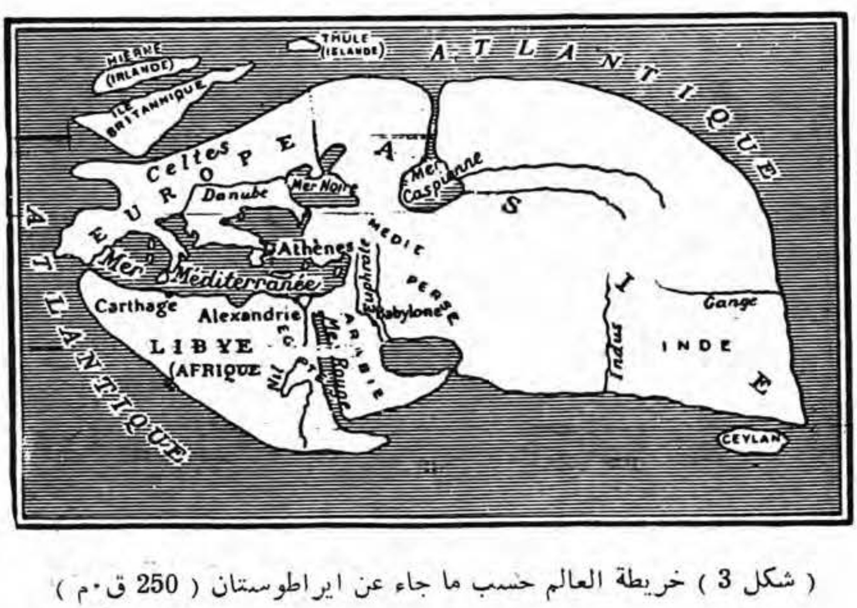
أما هوميروس فقد تخيـل ان الارض عبارة عن قرص مستدير تحيط به المياه من كل جبهة فى شكل حزام اطلق عليه النهر المحيط فى بعض الاحيان ، وانها ثابتة تسكنها الآلهة والبشر ، وقد ظـل معظم هذه الفكرة سائدا لدى الشعب اليونانى أكثر من أربعة قرون حيث ظن طاليس دى ميلى (640 ـ 648 ق٠م) ، أيضا ان الارض عبارة عن قرص أو طبق مسطح يطفو فوق الماء ، والماء فـــوق الهواء ، وكذلك كان اعتقاد أنا كسيمندر الذى عاش فيما بين 610 و 547 ق٠م ، فى ان الارض فى البداية كانت عبارة عن جزء من اسطوانة كبيرة فى الفضاء ثـم انسلخت منها لتبقى محافظة على شكلها٠

ولم يناد بكروية الارض ودورانها لاول مرة الا فيتاغور (570 ـ 496 ق٠م) الذى اعتقد ان الارض على شكل كرة تحيط بها الكواكب التى تدور حول حلقة من النار هى الشمس ، وتابعه فى ذلك هيكاتى دى ميلى سنة 517 ق٠م ، الذى رسم أول خريطة جيدة للعالم المعروف حين ذاك ووضع عليها الشمال فى الجهة العليا والجنوب فى الجهة السفلى والشرق على يمين القارىء والغرب على يساره مثل خرائطنا الحالية ، اما بحر قزوين فقد أوصله بالمحيط أو الاقيانوس (**شكل 1**) ٠ لكن هذه الفكرة ظلت محل شك حيث أن عددا كبيرا من المفكرين اليونانيين الذين جاءوا من بعد فيتاغور امثال هيرودوت(480 ـ 425ق٠م) الذى ظن ان العالم عبارة عن صدفة يحف بها المحيط من كل جهة ، وان السماء عبارة عن قبة تغطى هذه الصدفة.

ولم يتأكد المفكرون اليونانيون من كروية الارض الا بعد ان بلغوا شوطا بعيدا فى علم الفلك والرياضيات وزاد اتصالهم بالعالم خارج بحر ايجة فى القرن الثالث قبل الميلاد وهى الفترة الموافقة للفتوحات الكبرى للاسكندر المقدونى (356 ـ 323 ق٠م) الذى بعد ان اعتلى عرش مقدونية سنة 336 ق٠م ، وحد بين اليونانيين ثم خرج بهم غازيا بلاد الشام والفرس الى ان وصل بهم الى بلاد الهند ثم قفل راجعا الى مصر حيث استولى عليها أيضا ، وبذلك استطاع ان يمزج بين الحضارات القديمة واطلاع اليونانيين على ما فى بلدان واسعة من العالم لم يكن لهم بها عهد ٠ ورغم ان امبراطورية الاسكندر قد تمزقت سياسيا بعد وفاته الا ان آثارها بقى عاملا من عوامل الدفع نحو تطوير العلوم حيث نجد ان اريستارك الساموزى (310 ـ 250 ق٠م) يقوم لاول مرة فى التاريخ البشرى بتقدير أو حساب البعد بين الارض والقمر والشمس ، وايراطوستين (275 ـ 194 ق٠م) الليبى المولد واليونانى الاصل والامين لمكتبة الاسكندرية يقوم لاول مرة فى التاريخ بقياس ابعاد الارض وتقويم محيطها برقم يقرب من الرقم الذى نعرفه حاليا ، ان هذا الرياضى العظيم والفلكى المشهور طبق علم الهندسة والفلك فى حساباته الجغرافية ٠ فقد لاحظ فى يوم من أيام السنة وهو يوم 21 يونية ان الشمس تكون عمودية وقت الزوال أى على الساعة 12 على منطقة اسوان بدليل ان اشعتها تصل الى اعماق المياه لبئر عميق فى هذه المنطقة ، وان هذه الظاهرة



(شكل 1) خريطة العالم حسب هيكاتي (517 ق.م)



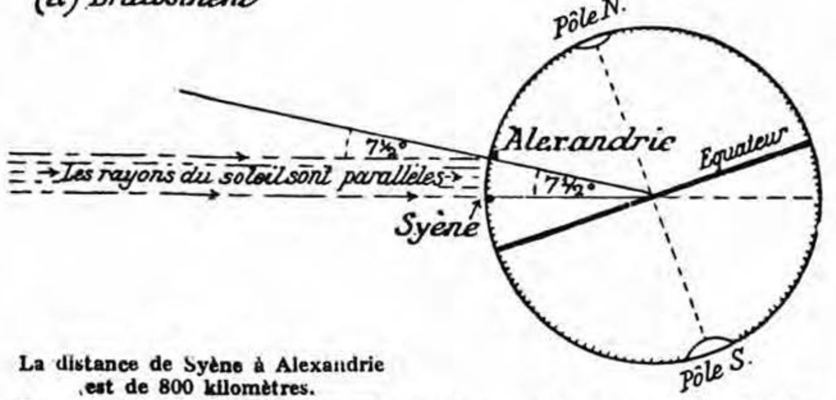
(شكل 3) خريطة العالم حسب ما جاء عن ايراطوستان (250 ق.م)

لا تثبت فى غير ذلك اليوم من شهــور السنـــة حتى ولو كانـت الشمس فى سمنها لانها لا تكون عمودية على رأس الراصد ، كما لاحظ ان ظل الاشياء ينعدم تماما على الساعة 12 من يـوم 21 يونية في منطقة اسوان ، اما فى مدينة الاسكندرية التى تبعـد بحــوالى 800 كيلومتر الى الشمال من مدينة اســوان فان الشمس لا تظهر عمودية عـلى راس الراصد فى أى يـوم من أيـام السنة ، وبالتالى فان الاشياء لها ظل فى اليـوم الذى لا يكون لها ظل فى منطقة اسوان ومعنى هـذا اذا ثبنا عمودا فى الارض بمدينة الاسكندرية ونظرنا الى ظله وقت الزوال (الساعة 12) من يوم 21 يونية لاحظنا ان هذا الظل يكون زاوية قدرها سبـع درجات ونصف الدرجة كمـا فى الصورة رقـم 2 ٠ واذا كانت أشعــة الشمس تصل الى سطح الارض وهـى متوازية معناه ان الاشعة الواصلة بـين طـرفى قـوس (الاسكندرية واسوان) مركزه الارض ، تكون زاوية قدرها

واذا كان محيط الدائرة المصطلح عليـه هو 360 فان زاوية سبع درجات ونصف تمثل قيمة أقل من قيمة الدائرة الكاملة بحوالى 50 مرة ، ونستنتج مـن هذا ان محيـط الارض يسـاوى 50 × 800= 40.000 كـلم . هكـذا كـان تفكـير اراتوستين فى الوصول الى معرفة محيط الارض ثم قدر شعاعها باستعـــمال نسبة لارشميـــد (287 ـ 212 ق م) كالتالى : $2 \times \frac{1}{7} 3 \times$ ش= 6400 كلم .

وبعد ان قدر اراتوستين ابعاد الارض راح يرسم لها خريطة تمتد مـن الشرق الى الغرب أو من أعمدة هرقل المعروفة بجبل طارق حاليا ومن الشمال الى الجنوب أو من جزيرة تول أى ايسلندا الى مصب نهـر الكانج تـول الى خـط الاستواء تقريبا (شكل 3) وهى خريطة رغم ما كان بها من عيوب مثل اتصال بحر قزوين بالمحيط وامتـداد القـارة الاسيوية الى الشرق أكثر من اللازم فانها تعد مـــن أوائل الخرائط التقريبية للعالم القديم ظل معمولا بهـا لعدة قرون ، بـل حتى مطلع العهـد الاسلامى حيث ان خريطة استرابون الرومانى (63 ق م ـ 25 م) لم تختلف كثيرا عن خريطة اراتوستين ، وكذلك خريطة بطليموسن (90 ـ 168 م) فى العهد الرومانى (شكل 4) الذى قال بكروية الارض ورغـم انهـا لا تـــدور وانها تحتل مركز الكون . ولكن رغـم ذلك فان خريطته تعد أحسن خريطة للعام فى القديم واقرب للواقع .

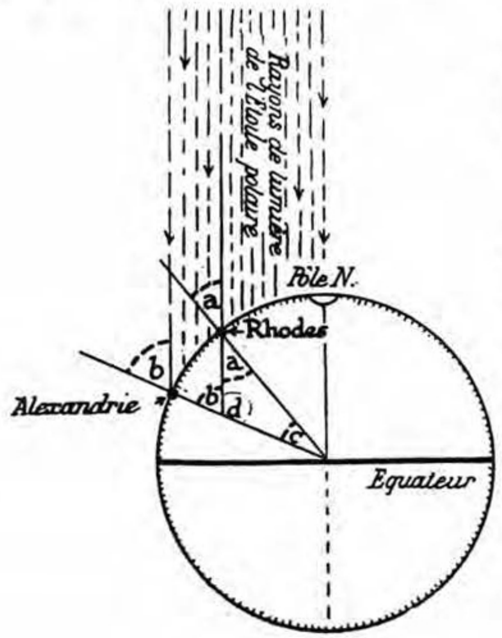
(a) *Eratosthène*



La distance de Syène à Alexandrie est de 800 kilomètres.

Remarquons que dans cette figure l'angle entre Alexandrie et Syène, de même que l'angle entre Alexandrie et Rhodes dans la figure qui est au-dessous, est exagéré pour rendre les figures plus claires.

(b) *En utilisant l'Étoile polaire*



$$a + d + c = 180° \text{ (Dém. 5)}$$
$$a + c = 180° - d = b$$

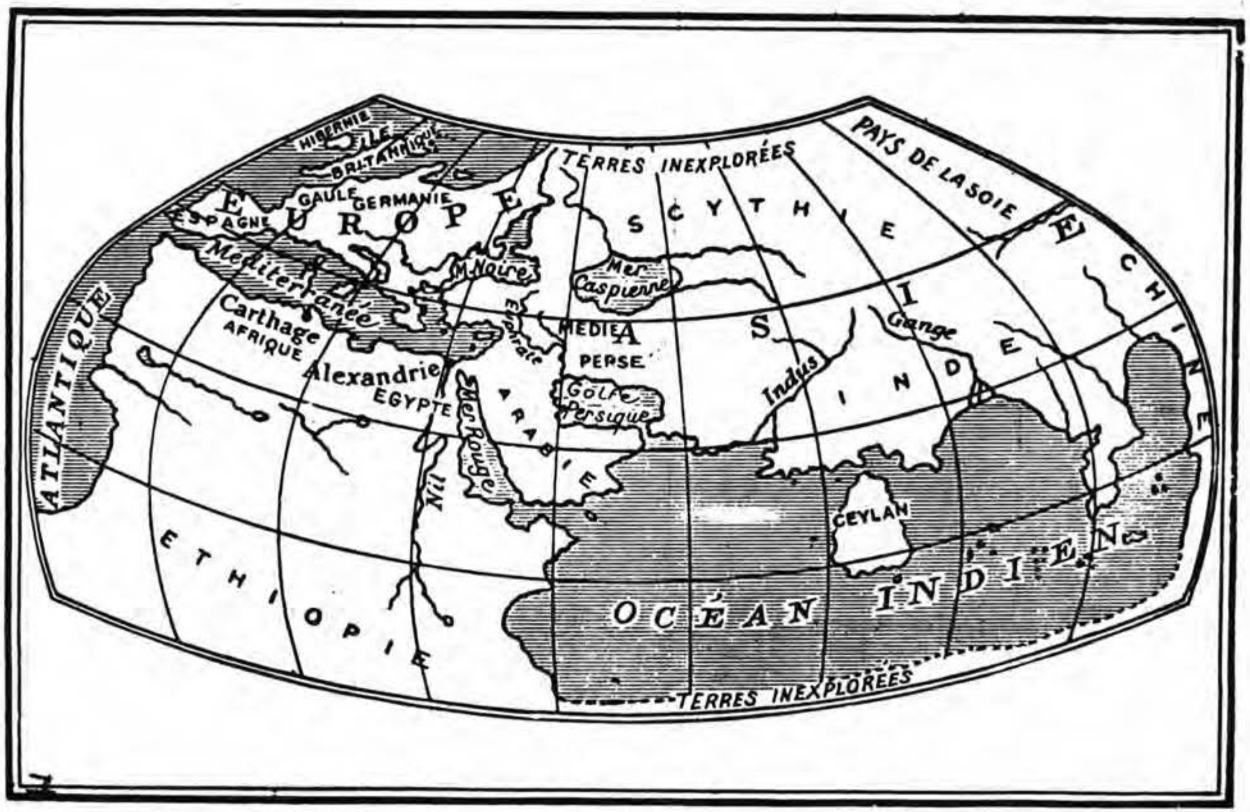
d'ou

$$a + c = b \text{ ou } c = b - a$$

Par suite, l'angle au centre de la terre ayant même mesure que l'arc dont les extrémités sont Rhodes et Alexandrie (ou deux autres points quelconques) est la différence entre les hauteurs de l'étoile polaire au-dessus de l'horizon en ces deux points. Si D est la longueur de l'axe de méridien compris entre ces deux points, la longueur de la circonférence terrestre est

$$\frac{D \times 360}{c}.$$

(شكل 2) قياس الأرض.



(شكل 4) خريطة العالم لبطليموس (حوالى 168 ميلادية)

5 ـ الجغرافية بعد بطليموس :

يعد كتابى : الجغرافية والمجسطى لبطليموس آخر صيحة لتطور علم الجغرافية فيما قبل الاسلام . اذ بعد بطليموس أخذ هذا العلم فى التراجع والافول وبدأت انجازات الخرائط تقل شيئا فشيئا أو تأخذ طريقها نحو الضياع والاهمال ، بل أخذ الدين يسيطر على البحث وراح المفكرون يتقيدون بما جاء فى الكتاب المقدس الذى ادخلت عليه تعاليم غريبة ما انزل الله بها من سلطان ، فاعتقد كوزماس (547 م) فى كتابه الكوزموغرافية ان الارض منبسطة وليست بكروية الشكل وان بيت المقدس هى مركز الدنيا وان الجنة تقع فيما وراء بلاد آسيا وانه يوجد بها كل انواع الاخشاب واشجار الفاكهة واشجار الحياة ، ولا يوجد بها حر ولا برد بل ربيعها دائما • كما حرم رجال الدين المسيحى القول بدوران الارض بزعمهم ان هذا كفر ، ومخالف للعقيدة لذلك لا ينبغى الخوض فيه بل يجب تسليم هذا الامر لله وحده . اما صناعة الخرائط فقد تدهورت على يد الرومان الذين صرفوا جل اهتمامهم للسيطرة والاستعمار دون الاستزادة فى العلم • فقد كان العالم فى نظرهم عبارة عن قرص مستدير تتوسطه مدينة روما عاصمة الامبراطورية الرومانية • ولم يهتموا بعلم الفلك ولا بالرياضيات الا بقدر ما يخدم مصلحتهم •

وقد زاد تدهور علم الجغرافية فى أوروبا فى فترة انهيار الامبراطورية الرومانية وانقسامها سنة 395 م ، وبالخصوص فى تلك الفترة التى اعقبت زحف الجماعات البربرية من وسط آسيا الى قلب أوروبا حاملة معها الدمار والخراب ، فقضت على حضارة حوض البحر الابيض المتوسط باستيلاء القوط على وسط أوروبا والبلقان فى القرن الرابع للميلاد وزحف الوندال الى اسبانيا سنة 414 م ، ومنها الى شمال افريقيا ، ثم قضى الاستراقوت على مدينة روما سنة 476 م • وهكذا تحول التطور الجغرافى الى اوهام وضلالات وخرافات سادت المعمورة من الارض كما توقفت حوافز الرحلة والمشاهدة نظرا لعدم الامن الى ان تمكن أهل شبه الجزيرة العربية بعد اسلامهم من تكوين امبراطورية ضخمة امتدت اطرافها فى أقل من قرنين من بلاد الهند الى المحيط الاطلسى فساد الامن مرة أخرى وعاد التطور الحضارى الى مجراه الطبيعى •

2 المجهودات الجغرافية لدى المسلمين :

1 ـ العوامل التى ساعدت على تقدم علم الجغرافية لدى المسلمين

ان العوامل التى أدت الى تقدم علم الجغرافية عند المسلمين كثيرة ومتنوعة منها ما هى أصيلة أصالة الانسان العربى الذى تعرضنا اليه سابقا ، ومنها ما ترجع الى اتساع رقعة الاسلام وما صحبه من حركة لترجمة الكتب اليونانية والهندية والآثار القديمة بصفة عامة ، يضاف الى هذا التعاليم الدينية الاسلامية التى تحث على العلم والمعرفة والبحث عن الحقيقة ٠

أ ـ التعاليم الاسلامية :

ان الدين الاسلامى ليس بدين للتزمت والانزواء بل هو دين يدعو الى البحث واستعمال الفكر للوصول الى الحقائق وفهم اسرار الحياة ، وبذلك يكون الايمان القوى المنبعث عن اقتناع النفس والعقل ٠ وفى مجال استعمال الفكر لادراك الخالق من صورة مخلوقاته يقول سبحانه عز وجل فى سورة الغاشية : **«أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت »** ، ويقول تعالى فى سورة ق : « **افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والارض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج** » ويقول فى آية أخرى : سورة الملك « **الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمان من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور** » ويقول فى نفس السورة (الآية 14) : « **هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور** » ٠ والمتبع لسور القرآن يجد بها آيات كثيرة تحث المسلم على استعمال الفكر ، والترحال طلبا للمعرفة والرزق اذ يقول تعالى : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » (سورة الجمعة ـ الآية التاسعة) ٠ كما ان بعض الشعائر الدينية تدعوا الى معرفة الفلك والترحال مثل فريضة الحج التى ينتقل فيها المسلم بين موطنه وبيت الله الحرام « **واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** » (سورة الحج الآيات 24 ، 25) ٠ واداء الصلاة يدعو الى معرفة حلول الوقت « **وألقي في الارض رواسى ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم**

يهتدون » (سورة النحل ، الآيتين 14 و 15) . وفى سورة الاسراء تقرأ فى الآية 11 ما يلى : « **وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا** » . ويقول تعالى أيضا فى سورة البقرة ، الآية 187 ما يلى : « **يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون** » · ومجمل القول ان كلا من الاسلام والايمان يدعوان الى التعرف على علم الفلك والبحث فيه للتعرف على الخالق ·

ب ـ اتساع الامبراطورية الاسلامية :

لقد بدأت الفتوحات الاسلامية بعد وفاة الرسول عليه السلام مباشرة ، ولا شك ان نجاح المسلمين فى توسيع نفوذهم الى ان أصبح يشمل الامبراطورية الفارسية شرقا وجزءا كبيرا من الامبراطورية الرومانية غربا يعود الى الاوضاع الاجتماعية والسياسية والظلم الذى كان سائدا لدى مجتمع القرن الخامس والسادس والسابع للميلاد . لذا وجدت الامم المضطهدة من التعاليم الاسلامية عهدا للخروج من الظلمات الى النور ، فدخلوا فى الدين الجديد أفواجا ، وبذلك لم يصادف المسلمون فى طريق فتوحاتهم الا مقاومة ضئيلة ، على عكس ما حدث للاسكندر المقدونى فى القرن الرابع قبل الميلاد عندما أراد نشر النفوذ اليونانى فى الشرق · وكذلك التعاليم الاسلامية التى لم يكن الهدف منها الاستعمار ، ولكن السلم والامن فى ربوع العالم ، وفى هذا المعنى يقول تعالى فى سورة البقرة : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين** » (الآية 188) · وعلى أى حال فان اتساع الامبراطورية الاسلامية أدى الى اتساع العالم المعمور واحتكاك المسلمين ببعضهم وبغيرهم وامتزاج الحضارات القديمة وبعثها من جديد هذا من جهة ومن جهة أخرى اتساع افق المعرفة باستقدام الحكام والامراء للعلماء من كل حدب وصوب ·

ج ـ حركة الترجمة :

لا شك ان المسلمين فى انتشارهم وتوسعهم قد وجدوا أمما لها آثار قيمة فى الحضارة والتقدم وقد خالطوا مجتمعات تتصف بالرقى والمعرفة وهى آثار وعلوم لا تتنافى فى معظمها والدين الاسلامى بل ان هذا الدين يحث المسلم على الخوض فيها والاخذ بما حسن منها واستعمالها وسيلة لتثبيت الدين ومعرفة

الخالق والمخلوق واستثمار الدنيا ولقد بدأ اهتمام المسلمين بالآثار القديمة بعد ان استتب لهم الامر واطمأنوا على دينهم وكان هذا بالخصوص فى العصر العباسى حيث أخذ الخلفاء العباسيون فى ارسال البعثات للبحث عن الكتب والمؤلفات باى لغة كانت وباى ثمن كان ، واستمر المسلمون ينقبون فى تلك الكنوز العلمية بصبر ، وللاستفادة من هذه الكنوز كان لابد من ترجمتها الى لغة السيادة أو لغة المسلمين التى هى لغة القرآن ، فظهرت حركة الترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية ونشطت هذه الحركة فى عصر العباسيين أيضا • وفى هذا الشأن تطالعنا كتب التاريخ ان احد أعضاء السفارة الهندية اسمه مانك جاء الى بلاط المنصور سنة 154 هـ الموافق سنة 771 م بكتاب قيم عن علم الفلك لدى الهندوس اسمه كتاب **السند هند** ، ونظرا لما لهذا الكتاب من فوائد قيمة أمر الخليفة العباسى بترجمته الى اللغة العربية واوكل المهمة الى الفزارى الذى قام بترجمته •

ومن المتعارف عليه ان حركة الترجمة وجدت التشجيع الكامل لدى الخلفاء العباسيين ابتداء من عهد هارون الرشيد بالخصوص (170 ـ 193 هـ ، 786 ـ 809 م) الذى أمر بانشاء بيت الحكمة ، واهتم بهذا الجانب العظيم من بعد الرشيد ابنه المأمون الذى قرب اليه العلماء دون النظر الى دينهم بل قومهم حسب ما لديهم من علم ، وجعل بيت الحكمة تحت اشراف الدولة مباشرة واستقدم لها العلماء من قوميات مختلفة وديانات عديدة ، كما بعث من ينقب له عن ألوان المعرفة أو الكتب فى خزائن الامبراطورية البيزنطية وعادت اليه هذه البعثة بكتب قيمة لمختلف التخصصات العلمية باللغة اليونانية ، فأمر بترجمتها الى اللغة العربية •

وكان من نتائج هذا الاهتمام العباسى للبحث العلمى ان ترجم كتاب **الزيج** الشهريار الفارسى ، وكلمة الزيج فارسية الاصل تطلق عادة على الجداول الفلكية • كما ترجم يحيى بن خالد البرمكى (190 هـ ـ 805 م) كتاب المجسطى لبطليموس وهو كتاب قيم اذ جمع فيه بطليموس السابق الذكر ما وصل اليه البحث اليونانى فى هذا الميدان ، ونظرا لما لهذا الكتاب من قيمة فقد ترجم عدة مرات منها ترجمة حنين ابن اسحق (195 هـ ـ 260 م) ثم والحجاج ابن مطر سنة 212 هـ ، الموافق لسنة 827 ميلادية ثم ترجمه أيضا الى العربية ثابت بن قرة (288 هـ) •

ومن أمهات الكتب فى الجغرافية التى ترجمت فى هـــذه الفترة نجد كتـاب الجغرافية لبطليموس الذى يطلق عليـه أيضا اسم دليل الجغرافية وهو يشتمل على مبادىء أولية فى الرياضيات ، وفيه تحديـــد لصـــورة الارض وعظمتهـا وأوضاعها ومكانتها فى الكون ، وجداول فلكية لعروض واطوال النقط من الجزء المعمور من الارض • وقد قام بترجمة هذا الكتـــاب : أبو يوسف يعقـــوب ابن اسحق الكندى المتوفى سنة 255 هـ (868 م) ثم ثابت بن قرة كما ترجمه محمد بن موسى الخوارزمى المتوفى سنة 232 هـ (846 م) •

والملاحظ على هذه الترجمة انها كثيرا ما كانت تستعمل فيها بعض المصطلحات الاجنبية التى لا يوجد لها مقابـــل فى العربية ، اذ المدار على الفهم ، وما اللغة الا وسيلة من وسائل أداء المعرفـــة بامانـــة •

2 ـ مجهودات جغرافية فيما بين القرن الاول والثالث هجرى :

آن القرن الاول للهجرة يعـــد قـرن الفتوحات وخروج الاسلام مـن شبـــه الجزيرة العربية الى بقية انحاء العالم ، اذ الغرض الاول لدى المسلمين فى هذا القرن هو نشر الاسلام والسلام وتمكين الانسان من الاطلاع على هذا الدين الجديد ذى المبادىء السامية الذى يدعـــو الى الاخوة وحق الحياة فى ظل الامان لكل فرد على وجه المعمورة •

اما القرنين الثانى والثالث فقد اتسما بحركة الترجمة وتمكين الامم من اللغـة العربية لغة القرآن والدين الاسلامى ، ولغة الادارة والمعاملات الدنيوية ، اذ بعد أن عمرت بغداد التى بناها المنصور سنة 145 هـ ـ 770 م ، فتحت أبوابها لكل وافد من جميع جهات المعمورة ، فجاءها التجار من كل الجنسيات ووصل اليها العلماء والاطباء مـن اليهود والصابئة والنصارى والمجوس والبوذيـين الى ان أصبحت اغنى عواصم المعمورة واكثرها ضيـاء •

ويمكن التعرف على التقدم الجغرافى لهذه الفترة فيما وصل اليه علم الفلك ، وفى الرحلات التى قام بها المسلمون •

أ ـ علم الفلك :

لقد نشأ هذا العلم لدى المسلمين فى بداية الامر نشـــأة بسيطة اذ اهتـم المسلمون فى أول الامر بمعرفة حركة الشمس والقمر لاثبات الفصول الاربعة التى تتعلق بالفلاحـة ، وكذلـــك أداء الشعائر الدينية على أكمل وجه • ولم يخوضوا فى علم الفلك فى أول الامر

خشية الخلط بينه وبين علم السحر والكهنوت الذى عرف عليه قديما بعلم الغيب ولكن بعد ان ميزوا بين هذا وذاك واطمأنوا على عقيدتهم اداروا ابصارهم نحو السماء لملاحظة طلوع الكواكب وغروبها والاستفادة من هذه الحركة فى ركوب البحار وقطع القفار ، ثم زاد شوقهم الى معرفة الامور الفلكية لاستعمالها فى تحديد النقط على سطح الارض والمسافات ورسم الخرائط والطرق ومعالم الارض لتسهيل الجباية وادارة الدولة وخدمة الانسانية بصفة عامة . لذلك انشئت المراصد على غرار مراصد الاسكندرية فى العهد اليونانى ومراصد جند يسابور بخوزستان فى العهد الفارسى . وكان من اشهر فلكى هذه المراصد الاسلامية أحمد النهاوندى الذى قام باعداد زيج اطلق عليه الزيج المشتمل سنة 188 هجرية (803 م) . أما أشهر المراصد فهو المرصد الذى انشأه المأمون سنة 214 هـ (728 م) عند باب الشماسية وهى احدى الابواب الاربعة لمدينة بغداد . ثم تليه مراصد أخرى منها مرصد سند بن على (165 ــ 229 هـ) ومرصد يحيى بن أبى منصور المتوفى سنة 215 هـ . ويذكر المؤرخون ان من مرصد بـاب الشماسية قام الفلكيون المسلمون برصد منظم لحركات الاجرام السماوية ، وصححوا ما جاء فى كتاب المجسطى اليونانى من براهين للنظريات الفلكية العديدة ، من بينها دوران الارض حول الشمس وحول نفسها ، وطول السنة الشمسية . ومما يذكر ان المأمون طلب من هؤلاء الفلكيين القائمين على هذه المراصد ومن علماء آخرين فى الرياضيات والهندسة من بيت الحكمة ان يتحققوا من آلات الرصد الوارد ذكرها فى الآثار اليونانية والفارسية والهندية ، وان يقوموا بصناعة ما يشابهها أو ما هى احسن منها لاستعمالها فى ارصاداتهم . وقد تمكن هؤلاء العلماء فى النهاية من الحصول على معلومات كثيرة فى هذا الميدان جمعوها فى كتاب ضخم اطلق عليه اسم : **الرصد المأمونى أو الزيج المأمونى الممتحن** . ولم يكتف المأمون بمراصد بغداد فقط بل أمر بانشاء مراصد أخرى فى ارجاء المعمورة حيث انشأ مرصدا على جبل قيسون المشرف على مدينة دمشق ومرصدا فى مدينة اصفهان .

اما آلات الرصد التى استعملت فى هذه المراصد فهى كثيرة ومتنوعة منها ذات الاصل الاغريقى كاللبنة ، والحلقة الاعتدالية ومنها المستحدث مثل ذات

الاوتار ، وذات السمت والارتفاع ، والحلقة الكبرى والحلقة الصغرى ، والمزاول الشمسية والمتنوعة • واهمها آلة الاسطرلاب التى ارتبطت صناعتها عند المسلمين باسم ابراهيم الفزارى اذ هو أول مسلم اخترع اسطرلابا وألف فيه كتابا باسمه وهو كتاب العمل بالاسطرلاب • والاسطرلاب عبارة عن صورة مصغرة لقبة السماء ، وكانت صناعته تحتاج الى مهارة فائقة لما يرتسم على هذه الآلة من خطوط رئيسية حتى يتم تحديد مواقع النجوم عليها • ولهذا انتشر نوع آخر أكثر بساطة من هذه الآلة وهو الاسطرلاب المستوى •

ووظيف الاسطرلاب ايا كانت صورته هى معرفة ارتفاع النجوم والكواكب وبالتالى معرفة ما انقضى من ساعات الليل والنهار • وقد ظلت هذه الآلة منتشرة فى العالم الاسلامى طيلة الحضارة الاسلامية ومنها انتقلت الى أوروبا حيث بقى الاوروبيون يعملون بها حتى نهاية القرن 17 م ، كما أخذوا عن المسلمين طريقة استعمال البوصلة فى رحلاتهم البحرية والبرية •

ولم يكتف المسلمون فى ابحاثهم الفلكية المبكرة بمعرفة حركة الاجرام السماوية فقط بل طبقوها على قياس الابعاد كقياس محيط الكرة الارضية مثلا وذلك بعد ان برهنوا على كرويتها وحركاتها وفى هذا المعنى يقول ابن سينا (290 هـ) فى كتابه الاعلاق النفيسة ان الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من فى نواحى الارض فى وقت واحد ، بل ان طلوعها على المواضع المشرقية من الارض اسبق من طلوعها على المواضع المغربية وغيبوباتها عن الجهات الشرقية اسبق منها عن الجهات المغربية • وأيضا انه يوجد فيما بين المواضع المتباعدة الى الشمال والجنوب مثل هذه الظاهرة فانه ان سار احد فى الارض من ناحية الجنوب الى الشمال رأى انه يظهر له من ناحية الشمال بعض الكواكب التى لها غروب، فيكون ابدى الظهور ، ويحسب ذلك يخفى عنه من ناحية الجنوب بعض الكواكب التى كان لها طلوع فيصير ابدى الخفاء • وللارض حركة يومية بدليل وجود الليل والنهار • ومن نزل تحت القبة فالليل والنهار ابدا عليه مستويان : الليل اثنتا عشرة ساعة والنهار اثنتا عشرة ساعة ، وكلما ابتعدنا عن وسط السماء (القبة) نحو الشمال حيث المعمورة من الارض ـ المنقسم الى اقاليم سبعة ـ يطول نهار الصيف ، وليل الشتاء حتى 66 درجة شمالا ينتهى

النهار فى الطول ما يكون أربعا وعشرين ساعة ، ويذهب الليل فى أول الصيف ، وفى أول الشتاء الليـل ينتهى الى 24 25 ساعة ويذهب النهار ، وما زاد فى النهار نقص من ساعات الليل ٠

اما الحركات الثانية السنوية للارض فينتج عنها فصول السنة الاربعة والتى يبدأ كل منها فى مواقيت معروفة فلكيا٠ ويذكر ابن رسته انه كما ان الارض مستديرة الشكل ، فالسماء أيضا تتخذ نفس الشكل ، وهو يورد عدة أدلة تبرهن على ذلك وابرزها ظهور بعض الكواكب التى لا تكون بدرجة واحدة ٠ « فلو كانت السماء مسطحة على ما يقول بعض الناس كما كان يجب ان يكون بعض نواحى السماء منا على قدر واحد بل كان يجب ان يكون أقرب مواضع السماء منا ما كان محاذيا لرؤوسنا » ٠ اما موضع كرة الارض فهى مثبتة فى وسط السمـاء « كالمركز وقدرها عند قدر السماء كقدر النقطة من الدائرة صفرا » فالخلاصة مما تقدم « ان الارض فى وسط العالم كالمركز ، والهواء يحيط بها من جميـع الجهات ، والسماء محيطة بالهواء عـلى مثال الكرة ٠

اما عن قياس محيط الارض فيذكـر التاريخ ان المأمون أمر سند بن عـلى وخالد بن عبد الملك بقياس مقدار طول الدرجة ٠ ولتحقيق ذلك سار الرجلان من بغداد نحو مكان بعيد الى ان وصلا الى منطقة تدمر ، كما سار رجلان آخران هما على بن عيسى الاسطـرلابى وعـلى ابن البحترى فى اتجاه آخر ٠ وقـام الرجال الاربعة بقياس طول الدرجة من درجات اعظم دوائر تمر بسطح الارض ، فكانت 111,81 كيلومتر ومعنى هذا ان محيط الارض – حسب هذه التجربـة المأمونية – يساوى 40251,6 كلم وهو رقم أقرب الى الرقم المعروف حاليـا ٠ والقياس المأمونى أول قياس حقيـقى اجرى على الطبيعة ، بل يعد من الاعمال الجليلـة التى ساهـم بهـا المسلمون فى تطوير علم الجغرافية وتصحيح العلـوم القديمة ٠

ب – الرحـلات :

لم يهتم المسلمون فى هذه الفتـرة المبكرة من تاريخهم بعلم الفلك وتطبيقاته فقط ، بل راحوا يجوبون انحاء الارض للتعرف على معالمها الطبيعية والبشرية ، وتصحيح ما جاء فى كتب الاولين ٠ وممن اشتهـروا بالرحـلات والاكتشافـات الجغرافية نذكر سليمان التاجر (237هـ) الذى ترك لنا معلومات قيمة عن بـلاد الشرق الاقصى حسب ما ورد فيما ترجم

له الى اللغة الفرنسية بواسطة المستشرق الفرنسى رينودوت تحت عنوان سلسلة التواريخ . ويذكر سليمان التاجر فى رسالته واخباره التى نقلها عنه أبو زيد الحسن السيرافى اشياء كثيرة عن بلاد الهند والصين، والبحار الشرقية والموانى مثل ميناء خانفو ، والجزر مثل جزيرة سيلان أو سرنديب ، وظاهرة المد والجزر وارتباطهما بحركة القمر ، وهو ارتباط سليم اثبته العلم الحديث ، كما وصف فى رسالته رياح التيفون بالمنطقة وعادات وتقاليد سكان الصين والهند بشىء من التفصيل .

ورحلة سلام الترجمان الى الجهات الشمالية من بلاد الصين ذلك فى عهد الخليفة العباسى الواثق بالله (227 - 232 هـ) الذى أرسل سلام الترجمان الى بلاد الصين . وفى هذه الرحلة انطلق سلام الترجمان من مدينة سامرا الى أرمينيا ومنها الى بلاد الخزر شمال غرب بحر قزوين ومنها الى بلاد الصين بعد ان اجتاز سد ذى القرنين ، وقد صحبه فى هذه الرحلة خمسون رجلا من بينهم محمد بن موسى المنجم عادوا الى عاصمة الدولة العباسية بمعلومات قيمة عن الاراضى الممتدة من بحر قزوين الى بلاد الصين .

ولما كانت الجهات الشمالية من البحر الاسود غير معروفة حتى لدى الاقدمين مثل بطلموس واسترابون وبلينى ، فقد اهتم المسلمون باكتشافها ، لذلك أوفد الخلفاء العباسيون بعثات كثيرة الى هذه الاصقاع ، ومن بينها بعثة ابن فضلان الى بلاد البلغار (309 هـ - 921 م) الذى أرسل لنشر الاسلام بطلب من حاكم البلاد بالفلجا ، وقد عاد هذا الرحالة بعد حوالى السنة بملاحظات ضمنها كتابه الذى يعد أول مصدر موثوق به عن بلاد تلك الاصقاع .

ولم يقتصر المسلمون فى رحالاتهم واكتشافاتهم على الجهات الشرقية والشمالية فقط بل منهم من خرج من بلاد المغرب ليكشف السواحل الشمالية للمحيط الاطلسى وبلدان أوروبا الشمالية الشرقية . ومن بين هؤلاء الرحالة نذكر رحلة يحيى بن الحكم الغزالى (حوالى 230 هـ - 844 م) الى بلاد الدانمارك وقيل الى جزر ايرلندا ، وقد أرسل فيها هذا الرجل من قبل الخليفة الاموى عبد الرحمن بن عبد الحكم الذى كان بالاندلس وخرج الغزالى من قرطبة الى شلب التى انشىء له فيها مركب حسن كما يذكر ، ومنها ركب المحيط الاطلسى المعروف حين ذاك ببحر

الظلمات الى أوروبا الشمالية وقد رجع بعد عامين من رحلته الى بلاد الاندلس بمعلومات قيمة ٠

ومن المجهودات التى قام بها المسلمون فى المغـــرب لكشف ما وراء المحيـــط الاطلسى نذكر رحلة سماها الادريسى برحلة الفتية المغرورين ذلك ان ثمانية رجال كلهم ابناء عم عزموا على ركوب بحر الظلمات فانشأوا لذلـــك مركبـا ووضعوا فيه ما يكفيهم من الزاد والماء لمدة شهر ثم انطلقوا من مدينة لشبونة نحو الجهات الجنوبية الى ان وصلوا الى جزر آزور ومنها اطلقوا شراعهم للرياح التجارية التى ربما قد أوصلتهـــم الى العالم الجديد ٠ واذا صحت هذه الرواية يمكن القول انهم أول من اكتشـــف أمريكا قبل كلومبس بحوالى السبعـــة قـــرون ٠

ج ـ الجغرافية الوصفية :

ونعنى بها تلك المؤلفات فى مـــادة الجغرافية التى ظهرت لدى المسلمـين فيما بين القرن الاول والثالث للهجرة وهى مؤلفـــات عديد ومتنوعة لذلـــك سنقتصر على البعض منها فقط ٠ وهى مؤلفات يغلب عليها الطابـــع الوصفى والخلط بين العلوم المختلفة ٠

1 ـ كتاب الاوطان والبلـــدان لعمر ابن بحر بن محبوب المعروف بأبى عثمان الجاحظ (150 هـ ـ 255 هـ ، 767 ـ 868 م) وهو عالم جليـــل له مؤلفات عديدة منها البيـــان والتبيين وكتاب البخلاء ، والحيوان وكتب أخرى عديـدة لا يمكن حصرها ٠ وتعتبر مؤلفات الجاحظ كنوز قيمة أخذ منها من جاءوا من بعده مثل ابن المقفـــع وابـــن خرداذبة ، وابن حوقل والمسعودى والمقدسى الخ٠٠ ممن كتبوا فى الجغرافية ٠

2 ـ كتاب صورة الارض لابى جعفـر أبى عبد الله محمد بن موسى المشهـور بالخوارزمى وقد ألف كتابه فى النصف الاول من القرن التاسع للميلاد وقيـل سنة (232 هـ ـ 846 م) وليس فى وسعنا القطع بتاريخ محدد ، ولكن ومما لا شك فيه ان الخوارزمى قد شارك فى النشاط العلمى الذى ازدهر فى ابـان عهد المأمون (813 ـ 833 م) ويعتقد ان هناك صلة بين هذا الكتاب وبين خريطة العالم الشهيرة التى تعاون على رسمها نفر من الباحثين تحقيقا لرغبة الخليفـة المأمون اطلق عليها الصورة المأمونية ٠ وهى أول خريطة للعالم ببره وبحـره وعامره وغامـــره وضعت فى العهـــد العباسى ٠ ويعتبر كتاب صورة الارض

احسن ما انتجته القريحة الاسلامية فى فجر نشاطهـا العلـمى ، فيـه أورد الخوارزمى الاسماء القديمة للبلـدان والمواقع والاسماء المتداولـة فى العصر الاسلامى ·

3 ـ مصنفات المسالك والممالك وهى مؤلفات عديدة جاءت تلبية لحاجـة الادارة الاسلامية كمعرفـة الطـرق ، لايصال البريد وجمع الضرائب ، وتنقلات الجيش ، والتجـارة الـخ ··· وهى مصنفات وصفية بحق اذ ان أصحابها لم يتعرضوا الى التحليـل والتعليـل الجغرافى بل اكتفوا بوصف المظاهـر الطبيعية وصردها وذكر الطرق وابعادها وربما كان مرد هذا الى حكم الوظيفة التى كان يشغلها صاحـب المسالـك والممالك كما هو الشان لدىابن خرداذبة الذى كان موظفا رسميا فى الدولة حيث كان يشغل منصب صاحب بريد وخبر فى عهد أحمد بن جعفر المتوكل (256 ـ 279 هـ · 869 ـ 892 م) وبذلك كان عمل ابن خرداذبة مرتبطا اشد الارتباط بالمسالك وشؤونها ثم ان اطلاعه عـلى وثائق الدولة العباسية قد سهل لـه الحصول عـلى اخبـار عديدة ومعلومات كثيرة عن اصقاع العالم الاسلامى اذ ذاك فضمنها كتابه المسالك والممالك الذى انجزه وهو بمدينة سامرا على نهر دجلة فيما بين عامى 230 ـ 234 هـ · 844 ـ 849 م · فيه ذكر الطرق التجاريـة الرئيسية فى العالم الاسلامى بجانـب وصفه لجهات قاصية مثل : الصين وكوريا واليبان غير انه كثـيرا ما خلط بـين الحقيقة والخيال · ومهما يكن فان هذا الكتاب يعد من المصادر القيمـة التى اعتمد عليها الجغرافيون الذين اعقبـوا ابن خرداذبة مثل البيرونى وياقـوت الحموى والاصطخرى وكلهم أصحـاب مسالك وممالك ·

والخلاصة ان الدراسات الجغرافيـة لدى المسلمين فيما بـين القرن الاول والثالث للهجرة تتميز بالآتى :

أ ـ عدم التخصص . فالذين كتبوا فيها متخصصين فى الجغرافية فقـط . لذا لم يكتبوا فى الجغرافية فقط بـل كتبوا فى فنون أخرى فابن خرداذبة مثلا كان موسيقيا وأديبا فى أول الامر قبل ان يشغل وظيفة صاحب البريد . والخوارزمى اشتهر بالرياضيات والجبر بالخصوص · والجاحظ عرف بالبـلاغة قبل ان يعرف بالجغرافية . ولعل هـذا من شأن العلوم القديمة التى كان فيها الحكيم والعالم هو الذى له من كل فن بطـرف ·

ب ـ الخلط بين الحقيقة والخيال فى بعض الاحيان وربما مرد هـذا الى ان

البعض ممن كتبوا فى هذا الفن اكتفوا بالاخبار المنقولة دون ان يتحركوا عن مكاتبهم للمشاهدة والاطلاع فى عين المكان عما قيل أو روى فلان عن فلان ·

ولكن رغم هذه النقائص التى تعد جزءا من عدم الكمال لطبيعة البشر فان المسلمين فى هذه الفترة المبكرة من التاريخ قد أتوا بما لم تأت به أمة فى فجر تاريخها · ويكفى ان نذكر فى هذا ان هناك فضلا عظيما يرجع للمسلمين فى جمع التراث البشرى القديم وبعثه من جديد سواءا كان هذا التراث يونانى أو فارسى أو هندى أو فرعونى · فلولا المسلمين لاندثرت تلك المجهودات العقلانية البشرية ولما عثر عليها الى الابد · وكذلك يرجع الفضل الى المسلمين فى المزج بين الحضارات القديمة وتصحيح النظريات العتيقة وتوسيع رقعة العالم المعروف ·

3 ـ مجهودات جغرافية فيما بعد القرن الثالث هجرى :

يذكر المؤرخون ان اتساع الدولة الاسلامية ودخول عناصر اجنبية فيها وانحلالها كانت من الاسباب التى ادت الى انقسامها الى دويلات منها دولة الصفارية فى خراسان على يد يعقوب بن الليث الصفار سنة 254 هـ التى استمرت الى سنة 290 هـ · ودولة السمانيين فى تركستان سنة 216 هـ واستمرت الى سنة 389 هـ · والدولة الغزناوية فى بلاد الافغان والبنجاب سنة 351 واستمرت حتى 582 هـ · والدولة البويهية فى فارس سنة 320 هـ واستمرت حتى 447 هـ · والدولة الحمدانية فى الموصل والشام من 317 الى 393 هـ · ودولة الامويين فى الاندلس من سنة 138 الى 424 هـ والدولة الطولونية فى مصر من 254 الى 292 هـ · والدولة الاخشيدية فى مصر والشام من 323 الى 358 هـ · والدولة الفاطمية فى شمال افريقية . ثم فى مصر من سنة 297 الى 567 هـ · ودولة الاغالب فى تونس من 184 الى 296 هـ ودولة الادارسة فى المغرب من سنة 172 الى 375 هـ · الخ الخ ··· مما يطول ذكره . واننا لم نستعرض هذه الدويلات الا لبيان مدى الانقسام السياسى الذى أصاب الامة الاسلامية . وان هذا الانقسام ظل يشتد فى بعض الاحيان حتى أدى الى الحروب بينهم مما اضعف شوكتهم واذهب ريحهم باستلاء التتار على معظم ديارهم وخرب جنكيز خان عاصمتهم بغداد سنة 656 هـ ـ 1258 م · ولكن واحسن الحظ فان هذا الانقسام السياسى لم يؤثر فى المدى القصير على

الاقل ، على المستوى الحضارى ، بل انه قد زاد من التنافس فى البحث عن المعرفة ويتجلى هذا فى ظهور مراكز ثقافية أخرى مثل قرطبة والقاهرة وبخارى وهى مراكز ظلت تنافس مدينة بغداد فى المعارف والعلوم أكثر من خمسة قرون . وأصبح كل منها قبلة للعلماء والشعراء والكتاب فى مختلف الفنون الذين كانوا ينتقلون بكل حرية بين هذه العواصم طلبا للاستزادة فى العلم أو ابتغاء الكسب أو الجاه ٠ هذا من جهة ومن جهة أخرى فان الامراء والملوك المسلمين بحكم عقيدتهم اخذوا يشجعون ويقدرون العلم ويقربون اليهم العلماء اسوة لمن سبقهم أو منافسة للخلفاء العباسيين ، فازدهرت بخارى فى عهد الدولة السمانية الى ان أصبحت محطة رجال الادب والعلم ٠ وفى القاهرة اهتم الفاطميون وخاصة فى عهد العزيز بالله (365 ـ 386 هـ) والحاكم بامر الله (386 ـ 411) بالعلم والعلماء ٠ وفى قرطبة كان اهتمام الحكم الثانى المستنصر بالله (350 ـ 366 هـ) بالعلم والعلماء كبيرا حتى وصف قصره بانه كان حافلا بالكتب واهلها حتى بدا وكأنه مصنع لا يرى فيه الا النساخون والمجلدون والرسامون ٠

ومهما يكن من أمر فان علم الجغرافية فيما بعد القرن الثالث للهجرة قد شاهد دفعة أخرى نحو الامام وتطورا ملحوظا يتجلى فى كثرة ما كتب فيه وذلك حتى القرن السابع للهجرة ٠ ولا بأس ان نستعرض فيما يلى البعض من هذه الآثار القيمة :

1 ـ كتاب المسالك والممالك **للبلخى** وهو أبو زيد أحمد بن سهل البلخى من موالد بلخ بشامستان ، قصد العراق وهو صغير فتتلمذ على الفيلسوف المشهور الكندى الذى علمه التاريخ والجغرافية والفلسفة ٠ ولما رجع الى وطنه استخدمه أمير بلخ فى الدولة ٠ والبلخى هو احد الرواد المسلمين فى صناعة الخرائط اذ ان معظم كتبه تحوى صورا وأشكالا ورسوما للاقاليم التى تحدث عنها : وقد انجز كتابه المذكور سنة 309 هـ 921 م . وتوفى سنة 322 هـ ـ 934 م ٠ ويذكر المقدسى ان البلخى قد سبقه فى تصوير الخرائط ٠ ومما تجدر الاشارة اليه ان البلخى كان أيضا طبيبا ماهرا وفقيها جليلا ، وانه ممن هجموا على اسرار علم التنجيم والهيئة ٠

2 ـ المسالك والممالك **للاصطخرى** وهو أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الاصطخرى الفارسى ، ربما عاش فى النصف الاول من القرن الرابع الهجرى ٠ وقد عاصر

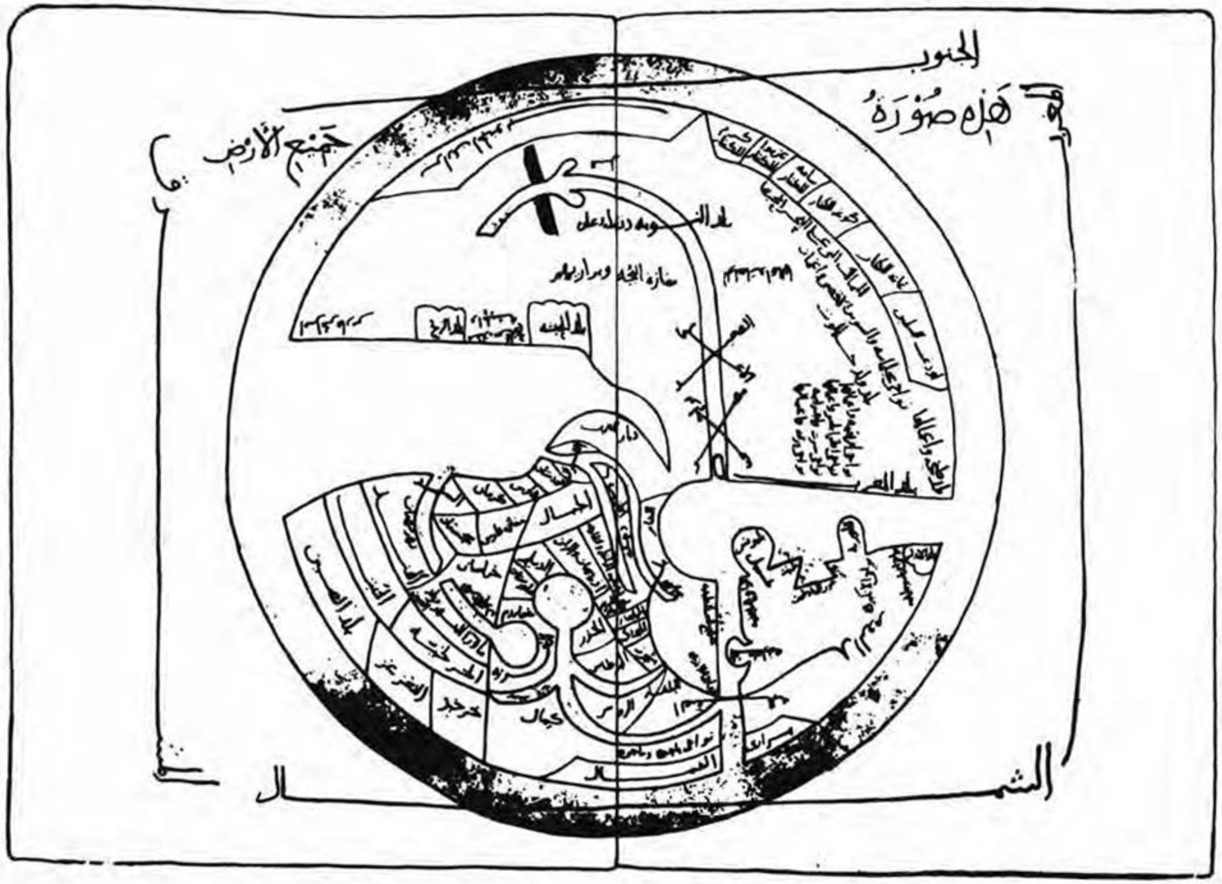
ابن حوقل واتصل بـــه سنة 340 هـ ·
وقـد كتب الاصطخرى كتابــه المسالك والممالك معتمدا على مؤلف البلخى الذى تقـدم بنفس العنوان · والملاحظ عـلى الاصطخرى انه ذكـر بالتفصيل بـــلاد فارس وذلك لمعرفته بها امـا عن بـلاد المغرب فقد أوجز كـل الايجاز · وقـد اهتم برسم الخرائط عن الاقاليم التى ذكرها ·

3 ـ كتاب صورة الارض لابن حوقل ، وهـو أبـو القاسم محمد بن حـــوقل البغدادى الموصلى النصيبى · ويذكر فى كتــابه هذا ان الدافع الى تاليفه كـان شغفا بالعلم وتكميلا لما قصر عنه غيره · ثم يقول : وأعاننى عليه تواصل السفر ، وانزعاجى عن وطنى مع ما سبق بـــه القدر ، لاستيفاء الرزق والاثر ، والشهوة لبلوغ الوطر ، بجور السلطان وكلـــب الزمان ، وتواصل الشدائد على أهـــل المشرق والعدوان ، واستئناس سلاطنه بالجور بعـد العـدل والطغيان وكثـرة الجـوائح والنـوائب وتعـاقب الكلـب والمصائب ، واختلال النعم وقحط الديم .

ومما تجدر الاشارة اليه ان ابن حوقل اعظم رحالة ، حيث ضرب الرقم القياسى فى التجوال ، خرج مـــن بغداد يـوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة 331 هـ ، وهو في احدث السن وغرته ، وفى عنفوان الشباب وسكرته. وظل يطوف بمشارق الارض ومغاربها لمدة 30 عاما الى ان جمع اكداسا مـــن المعارف والتجارب ضمنها كتابه المذكور· والعجيب انه لم يركب البحار بل ظل طيلة تلك المدة يتجول على اليابس فقط·

وقد فصل بن حوقل فى كتابه البلاد الاسلامية اقليما اقليما وصقعا صقعـــا **وكورة كورة ، كما رسم عدة خرائـط منها خريطة للعالـــم التى تظهر فـى شكل 5 · وفيها نلاحـــظ الشمال فى** اسفل الخريطة والجنوب فى اعلاها على عكس ما نعرفه الآن فى خرائطنا والخرائط اليونانية القديمة وقد زادت خريطتـه تشويها لعدم استعماله لخطوط العرض والطول فى تحديد المواقع ويظهر ان هذه الخريطة غير منقولة وانها من اجتهاده الخاص وفيها تظهر سواحل البحار فى شكل خطوط مستقيمة ولعل السبب فى ذلك يرجع الى ان ابن حوقل لم يركب البحار حتى يمكنه ان يتنبه الى تعرجاتها كما انه يبالغ فى رسم القارة الافريقية ، ويفصل بين القارة الآسيوية والاوروبية فى مده للبحر الاسود نحو الشمال حتى المحيط الشمالى ·

4 ـ مروج الذهب ومعادن الجوهـــر للمسعـــودى وهـــو أبو الحسن عـلى ابن الحسين بن على ولد فى بغداد سنة



(شكل 5) صورة الارض لابن حوقل (القرن 4 هـ · الموافق للقرن 10 م)

287 هـ وتوفى بمصر سنة 345 هـ ٠ وهو من ابرز المؤرخين والجغرافيين على السواء ٠ أحب التجوال منذ صغره لذا امضى معظم حياته فى الترحال الى بلاد الهند والسند والبنجاب وملبار وسيلان والصين ثم رجع الى زنجبار وزار مدغشقر ثم قفل راجعا الى عمان ومنها رجع الى بغداد لكن حنينه الى السفر عاوده مرة أخرى لذلك خرج نحو الجهات الشمالية فزار البلدان التى تحيط ببحر قزوين والشام وفلسطين ثم مصر التى ادركته فيها الوفات ٠ والمسعودى واسع الاطلاع والمعرفة . ومن حسن الحظ ان كتابه متيسر للقارىء حيث اعيد طبعه عدة مرات ويحتوى على جزئين ٠ وقد رسم صورة للارض انظر شكل 6 ٠

5 ـ احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم للمقدسى وهو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى ولد ببيت المقدس حوال 335 هـ ٠ ومن هنا كانت تسميته توفى سنة 381 تقريبا ، وشهرته معروفة فى الغرب الى حد كبير . وقد طاف بانحاء العالم الاسلامى ما عدا الهند والاندلس وقضى فى ذلك حوالى 20 سنة ٠ ويمتاز المقدسى بالتجربة فيما يقول والصدق فيما يذكر والامانة فيما ينقل . والنظرة الثاقبة فيما يلاحظ ويقدر ٠

وقد صنف مؤلفه فى سن الاربعين بمدينة شيراز بفارس سنة 375 هـ ـ 985 م . ويرى المقدسى ان الجغرافية لم تكن تلقى عناية كبيرة لدى من سبقوه من رجال العلم ومن هنا أخذ على عاتقه ان يضطلع بجمع مادته العلمية من شتى أنحاء العالم الاسلامى معتمدا على رحلاته وملاحظاته الشخصية ، وفى هذا الشأن يقول : فرأيت ان اقصد علما قد اغفلوه (أى من سبقوه) وانفرد بفن لم يذكروه الا على الاخلال . وهو ذكر الاقاليم الاسلامية وما فيها من المفاوز والبحار ، والبحيرات والانهار ووصف امصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة ، وعناصر العقاقير والآلات ، ومعادن الحمل والتجارات ، واختلاف أهل البلدان فى كلامهم واصواتهم وألسنتهم والوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ، ونقودهم وحروفهم ، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم واليهم الخ ٠٠٠ » الى ان يقول : « وعلمت انه (أى علم الجغرافية) باب لابد منه للمسافرين والتجار ، ولا غنى عنه للصالحين والاخيار ، اذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء وتطلبه القضاة

والفقهاء وتحبه العامة والرؤساء » وفى هذا الرجز المليح يبين أهمية الجغرافية من بين العلوم ٠

وقد استعمل الخرائط فيما يقول حيث قسم العالم الاسلامى الى 14 قسما أو اقليما لكل اقليم خريطته المفصلة استخدم فيها الرموز والالوان لبيان المظاهر الطبيعية ٠ كاستعمال اللون الاحمر للطرق والاصفر للرمال والاخضر للبحار والازرق للانهار والاغبر للجبال ، وهى تقريبا نفس الالوان المستعملة فى خرائطنا الحالية ٠ والارض عند المقدسى كروية الشكل يقسمها خط الاستواء الى قسمين متساويين ومحيطها 360 ٠ وان نصفها الجنوبى يغلب عليه الماء على عكس نصفها الشمالى ٠

6 ـ تحقيق ما للهند من مقولة فى العقل أو مرذولة للبيرونى وهو أبو الريحان محمد بن أحمد المولود باحدى ضواحى خوارزم سنة 362 هـ ، والمتوفى سنة 440 هـ ٠ والبيرونى من اشهر العلماء المسلمين فى التاريخ وله مكانة مرموقة فى علم الجغرافية والطبيعة والجيولوجية والفلك والرياضيات كما انه درس التقاويم والطب وبذلك تثير سعة افقه الدهشة بحق ٠ وقيل انه توفى سنة 442 هـ الموافق لسنة 1050 م، بعد ان خلد آثارا قيمة لم يصلنا منها الا النزر اليسير ٠ وقد اكتسب شهرة واسعة كباحث فى الفترة التى سبقت عام 407 وهو العام الذى وقع فيه البيرونى أسيرا بين ايدى السلطان محمد الخزنوى عند سقوط حيوه مسقط رأسه ثم اطلق سراحه وقربه السلطان محمود اليه وصاحبه فى حملاته على بلاد الهند واغتنم البيرونى هذه الفرص لتعليم اللغة السنسكريتية وكرس جهوده لدرس علوم الهندوس التى أودعها كتابه المذكور اعلاه ٠ ومن اشهر كتب البيرونى فى الجغرافية : الآثار الباقية من القرون الخالية ، وكتاب الهند الذى يعتبر بحق احدى المجهودات العظيمة فى حقل الجغرافية الاقليمية اذ تناول فيه حتى جيولوجية الارض وعلم المعادن ، اذ هو يذكر ان سهل الهندستان كان قديما عبارة عن قاع البحر ثم أخذت تترسب فيه جزئيات الطمى الى ان سوت منه سهلا ٠ وهى الفكرة الشائعة حاليا فى تكوين معظم السهول الرسوبية ٠

وعندما يتعرض البيرونى الى ما جاء عن بطليموس فيقول انه أصاب فى خطوط الطول والعرض ولكن ما أورده من ذكر لاقوام قد يشوبه الشك نظرا لان بطليموس لم يزر هذه البلدان ، هذا

من جهة ومن جهة أخرى فان الترحال فى عهد الرومان لم يكن ميسورا وان ولوج الاراضى لم يكن ميســـورا فى الماضى نظرا لتباين الملل الذى هو أكبر عقبـة فى سبيل التنقل بين البلدان فهناك قوم مثل اليهود يظنون انهم يتقربون الى الله عندما يغدرون بمن كان على غير دينهم ، والرومان يسترقون من جاء فى قبضتهم، وهناك أمم ترد المسافرين على اعقابهـم لانهم غرباء ، وآخرون يقتلون الغرباء ٠

ولهذا ربما ما ورد عن بطليموس عبارة عن روايات ٠ اما فى العهد الاســلامى فالظروف قد تغيرت تماما حيث اطمأن المسافر وتوسعت دار الاسلام ، وتفهم الكفار معنى السلم واصبح الجميع يدعون للسلام وعلى هذا النحو صار الحصول على معلومات تتعلق بالاماكن المختلفة على ظهر الارض أكثر سيرا وامنا الى درجة لا تقارن بما كان عليه الحال من قبل ٠

7 ــ معجم مااستعجم للبكرى وهـــو أبو عبيد الله بن عبد العزيز المولـــود بقرطبة سنة 432 والمتوفى هناك سنة 487 ٠ وله كتب أخرى مثل المسالـك والممالك الذى ضمنه ما شاهده فى رحلته فى المغرب وأرض الحجاز واوروبا ٠

8 ــ تحفة الالباب ونخبة الاعجـــاب لابى حامد الغرناطى وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازنـى القيسى الاندلسى ٠ ولد بغرناطة سنة 473 ومنها رحل الى بغداد سنة 557 بغية الاستزادة فى العلم ومنها انتقـــل الى خراســان للاتصال بعلمائها والاستفادة منهم ثم قفل راجعا الى حلب للتدريس والدراسة حتى توفى بدمشق سنة 565 الموافـق لسنة 1161 م ٠ وله كتب عديدة فى جغرافية بلدان المغرب وبلاد الاندلس بالخصوص كتاب نخبة الاذهـــان فى عجائب البلدان التى ذكر فيها ما شاهده فى رحالاته من بلاد الاندلس حتى بلاد الخزر ٠

9 ــ رحلة ابن جبير لابن جبير وهـــو أبو الحسين محمد بن أحمـــد الكنانى البلنسى الاصل (المولود سنة 540 هـ ، والمتوفى سنة 614 هـ) وقد تمتع بـين مواطنيه بشهرة عالية فى الادب والشعر حيث زاول التدريس فى مالقا وفاس وسبتة ببلاد المغرب ٠ وله جهد عظيـم فى ميدان الجغرافية حيث سجـــل فى يومياته وهو فى طريقه الى الحج كـل ما لاحظه على بلاد الاسلام ابتداء مـــن موطنه بالاندلس الى شبه جزيرة العرب ٠ ومـا ان آب مـن حجتـه الى الاندلس حتى نشر هذه المذكرات تحت عنـوان رحلة بن جبير وذلك بعد تنسيقها وفقـا لمراحل رحلته ٠ وقد لقى كتابه هـذا

رواجا فى الشرق وفى الغرب على السواء واستفاد منه من جاء من بعده من الكتاب والمؤرخين امثال العبدرى البلنسى فى كتابه عن رحلته فى افريقيا الشمالية سنة 688 هـ ـ 1289 م · وابن بطوطة الذى تجول فى بلدان العالم الاسلامى لمدة تزيد عن 28 سنة (725 ـ 753 هـ 1325 ـ 1353 م) صاحب كتاب رحلة ابن بطوطة الشهيرة التى قطع فيهـا ما يزيد عن 75 الف ميل ، وهذا الرقم لم يكن يتجاوزه احد كما يبدو قبل عصر البحار ، وبذلك يكون قد ضرب الرقم القياسى فى التجوال

10 ـ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للادريسى وهو أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عبد الله بن الادريسى الشريف وهو من أشهر الجغرافيـين المسلمين لـدى الاوروبيين · ولعل السبب فى ذلـك يرجع الى انه تجول كثيرا فى أوروبا وأنه خدم لمدة طويلة من الزمن بلاط روجى الثانى ملك صقلية الذى رسم له كرة ارضية وخرائط فى قرطبة ثم رحـل طويلا فى ارجاء العالم الاسلامى ثـم أوروبا الى ان استقر بصقلية حيث اغراه ملكها للاقامة وهناك صنف كتابه سنة 549 هـ ـ 1144 م · ويعتبر الادريسى أكبر جغرافى انجبته العصور الوسـطى حيث ان كتابـه حافـل بالمعلومـات الصحيحة واجتهاداته الخاصة وتجاربه المكتسبة · أجل لقد كانت لـه بعض الاخطاء فى وضع خرائطه مثل الشمال الذى وضعه فى اسفل الصورة والجنوب فى اعلاها · انظر شكـل 7 ، وبعض الخرائط التى أوردها فى كتابه وهى أوسع ما تكون انتشارا فى عصره ·

11 ـ معجم البلدان لياقوت الحموى · وهو من أسرة رومية ولد سنة 574 هـ ـ 1179 م . باليونان ووقع فى الاسر وهو لا يزال صبيا ، واشتراه تاجر بغدادى من قبيلة حموية ومن هنا جاءت تسميته بالحموى · وياقوت الحموى من مشاهير الجغرافيين المسلمـين وبالخصوص اذا نظرنا اليه وهو يصور العالم الاسلامى قبل ان يصيبه الخراب على يد التتـر بقيادة هولاكو خان · وقد بدأ حيـاته بالتجارة لصاحبه ثـم انفصل عنـه بالترحال واكتساب الرزق والعلم الى المناطق البعيدة وعمره 26 سنة وبعد ان اكتسب قدرا من التجربة خرج فى رحلته الثالثة سنة 610 هـ ـ 1213 م ، فاتجه أولا الى تبريز ومنها الى الموصل فالشام فمصر ، ثم عاد نحو المشرق الى ان بلغ نيسابور ثم دخل مروالتى عكف فيهـا على دراسة الكثير من الكتب القيمـة · وبذلك تهيأ للكتابة والتأليف لكن دوى

خريطة الإدريسي للعالم
(حوالي ١١٥٤م)



صوت التتر على هذه الجهات دفع به الى الخروج منها مسرعا نحو الموصل سنة 1220 م · وقد انجز كتابه المذكور سنة 1224 ثم توفى بعد ذلك فى حلب سنة 627 هـ ـ 1229 م · والتتار على أبواب العراق · وكتاب معجم البلدان يصور العالم الاسلامى بالتفصيل من بلاد الاندلس الى بلاد ما وراء النهر والهند. كما يتعرض فيه الى صرد جمهرة من الادباء والعارفين وأهل الفكر والجغرافيين كما يذكر تآليف عديدة لم يعد متيسرا الحصول عليها · ولعل أهم ما يمتاز به فى كتابه معجم البلدان انه قد استعمل طريقة النقد والتمحيص التى يأخذ بها الجغرافى الحديث ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على سعة اطلاعه ·

12 ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزوينى وهو زكريا بن محمد ابن محمود أبو يحيى القزوينى نسبة الى مدينة قزوين شمال فارس التى ولد فيها سنة 600 هـ ـ 1203 م · وفي عهد الخليفة المستعصم آخر خليفة عباسى كان القزوينى يعيش بالعراق ويشغل منصب قاضى على واسط والحلة · واذا صحت وفاته سنة 682 هـ ـ 1283 كما يذكر المؤرخون فلا شك انه شاهد الكثير مما خربه التتار وعاصر احراق جنكيز خان لمدينة بغداد سنة 656 هـ ـ 1259 م · واغراق نهر دجلة بالمؤلفات · وللقزوينى تآليف عديدة منها الكتاب المذكور الذى بقى معروفا حتى العصور الحديثة فيه تناول الاشياء السماوية مثل الشمس والكواكب والافلاك والبروج والاشياء السفلية مثل كرة الاثير أى الغلاف الغازى وكرة الماء وعجائب بحارها وكرة الارض وسعتها وقرارها ورسوخ جبالها وامتداد انهارها وفوائد معادنها وخواص اشجارها ·

وقد روى فيه كل ما قرأ او رأى او سمع دون ان ينقد ما كتب واثبت · وله كتاب آخر فى الجغرافية عنوانه آثار البلاد واخبار العباد ألفه سنة 1250 م . وفيه يتابع التقسيم البطليموسى السباعى للاقاليم · والكتاب يفيض بمادة غزيرة فى التاريخ والتراجم وبه مجموعة من الرسوم والصور ، وقد رجع القزوينى فى مؤلفاته الى مصادر عديدة منها مؤلفات : الغرناطى والعذرى والاندلسى وابراهيم الطرطوشى والجاحظ وابن فضلان ومسعد بن المهلهل والملتانى وغيرهم كثيرين ·

13 ـ رسائل اخوان الصفاء · وهى مقالات عديدة لجماعة من الصوفيين والفلاسفة المسلمين الذين سموا أنفسهم باخوان الصفاء وخلان الوفاء · ومن أهم مؤلفاتهم تلك التى كتبت فى القرن

الرابع للهجرة وتناولت جوانب علمية عديدة منها علم الجغرافية حيث تعرضوا فى كتاباتهم لكسوف الشمس وخسوف القمر كما تعرضوا لدورة الفصول تبعا لحركة الشمس الظاهرية وتصوروا ان الارض كروية الشكل وقالوا بوجود غلاف جوى يحيط بالكرة الارضية وينقسم الى ثلاثة اقسام أو ثلاث طبقات (أ) اعلاها واشدها حرارة هى الاثير (ب) والطبقة الوسطى قارسة البرودة وتسمى الزمهرير (3) والطبقة الاخيرة وهى ادنى الطبقات الى الارض وتسمى النسيم لاعتدال درجة حرارتها · وهذا ما وصل اليه العلم الحديث فى عصر الاقمار الصناعية ونقوم بتدريسه فى الجامعات · حيث ان درجة الحرارة والضغط يقلان بالارتفاع الى ان نصل الى نهاية طبقة التروبوسفير فتنعكس الآية بالنسبة للحرارة التى تأخذ فى الزيادة أما الضغط فيستمر فى النقصان الخ ·· وكذلك تناولت رسائل اخوان الصفاء التى تعتبر آثارا من آثار الحضارة الاسلامية ظاهرة السحب وكيف انها عبارة عن مياه للبحار التى تتحول الى بخار فتتصاعد فى الهواء ثم تسوقها الرياح ثم تتكاثف لتسقط مطرا ، وعلى هذا النحو ينصرف كثير من هذا الماء الى الانهار · ووجهوا اهتمامهم الى اثر التعرية والتحات والى العمليات الجيولوجية كما لم يغفلوا عن علم النبات والحيوان · اما فيما يخص العمليات الجيولوجية فذكروا ان الجبال أصلها رواسب نزلت باعماق المحيطات وان البحر ليس بثابت الشواطىء وانها عرضة للارتفاع والانخفاض ، فقد يطغى البحر ويفيض على السهول والمراعى حتى تصير السهول بحارا ويصير البحر يابسا على مرور الايام · وعلى سطح الارض التى برزت من البحر يتساقط المطر وتتكون المجارى المائية التى تحمل معها التربة والرمال وعليها ينمو النبات والمراعى والشجر · ولعمرى ان هذا لمن صميم الجغرافية الطبيعية ودورة التعرية النهرية وتكوين السواحل التى ندرسها لابنائنا حاليا فى الجامعات ·

14 ـ تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار لابن بطوطة السابق الذكر وهو أبو عبد الله محمد بن بطوطة المعروف أيضا بشمس الدين من مواليد سنة 704 هـ ـ 1304 م ، بطنجة ببلاد المغرب ، توفى فى فارس سنة 771 هـ ـ 1369 م · وابن بطوطة من اشهر الرحالة المسلمين فى القرن 14 ميلادى اذ طاف بكل البلدان الاسلامية من طنجة الى بلاد الصين · ذلك انه لما بلغ الثانية والعشرين من عمره خرج من مسقط رأسه مهاجرا

فى سبيل الله ، فزار أولا بلدان المغرب العربى : المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومنها انتقل الى مصر ففلسطين فالشام فمكة التى نزل بها لاداء فريضة الحج ومنها خرج نحو الشرق فزار بلاد ما بين النهرين ، ثم قفل راجعا الى بلاد العرب ومنها الى اليمن التى اقلع منها بحرا الى منبسا وسواحل افريقيا الشرقيـــة ثم عاد مرة أخرى للحـــج سنة 1332 م ، سالكا هذه المرة طريق عمان والخليج الفارسى • وبعد حجته الثالثة عزم على زيارة بلاد الهند لكن الاقدار وجهته نحو القاهرة ففلسطين فالشام ثم انتقل الى آسيا الصغرى ومن هناك ركب البحر الاسود متوجها نحو بلاد القرم التى كان بها السلطان محمد أوزبك خان المغولى الذى اسلم مع قومه واستقبل ابن بطوطة استقبالا حارا واتاح له الفرصة ليتنقل فى اقليم الاستبس الروسى ويكتب عنه الكثير وليزور القسطنطينية . ومنها ولج الى خراسان عن طريق خوارزم ليزور بخارى وبلخ وهراه وطوس ومشهـــد ونيسابور ثم اجتاز جبـال الهندكوش متوجها الى كابل حتى دخل بلاد الهند ووصل الى دلهى حيث قربه اليه سلطانها محمد طلغق وأرسله فيما ارسل الى بلاد الصين • سنة 1342 م ، وبعد ان زار هذه الجهات الشرقية قفل راجعا الى بلاده بعد ان حج حجته السابعة سنـة 1348 م . وزار بلاد الاندلس كما تجول فى بلاد النيجر عبر الصحراء • وخلاصة الحديث ان رحلات ابن بطوطة تستحق الاعجاب والتقدير حيث صور فيها العالم الاسلامى احسن تصويـــر كما امدنـا بمعلومات كثيرة عن البلدان النائيـــة الواقعة فيما وراء بلاد الاسلام كشمال سيبيريا وافريقيا السـوداء وما وراء جبال الهملايا •

4 ـ الجغرافية فى عصر الانحطاط :

وبعد كتاب ابن بطوطـــة ومقدمـــة عبد الرحمـن بن خلـدون (733 هـ ـ 1332 م ، 809 هـ ـ 1406 م) أخـذ مصباح علم الجغرافية عند المسلمين يسير نحو الانطفاء اذ ان هذا العصر يعتبر من اسوأ عصور الانحطاط والانحلال فى جميع انحاء العالم الاسلامى يقابله عصر المنافســة والنهوض للعالم المسيحى أو الاوروبى • اذ ظل الاوروبيون أكثر من ثلاث قرون من الزمن ودلك فيما بـين القرن 10 و 13 ينهلـــون من معـارف المسلمين • أما المسلمون فى هذه الفترة فقد انقسموا الى احزاب وشيع مما سهل على العدو أخذهم اخذا شديدا ، حيث سقطت مدن كثيرة على سواحل لبنـان وفلسطين فى أيدى الصليبيين فيما بين

القرنين 11 و 13 ميلادى وأرض فارس فى يد المغول فى القرن 13 م · وغرناطة وهى آخر معقل من معاقل المسلمين بالاندلس سنة 1492 م ، الموافقة للسنة التى خرج فيها كلومبس من لشبونة لاكتشاف أمريكا · وبعد ان سقطت مدينة القسطنطينية فى يد العثمانيين سنة 857 هـ ـ 1453 م أخذوا يوسعون نفوذهم على حساب الدويلات الاسلامية من الجهات الجنوبية وعلى حساب دول أوروبا الشرقية من الجهات الشمالية والشمالية الشرقية وما هو أقل من قرن حتى ورثت الدولة العثمانية بلدان الحضارة الاسلامية ، لكن ويا للاسف ان هذا الارث لم يكن مصحوبا بتطوير علم الجغرافية وكأن الحضارة الاسلامية قد بلغت مرحلة من الشيخوخة لم يكن من السهل اعادة شبابها وازدهارها · اذ بعد سقوط الاندلس ومن قبلها بغداد ثم استيلاء الاتراك على الحكم بدأت مجهودات المسلمين فى ميدان البحث تقل أو تزول لكن ما وصل اليه المسلمون خلال سبعة قرون على الاقل لم يندثر بل هاجر من المسلمين الى غيرهم ليظهر فى شكل ثوب آخر فى أوروبا ، وهذه سنة الحضارة منذ الازل التى هى عبارة عن ثوب نسجت خيوطه الانسانية وهو ثوب واحد ولكن يستجد ويعاد تفصيله من انسان لآخر . فاليونان ورثوا هذا الثوب فى عهد الاسكندر المقدونى بالخصوص من بلاد الهند والهلال الخصيب ومصر ، والمسلمون ورثوه من اليونانيين والهنود واعادوا تفصيله حتى يتماشى مع مقوماتهم الدينية والدنيوية ويقول فى هذا الشأن اخوان الصفاء : انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال · ثم ان الاوروبيين ورثوا هذا الثوب من المسلمين واستزادوا فيه ، وابدعوا فى تفصيله الى ان أصبح وكأنه ملك لهم · والعجيب ان كل من أزيل عنه هذا الثوب بدا وكأنه لم يكن عليه · ولعل ما زاد الطين بلة استيلاء الاوروبيين لا على المؤلفات الاسلامية التى نجدها الآن مقسمة بين المكتبات الاوروبية أو موزعة بين المسيحيين ولكن على بلاد الاسلام واذلال شعوبها الى درجة ان كادت الصلة تنقطع بين الحاضر والماضى ، وعمل الرجل الاوروبى على توجيه المسلم نحو نسيان شخصيته أو ماضيه وحتى صار المسلم يبدو له وكأنه لم يك شيئا أو كأنها اضغاث احلام ·

فالله نرجوه الصواب وان يعيننا على استرجاع مجدنا التليد وما ذلك على الله بعزيز ، فى هذا القرن 15 هجرى الذى فيه بدأت تظهر علامات النهوض للعالم الاسلامى بعد التحرر من نير الاستعمار الاوروبى ونيل الاستقلال ·

أربعة عشر قرنا حافلة من تاريخ الإسلام في إفريقيا والتطورات الجديدة



د. عبد القادر زبادية
أستاذ التاريخ الافريقي الحديث
- جامعة الجزائر -

تمهيـــد

من الحقائق الثابتة أن الاسلام قــد وصل الى افريقيــا جنوب الصحراء منذ القرن الثامن الميلادى وانتشــر منذ ذلك الحين بسرعــة هائلة ، ويعزو المؤرخون أسباب اقبال الافريقيين على اعتنـــاق الاسلام منذ البداية الى ما تحتويه تعاليمه من مبادىء العدالة والبساطة والمساواة، وهي التقاليد الاجتماعية ذاتها الـــتى تتلاءم والحياة الطبيعية للفرد الافريقى فى العادة ، ويذهبون أيضــا الى أن الاسلام بالنظر لهذه الوضعية العلميـــة قد أصبح دينا افريقيا أساسيا ولا توجد منطقة فى افريقيا لم يصلها الاســلام أو لم يكن له تأثير فى ثقافتها (1) ٠

ومن الحقائق الثابتة كذلك أن الاسلام لم يصل الى افريقيا بحد السيف كمــا أن نظام العبودية لم تكن أسبابه اسلامية فى يوم من الايام ، وقد عاشت افريقيــا مع الاسلام ، فتفتحت على ثقافة عالمية وارتبطت بعالم كان متطورا الى فتــرة قريبة جدا ، ثم جاءت فترة الاستعمــار الاوروبى المباشر فى القارة الافريقية ، فتمخضت عن تطورات جديدة ، هي التى يجب أن تكون موضوع اهتمامنا هنا ٠

لا يوجد بلد افريقى يخلو من المسلمين اليــوم ، وتتراوح نسبتهــم باختــــلاف البلدان فى كامل القارة بين 5٪ الى 90٪ وللاسلام فى افريقيا تاريخ طويل يمتد على أربعة عشر قرنا كاملة ، وقد ساهمت الثقافة الاسلامية فى نقل شعوب القــارة من العزلــة والوثنية الى الامتــزاج فى

(1) A.I. Dôl : « Islamic Thought and Culture - Thier impact on Africa ». *The Journal of Muslim world league,* N° 6, March 1974, pp. 36 - 39.

صف الحضارة العالمية والانخراط فى ديانة التوحيد ، كما ساهمت فى تأسيس الدول وتخطى المفهوم القبلى الضيق لدى الشعوب الافريقية ، وهذا قبل أن يعرف الاوروبيون أي شيء عن القارة وشعوبها ، وبذلك كان للاسلام مجال السبق فى ايجاد مبدأ توحيد الدول والشعوب والحكومات فى افريقيا وكان المحرك العملى لخلق الوطنية لدى المسلمين الافارقة (2) .

وليس المهم هنا هو تتبع كل التطورات التاريخية الناصعة للاسلام فى افريقيا، لان هذا ليس جديدا ، ولا طارئا ، وانما الجديد هو ما تمخضت عنه الفترة الاوروبية منذ نهاية القرن التاسع عشر من القضاء على اللغة العربية وادخال الديانة المسيحية ورعايتها وايجاد اتجاهات جديدة فى الفكر الافريقى عن طريق خلق طبقة اجتماعية جديدة ذات ايديولوجية تختلف عن ايديولوجية الاسلاف ورعايتها . فقد قام كل من الانكليز والبرتغاليين والاسبان والالمان والفرنسيين والبلجيكيين بدور متشابه فى هذا الصدد ، وذلك فى كل قطعة احتلوها على أرض افريقيا ، وان اختلفت طريقة استعمارهم الا أن الهدف والنتائج كانت واحدة . واذا كنا لا نستطيع هنا دراسة كل منطقة مستعمرة على حدة تبعا للبلد الاوروبى الذى استعمرها ، فلنأخذ المناطق التى استعمرها الفرنسيون كمثال فقط ، وهذا يعطينا صورة عن التطورات الجديدة بصورة عامة وعن الاساليب العلمية التى اتبعت للوصول الى الاهداف المرسومة لبلوغ تلك التطورات والتمكين لها .

التاثيرات الجديدة للفرنسيين فى مستعمراتهم الافريقية وأساليبها العملية

1) الانسان الجديد :

ان التساؤل عن الاسباب التى أدت الى التطورات الشخصية أو النفسية السريعة فى افريقيا الغربية يمكن اعتباره فى صميم الموضوع ، ذلك أنه فى خلال أقل من نصف قرن أمكن للفرنسيين احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية وأمكن لهم كذلك خلق جيل مهما تكن نسبته المائوية ضعيفة فانه استطاع أن يركز للاعتزاز بالفرنسية وللارتباط المصيرى بها فى كامل المنطقة الناطقة أو المستعملة للفرنسية فى افريقيا الغربية والمدارية (3) واذكر بهذه المناسبة أنه فى مؤتمر المؤرخين الافريقيين الذى انعقد فى شهر

(2) A.I. Marcel Chailley : Histoire de l'Afrique Occidentale Française. Paris 1968, p. 32-37.

(3) عرف عن الاستعمار الفرنسى دائما الاسلوب المباشر فى حكم المستعمرات ، وفى مجال التعليم بصورة خاصة كان هدف الادارة الفرنسية فى المستعمرات دائما هو السير بالناس ، وبمختلف الاساليب ، كي يتحولوا الى فرنسيين لغة وعقلية وارتباطا وهو ما يعرف لدى الفرنسيين بـ (سياسة) المزج أو الاندماج : Assimilation
راجع : D. Bouche : Histoire de l'ENS, A.O.F. Université de Nancy, 1974

ديسمبر من سنة 1975 فى ياوندى عاصمة جمهورية الكاميرون كان هناك جمهور غفير من مثقفى افريقيا وخاصة الغربية والاستوائية ، وكان هناك بحث قدمه أحد الاساتذة النيجريين وموضوعه الهجرة من المناطق الخاضعة للاستعمار الفرنسى نحو المناطق الخاضعة للاستعمار الانكليزى ، ورغم أن الموضوع كان هاما وكان مدعوما بالوثائق والاحصائيات المقنعة ، الا أنه حين انتقل الباحث الى الحديث عن الاسباب المتمثلة فى طبيعة الاستعمار الفرنسى من حيث كونه استعمارا مباشرا كان قد ضايق الاهالى وخاصة فى قوانين المزج Assimilation وفرض الضرائب ذات الشكل المضر على القبائل الرافضة ، ثار الكثيرون فى شكل هوس واعتبروا مثل هذا التحليل الواقعى قدحا فى الاستعمار الفرنسى لصالح الاستعمار الانكليزى ·

ويوجد الآن فى افريقيا الغربية تطاحن واضح بين اللغتين الانكليزية والفرنسية ، ويهتم بهذا الموضوع معظم المثقفين بالثقافة الفرنسية ، كأن هذا الموضوع يهم بلدانهم بمثل ما يهتم به بعض المثقفين والساسة الفرنسيين ·

ويتم تعيين المتخرجين الجدد من الجامعات بافريقيا الغربية من طرف الجامعات الفرنسية ويتلقون الاشعار بالترقية من طرف الجامعات الفرنسية ويشكل هؤلاء طبقة ممتازة فى بلدانهم ترتبط أشد الارتباط بالدفاع عن الثقافة الفرنسية فى افريقيا ·

ولا يقبل الاستاذ Hargreaves النظرية الشائعة لدى حكام افريقيا الغربية السابقين من كونهم قد مكنوا للثقافة الفرنسية وللديانة المسيحية بدرجة كافية (4) · والواقع أن اللغة العربية كانت لغة افريقيا الغربية والمدارية حتى الحرب العالمية الاولى ، ولعل أول عمل رسمى لايقافها نهائيا كان هو المرسوم الذى أصدره حاكم افريقيا الغربية فى سنة 1911 والقاضى بتحريم التحرير بالعربية فى المحاكم منذ ذلك التاريخ (5) ·

لقد كان للوجود الفرنسى فى سواحل افريقيا الغربية تاريخ طويل يعود الى القرن السادس عشر ، ولكن العمل المنظم ضد وجود العربية واحلال الفرنسية محلها انما بدأ مع بداية القرن العشرين ، ويعود للمفتش جورج هاردى G. Hardy الفضل الكبير فى اعطاء الطابع الحقيقى لاهداف اللغة والثقافة الفرنسية فى افريقيا الغربية ، فقد جاء مفتشا للتعليم فى تلك المستعمرات فى ظروف صعبة ، ظروف الحرب الكونية الاولى · ووجد معظم القرى لا يقبل سكانها وجود المدرسة الفرنسية ولا المعلمين الفرنسيين بينهم ، ويفرون من القرية فى جنح

(4) الاستاذ هاريجريفس Hargraves من أقدم الاختصاصيين الباحثين الانكليز فى تاريخ المستعمرات الفرنسية فى افريقيا وتطورها الاجتماعى والثقافى ، ويغلب على استنتاجاته التاثر الدينى · أنظر كتابه : Franca west Africa, New-York 1973

(5) Circulaire du Gouverneur général Ponty, 8 mai 1911.

الظلام حينما يفرض وجود المدرسة في قريتهم بالقوة ، كما وجد المستوطنين الفرنسيين ورجال الشركات وأصحاب الاعمال ضد تعليم الافريقيين لان ذلك في نظرهم كان مما سيخلق يقظة في المستقبل قد تؤدى الى الفوضى والضرر بالمصالح التى يجنونها من مستعمراتهم، ولكن هاردى وجد من الحكام العامين آذانا صاغية فراح يشجع امتداد المدارس الفرنسية الى جميع المناطق الاستراتيجية في تلك البلاد الشاسعة وأعطى للمعلمين كل المساعدة وراح يختار ذوى الخبرة من بينهم وذوى الجرأة والصبر وقوة العزيمة ·· واعتبر هاردى أن تعليم المستعمرات انما هو تعليم النخبة التى ستربط البلاد نهائيا بفرنسا ، وأنه يجب أن يكون عبارة عن فتح أخلاقى وثقافى، ومن ثم فهو لا يخضع لمقاييس التعليم العام فى فرنسا وليس هدفه تكوين علماء ولا حتى ذوى معرفة على الشكل الكلاسيكى فى أوروبا ، وانما هو عبارة عن تعليم فى شكل خاص ، فلا تدرس فيه الكيمياء ولا الفيزياء مثلا الا بالمقادير المحدودة والعامة جدا فى الاطوار النهائية ، وبدلا عن ذلك يدرس فيه المناخ فى فرنسا وافريقيا الغربية ويعتبر مادة أساسية ، ويدرس فيه النبات فى فرنسا وافريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية ، ويدرس فيه المحيط والجغرافيا الطبيعية فى فرنسا وافريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية وتعطى فى هذا التعليم الاولوية لكل ما تحتوى عليه فرنسا من ضروب التقدم والرقي (6) ·

ويرى هاردى أن جميع الخريجين من الافارقة يجب أن يضمن لهم مجال العمل حتى يكونوا القدوة لغيرهم ، وفضلا عن ذلك فقد عين هاردى ولاول مرة ، معلمين افريقيين من بين الخريجين ، وفى سنة 1916 أرسل عددا من الخريجين الذين لم يستعملوا فى التعليم الى الدار البيضاء فى المغرب الاقصى حيث هيئت لهم وظائف ·

2) المدرسة الفرنسية ـ الاسلامية كوسيلة مساعدة :

لقد أخذت المدرسة الفرنسية فى افريقيا الغربية طابعها النهائى مع بدايات الحرب العالمية الاولى ، وذلك فى وقت كانت هذه المدرسة قد مرت بتجارب واكتسبت خبرات فى شمال افريقيا وخاصة فى الجزائر ، وعندما بدأت المدرسة الفرنسية تأخذ طابعها النهائى فى افريقيا الغربية كان فى تلك البلاد عدد كبير من المدارس العربية التى تأسست فى الماضى وبعضها كان له شهرة كبيرة وقديمة مثل مدرستى تمبكتو وجنى اللتين بلغتا درجة الجامعات فى أيام الاسقيين على الخصوص ، ولم يكن من صالح الفرنسيين اغلاق تلك المدارس التى انتشرت لها فروع فى

---

(6) Georges Hardy : Une conquête morale, l'enseignement en A.O.F. Paris (A. Colin) 1917.

عديد من الجهات ، كما لم يكن من صالحهم أبدا تركها تؤدى دورها كما كانت تعمل فى الماضى ، وهذا ما دعاهم الى استعمالها لصالحهم ، فقد ركز الفرنسيون اهتمامهم على جلب أبناء الوجهاء والعائلات الشهيرة فى المنطقة ليرتبطوا عن طريقها بالحكم الفرنسى منذ الصغر ، أما التعليم فى تلك المدارس فقد وضع له برنامج خاص يصف هاردى دواعيه بقوله : (لقد كان هناك اقتناع بأنه يوجد فى غرب افريقيا كما فى الجزائر وتونس والمغرب الاقصى ثقافة اسلامية وذلك يدفعنا الى القيام ببعض التنازلات لهذه الحضارة التى سبقت وجود حضارتنا ، وأيضا بغية التسهيل لقبول تعليمنا الفرنسى فقد كان علينا أن نشتغل بالابقاء على نوع التعليم الرسمى للاسلام واللغة العربية بحيث تكون واسطة بين المدارس القرآنية والمدارس الفرنسية ، ويستهدف العمل على نسيان الاولى وقبول الثانية (7) ·

لقد كانت كل مدرسة عربية ـ فرنسية Ecole franco-arabe أو مدرسة Medersa كما كانت تسمى أيضا ، تؤدى خدمة لانتشار الفرنسية على حساب اللغة العربية التى كانت حتى ذلك الوقت لغة العلم والدين معا ، ويتحدث هاردى عن البرنامج الخاص بتلك المدارس فيقول :

(ان برنامج هذه المدارس قد تحول نهائيا فلم تصبح جامعات اسلامية وانما هي بالضبط مدارس فرنسية ـ عربية ، يأخذ فيها اللسان الفرنسى والعلوم الفرنسية بالناصية أكثر فأكثر وذلك على حساب اللغة العربية والعلوم العربية، وعلى سبيل المثال فان تعليم العربية قد تحرر من الطرق العربية الصرفة وأصبح عبارة عن ترجمات من العربية الى الفرنسية، وبهذا أمكن تحويل الدرس المخصص للعربية الى دروس للفرنسية ، ثم يستطرد هاردى الى القول :

« ومن ناحية أخرى فان العربية والعلوم العربية من نحو وبلاغة وعروض وقانون أصبحت لا تستوعب كل الوقت ، بل نستطيع القول بأنها أصبحت لا تؤدى أكثر من رموز وذكريات فى استعمال الزمن ، وقد اختلط بها تعليم الفرنسية والتاريخ والقانون والجغرافيا والحساب والعلوم المستعملة ، وبكلمة واحدة فان اللغة العربية لم يصبح لها من ذلك التاريخ فى برنامج المدارس الفرنسية ـ العربية أكثر من الدور والمكانة التى تحتلها اللغات الاجنبية فى الثانويات الفرنسية » (8) ·

وبالاضافة الى هذا فقد ألحق الفرنسيون ببرنامج المدارس الفرنسية ـ العربية تدريس اللهجات المحلية وذلك على حد تعبير هاردى : « لانه يوجد أحيانا خط التقاء بين تعليم لغتنا واللهجات الافريقية ، ذلك ان مهنة المترجم تحتاج الى تدريب وطنى ، وطلابنا فى الغرب الافريقى تكون لهم مناسبات للترجمة من العربية الى الفرنسية أقل بكثير من تلك المناسبات التى يحتاجون فيها للترجمة من اللهجات المحلية الى الفرنسية » (9) ·

---

(7) Hardy, Op. Cité, p. 108.

(8) Ibid, p. 110.

(9) Ibid.

وقد كان لخريجي هذه المدارس دور خاص بهم، فهم مساعدو الادارة الفرنسية في شئون الاهالي وخاصة الحالات ذات الصبغة التقليدية والعائلية ، وفي هذه الوضعية نجد الفرنسيين يطبقون القاعدة التي طبقوها في شمال افريقيا على خريجي المدارس الفرنسية ــ العربية ، وقد عبر هاردي بكل وضوح على الدور الخاص لخريجي المدارس الفرنسية ــ العربية كما كانت تستدعيه المصلحة الفرنسية بقوله :

« ... وبما أن مدارسنا تستهدف التصاق الطلبة بالتراب ، وتعويدهم على العمل اليدوي أو تحضير قائمين ببعض المصالح التقنية مثل ادارات البريد والاشغال العامة ، فان المدارس الفرنسية ــ العربية تكون بصورة عامة مترجمين رسميين قضاة أو كتاب ضبط للمحاكم الاهلية ، ورؤساء للجمعيات المحلية الاهلية ، وبعبارة واحدة مساعدين لادارتنا وعدالتنا وهذا ما يجعل من الضرورة تعويدهم على اللسان الفرنسي قراءة وكلاما ، ومن الضرورة كذلك أن يكونوا على معرفة جيدة بأغراضنا الحضارية ... » (10) .

وعلى عكس ما فعل الفرنسيون في الجزائر حينما اصطدموا اصطداما مباشرا مع الطبقة البورجوازية فانهم في افريقيا الغربية اعتمدوا على بعض المتعاونين معهم بين أفراد تلك الطبقة ، فجعلوا تعليم أولادهم وفق المخطط الفرنسي في المدارس الفرنسية ــ العربية ضمانة وهدفا ، ويشرح هاردي هذه الحقيقة أكثر فيقول :

« بما أنه من المفروض أن المدارس الفرنسية ــ العربية لا توظف طلابها عن طريق الصدفة ولذلك فهي لا تمتلىء الا بالنخبة الاجتماعية .. وهذا يعني استعمال الطبقات الارستقراطية الحاضرة وعلى مختلف المستويات في هذه البلدان الجديدة كضمانات جديدة ... ومن ناحية أخرى فان المدارس الفرنسية ــ العربية الثلاث في افريقيا الغربية انما هي في الواقع وقبل كل شيء مدارس لابناء وبنات الوجهاء ، ان مدرسة تمبكتو التي هي أكثر شبها بمدرسة الجزائر قد أقيمت في منطقة حضارية اسلامية قديمة وهي بالتالي تستقبل أبناء الامراء والعلماء المشهورين في حوض النيجر (11) . أما مدرسة بوتليميت (12) التي وضعت الى حد ما تحت الرئاسة الشرفية للشيخ سيديا (13) فهي تجمع أحفاد العائلات الكبيرة للترارزة والبراكنة والعصابة الذين كان

(10) Hardy Loc cité p. 111.

(11) تقع تمبكتو في الشمال الشرقي من مالي الحالية .

(12) في الجنوب الموريطاني .

(13) الشيخ سيدنا ، كان من المتعاونين مع الادارة الفرنسية ، لمزيد من التفاصيل حوله ، انظر بصورة خاصة :

Charles Ttewart, The Role of *Skaykh* Sidiyya and the gadiriyya in soutern Mauritania, P H D thesis 1970 : Massigon « Bibliothèque d'un marabout, le cheik Sidia » *Revue Africaine* 1921.

آباؤهم قد لعبوا أدوارا مهمة فى مختلف مراحل الاحتلال الفرنسى ... وتعتبر مدرسة سان لويس أكثر أهمية وهي تمتلى بشروط مماثلة ، وتقبل طلابها من بين (قبائل) الاولوف والتوكولور والموريطانيين والفلان والسريس والماندينغ والسراكوليين والبمبارا (14) . وهناك طالب على الاقل من أبناء الملوك السابقين فى الناحية .. كما تأوى هذه المدرسة الابناء الثلاثة لسلطان وضاي السابق الذين بعد أن أمضوا بعض الاشهر فى ثانوية الجزائر قدر الحاكم العام لافريقيا الاستوائية الفرنسية أن يعهد بهم الينا » (15) وينتهى هاردى الى النتيجة التالية :

(ان هذه المدارس الثلاث بعد أن تحولت وفق أهداف محددة لافريقيا الغربية الفرنسية .. تستحق البقاء وهي الى جانب المدارس الاخرى تكفى لان تهيء لفرنسا رعايا مخلصين ومطيعين) (16) .

3) التاريخ :

فى سنة 1912 صرح نائب لاليه l'Allier فى الجمعية الوطنية الفرنسية السيد بيرونى Peyronnet لمجلة الحوليات الاستعمارية Annales coloniales قائلا : (ان هناك مادة أريد أن أرى أختفاءها دون تأسف ألا وهي مادة التاريخ ويكفى أن تعوض أثناء درس الفرنسية ببعض القراءات لتعطى لطلاب (المستعمرات) فكرة عن قوة بلادنا) (17) . وقد طبق الفرنسيون هذه النظرية فى البرامج المخصصة لمدارسهم فى افريقيا الغربية بكل دقة ، فكانت فكرة هاردى تقتضى تدريس التاريخ وفق الاهداف التى تبرر الوجود والاحتلال الفرنسى للمنطقة بل وتؤدى الى اقتناع الطلاب بوجوب بقائه ، ولتجسيم هذه الفكرة يقرر هاردى أن المعلم الفرنسى يجب أن يوضع فى قسم تتخلله خطوط متشابكة لتجسم المدفع الذى عياره 75 مم ، وذلك هو التاريخ ، فان أضيف الى هذا حسن التنسيق والاختراع فى تقديم المادة فان ذلك سيتناسب كل التناسب مع عقلية الاهالى القابلة للخوارق ، وعلى حد تعبيره (فان تدريس التاريخ فى المستعمرات يجب أن يبتعد عن أي تأثير كان قد عرفه ميشلى Michelet (18) .

لقد كانت الادارة الفرنسية فى حاجة الى دراسة الاهالى نفسيا واجتماعيا حتى تتمكن من حكمهم ، وقد كان لرؤساء

---

(14) أسماء للقبائل الكبيرة والهامة فى غرب افريقيا .

(15) Hardy, op. cité p. 112.

(16) Hardy, op. cité pp. 112 - 115.

(17) Annales coloniales 1912, p. 37.

(18) هو أحد أصحاب النظريات الفلسفية المشهورين ، كرائد للمدرسة الفرنسية الحديثة فى كتابة التاريخ .

الاقسام العسكرية chefs des cercles militaires منذ البداية مساعدون لجمع المعلومات الشفاهية حول القبائل المختلفة ، واعتبروا ذلك هو التاريخ الذى يجب أن يعرفه الناس ويتدارسوه ، وكان من أشهر الكتاب الفرنسيين الرواد وفق هذا الاسلوب مارتى : Marty وموريس دولافوس Maurice Delafosse.

ففى حين كان الاول جماعا للمعلومات الشفاهية ومتحريا الاغراض الادارية والسياسية للاحتلال الفرنسى فيما يكتبه كان الثانى حاكما لاعالى السنغال والنيجر ثم انتصب أستاذا (حجة) فى تاريخ افريقيا الغربية بباريس ·· ووفق طريقهما أصبح هناك تاريخ لقبائل المنطقة الفرنسية بافريقيا الغربية والاستوائية من نوع خاص تهمل فيه الوثائق المكتوبة بالعربية وقد يشار لبعضها احيانا بشكل مقتضب وتعتمد المصادر الشفاهية اعتمادا كليا (19) · ولا يزال لهذه المدرسة أثرها القوي فى فرنسا حيث يتصدرها في تدريس طلاب افريقيا الغربية الآن أو الاشراف على رسائلهم أمثال Hubert des Pamps هيردى شامب Eves Personnes وايفى بيرسون فى جامعة باريس ، وتضع هذه المدرسة كأساس الطريقة الاثنولوجية نصب أعينها فيصبح تاريخ المنطقة عبارة عن حركة مطردة للقبائل فى تنقلاتها التاريخية بين الشمال والجنوب وتفسرها علاقاتها بالعرب أنها كانت لا تتجاوز فى نوعيتها العلاقة الاستغلالية التجارية فى أبشع صورها وخاصة قضية الرقيق والذهب !

وكانت الادارة الفرنسية منذ البداية قد قطعت الصلات الانسانية بين افريقيا الغربية وشمالها · وكونت وحدات جيش المهارة (أو الجمال السريعة) لمراقبة الحدود وانهاء حركة القوافل القديمة وبذلك حرمت كل تنقل عن طريق القوافل، وبقيت هذه الوضعية قائمة حتى استقلال كل من شمال افريقيا وغربها ، وأثناء هذه الحقبة الطويلة التى استمرت حوالى نصف قرن تمكن الفرنسيون من التشجيع علي ظهور تقاليد سودانية خاصة فى مجال الديانة ، وذلك بالتدخل المباشر والتمكين لنظام المريدين فى الطريقة التيجانية أن يصبح هو السائد ، أما العناصر التى عارضت وعلى رأسها رجال الطريقة القادرية فقد قضى عليهم بمختلف الاساليب ، ومنها العنف ·

4) الفرق بين جيلين :

كان القرن التاسع عشر هو عصر الجهاد فى افريقيا الغربية (20) وقبل خضوعها للاحتلال الفرنسى فى آخر

(19) C.F. Paul Marty : Etudes sur l'Islam et les tribus du Soudan, Paris 1918 ; Maurice Delafosse : Les Noirs de l'Afrique, Paris 1921.

(20) عن حركة الجهاد هذه يراجع بصورة خاصة

H.F.C. Smith : « Anglected theme of west African History » Journal of African Society of Nigeria, vol. 2, 1961, p. 184 FF.

ذلك القرن ، عمل عدد من رجالها على القيام بثورات اصلاحية ، كانت أهدافها :

1) ـ اصلاح وضعية المسلمين فى بلادهم عن طريق احياء الاسلام فى النفوس وتكوين دون حسب مفهوم العقيدة الصحيح .

2) ـ نشر الاسلام الى المناطق الوثنية .

3) ـ ربط صلات قوية مع العالم الاسلامى وخاصة فى شمال افريقيا وذلك كله مما يعرف بحركة الجهاد ، الا أن الخلافات التى رافقت فترة الجهاد هذه بين رجال الطريقة التيجانية والقادرية كان لها أثر عكسى خاصة فى مناطق نهرى النيجر والسنغال وساعد ذلك الفرنسيين على احتلال المنطقة كلها فيما بعد .

ولقد انتبه رجال وزعماء حركة الجهاد الى الخطر الفرنسى منذ البداية فعمل أحمد الكاي الكنتى ، زعيم تمبكتو ، على الاستعانة بالانكليز ضد الفرنسيين وذلك حين تيقن بأن الانكليز لم يكونوا يريدون احتلال المنطقة على عكس ما كان يبيته الفرنسيون ، ورفض كل من الحاج عمر وابنه وخليفته أحمد الاحتلال الفرنسى أو الإنتداب بكل الوسائل

ولما بدأ الفرنسيون فى الثمانينات من ذلك القرن تنفيذ مخططهم التوسعى باتجاه الجنوب والشرق انطلاقا من معقلهم القديم فى سان لويس كان من أشهر من حاربوهم الشيخ ساموري فى غينيا بكل تصميم وضراوة ، وانشاء دولة مستقلة تشبه الدولة التى كان قد أسسها الامير عبد القادر الجزائرى لملاءمة ظروف الحرب ضد الغزاة الفرنسيين ، ولكن كانت الظروف ملائمة للفرنسيين أكثر فتمكنوا من احتلال كامل افريقيا الغربية مع بداية القرن العشرين بقوة السلاح (21) ، وقد رفض السكان التجنيد الاجبارى رفضا مطلقا فى البداية حينما بدأ الفرنسيون تطبيقه في افريقيا الغربية على غرار ما فعل اخوانهم فى شمال افريقيا وذلك اعتمادا على المبدأ الاسلامى لديهم من أنه لا يجوز التجنيد فى جيوش غير اسلامية والقتال والموت للدفاع عن الفرنسيين المحتلين وكانت الحكومة الفرنسية آنذاك قد قررت وتريد تجنيد أبناء المستعمرات استعدادا للحرب العالمية الاولى ، فوجدت صعوبة كبيرة وتهربا من قبل الاهالى ، فاستأجرت العديد من المتعاونين معها لاصدار الفتاوى بجواز الموت الى جانب الدولة الحاكمة وقد خرجت فرنسا من الحرب العالمية الاولى منتصرة ثم دخلت الحرب العالمية الثانية فأعطت وعودا بتصليح أوضاع السكان فى المستعمرات بعد الحرب وكانت النخبة المثقفة بالفرنسية قد تكونت فلما جاءت الانتخابات التمثيلية للجمعية الوطنية الفرنسية خاض الاهالى تلك الانتخابات دون استعداد وتحت المراقبة الادارية الصارمة للفرنسيين وكانت له طموحات واسعة بحكم أرضيته الثقافية على الخط الفرنسى ، ولكن كانت لا تزال تقف أمامه حواجز الرعوبة وعدم المساواة بالفرنسيين الشباب الذين

(21) Jean Suret-Canal : Afrique Noire, Paris, 1936, pp. 123 - 87.

أخذ ثقافتهم وأراد الاندماج والمساواة بهم وعجز عن بلوغ هذه الاهداف ، ولذلك كانت مطالب المثلين الافريقيين فى الجمعية الوطنية الفرنسية التى تكونت بعد الحرب لا تتجاوز المطالبة بادخال بعض الاصلاحات وعلى رأسها الغاء قوانين السخرة والغاء قانون الاهالى (أنديجينا) ·

لقد نادى فرحات عباس (ممثل حزب البيان الجزائرى المعتدل فى الجمعية التأسيسية الفرنسية) بقيام دولة جزائرية وبرلمان جزائرى ، وقال ميقان أبيتى Migan Apithy الذى كان ممثل منطقة الداهوس ـ طوغو : (ان عنايتنا ليست الجلوس على ضفاف السين ولا أن نقحم أنفسنا فيما هو أساسا قضايا الوطن الام ولكن لتنظيم قضايا بلداننا على ضفاف الكونغو والنيجر) ، ثم أراد التأكيد على الارتباط بفرنسا قائلا : (ان الافريقيين سيستمرون على المحادثة مع الشعب الفرنسى فى القضايا التى تهم الجميع ، هذا الجميع الذى نكونه معهم) (22) · وربما يعتبر ميقان اكثر المثلين من افريقيا الغربية الفرنسية تقاربا مع مطالب بعض المثلين من الشمال الافريقى وزعماء افريقيا الغربية الواقعة تحت الحكم الانكليزى الذين كانوا يطالبون اما بالحكم الذاتى أو الاستقلال ، وفى غير ذلك فقد كانت الواقعية هي أبرز سمة ارتبط بها السادة نواب الغرب الافريقى فى الجمعية الوطنية الفرنسية (23) · فحينما لوحظ بعض الامتعاض من طرف النواب الفرنسيين من مطالبة عباس فرحات بالحكومة المحلية ضمن الاتحاد الفرنسى فى بلاده انبرى Apithy ليخاطب النواب الفرنسيين قائلا : (بالتأكيد فان بعض زملائى قد طالب بالاستقلال فى اطار الاتحاد الفرنسى للبلدان التى يمثلونها ، ولكن هذا لا يتعارض مع المبادىء التى كنتم قد قبلتموها أنتم أنفسكم وأكدتموها فى أحيان كثيرة) (24) · وحينما تم رفض المشروع الاول للدستور من طرف المنتخبين الفرنسيين لانه كان يتضمن بعض مبادىء للمساواة بالرعاية فى المستعمرات قال ياسين ديالو (وكان يمثل غينيا) : انه فيما يختص بالافريقيين فان الدستور المقترح قد أدى رفضه الى الرضى الكامل) (25) ·

حينما أعلنت نتائج الانتخابات فى افريقيا الغربية بعد نهاية الحرب الكونية الثانية لم يفز بها غير بعض المثقفين فى المدارس الفرنسية وكان للادارة المحلية

---

(22) لمزيد من التفاصيل عن قرارات مؤتمر برازافيل ومطالب المثلين الافريقيين فى الوطنية الفرنسية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، راجع بصورة خاصة :

R. Morgenthau : Political partie in Franch Speaking west Africa, Oxford 1964.
Emortimer, France and the Africans, London, 1969.

(23) Ibid.

(24) A. Tayi and Crowder (eds), History of west Africa, v. 2, London 1964, 664 FF.

(25) Journal Officiel, débats 2e session, 18 septembre 1946, p. 474 FF.

دورها على كل حال · ومنطقيا كـــان لا يمكن لنائب أن يؤدى دوره فى الجمعية الوطنية الفرنسية على شكل من الاشكال بغير اللغة الفرنسية ، ولقد كـان نواب الغرب الافريقى حريصين منذ البدايـة على اعلان الارتباط بفرنسا ، وباستثناء ممثل غينيا (ياسين ديالو) فقد انقسم نواب الغرب الافريقى جمـيعا حســب الانضمام اما للحزب الاشتراكى الفرنسى أو للحزب الشيوعى الفرنسى ، وهـذا ضرب من الواقعية حيث كان هـــؤلاء الوافدون الجدد على باريس فى حاجـة الى التوجيه والخبرة بالمداولات البرلمانية، ووجـــدوا فى الحزبيــن الشـيــوعى والاشتـراكى قبولا للانخـراط ضمـــن كتلتيهما النيابيتين ، ولم يكن من هـــم نواب الغرب الافريقى غير الاهتمـــام بادخال الاصلاحـات ولـما وجـدوا فى البرلمان الفرنسى خطراً واضحا تجـاه مثل هذه المطالب انخرطوا ضمن مجموعة كـتلـة مـــا وراء البحـار « الممثلـة للمستعمرات » وهذا حتى يجدوا ، كغيرهم، بعض التضامن (26) ، ولقد ضمت كتلة النواب لغرب افريقيا الفرنسية آنـــذاك نائبين مسلمين من مجموع ستة نواب، وباستثناء ممثل غينيا فان التمثيل لـم يكن له أبدا علاقة نسبية بالدين ، فـفى منطقة السنغال كان انتخاب سنغـــور المسيحى المتـدين والـــذى لم يعش فى السنغال منذ 1928 حتى نهاية الحـــرب بتأييد واضح من لمين غاي ، ولم يكـــن تمثيل المناطق الاسلاميـة الاخـــرى ، وهي تمثل أكثر من ثلثي المساحة والسكان حتى ذلك الوقت ، لينسجم هو الآخـــر مع الوازع الدينى ، وكان هذا اتجاهـا جديدا لم تكن لتعرفه افريقيا الغربيـــة على هذه الصورة فى سنة 1900 مثـــلا ولا فى السنوات التى بعدها مباشرة قبل التجنيد الاجبارى منذ سنة 1912، وبتكاثر عدد الطلبة الخريجيـن مـن المـدارس الفرنسية فى فترة ما بين الحربين أخذ الاتجاه الجديد طريقه الواضح الـــذى مثلته نخبة ضئيلة العدد ، ولكنها كانت شديدة الاثر لدرجة أنها جعلت النخبـة القديمة المتمثلة فى شيوخ القبائل والزعماء الدينيين تنقـاد اليهـا ، والحقيقـة أن الادارة الفرنسية كان لها دورها الكبير فى انتقاء أفراد من النخبـة القديمـــة وخلقهم ليتلاءموا وهذا الاتجاه الجديد، أما الناهضون فقد أكلتهم فترة الجهاد الاولى وقضى على أنصـارهـم وتشتت أحفادهـم تحت نيـر الفاقـة ، وبـقى المناصرون الذين ازداد عددهم بفعـــل التجهيز واعطاء الاولوية فى كل ناحية للقادمين من مناطق بعيدة كي يواكبوا الركب ويخدموا أهداف الادارة مقابـل أبهة الوجاهة والعيش الرغيد نسبيا فى ظلهـــا ·

(26) Marcel Chailley, Histoire de l'Afrique Occidentale, Paris 1968, pp. 474 FF.

5) التعليم الدينى الفرنسى :

لم يكن فى افريقيا الغربية كلها عند بداية القرن العشرين مسيحيون أفارقة، وهذا باستثناء أفراد قلائل من الهجناء الذين توالدوا من جراء المعاشرة الطويلة للفرنسيين مع بعض الاهليات فى سان لويس فلما انتهت الحرب العالمية الثانية تكونت البذور الاولى للجاليات المسيحية من الاهالى فى عدة مناطق هي :

1) ـ بلدية السنغال (سان لويس، داكار ، كورى ، رونسيكوتياز) ٠

2) ـ فى الكازا مانس (السنغال الجنوبى) ٠

3) ـ فى أعالى السنغال والنيجر (أفراد قلائل من قبائل البمبار أو الموسى فى سيغو بصورة خاصة) ٠

4) ـ بعض الافراد فى باقاس بغينيا٠

5) ـ فى ساحل العاج (على الساحل بصورة خاصة) ٠

6) ـ فى الداهومى (فى الجنوب الغربى من ذلك الاقليم) ٠

لقد كانت تلك هي حصيلة سياسة التمسيح فى مدة أربعين عاما ، وقد وجدت ثمارها الاولى فى المناطق الوثنية وكان الرسميون الفرنسيون منذ البداية يعتبرون ذلك فتحا مبينا (27) ٠ والحقيقة أن الفرنسيين فى افريقيا كما فى غيرها من مستعمراتهم كانوا يطبقون باستمرار قول غمبتا Gambetta ذلك السياسى الفرنسى الشهير : (ان مناهضة أعمال الكنيسة يجب أن لا تكون مادة للتصدير) ذلك أن التبشير كان قد منع فى فرنسا منذ مدة طويلة ولكن الادارة الفرنسية فى المستعمرات كانت تعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، وكانت مدارس المبشرين فى افريقيا الغربية قد سبقت الى الوجود قبل المدارس الحكومية ، ولذلك فقد كانت المدارس التبشيرية واستمرت طيلة عهود الاحتلال تنفق عليها الادارة الفرنسية كما تنفق على مدارسها ، وذلك حسب تعبير هاردى (لانه يكون من غير الصواب عدم الاعتراف بالعمل الفرنسى العميق الذى يؤديه المبشرون (28) ٠

لقد كان المبشرون الكاثوليك هم عمدة العمل الفرنسى ، ولكنه سمح للبروتستانت أيضا بالعمل ، وكانت نسبة الكاثوليك الى البروتيستانت بين الاهالى المتنصرين هي الغالبة منذ البداية ٠ وبالرغم من أن مدارس (المرابطين) الاسلامية كما كان يطلق عليها (29) ، كانت فى ضعف متزايد من حيث كفاءة رجالها فان المبشرين وجدوا صعوبة كبيرة فى تنصير المسلمين ولذلك قلدوا طريقة (لا فجرى) التى كان قد جربها فى الجزائر ، وهي تعتمد

---

(27) Hardy, op. cit., p. 319.

(28) Ibid, p. 320.

(29) Les écoles des marabouts.

جلب اليتامى واقتناص مناطق المجاعات لتنصير بعض الافراد من بين المسلمين ثم الهروب بهم أو عزلهم من المناطق الاسلامية بقدر الامكان حتى لا يعودوا للاسلام (30) ، ثم مال المبشرون فى هذا الاتجاه الى الاعمال الاجتماعية مما سهل مهمتهم للاستقرار والانتشار فى جميع المناطق ، وهذه الطريقة هي التى لا يزال يسير عليها المبشرون فى افريقيا الغربية ، وأغلبهم فرنسيون ، حتى الآن (31) ·

لقد سخرت الادارة الفرنسية فى افريقيا الدين لخدمة أهدافها واستخدمت المدرسة لنشر اللغة الفرنسية ، واستفادت من الامتيازات التى كان يحصل عليها الافراد من التعاون مع تلك الادارة للقضاء على اللغة العربية وتمكنت فى أقل من نصف قرن من خلق طبقات جديدة تتوق الى أهداف وتتعلق بمفاهيم تختلف عن مفاهيم الاجيال السابقة ، وهو عمل كبير لا يمكن للمؤرخ أن لا يلاحظ المجهودات التى بذلها الفرنسيون عن جدية ومعرفة فى سبيله · وأخيرا فانه لا يمكن اعتبار هذا البحث احاطة بموضوع واسع كهذا الذى نحن بصدده، ولكنه ، وهذا هو الهدف الذى كتب من أجله ، اقتراح جدى لعناصر الموضوع نضعها أمام الباحثين وخاصة الشباب من بينهم ، ولنا اليقين بأنه سوف لن تنقصهم المصادر وانما يلزمهم العمل ·

(30) C.F. Hardy, op. cit. p. 320 ; Paul Marty, Les écoles maraboutiques du Sénégal, Paris 1914.

(31) لمزيد من التفاصيل حول طريقة الكاردينال لافيجرى ، راجع بصورة خاصة :
Lavigerie : Oeuvres choisis, Paris 1884.



تأملات فلسفية في الذكرى الهجرية

د. أحمد بن نعمان

اذا كان الزمان وليد الحركة ، فالحركة لا تدرك الا فى المكان ومن هنا كان ارتباط الزمان بالمكان . وعرف التأريخ لدى الانسان ، وكتب التاريخ عبر الزمان ، وقوم المكان عبر الزمان وقوم الزمان عبر المكان ...

وعرف الانسان اللاحق ، ما كان عليه الانسان السابق ، وظل يأمل فى توقان الى تحقيق أحسن ما ينبغي أن يكون على ضوء أفضل ما كان ...

والزمان أزمنة والمكان امكنة، ... فأي الامكنة نعنى ، وبأي الازمنة نعتنى ؟؟

أما المكان فهو العالم الاسلامى .. وأما الزمان فهو الزمان الهجرى ، أو التاريخ الاسلامى ... والتاريخ ماض وحاضر ومستقبل ، فالمستقبل والحاضر تاريخ بالقوة ، والماضى تاريخ بالفعل ... فما هو مستقبل اليوم سيصير حاضرا غدا ، وما هو حاضر أمس سيصير ماضيا غدا ... فلنقس ما هو قائم على ما هو قادم ، وما ولى وفات على ما هو آت ... فالتاريخ انجاز فى الحياة بالحياة ومن الحياة ، وللحياة ... والحياة حركة والحركة فعل ، والفعل المنظم تقدم ، والتقدم قوة ، والقوة بقاء ، والبقاء غايته الخلود ووسيلته وقوامه الاعتدال بين القول ، والفعل ، والعقل ، والعاطفة ، والدنيا والآخرة . فالانسان مادة وروح، وفكر وجسد ... وكما انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان فليس ـ أيضا ـ بالصوم وحده يقوى الجوعان ، ... لان الحياة الانسانية السوية ـ كما نعتقد ـ هي عاملان متفاعلان ، متكاملان لدى الفرد فى الجماعة ، ولدى الجماعة

فى الأمة ، ولدى الامة فى التاريخ ، ولدى التاريخ فى البقاء ، والتاريخ الذى نعنيه هنا ، هو التاريخ الهجرى كما قلنا ٠٠٠

وهذه الوسطية ، وهذا الاعتدال فى الاسلام هو ميزان القوة ، وصمام الأمان ٠٠٠ ولئن عدمناه ، فى حياة بعض المسلمين ، فى عصرنا الحاضر، فلا نعدمه فى تاريخ المسلمين الزاخر بالمفاخر والمآثر ٠٠٠

ومثلما كان الاسلام معتدلا فى نظرته للانسان ، فهو وسط ـ أيضا ـ بين الاديان من ناحية موقفه بين المادة والروح ، والدنيا والآخرة ٠ فمثلما هو معتدل بروحانيته تجاه المادة التى تطغى فى الديانة اليهودية بكل وضوح « **أرنا الله جهرة** » فهو معتدل بماديته تجاه الروحانية التى تطغى فى الديانة المسيحية بكل وضوح ـ أيضا ـ فى (من ضربك على خدك الايسر اعطه خدك الايمن) و (لا كهنوت فى الاسلام) فكل تقدم فى الحضارة الاسلامية كان سببه الاعتدال ، وكل تقهقر سببه التطرف ، والمغالات فى جانب من جانبى الانسان ، دون الآخر ٠٠٠ فاما مادة بلا روح ، وبلا ايمان ، واما روح وايمان بلا مادة وبلا عمل ٠٠٠ وكلا الوضعين غير سليم ٠٠٠

فالاسلام انتشر فى الافق وساد أقطار العالم ، وشيد الحضارات الراقية فى المشرق والمغرب والاندلس ، بفضل الاعتدال ٠٠٠ وتقهقر المسلمون بسبب التطرف ، الذى ظل وما يزال يهددهم بالزوال الحضارى والانحلال !!

فأول انحطاط للعالم الاسلامى فى الاندلس ، وفى المشرق العربى ، كان سببه الطغيان المادى على الروح والمتمثل فى العمل للدنيا ـ فقط ـ كالعيش أبدا، وعامل بقاء التقهقر الحضارى المدمر ، والانحطاط الطويل المعمر هو رد الفعل العكسى الذى نقل معشر المسلمين فى هذه الاقطار من النقيض الى النقيض ، العمل للدنيا ـ فقط ـ كالعيش أبدا ، الى العمل للآخرة ـ فقط ـ كالموت غدا (!! ٠)

فظلوا أقرب الى الموت منهم الى الحياة (الثنائية) القوية بين الأمم والحضارات العصرية ٠٠٠

وهكذا نجدهم يعيشون فى وضع حضارى ، لا يتلاءم أبدا مع مبادىء الدين الاسلامى ، الذى يحملون اسمه وينتسبون اليه تاريخيا، وجغرافيا (!٠!٠)

ويرجع هذا الوضع المرضى العضال، الذى يعيش فيه المسلمون الآن ، فى عهد الانحطاط الحضارى ، الذى أوجده بعض الاجداد المتطرفين من الجانبين (٠٠) ودعمه بعض الاحفاد اللاحقين النائمين (المحافظين) على الوضع ، الذى كان المهد الاساسى للاحتلال الأجنبى الذى كرس نتائج الانحطاط الأول ، وشجع التطرف لدى الاشقاء ٠ (السعداء ـ الاشقياء) ليتم له البقاء والهناء ٠٠

ويشيد حضارته الراقية مــن خيرات أقطارنا الاسلامية الجامدة الراقدة ٠!!

ولذلك لم يكن جلاء الاحتلال الشرقى، والغربى ، عن الارض الاسلامية ، فى بداية نهاية منتصف هذا القــرن ٠٠ الا بداية مشجعة تنم عن بوادر وعي قوية ٠ بضرورة الاعتدال الذى حقق بعــض المنال فى الاستقلال ، وما يزال يتطلــب المزيد من التعميق فى أوساط الاجيال، الحاضرة والقادمة كي يتم التحــرر الكامل من مخلفات الانحطاط الحضارى المولد للاحتلال الاستدمارى ٠ ولا شك أن بوادر التحرر الكامل موجودة بفضل عودة الوعي الفعال ، ورجوع الحلقة المفقودة فى الاعتدال ، الا أن هذا الوعي الفئوى الذى انتشر فى بعض الاقطار على يد الثوار لم يصل من الناحية الكمية الى القدر الذى من شأنه أن يعم كــل الديار الاسلامية ، وكــل شعوبهــا المستضعفة المتأففة !!

وهكذا نجد أن الاحتلال الاجنبى الذى انجسر عن جل الحقول الاسلامية ٠ لم يخرج بعد من كل العقول الاسلاميــة ونعتقد أن احتلال الاراضى أقل تأثيرا وخطورة على مستقبل الشعوب المتحررة : من احتلال العقول ٠٠٠

لان احتلال الارض شىء مجسد فى الواقع الملموس ، وخارج عــن ذوات المسلمين المجاهدين المحتلــة أرضهم ، مما يمكنهم من ادراك خطورته المباشرة عليهم ، ولمس أضراره المادية باليــد والعين ، قبل الفكر والذهن ، فيحفزهم الجوع والجهاد الاصغر ٠ الى القضاء على العدو الاظهر ٠٠٠ وغالبا ما يتــم للمسلمين القضاء عليه فى الجولــة الاولى بفضل الارادة القوية ، ووحدة الصف ، ووضوح الهدف ٠٠٠

أما احتلال العقول الاسلامية (بالمادية والروحية المغالية) فانه غير ملموس ، ولا ينتهى بالضرورة مع تحرير الاراضى، فى مرحلة الجهاد الاصغــر ، والعــدو الاظهر ٠٠٠ لانه كما تم متأخرا ٠ فــلا يخرج ـ ان خرج ـ من كل العــقــول الا متأخــرا ٠٠٠

وقد بدأ يخرج بفضل وعي الطليعة الثائرة المثقفة ، ولكن خروجه من عقول كل الفئات المستضعفة ، المتخلفة ليس يسيــرا ٠٠٠ لأن احتــلال الــروح ، واحتلال الفكر يصيب ذوات الاشخاص أنفسهم فيجعلهم رغم الاستقلال يفكرون ـ دون شعور ـ بعقلية الاحتلال ، وقد يحققون فى أنفسهم ، بأنفسهم ، مــن تكريس للتخلف ما يعجز المحتل التقليدى عن تحقيقه فيهم بالطرق الاكراهيــة التقليدية المباشرة ٠٠٠

ويصبح القضاء على هذا الاحتلال النوعى الخطير من أعسر مهام الفئــة المجاهدة المثقفة لان الخصم فى هــذه المرحلة من الجهاد الاكبر ، قد يكــون هو الحكم (الاحمر ، أو الانور) فى ذات الحين (!!) ولكن الانطلاقة موجودة وقوية ، وكما تحقق الاستقــلال الاول

بفضل الوعي الاسلامى الذى عم ربوع المسلمين ، وانار بعض عقول الغافلين، فأنار الطريق أمام اللاحقين الصادقين ·· كذلك سيكون الوعي الاسلامى مفتـــاح التحـــرر للاذهــــان بعد الابـــدان والاوطان ··· وعلى ضوء ما تم من تحرر للمسلمين فى هذا القرن ، يحــق لنا أن نتفاءل بمستقبل زاهر للمسلميـن ما دام فيهم مؤمنون مجاهدون باليــد والقلم ، واللسان ، فى ميدان الصراع بين الاديان ، والعقائـد السماويـــة (الخالقية) والارضية (المخلوقية) من أجل التحرر والتحضر ، ومن أجل المبدأ الاسلامى الفعال فى المساواة والاعتدال بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وعالم المادة والانتاج ، والزيادة ، وعالـــم الطهارة ، والتخلق والعبادة ···

ولا نستبعد أن تتحقق نبوءة (برنارد شو) فى أن يعم الدين الاسلامى أقطار العالم الاخرى ، الصغـــرى منهـــا والكبرى (!!) وتدول دولته فى القرون القادمة ، ان لم يكن ذلك فى نهاية هذا القـــرن ··

ونعتقد أن الاسلام سيبدأ فى الضرب فى الارض عمقا ، بعد أن ضرب أفقا ، والعمق والافـق بعـدان ضـــروريان متكاملان لبقاء الاسلام قويا فى أمـان، وصالحا لكل زمان ومكان ، كما نص القرآن ، ولعل ما نشهده الآن من اعتناق تلقائى ، وجماعى للاسلام فى أوروبا واليابان ، ومن انتشار أفقى فى أمريكا وافريقيا، ومن تعمق فى الثورة الجزائرية السابقة الرائدة ، وثورات الافغان ، والباكستان ، وفلسطين ، والصحراء ، والفلبين اللاحقة الصاعدة الصامدة · وآخرها عملاقة الشعب الامام القاعدة · الماردة ، ذات الابعاد الثورية العالمية والآثار الايجابية ، ضد الذهنية التواكلية، الداعية للمحافظة ، على المصالـــح الامبرياليـــة ، والانظمـــة الرجعيـــة الاقطاعية ··

فتلك الثورات الاسلامية النموذجية هي المفتاح لكل قضية ، وهي الاساس فى القياس لكل افلاس ، والموضح لكل التباس ··· واذا عرف السبب بطـــل العـجب ، وازداد الغضب عـلى بعض المسلمـيـن ، من العرب الغافليـــن ، الخانعين ، الجائعين ، الصابرين على الجرب ، والكلب واللعب (!!)

وكما وجب الاعتدال بين الدنيـــا والآخرة ، فى الزمان ، وجب الاعتدال بين العقل والعاطفة فى المكان عـــلى مستوى الكائن ، الانســان ، فالعقـــل والمنطق له دوره الفعال كما ان للعاطفة (والايمان بالغيب) دورها ، لتصعب العقيدة ، عن المنــال بالطـعن فيهـــا ارضاءا لطموح ، أو جموح العقل ، مع تبدل الاحوال ···

فاذا كان الخالق المصور قد ميـــز الانسان بقدرات عقلية ، ومنطق جعله أهلا لحمل الامانة ، فذلك لانه قد خصه بتكليف فى مستوى ذلك التشريف ···

والتكليف هو الامر بفعل الشيء ٠ والنهي عن اتيان آخر لسبب يعلم الله سره ، ولا نعلم نحن الا ظاهره ٠٠٠ غير ان الانسان لما كان يتمتع بهذا الذكاء الذى حقق له انتصارا معتبرا فى عالم المادة والحس قد ظل متفائلا ٠ وطموحا الى استكناه كل شيء محاولا اختراق حجب هذه المادة للنفاذ الى أسرار العالم الغيبى معتمدا فى ذلك على العقل والمنطق محكما اياه فى كل الامور حتى اننا لنلاحظ فى حياتنا اليومية أن أي شخص - عاقل - كلما أراد أن يقوم بعمل اختيارى حكم عقله ولا يقبله - حرا - الا بعد اقتناع بفائدته العاجلة ، أو الآجلة ٠٠٠

ولا شك ان تحكيم المنطق فى الشؤون الدنيوية أمر فى غاية الحكمة ٠ الا أن نفس المنطق وحده لا يكفى فى الامور العقائدية الايمانية ، بل لابد فى هذه الاخيرة من وجدان متدفق وعاطفة قوية تكون لها الكلمة الاخيرة عندما يفقد العقل صوابه ، أو توازنه فى عالم الروح والماورائيات ٠٠

وهنا نقف عند موقف العقل من التكاليف السماوية ذلك أنه كثيرا ما يحاول بعضنا ادراك السر أو الغاية من تحريم هذا الشيء أو وجوب ذلك ٠٠٠

ومن ذلك أن يحاول البعض - مثلا - معرفة السر من وجوب الصلاة والصيام والزكاة والحج ٠٠٠ وتحريم الخمر والزنا والربا والميسر ٠٠٠

فان من يريد أن يمنطق هذه التكاليف ويحصر فائدتها المادية ، أو المعنوية يكون قد جانب الصواب اذا ادعى انه ألم بكل مقاصدها ، لان المحاولة المنطقية فى ذاتها ، وان كان دافعها مشروعا الا أن لها عواقب خطيرة بالنسبة للكثير من العقول المحدودة الافق ، حيث يرتد المنطق الى نحر المتمنطق وسأسوق فيما يلى أمثلة لكل ذلك ولنبدأ بالصلاة :

فعندما نحاول أن نمنطق وجوب الصلاة على المسلم ، فنحصر فائدتها العلمية ، فى الطهارة والرياضة، كقول البعض بأن الصلاة طهارة للابدان بحكم اغتسال المسلم ، خمس مرات فى اليوم، وبالطهارة والنظافة ينجو الجسم من الامراض الكثيرة التى تكون تلك الاوساخ ، سببها المباشر ٠٠٠

أو أن يقال - بحق - انها رياضة للنفس ، والبدن ، فتروض النفس ، وتنشط البدن ، وتقوى نشاط الدورة الدموية ٠٠٠ فاذا حصرنا الغاية من الصلاة فى هذه الفوائد العريضة ، فان المنطق سيعود علينا قائلا :

ما دام المقصود من الصلاة هي النظافة والرياضة البدنية ٠٠٠ فان الرياضيين الذين يتدربون مئات المرات فى اليوم ، وممارسى اليوجا الذين يركزون أذهانهم بعض الساعات فى اليوم وعمال الحمامات (التركية) الذين يغتسلون عشرات المرات فى

اليوم ، هؤلاء ـ اذن ـ يسقط عنهم تكليف الصلاة لانهم يقومون بأعمال تفـــوق ما يقوم به المصلي (المواظب) الـذى يصلي خمس مرات فى اليوم ...

فهذا جـــواب حتمى أو استنتـــاج ضرورى ، ينجم عن تحديدنا لغايـــة الصلاة بهذه الكيفية . والحقيقة ان الغاية الاساسية من وجوب الصلاة « وان كانت من أغراضها ما ذكر » أعلى وأعمق مما يمكن للعقل الانسـانى أن يدرك أو يشبه ، بدافـــع الطمـــوح أو الغـــرور ..

أما الصيام فلا يقل حظا عن الصلاة، فى فلسفة الوجوب وحصـر الغايـة . وكثيرا ما تراه يفلسف من طرف بعض المجتهدين بأنه ابتلاء من الله للاغنيـاء ليتساووا مع الفقراء فى الاحساس بألم الجوع فترق قلوبهم ، ويعطفون عـلى الفقراء والمساكين ، فيتصدقون عليهم ، وبالتالى تتحقق بعض المساواة ويسعد الجميع ، لان سعادة الفرد لا تكتمل الا بسعادة المجتمع ، الذى يعيش فيه ...

وهنا أيضا يرتد الينا منطقنا فيقول : اذا كان الهدف الاســاسى من وجوب الصيام هو استعطاف الاغنياء عـلى الفقراء ، فمن الطبيعى ـ اذن ـ للفقراء ألا يصوموا لانهم طوال السنة يشعرون بالجوع ويسبحون فى بحر من الحرمان، يهون أمامه الامساك عن الطعام فى أيام معـدودات . أي بمعنى ان الفقـــراء لا تمسهم الحكمة من وجوب الصيام ، لانهم هـم محـل العطف ، ومحـــور الصوم (؟!) ، كما قد يأتى متمنطق آخر ويقول لنا : فهل من الحتمى أن يكون فى المجتمع المسلم فقراء وأغنياء ؟ أليـس من الممكن أن يصل المجتمع المسلم الى درجة من التقدم ينتفى معها وجود ، من يستحق الصدقة ، والعطف مثلما هو ملاحظ فى المجتمـعات الاوروبيـــة المتقدمة ... ؟؟

وان كان هذا هو شأن منطق التكاليف فالمثال نفسه ينسحب على النواهى ، والمحرمات فتحريم الخمر نجده يمنطق لدى البعض ، بأنه مضر للجسد، والعقل، ومبذر للاموال ... فهذا صحيح .. ولكن ألا يحتمل أن يعترض أحد ويقول اذا كان السكر هو سبب تحريم الخمر فأنا أشرب كذا وكذا . من زجاجات الخمر ، ولا يحرك لى ساكنا فلمـــاذا أعتبر مذنبا ، طالما لم أسكر ولم ألحـق الضرر لا بنفسى ولا بالآخرين ، ثم من الناحية المالية ، فأنا غني والحمـــد لله (...) أما من ناحية الصحة فهي تقوينى وتفتح شهيتى للاكل ، وتدفئنى فى البرد ، ولا شك أن هذا منطق سليم ومؤكد لقوله تبارك وتعالى : « **فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما** » وأحسن جواب للكف عن هـذا المنطق هو هذه الآية ، التى ترى المنفعة فى الخمر وتقر بوجودها ثم تدعو للكف عنها ، باعتبار ان فيها اثما ، والاثـم شيء معنوى بالدرجة الاولى ، وليس

بالضرورة أن يكون ضررا للجسد ، فهو أشبه بالاثم الذى يرتكبه تارك الصلاة ، أو النمام ، أو الراشى ، أو الكذاب ···

أما الزنا فقد لاحظناه يمنطق لدى بعض المجتهدين بأنه حث للناس على الزواج ، وتحمل مسؤولية الاولاد الناتجين عن الزواج ، بخلاف الاولاد الذين ينتجون عن اللقاءات المحرمة ··· فهم يولدون مشردين ، ويصبحون عالة على المجتمع ··· فهذا ولا شك اجتهاد صائب لتبرير بعض الاسباب الاجتماعية لتحريم الزنا ، أو لمشروعية تعدد الزوجات ·· غير أن الخطأ كل الخطأ، أن نحصر السبب كله ، فى هذا التبرير، لان أحد العصاة سيأتى ويقول لنا : نعم كان الزنا حرام فى الزمن الماضى، حينما كان الطب متأخرا · أما الآن مع تقدم العلم واكتشاف وسائل الوقاية من الحمل ، ذات المفعول القطعى ، ينتفى سبب تحريم الزنا ، لان اللقاء لا ينتج عنه أي أثر يتعدى نطاق الزانيين ···

والحقيقه أنه رغم وجود العديد من الاسباب الاخرى الاجتماعية ، والنفسية، والصحية ، التى تبرر تحريم الزنا الا أننا لا نرى موجبا لذكرها فى هذا المقام لانها كلها فى النهاية ، يمكن أن نجد لمنطقها منطقا مضادا يبطل المبررات التى نوردها ، ونفس الشىء يقال على التكاليف الاخرى أو النواهى ، والمحرمات مثل الربا والميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به الى آخره ···

الا أن كل ما يمكن أن يصل اليه المجتهدون ، من تبريرات ،لهذه التكاليف أو تلك المحرمات ، فانها ستظل دائما جزئية لا تعدو كونها مظهرا عمليا · وفائدة عرضية من فوائد التكاليف ، أو فوائد الامتناع عن المعاصى ، لان سر التكاليف لا يعلمه الا المكلف نفسه ···

ونحن فى هذه الحالة أشبه ما نكون، بالشخص المريض الذى يذهب الى الطبيب ، فيعطيه وصفة دواء ، يقول له فيها أفعل هذا ولا تفعل ذاك ··· فلا يحق للمريض أن يسأل عن مكونات الدواء الذى وصفه له ، وسبب وصفه له ، لان ذلك من اختصاصات الطبيب ، ولكن اذا صادف المريض ان وجد الدواء حلوا فى مذاقه ، فيظن انه وصف له من أجل تلك الحلاوة (العارضة) التى قد يكون سبب وضعها ، هو تمرير (مرارة) الدواء الاساسى الصالح للجسد والذى غلف بطبقة من الحلوى ليسهل تجرعه ليس الا ···

وفى الاخير أود ألا يحسبن البعض أن تناولى لهذا الموضوع هو محاولة صوفية أستهدف من ورائها الحط من قيمة العقل وعبقرية الذكاء الانسانى · فأنا من الذين يحترمون العقل ويعتمدون عليه كثيرا ، فى نطاق صلاحياته وحدوده الممتدة فى الزمان والمكان ، والمعتمدة على القنوات المعرفية المتمثلة فى الحواس الخمس وعلى رأسها البصر ·

ولكن ليس كل ما لا يرى غير موجود ، واذا كان من صلاحيات العقل ان يعقل وان يستنتج ما يمكن أن يوجد وراء الظاهر المحسوس ، فان الخطأ كل الخطأ أن يدعى معرفة كل ما لا يرى ، أو ان يتصور كل ما يعقل ، فالعقل السليم من واجبه أن يقر بأن للوجود الها ، أو قوة يسميها كما يشاء ، ولكن خطأه القاتل هو محاولة تصور حدود وكنه الشيء المعقول ، فذلك لا يأتى الا بحاسة البصر · والبصر محدود ، محدود ، محدود ·

والخلاصة أن للعقل حدودا للتعقل ، لا يتجاوزها ، ولا ينبغى أن يستهان بالعقل فى حدود امكانيات التعقل ، ولكنه اذا تجاوز حدود صلاحياته ، ضاع فى متاهات الغيب ، وعالم الروح، التى يقول فى حقها خالقها :

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا» ·

ومعنى الآية هنا « **وما أوتيتم من العلم** يعنى : وما أوتيتم من (العقل) الا قليلا ·

ومن ثمة يتعين علينا أن نكمل هنا ذلك النقص (العقلى) بالعاطفة ، وبالتالى وجب التكامل ، والاعتدال ، فى كل شيء حسب المظهر الاسلامى ، الذى اجتهدنا ، لاظهاره ـ بقدر المستطاع ـ فى هذه الذكرى العطرة ·



الفن الإسلامي أصوله وخصائصه

الاستاذ صالح بن قربه

لقد وحد الاسلام العرب ، وجعل منهم دولة كبيرة فى العصور الوسطى ، امتدت من الهند شرقا الى الاندلس غربا ، وجبال البرانس شمالا ، الى المحيط الهندى جنوبا • وقامت على يدى الشعوب الاسلامية على اختلاف أجناسها ، من عرب وفرس وروم وترك واقباط وبربر وغيرهم حضارة زاهرة ، امتدت فى ربوع الاراضى الاسلامية المترامية الاطراف ، ونشرت اشعاعها الثقافى والفنى الى كثير من بلدان العالم • ولا يخفى علينا أن هذه الحضارة التى أقامها العرب بجميع مظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لم تخلق فجأة بل سبقتها عوامل مختلفة داخلية وخارجية ، مهدت أمامها السبيل ، وامتزج بعضها بالبعض الآخر ، فلما جاءت الفتوحات الاسلامية أخذ هذا التمهيد وهذا التفاعل يظهر ويتطور مع الايام فنعم بحياة الاستقرار والرخاء وانتشار الامن ، نتج عن ذلك مظاهر جديدة اتيح لها ان يزداد أثرها •

وثمة حقيقة هامة ينبغى ألا نغفلها ، وهى أن الاسلام لم يتخذ الفنون وسيلة لذيوعه وانتشاره وأداة تعبدية كما فعلت المسيحية فى فنون المسيحيين واليهودية فى فنون اليهود •

وكما يقول الاستاذ ابراهيم جمعة : لقد كانت وسيلة ذيوع الاسلام وانتشاره ذاتية منبعثة من صلب العقيدة ، لا تحتاج الى الاستعانة بغير كتاب الله وسنة رسوله • وكان فيها الغناء ، وذلك الى جانب قوة الحجة وفصاحة اللسان ونصوع البيان • ظل العرب المسلمون طوال قرنين من الزمان بعد الفتح يمارسون أعمال الولاية والسياسة والامامة والقضاء وغيرها من شؤون رعاية المجتمع الاسلامى فى أمور الدين والدنيا • ويتقاضون من ديوان العطاء

المال القليل الذى يكفى الحاجة حتى حرمهم الخليفة العباسى المأمون (*) من ذلك فاضطرت الغالبية العظمى من العرب المسلمين فى البلدان المفتوحة الى النزول الى معترك الحياة العامة يمارسون شتى المهن والحرف والصناعات ·

ويسهمون فى كل الاعمال بقدرات تنفي عنهم صنعة العجز فى مجالات الفنون بدعوى شعوبية تقول بأن العرب من الجنس السامي الذى لا يحذق الفنون بخلاف الجنس الآرى الذى وهب حذق الفن بالسليقة والطبع ، وقد أثبتت الممارسة العملية أن العرب المسلمين لم يكونوا أقل من غيرهم مهارة وخبرة فى هذه الميادين وقد برعوا فيها وبرزت منهم جماعات اجادت فنونا قائمة بذاتها وتفوقت فيها تاركة مجالات أخرى لغيرها .

ومما سبق يتضح أن العرب المسلمين قد انصرفوا عن ممارسة التصوير وتركوه للفرس والهنود والاتراك · واتجهوا الى الخطوط والزخارف · وقد شهد لهم تفوقهم فى فنون الخط والزخرفة والفنون التطبيقية بديلا عن تفوقهم فى فنون التصوير والنحت · ذلك لان فن الخط العربى هو أسمى أشكال الفنون الفرعية فى الحضارة الاسلامية (1) ولا يمكن ادراك أو فهم الفن الاسلامى بدون فهم منزلة ودلالة تقاليد الخط ·

ظهور الفن الاسلامى :

يعتبر الفن الاسلامى بجميع فروعه من أعظم وأجمل مظاهر الحضارة الاسلامية شأنا ، ونتساءل لماذا هذا التقدير كله ؟

والاجابة عن هذا السؤال تكمن فى أن الفن الاسلامى يعتبر بحق من أوسع الفنون انتشارا ، وأطولها عمرا مع استثناء الفن الصينى ، كان مولده فى القرن السابع الميلادى ، عندما شرع النبى صلى الله عليه وسلم فى بناء مسجد المدينة المنورة · حيث أنشأ نمطا (2) جديدا فى الفن المعمارى ، اذ اتخذ نموذجا فى تصميم المساجد الاسلامية الجامعة فيما بعد ·

وظل ينمو ويتطور حتى بلغ أوج عظمته فى القرنين السابع والثامن

(*) تولى الخلافة العباسية من سنة 193 هـ الى 218 هـ ، واشتهر بتشجيعه للعلم والعلماء · وفى عصره ازدهرت حركة الترجمة والنقل ·

(1) انظر : David James : Islamicart an introduction Hamlyn, London 1974, p. 16

(2) رسالة اليونسكو العدد 199 ـ السنة 1978 ، ص 39 ·



(لوحة ١)



(لوحة 2)

الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) .

ثم دب اليه الضعف والفقر الفنى فى القرن الثامن عشر الميلادى ، وذلك بعد أن تأثر الفنانون والصناع فى العالم الاسلامى بمنتوجات الفنون الغربية ، فأقبلوا على تقليدها ، وكانت النتيجة ظهور أساليب فنية ضعيفة ، ونعتقد ان ما آل اليه الفن الاسلامى هو عدم اهتمام الفنانين أنفسهم بالاتقان اذ أصبحت السرعة فى الانتاج والاقتصاد فى النفقات مظهرا من مظاهر الحياة الجديدة .

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نذكر بأن الفن الاسلامى لم يكن هو أول عهد بالفنون . بل كان للعرب قبل الاسلام ماض فني مجيد ، يتجلى لنا فيما عرف من فنون تشكيلية ومعمارية .

فقد عرف العرب القحطانيون فى بلاد اليمن فنونا تمثلت فى قصورهم ، وتخطيط المدن ، واقامة الدور ، وبناء المعابد ، بالاضافة الى فنون فرعية كالكتابات المنقوشة التى ما زالت تشهد على ذلك (3) .

أما عرب الشمال فخلفوا لنا بعض الآثار التى تشهد على عظمة الحضارة التى وصل اليها الانباط والتدموريون ، وتاثرهم بحضارة الاغريق والرومان وأساليبهم الفنية ، كخزنة فرعون أو هيكل الخزنة ، التبراء والمسرح المنقور فى الصخر ، وهيكل بعل .

وهكذا بعد أن اتسعت دولة الاسلام فى القرن السابع الميلادى ، ظهر فن جديد فريد فى موضوعاته وتعبيراته الفنية . واختلف مؤرخو الفن فى تسميته ، فمنهم من يرى أنه لا يمكن تسميته بالفن العربى ، لان نصيب العرب فيه كان أقل من نصيب غيرهم من الشعوب الاسلامية ، كما أنه لا يمكن أن نطلق عليه اسم الفن الشرقى ، لان هذه التسمية لا تنطبق على الفنون التى ازدهرت فى تركيا وشمال افريقيا والاندلس .

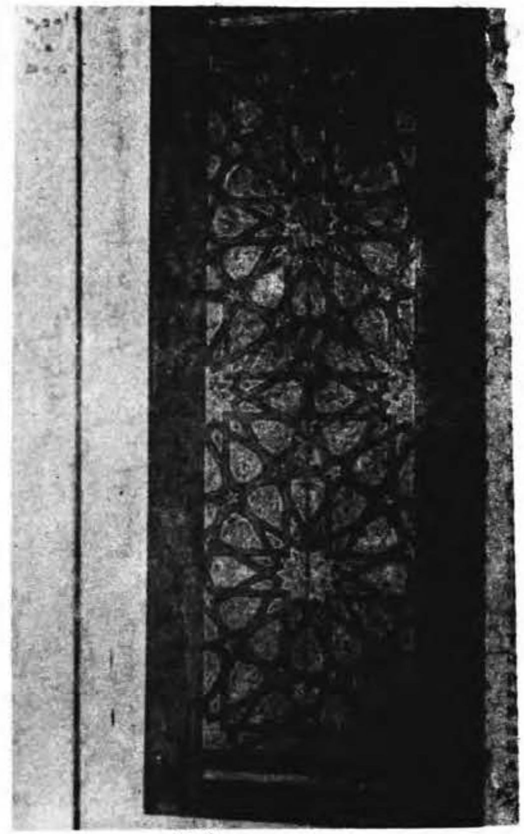
كذلك من الصعب جدا تسميته بالفن المغربى ، فهذا المصطلح يكون قاصرا فقط على الفن الاسلامى فى المغرب والاندلس ، وهناك من وصف الفن الاسلامى بالفن المحمدى ، غير ان هذه التسمية أيضا

---

(3) المعالم الاثرية فى البلاد العربية ــ الجزء الاول طبع جامعة الدولة العربية ــ الادارة الثقافية ــ القاهرة 1970 ، ج 1 ، ص 197 وما بعدها .



(لوحة 3)



(لوحة 4)

يأنفها المسلمون لانهـا تنسـب الى الرسول صلى اللـه عليه وسلم ، ظاهرة دنيوية ، وجانبا من جوانب الحضارة ·

وخلاصة القول أن هذه التسميات المختلفة التى أعطيت للفن الاسلامى كلها ناقصة ، كما أنها اسماء ليست جامعة شاملة ·

وأرى أن الاسم الشامل الجامع الذى يمكن من خـلاله وصف الفنون التى نشأت وازدهرت فى البـلاد الاسلامية قاطبة ، هو الفن الاسلامى ذلك لان الدين الاسلامى كان سلسلة متصلة الحلقات جمعت شتات الامـم وجعلها وحـدة متماسكة متميزة على الرغم من اختلاف أصولها ومشاربها ، وبعد هذا كله نبحث الآن عن المصادر والاصول الفنية التى استقى منها الفن الاسلامى بعض العناصر الزخرفية ·

أصول ومصادر الفن الاسلامى :

قـام الفـن الاسلامى على أصـول وأساليب فنية كانت سائدة فى الاراضى التى فتحهـا العرب ، وبنـوا فيهـا امبراطورية اسلامية واسعة وفى هـذه النقطة يقـول الاستاذ جاستون فيت G. Wiet فى كتابه (4) « دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية » ، « وقد سير الاسلام النزعات والميول الزخرفية فى سبيل معين ، ووجهها فى طريق كان فى استطاعتها أن تسلك غيره ، وأن يكون لها مصير آخر غير ما هيأه لها · وحتى ان كان المسلمون لـم يأتوا بموضوعات زخـرفية مبتدعة أو مستحـدثة يمكـن تمييزها فى سهولة عن سائر العناصر فى الفنون الاسلامية ، فانهم نفخوا فى تلك العناصر روح الاسلام وطبعوها بطابعه» .

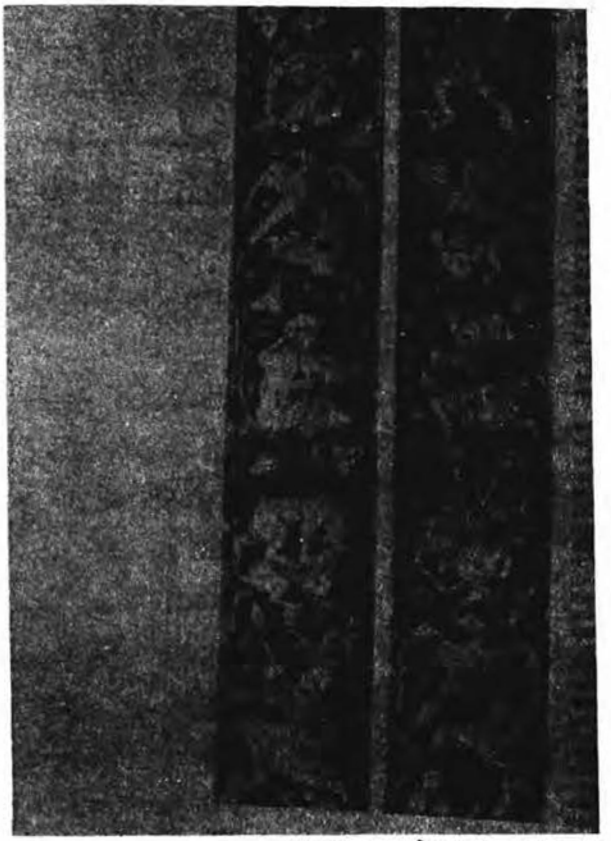
واذا كان هناك من يزعم أن الفنون العربية الاسلامية قد قامت على أساس من فنون الاقطار التى فتحها العـرب بعد ظهور الاسلام ، فانه من المسلم بـه كما يقول الدكتور حسن الباشا (5) : أن العرب بدورهم قـد نقلـوا الى هذه الاقطار نفسها الخط العربى ، كما نقلوا اليها أيضا اللغة العربية والاسلام سواء بسواء ·

وقبل أن نشير الى أبرز المصادر التى استقى الفن الاسلامى منها مادته يجدر بنا أن نورد فى هذا المجال عبارة لهـا وزنهـا ودلالتها الواضحة فى الفـن

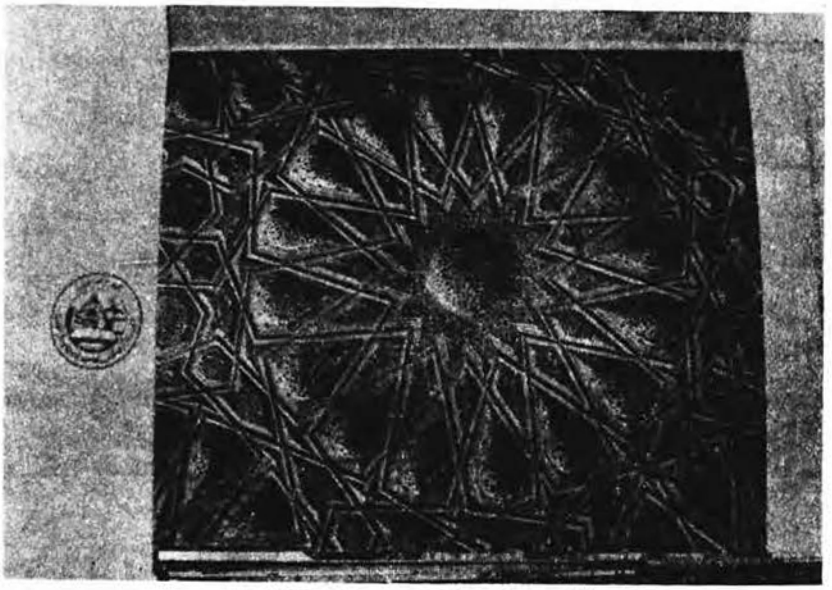
---

(4) نقلا عن كتاب حلقة بحث الخط العربى ـ المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ـ دار المعارف بمصر 1968 ، ص 84 ·

(5) حلقة الخط العربى ، ص 23 ·



(لوحة ٥)



(لوحة ٦)

الاسلامى قالها كريستى (6) : «ان الفن الاسلامى أخذ انسجته الروحية من بلاد العرب ، بينما انسجته المادية تكونت فى بلاد أخرى . حيث كان الفن قوة حيوية عظيمة » ·

والواقع كما يقول الاستاذان : Glück Diez ، ان العرب لم يأتوا فارغي الايدى (7) ·

ـ أبرز الفنون هي :

1) الفن المسيحى الاول أو الفن البيزنطى فى بلاد الشام ·

2) الفن الساسانى فى بلاد ايران والعراق ·

3) الفن القبطي فى مصر ·

4) الفن الهليسيتي فى الهند ·

5) الفن البكتيرى (افغنستان) ·

كانت الشام فيما مضى متقدمة جدا فى ميدان الفنون تحت حكم اليونان والرومان من بعدهم . الى جانب ما كان لها من أساليب وتقاليد فنية قديمة فى عهد الحثيين والفينيقيين ·

ولا ريب فى ان فتوح الاسكندر الاكبر للشرق الادنى، ثم دولة السلوقيين من بعده ، واستقرارها بالشام ونجاحها فى نشر الحضارة اليونانية قد أدى الى قيام حضارة تعرف باسم « الحضارة الهلينستية » وانتشار اللغة الاغريقية فى الشرق، وخاصة فى الشام ومصر، ومن ثم انتشار الفن الاغريقى الذى أخذ يتطور فى هذه البيئة الشرقية . حيث فقد شيئا من البساطة وصدق التعبير . وصارت له وجهة جديدة اذ أصبح يعرف بعد وفاة الاسكندر (323 ق م) باسم الفن الهلينستي أى الفن الذى قام على أسس من الفن الاغريقى ، وانتشر فى القرون الثلاثة التى تلت وفاة الاسكندر · كان انتشاره فى الحوض الشرقى للبحر الابيض المتوسط . غير أن تأثيره وصل الى روما ·

وعلى أية حال فقد قامت فى هذا العصر بالشام مدن ، وعمائر جميلة كالحمامات والقصور ، والمسارح ، وميادين السباق ، وأسواق ، ومبانى كانت تعرف باسم « البازليكية » · وقد اتخذت نموذجا بنيت على طرازها

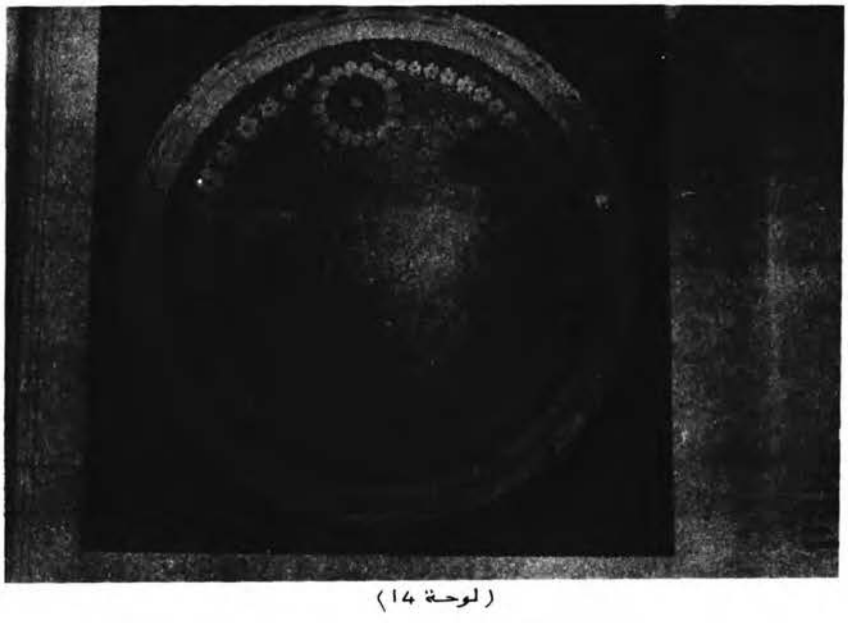
(6) انظر : The Legacy of Islam, p. 108

(7) انظر : Glück und Diez : Die Kunst des Islam, Berlin 1925, p. 14.

وعن نفس الموضوع راجع : زكى محمد حسن ــ الفن الاسلامى فى مصر ــ ص 81 ·



(لوحة 13)



(لوحة 14)

الكنائس التى عرفت فيما بعد باسم « الكنائس البازليكية » ·

انتشرت فى هذه المبانى القاعات المزخرفة بالفسيفساء ، بالرسوم النباتية والتصاوير الآدمية ، والحيوانية والطيور · ولما آلت اوضاع بلاد الشام الى حوزة الدولة الرومانية منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد لم يحدث تغيير ملموس ، فقد ظلت نفس الاساليب الفنية تمارس ، ذلك لان الفن الرومانى قام هو الآخر على أسس من الفن الاغريقى ·

لم يقتبس الطراز العربى الاسلامى وحدات أو تفاصيل معمارية أو زخرفية من التقاليد الهلينستية أو الرومانية ، بطريقة مباشرة ، بل كان الوسيط هو الطراز البيزنطى الذى يمكن اعتباره قد ولد من الطراز الرومانى بعد أن أدخل عليها أدوات شرقية (8) ·

وعندما أصبح الدين المسيحى فى عهد الامبراطور قسطنطين فى نهاية القرن الرابع الميلادى ، الدين الرسمي للدولة ·

بدأ الفنانون يظهرون أعمالهم بطرق كانت فى غياهيب الكهوف والسراديب. وكان ذلك عاملا رئيسيا ساعد على تطور الفن الهلينستى بعد أن احتضنته المسيحية وأصبح منذ ذلك الوقت يعرف باسم الفن المسيحى أو الفن البيزنطى ·

أهم خصائص الفن المسيحى الاول :

امتازت العمائر التى أقيمت فى بلاد الشام فى القرون الثلاثة الخامس والسادس والسابع الميلادية ، بالتناسق وجمال النسب والزخارف والرسوم الجميلة وكذلك الفسيفساء والنحت ·

وعلى الرغم من التخريب الذى أصاب المدن الشامية على أثر الغزو الساسانى لها قبل الاسلام ، فقد بقى الفن المسيحى المتطور عن الفن الهلينستى مزدهرا زمن الفتوح الاسلامية الشيء الذى جعل الفن الاسلامى يستمد أصوله من الفن المسيحى ويهمنا أن نلفت الانظار الى ذلك النموذج من تخطيط الكنائس المسيحية المبكرة والبيزنطية ، الذى يوجد فيه فناء يتقدم الكنيسة نفسها ، وتتصل به من خلال أبواب صغيرة وتطل عليه من خلال نوافذ وضعت فى الجدار الذى يفصل الفناء عن الكنيسة ، فان هذا التخطيط الذى ظهر قبل قرنين أو ثلاثة من ظهور الاسلام

---

(8) فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الاسلامية ــ عصر الولاة ــ المجلد الاول طبعة الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ــ القاهرة 1970 ، ص 101 ·

ــ انظر كذلك : Carel J. Dury : Artof Islam, New-York, 1970, pp. 17 - 39.



(لوحة 15)

وكان ذلك عاملا رئيسيا ساعد على تطور لم يكن له أى تأثير على تخطيط المساجد فى العصر الاسلامى ، منذ أول حلقة فى تطورها حتى القرن السادس عشر الميلادى ، كما لم يؤثر ذلك النموذج من تخطيط الكنائس فى العصر المسيحى المبكر والعصر البيزنطى على المساجد الا فى العصر العثمانى (9) ·

وقد تأثر الفن الاسلامي اذا بالزخارف المسيحية الشرقية المحفورة على العاج (10) والمجوهرات ، وعلى سبيل المثال الحشوات التى تزين كرسى الاسقف ماكسيميان فى رافنا ·

ذلك لان المسلمين استعانوا بالصناع المسيحيين من الشام فى عمل وانجار عمائرهم وتحفهم الفنية (11) ولهذا يمكن القول ان العناصر المعمارية والزخارف المسيحية قد أثرت فى تكوين الفن الاسلامى ·

1) الزخارف المحفورة ورسوم أوراق العنب ، وأشكال الطيور والحيوانات ·

2) رسوم اكليل الغار المحور عن الطبيعة ، وقرون الرخاء ، والفاكهة ، والزهور ·

الفن الساسانى فى بلاد ايران والعراق

يعد العصر الساسانى (226 ـ 637 م) من أزهى عصور الفن الأيرانى ، اذ بلغت فيه الفنون والصناعات درجة كبيرة من التقدم ، وتتضح مميزات الفن الساسانى فى أوضح صورة على النقوش الصخرية الرائعة التى تمجد آل ساسان ، وتسجل انتصاراتهم على الرومان · وظلت أوراق المراوح النخيلية احدى التعبيرات الهامة فى الفن الساسانى · وتتمثل كذلك فى ورقة الاكانتس والحليات البيضوية ، وحبات اللؤلؤ ، والحيوانات المتقابلة تفصلها شجرة الحياة ، الوريدات ، النجمة ، الدائرة الى جانب استعمال الحيوانات الخرافية المركبة ، وبعض الحليات الهندسية ·

ويمكن حصر أهم العناصر الزخرفية الساسانية التى اقتبسها عنه الفن الاسلامى وتعتبر تفريعات المراوح النخيلية ومشتقاتها المتعددة الاصول المباشرة لمثيلاتها فى الآثار الاسلامية (12) كما تشاهد فى قصر المشتى

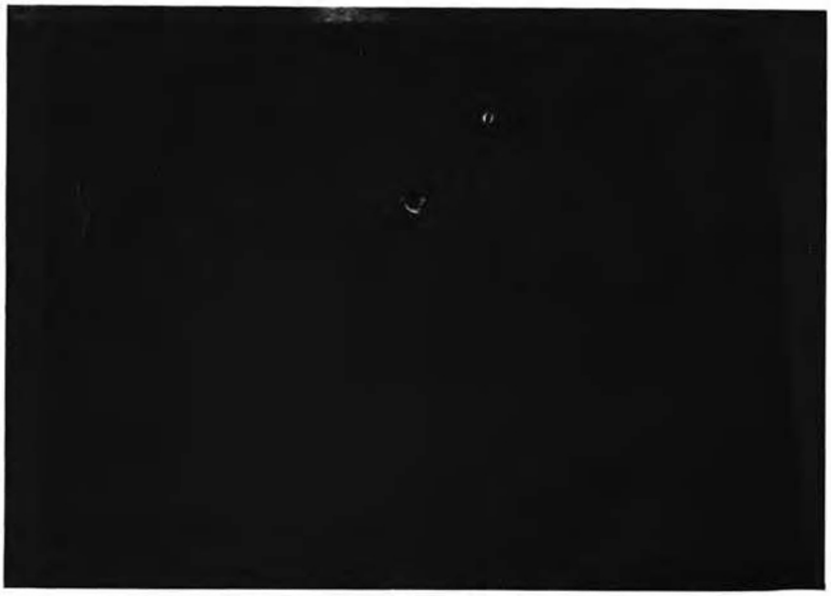
(9) فريد شافعى : العمارة العربية ، ص 125 ·

(10) ديماند : الفنون الزخرفية الاسلامية ، ترجمة أحمد موسى ـ دار المعارف بمصر القاهرة 1958 ، ص 26 ·

ـ وانظر كذلك : Migeon (G.) : Manuel d'Art Musulman, t. 7, Paris 1907, pp. 41 - 42.

(11) انظر : Marçais (G.) : L'Art musulman, Paris 1962, p. 10.

(12) ديماند : الفنون الزخرفية الاسلامية ، ص 31 ·



(لوحة ٩)



(لوحة ١٠)

(لوحة 1) ومنبر مسجد القيروان ، وعلى ذلك نستطيع القول بالتطور الفنى من العصر الساسانى الى العصر الاسلامى ، بل حدث فى بعض الحالات أن اقتبس الفنان المسلم شكل المروحة الساسانية بدون تحوير • وابتكروا أشكالا جديدة مجردة • أدى تطورها تدريجيا الى أسلوب زخرفى اسلامى أصيل •

ومن بين العناصر الزخرفية التى اقتبسها الفنانون المسلمون أيضا عن الفن الساسانى ، الاشجار النخيلية •

ـ الخيول المجنحة •

ـ الحيوانات والطيور داخل مناطق مستديرة أو متعددة الاوضاع يتكون محيطها من اطار برسوم حبيبات أو فروع نباتية •

ـ الحيوانات المتقابلة والمتدابرة (شكل 5) •

ـ مراعاة التماثل والانتظام فى التكرار فى رسم العناصر الزخرفية •

ـ رسم الملوك والامراء وهم يصطادون الوعول والاسد وحمار الوحش •

وقد تأثرت العمارة الاسلامية بالعمارة الساسانية • اذ يستلفت النظر فى طاق كسرى أنه يوجد به عنصر من أهم العناصر المعمارية التى تتصل اتصالا وثيقا بالفن والطراز الاسلامى وهو العقد المدبب الذى يعد من السمات الرئيسية للعمارة الاسلامية •

استخدم هذا العقد فى هذا القصر لتتويج تسعة شبابيك كاذبة وضعت فى صف واحد فى الطرف العلوى للواجهة الخلفية فى النصف الباقى من جدار الواجهة الرئيسية وهو يحف بالايوان الكبير (13) • وما زال معظم المؤرخين من الغربيين يعارضون فكرة وجود العقد المدبب فى العراق فى العصر الساسانى وما يزال الاتجاه قائما نحو اعتبار المثل الموجود فى كنيسة قصر ابن وردان بالشام (561 ـ 564 م) هو أقدم أمثلة العقد المدبب ، وانه النموذج الذى اقتبس منه العقد المدبب الاسلامى • وأقدم مثل موجود فى العصر الاسلامى يرجع الى عصر الوليد فى المسجد الكبير بدمشق (96 هـ ـ 714 م) واستخدم الساسانيون أيضا من القباب لتغطية الحشوات الغائرة المتعامدة بالجوانب كما هو الحال فى قصر السرفستان ، ظهرت هذه الفكرة فى العمارة الاسلامية • وأقدم مثل باق منها فى قصر الاخيضر فى بهو

(13) فريد شافعى : المرجع السابق ، ص 173 •



(لوحـــة ١١)



(لوحـــة 12)

المدخل الكبير ٠

استخدام الحشوات أو الدخلات فى الواجهات مرصوصة بجوار بعضها ٠

وأخيرا تأثر الفن الاسلامى بالفن الساسانى فى الخزف (14) والمنسوجات والتحف المعدنية سواء من ناحية الموضوعات الزخرفية أو أشكال الاوانى وهكذا يتبين لنا مما سبق ذكره أن أسلوب الفن الاسلامى الناشىء قد اعتمد على مصدرين فنيين وهما :

الفن البيزنطى ، والفن الساسانى ، ويلاحظ اقتباس التعبيرات الفنية فى هذين المصدرين ووجودهما جنبا الى جنب فى الآثار الاسلامية المبكرة كالفسيفساء فى قبة الصخرة والمسجد الجامع بدمشق وواجهة قصر المشتى ، والتصاوير الجدارية فى قصير عمرة وكلها ترجع الى العصر الاموي ٠

3) الفن القبطى فى مصر :

يمكن تحديد عبارة الفن القبطى بأنها كلمة تطلق على فن الكنائس الرهبانية فى وادى النيل ٠ لانه الفن الوحيد الذى كان سائدا فى مصر منذ الفتح العربى لها أى الفترة المسيحية من 313 م ، حتى الفتح العربى لمصر سنة 635 م (15) ٠

وقد سبقت هذا الفن فنون أخرى وأساليب مهدت له ، لذلك يعتبر الفن القبطى مرحلة انتقال من الفن الهلينستيى المتاثر بالاساليب الرومانية.

ويمتاز الفن القبطى بأنه فن شعبى اقليمى ٠ كان يتم فى الخفاء والاديرة والمغارات ، لان مصر دخلتها المسيحية قبل أن تصبح الدين الرسمى فى الدولة الرومانية ٠ فاضطهد المسيحيون فى مصر ٠ وهذا يعنى أن الفن القبطى قد نشأ بين أفراد الطبقات الفقيرة التى اعتنقت الدين المسيحى ٠

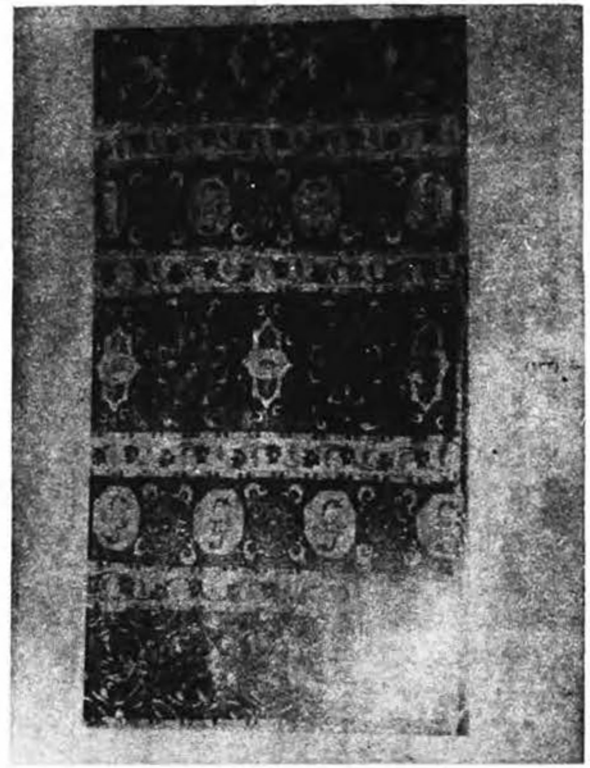
لذلك اتجه هذا الفن الى الرمز ٠ بحثا عن القيم الروحية التى تغنى عن النظر فى الدنيا ٠ واتخذ بعض الاشكال فى الفن المصرى والاغريقى رموزا ألبسها فكرا روحيا جديدا ٠

ــ تنوع الاساليب الفنية فيه وهى مزيج من عناصر الفن الاغريقى الرومانى كالاساطير الكلاسيكية القديمة. رسوم الآلهة ، ورقة الاكانتس أوراق العنب ، الحيوانات المتواجهة والمتدايرة، الاطارات المحلاة بالحبيبات ، الخ ٠٠٠

(14) انظر : Migeon (G.) : Manuel d'Art musulman, t. 2, pp. 159 - 161.

(15) نعمت اسماعيل علام : فنون الشرق الاوسط من الغزو الاغريقى حتى الفتح الاسلامى ــ دار المعارف بمصر 1975 ، ص 79 ــ 80 ٠





(لوحة ٤)

ـ الاقبال على الزخارف المنحوتة على الاحجار (16) ، ذات الفروع النباتية ، يمكن اعتبارها مرحلة انتقال بين الفروع النباتية القريبة من الطبيعة فى الفن الاغريقى الرومانى ، وبين الفروع النباتية المحورة عن الطبيعة فى الفن الاسلامى ·

والخلاصة التى نخرج بها هى أن الفن القبطى ذو طابع زخرفى ، احتفظ بالزخارف النباتية التى ورثها عن الفن الهلنيستى ، ولكنه حورها عن الطبيعة الى حد ما ، فكان بذلك مرحلة ممهدة الى التحوير الذى بلغ ذروته فى الفن الاسلامى وبذلك يكون تأثير الفن القبطى على الفن الاسلامى أقل بكثير من تأثير الفن الفارسى · وأنه لفهم نشأة التصوير الاسلامى فى مصر ينبغى دراسة الفن القبطى ·

4) الفن الهلنيستى البكتيرى :

يعرف هذا الفن باسم الفن البكتيرى، نسبة الى اقليم باكتيريا (افغنستان) ، حيث قامت فى هذا الاقليم دولة هلنستية،تأثرت بفتوح الاسكندر الاكبر، ويعرف كذلك بالفن الاغريقى البوذى ، تمتاز تماثيله بدقة رسم جسم الانسان ، والعناية بملاح الوجه ، والحركة ، والاحاسيس المختلفة ، ويظهر التاثير الاغريقى فى طريقة رسم الملابس وطياتها، ويلاحظ على هذا الفن بعض التأثيرات الساسانية فى رسوم الحيوانات والازهار ، أدى ذلك الى تاثر الفن الفارسى والاسلامى من بعده ببعض الزخارف الهينستية ·

5) فن قبائل الترك الرحل فى شرق وأواسط آسيا :

فقد أشار الاستاذ ديماند Dimand فى كتابه الفنون الزخرفية الاسلامية بأن الفن الاسلامى تأثر بفنون قبائل الترك الرحل ، وانه اكتسب عناصر وأساليب زخرفية جديدة لم يعرفها الفن المسيحى الشرقى أو الفن الساسانى · وتم ذلك بفضل الاتصال بهذه القبائل وهذه الاساليب الجديدة يمكن حصرها فى الآتى : ـ

1 ـ طريقة الحفر المائل ، وقد ظهرت فى زخارف الجص والخشب فى أوائل العصر العباسى والطولونى بمصر (شكل 4) ·

---

(16) نعمت اسماعيل علام : فنون الشرق الاوسط من الغزو الاغريقى الى الفتح الاسلامى ، ص : 82 ـ 83 ·
ـ حسن الباشا : فن التصوير الاسلامى فى مصر ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة 1973 ص 25 ·



(لوحة 16)



(لوحة 17)

2 ـ ظهور أشكال زخرفية جديدة كالتفريعات الهندسية ذوات الاوراق المستديرة ، وتتجلى لنا هذه الزخارف فى جص سامراء (لوحة 2) ويعتبر الشرق الاقصى ووسط آسيا الموطن الاصلى لهذه التفريعات الهندسية ، وقد عثر على أمثلة لها فى التركستان الصينية • ومن المحتمل ان تكون هذه الزخارف الهندسية قد أثرت الى حد بعيد فى تطور زخرفة الارابسك •

هذه هى أبرز الاصول الفنية التى اقتبس عنها الفن الاسلامى بعض العناصر الزخرفية التى صاغها وأضاف اليها أشكالا جديدة لم تكن موجودة من قبل فى تلك الفنون • حيث تبلورت ليصوغ منها فنا زخرفيا تجديديا •

عناصر الزخرفة فى الفن الاسلامى :

من الثابت تاريخيا ، والمعروف فنيا ، أن الفن الاسلامى قد قام فى أول نشأته على أنقاض كل من الفنين الكبيرين الساسانى والبيزنطى ، وهذا لا يقلل فى شىء أبدا من قوة وجمالية الفن الاسلامى ، اذ لا غرابة فى ذلك ، فجميع الفنون السابقة ، قد قامت هى الاخرى على أسس من الفنون التى سبقتها ، والتى كانت تعاصرها • أثرت فيها وتأثرت بها • وأصدق دليل على ذلك الفن الساسانى والبيزنطى اللذان تأثرا كل منهما بالآخر، برغم الحروب العديدة بين دولتى الفرس والبيزنطيين •

هكذا يتجلى لنا الفن الاسلامى فى صورة فن له جذور تقليدية كثيرة ، بالرغم من تجديداته الكثيرة فى موضوعاته وفى تركيب هذه الموضوعات واثرائها (17) • والشىء الذى يعطى ذلك الفن مزيدا من العظمة ، هو أنه يعلو على تعقيدات الحياة البشرية •

ولا يوجد شعب من الشعوب فى العالم قد أسهم فى زخرفة الصناعات والفنون التطبيقية ونبغ فيها كما هو الحال فى الفنون الاسلامية (18) ، هكذا تتجلى لنا الاساليب الزخرفية بطرزها المختلفة التى لعبت الدور الرئيسى فى الفن الاسلامى، لذلك يمكن اعتبارها من أبرز مميزاته أنه فن زخرفى تجديدى • قد استفاد الفنان من كل ما وقع عليه نظره من عناصر سواء أكانت نباتية أم هندسية أم حيوانية أم آدمية لتحقيق أهدافه الزخرفية ، وما ينشده من بيان وبديع جناس • فهو يكيف هذه العناصر

(17) شاخت وبوروث : تراث الاسلام ـ سلسلة عالم المعرفة ـ القسم الثانى ـ ترجمة حسين مؤنس واحسان صدقى ـ الكويت 1978 ، ص 89 •

(18) انظر : Negeon (G.) : Les Arts Musulmans, Paris 1926, p. 24.



(لوحة ١٨)



(لوحة ١٩)

ويبعدها عن صورتها الطبيعية للحـــد الذى يجعلنا فى بعض الاحيان لا نستطيع أن نستدل على أصل هـــذه العناصر ومصادرها • ولم يكتف بهذا فحسب بل استغل الكتابة العربيـــة أيضـــا بنفس النسق ، وكما يقول الاستاذ أبو صالح الالفى (19) : « بل ركب هذه العناصر كلها وزاوج بينها فى كثير من الموضوعات وكأنما يأخذ (من كل بستان زهرة) ، فهو يريد أن يحشد فى عمله الفنى كل ما لديه من عناصر ووحدات ليخرج هذا العمل آية فى الرونق والبهاء » •

مما سبق يتضح لنا أن الطابع المميز للفن الاسلامى هـــو طـــراز الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية ، وعـــلى الرغم من الدور الذى لعبته الزخارف الحيوانية والآدمية بدرجة كبيرة الا ان ذيوعها لا يمكن مقارنتـــه بما بلغتـــه الزخارف النباتية والهندسية والكتابية (انظر لوحة 25)ـ لوحة 37) •

وقســـم الدكتور فريد شافعى (20) تطور العناصر الزخرفية الاسلامية الى أربعة مراحل رئيسية هى :

1 ـ المرحلة الاولى تمتد من القـــرن السابع الميـــلادى الى القرن التاســـع الميلادى ، وفى هذه المرحلة الاولى تأثرت فيها الزخارف الاسلامية بالفنون المحلية تأثرا كبيرا (لوحة 1) •

2 ـ المرحلة الثانية تمتد من القرن التاسع الى القرن الثالث عشر الميلاديين ، وفيها يكون الفن الاسلامى قد كـــون شخصيته المتميـــزة مـــع بقـــاء بعض التأثيرات المحلية •

3 ـ المرحلة الثالثة تمتد من القـــرن الثالث عشر الى القـــرن السادس عشر الميلاديين • وفى هذه المرحلة تم تبادل العناصر والاساليب الزخرفية على مدى واسع بسبب الغزو المغـــولى ، وتـــوالى الهجرات بين البـــلاد الاسلامية ، كـــما ظهرت بعض التأثيرات المغولية الصينية .

4 ـ المرحلة الرابعة وتبدأ من القرن السادس عشر الى القـــرن التاسع عشر الميلاديين • واستمرت فترة الازدهار فى بداية هذه المرحلـــة ، وزادت العناصر القريبة من الطبيعة ، ثم بدأ التدهـــور نتيجة لضعف الحكام وسيطرة الاتـــراك واستبدادهم وظهور النفوذ الاوروبى •

1) الزخارف النباتية :

تعتبر من أبرز خصائص الزخـــارف الاسلامية التى وجدت عناية خاصة مـــن

---

(19) الفن الاسلامى أصوله وفلسفته ومدارسه ـ دار المعارف بمصر 1969، ص 114

(20) فريد شافعى : الزخارف الكأسية البسيطة فى الفن الاسلامى •



(لوحة ٢٥)

الفنان فى العصر الاسلامى • وهى من أوضح المظاهر التى توضح ابتعاد الفنان المسلم عن محاكاة الطبيعة ، ونقلها نقلا حرفيا • واتسمت بالجودة والتنوع منذ بداية العصر الى غاية العصر المملوكى ، وهذاالنوع من الزخارف وجد على جميع أنواع الفنون التطبيقية ، والعمائـــر الدينية والمدنية (كالمساجد والاضرحـة والشباب ــ والتصور وغيرها) • (انظر اللوحة 36) •

وتميزت خلال القرون الهجرية الاولى بالقرب من الطبيعة ، متأثرة فى ذلـك بالاساليـــب الزخرفيـــة الساسانيـــة والبيزنطية • وقد تنوعت هذه الزخارف فى الفن الاســـلامى لتشمـــل الاوراق النباتية المختلفة البسيطة والمركبـــة ، والمتعددة الفصوص كالورقة الثلاثيـــة الفصوص (البراسيم) والخماسيـــة الفصوص (العنب) ، وكيزان الصنوبر وحبات الرمان ، والمراوح النخيليـــة وأنصافها ، بالاضافة الى الفروع النباتية المستديرة والمنثنية والحلزونيـة ، وهى فى أغلب الاحيان عناصر زخرفية مجردة كل التجريد •

ويعتبر طراز سامـــراء فى الزخارف الجصية بداية للاسلـــوب الاســـلامى الحقيقى ، الذى انتشر بعد ذلك انتشارا واسعا فى مختلـــف انحـاء الدولـــة الاسلامية • وهـــذا الطراز بمراحلـه الثلاثة ، انتقل بـــدوره الى زخـــارف الاخشاب وسائر الفنـون التطبيقيـــة الاخرى • (لوحة 2) •

وقد بلغ هذا الطراز من الزخـارف (الارابسك) درجة رائعة خلال القـرن السابع الهجرى ــ الثالث عشر الميلادى ، فلا نكاد نتبين من الفـــروع والاوراق الا خطوطا منحنية ، وقد يظهر بينهـــا زهور ووريقات لهـــا فص أو فصـــان أو ثلاثة فصوص، وقد تخرج تلك الغصون من جذع شجرة أو ساق أو اناء ، وتمتد على هيئة أقواس أو التواءات أو حلزونات فى اطراء أو تتابـــع أو تشابـــك أو تقاطع (21) •

وأصبح هذا الاسلوب هـــو العنصر السائد فى الزخارف النباتية على العمائر المغربية (لوحة 25)، وكذلك على التحف فى العصر المملوكى ، الى جانب الزهـور التى ازدانـــت بها تحف هـــذا العصر كأوراق اللوتس المختلفـــة القطاعـــات وغيرها •

ويتعذر فى أغلب الاحيان تحليـــل عناصر زخارف ــ الارابسك ــ وردها الى أصولها الاولى (لوحة 17) •

(21) أبو صالح الالفى : الفن الاسلامى ، ص 110 •



(لوحة ٢١)



(لوحة ٢٢)

وهذا الطراز يعرف فى الفن الاسلامى باسم (التوريق العربى) (22) ، وهو ابتكار اسلامى خالص (23) ، يتألف أساسا من أشكال نباتية عظيمة مرتبة بأوضاع مختلفة ، تبعا لقاعدتين جماليتين جديدتين هما :

1 ـ التبادل الحركى الموزون .

2 ـ النزوع الى تغطية السطح كله بالزخارف (انظر لوحة 17) .

والظاهر أن هذا الاتجاه الزخرفى ، قد بدأ يتغير فى عصر المماليك ، اذ بدأ الفنان المسلم يميل ناحية صدق تمثيل الطبيعة ، وربما كان ذلك نتيجة للتأثيرات الفنية الصينية التى دخلت فى الفن الاسلامى بحكم العلاقات الحسنة بين سلاطين المماليك وملوك الصين (شكل 8) .

2) الزخارف الهندسية :

عرفت فى الفنون السابقة على الاسلام غير أن وجودها فى الفن الاسلامى اكتسبت أهمية خاصة وشخصية فريدة لا نظير لها فى أى فن من الفنون ، وأصبحت فى كثير من الاحيان العنصر الرئيسى الذى يغطى مساحات كبيرة يلعب فيها الخط الهندسى دورا كالدور الذى يلعبه الخط المنحنى . وقد ساعد على انتشارها حب الفنان المسلم الى البعد عن صدق تمثيل الطبيعة حيث وجد فيها ما لا يقيد حريته (لوحة 4) ـ (انظر اللوحة 38) .

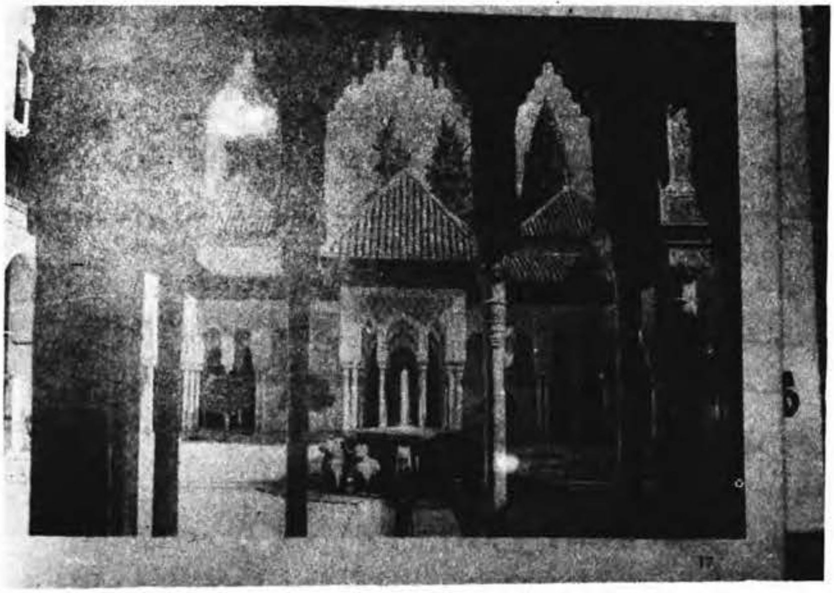
وفى هذا الصدد يقول الاستاذ بشر فارس (24) مؤكدا هذه الظاهرة الزخرفية : « وكلا النوعين ينفرش على المهاد ويكسو العصاب ، ويثب على الافريز ويتناول العرضى ، ويهجم على الفراغ ، وتبلغ به الهمة أن يتعرج حتى فى الاكسية ، تلك النشوة مشت فى الخط تنبئك أن أفق الغيب المستغلق دون المؤمن مشغلة دائمة لدوقه » .

ونظرا لتنوع الزخارف الهندسية فى الفن الاسلامى نرى تقسيمها الى نوعين :

1 ـ الزخارف الهندسية البسيطة كالمثلثات والمربعات والمعينات والاشكال الخماسية (المخمسة) والمسدسة والدوائر وأنصافها ، والخطوط الحلزونية والجدائل (شكل 7) .

---

(22) يعرف هذا النوع من الزخارف عند الغربيين باسم « Arabesque » نسبة الى العرب .
(23) مصطفى الحبيب : اقتران الكتابة بالعمارة ـ رسالة اليونسكو ـ العدد 199 ، فبراير 1978 ، ص 43 .
(24) بشر فارس : سر الزخرفة الاسلامية ـ القاهرة 1952 ، ص 16 .



(لوحة 23)



(لوحة 24)

2 ــ زخارف هندسية مركبة كالاطباق النجمية وهــى سمة مــن سمات عناصر الزخرفة فى الفن الاسلامى ، وقد بــدأ ظهور هذا النوع مــن التحف الخشبية التى ترجع الى أواخـــر العصر الفاطمى مثل محراب السيدة رقية ومحراب السيدة نفيسة • وأخذ يتطور وينتشر انتشارا واسعا خلال العصرين الايوبى والمملوكى عــلى التحف المختلفة (لــوحة 4) ــ (لوحة 38) •

والطبق النجمى يتألف فى الــوسط من ترس رئيسى يختلف عدد رؤوسه من طبــق الى آخر ، تحيط به كندات (أى الحشوة المحصورة بــين عـــدد رؤوس النجم) مختلفة تتبع عدد رؤوس الترس نفسه (شكل 6) وتنتشر حولها الوحدات الاخرى المكملة للطبــق نفســه ، لقــد ظهرت هذه الزخارف الهندسية فى عدة تطبيقات (25) متنـــوعة فى السقــوف الخشبية ، والحشوات المخرمة فى مسجد أحمد بن طولون •

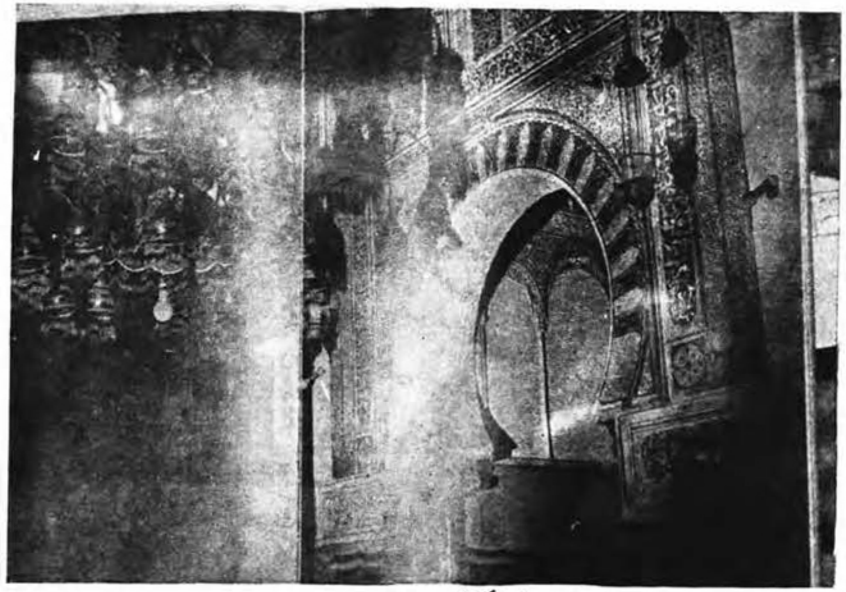
وفى تكسيات مسجــد قايتبــاى فى القاهرة (لوحة 28) • فقد طورت مصر (26) فى منتصف القرن السادس الهجرى ــ الثانى عشر الميــلادى هــذا التقسيم الهندسى للزخارف ويقوم عــلى وحدات اتخذت فى أول الامر أشكالا نجمية ، ثم انتقل هذا الاسلوب بسهولة الى شمال افريقية والاندلس ، ثم الى الاناضول ، والاقاليم الاوروبية من تركيا •

وقد شاع استعماله فى زخارف المغرب والاندلس ، ويتجلى لنــا ذلك فى الباب المصفح بالبرونز فى مسجد سيدى أبى مدين بتلمسان ، وفى فسيفساء القصور الزيانية والمرينية • وساد ظهور هــذه الاطباق عــلى التحف الخشبية والمعادن (لوحة 6) والصفحات الاولى للمصاحف والكتب ثم المقرنصات التى تعتبر بحق من أكثر الصيغ الزخرفية المميزة للعمارة الاسلامية ، فقد استعملها الفنان المسلم المولع بالبحث عن الاشكال التجريدية ، والاشكال الهندسية المعقدة (27) • وقد استعملت المقرنصات فى جميع أنحــاء العالم الاسلامى ، وأقدم مثل باق لهـــا يوجد فى مسجد تنمل (لوحة 27 ــ 30) .

(25) عنها انظر : Rousseau (G.) : L'Art décoratif musulman, Paris 1934, pp. 13 - 14 - 15

(26) شاخت وبوزوث : تراث الاسلام ــ القسم الثانى ــ ص 64 •

(27) انظر : Rousseau (G.) ; L'Art décoratif musulman, pp. 23 - 25



لوحة (٤٢)

3) الزخارف الكتابية :

يعتبر الخط العربى (28) من أبرز العناصر الفنية التى استعملها الفنــان المسلم فى موضوعاته المختلفة ، بحيث لا نكاد نجد عمــلا اسلاميا لا يكون الخط فيه مكانته البارزة ٠

ولا يوجد فن من الفنون بلغت فيــه الكتابة (الخــط) دورا رئيسيا مثلمــا بلغته فى زخارف الفن الاسلامى ٠ وقد وجدت عــلى مختلف الفنــون التطبيقية والعمائر سواء أكانت دينية أم مدنية ٠ ولعل [illegible] ذلك الى أن جوهر العقيدة الاسلامية يتمثل فى القــرآن الكريم ، وهو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى اللــه عليه وسلم ٠ والذى سطــر بالقلم : (ن والقلم وما يسطرون) ٠ بحيث تمثلت فيه قمة العمل الفنى العربى الذى كتب به كلام الله سبحانه وتعالى واصبح التبرك بكتابة بعض آيات القرآن الكريم أو الادعية ، أو الرجاء أمر لا يكاد يخلو منه عمل فنى أو بناء ٠

وهكذا يمكن القول بان الكتابة فى الفن الاسلامى حلت محــل الصورة فى الفن المسيحى الغربى (29) ٠

ووجود الكتابة على الآثار لــه أهمية خاصة ، فهى تحتوى على اســم صاحب التحفة أو مشيد البناء ، أو تاريخه او التبرك ببعض الآيات والعبادات الدعائية الى جانب دورها الزخرفى ، ومن تم تأتى اهميتها فى اعطاء تاريخ ثابــت بمجرد وجودها على المبانى والتحف كما تبــين تاريخ التحف الاخرى اعتمادا على ما هو مكتوب من طراز الخط نفســه ٠ وغالبا ما تحفر هذه الكتابة داخل اشرطة افقية أو رأسية (الشكلان 2 ـ 3) ٠

ولها طرز مختلفة أهمها الخط الكوفى والنسخى ، ومنها الخط الكوفى البسيط الخالى من الزخارف ـ الكوفى المورق ـ الكوفى المزهر أو المشجر الذى تخــرج من أطراف حروف سيقان نباتية دقيقة محــلاة بالوريقات المختلفة الاشكــال ومنها ما يقوم على أرضية نباتية مستقلة واحيانا تتعقد الكتابة لتصبح ذات طابع زخرفى يصعب قراءته ٠

والكتابة العربية ليست أقــل مــا يجــذب الانظار ويسترعى الانتبــاه فى العمائر وفى التحف الاسلامية ٠ فاننــا نرى منها فى كثير من الاحيان مجموعات

---

(28) أبو صالح الالفى : الخط العربى ووظيفته فى الفنون الاسلامية الاخرى ـ حلقة بحث الخط العربى ـ دار المعارف بمصر 1968 ، ص 47 ٠
(29) المرجع السابق ٠



(لوحة 26)

زخرفية غاية فى الجمال والاتزان ، (شكل 1 ـ لوحة 24) ، بل هى لا تقل فى هذا المجال عن المجموعات المكونة من عناصر الفروع النباتية والخطوط المتداخلة والمتشابكة · ولعل السر فى ذلك كما يقول الاستاذ أحمد أحمد يوسف (30) : « والواقع أن رشاقة الحروف العربية واناقة رسمها تأسران العين وتعاونان الرائى على الائتناس بها ، فلا يجد عناء فى متابعتها وتفهم ما تنص عليه وما تحويه من عبارات ·· » ·

ذلك لان الفن الاسلامى يتسم قبل كل شىء بصفة الفن الجماعى ، أى الذى لا ينتمى الى الفرد ·

اذ أننا حينما ننظر الى تحفه فنية اسلامية الطراز لا نفكر فى اسم الفنان الذى أنجزها ، حيث توجهنا مباشرة الى المكان الذى صنعت فيه والى العصر الذى تنسب اليه ، وهذان العنصران ملازمان لاى انتاج فنى اسلامى (31) · والطريف أن الكتابة العربية بنوعيها الرئيسيين : « الكوفى والنسخ » من عناصر التجميل غير المتجمدة ، فالحروف فى النمطين على خامات الحجر والمعدن والخشب ، والجلود والرق ، النسيج ، فهى على أى سطح من السطوح وعلى أى شكل من المجسمات تتشكل وتتلون وفقا لمتطلبات الخامة المستعملة فيها ، كما تحتفظ بالجمال فى مظهرها العام ، فتأتى النتيجة واضحة مقروءة فى ثوب جميل يتفق وعنصر الخامة التى تشكلها (لوحة 7) ·

وغالبا ما نجد أن خط النسخ كتب على أرضية من الزخارف النباتية (شكل 2) ذات الخطوط الدقيقة لتحقيق غرضين تشكيليين هامين (32) :

1) الاول خلق نوع من الايقاع نتيجة تبادل الظل والنور بين الاجزاء الغائرة .

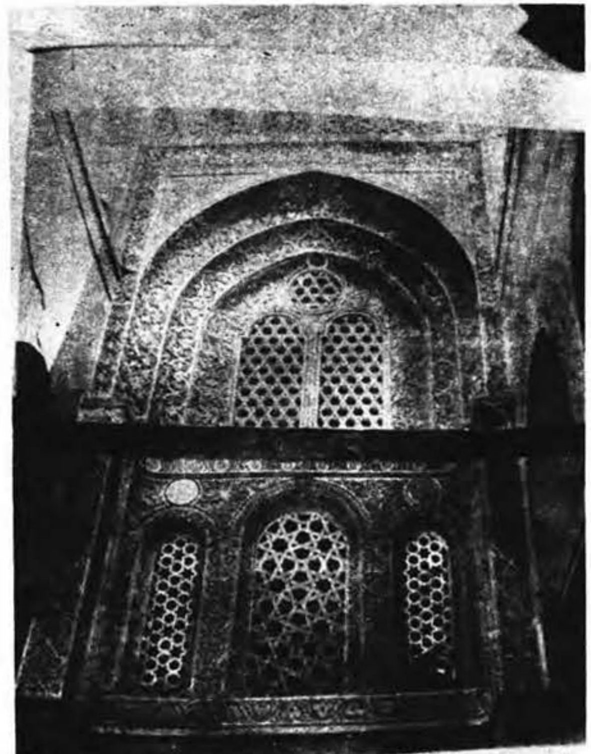
2) الثانى اعطاء درجات متفاوتة من احساس لمسى من حيث الدقة والاتساع ، وما يحقق ذلك من احساس بصرى بالنعومة والخشونة والتكامل الفنى الذى يحدث نتيجة التنوع فى الايقاعات .

وهناك نوع آخر من الخطوط هو الخط الهندسى والذى يتجلى فى الزخارف الهندسية كما يتجلى فى الخط الكوفى ·

(30) أحمد أحمد يوسف : الخط العربى وأساليبه فى الحياة العامة ـ حلقة بحث الخط العربى ـ ص 86 ·
(31) أحمد أحمد يوسف : المرجع السابق ، ص : 87 ـ 88 ·
(32) أبو صالح الالفى : الخط العربى ووظيفته فى الفنون الاسلامية الاخرى ـ حلقة بحث الخط العربى ـ ص : 48 ـ 49 ·



لوحة 27



(لوحة 28)

وهـذا الخط الهندسي يعطـي احساسا بالاستقرار والثبات . وقــد تنــوع استعمال الخط كعنصر زخرفي فاعطى الفن الاسلامي بحكم العلاقات الحسنـة للاقاليم الاسلامية شخصية متميزة في اطــار الشخصية الاسلامية العـامة ، فاستعمال الكتابة في الطــراز المغربي الاندلسي يختلف عـــن استعمالها فــي الطراز المصري أو الايراني أو الشامـي (لوحة 24) . وصفوة القول ان الخط العربي قد أعار - بوصفه الفن العـربي الاصيل - (33) الى الفنــون الاسلامية المختلفة طابعـه الجمـالي القـــائم عـلى التناسب بين النقطة والخط (شكل 3) . وانظر كذلك (لوحة 29) .

4) الزخارف الآدمية :

لم يقدر للزخارف الآدمية درجة كبيرة مـــن الانتشار في الفـــن الاسلامي . والسبب في ذلك هو ما صاحب الفنان نفسه منذ بداية العصر الاسلامي مـــن أراء مختلفة كالنفور والهـــروب مـــن مضاهاة خلق الله ، ومن أن المصورين هم أكثر الناس عذابا يوم القيامة .

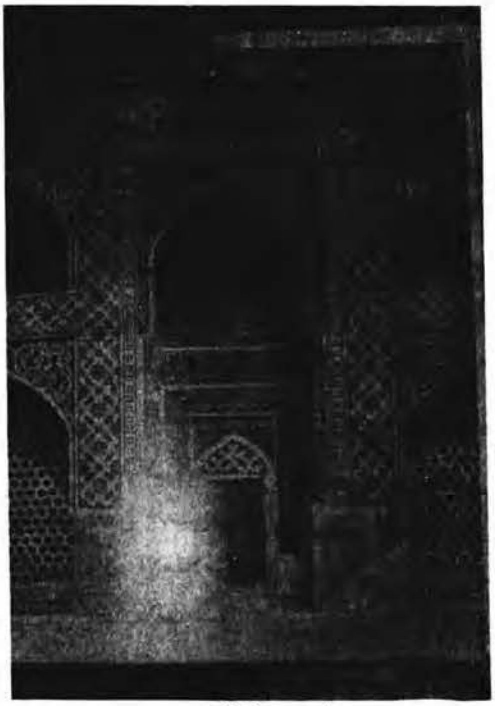
وليس هناك في القرآن الكريم نص صريح يحرم تصوير المخلوقات الحية أو عمل التماثيل لها . والآية التي كان يفهم منها خطأ ان التصوير محرم في الاسلام هي قوله تعالى (34) : « يا أيها الذين آمنـوا انمـا الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس مـــن عمـــل الشيطـان فاجتنبوه لعلكم تفحلون » .

ولكـن الـــواقع أن المقصود بكلمة (الانصـــاب) في رأى المفسرين هـــي الاحجار الكبيرة أو الاصنام التي كـان العرب يعبدونها ويقدمون لها القرابين . فليس هذه الآية اذن ما يحرّم التصوير او عمـــل التماثيل ، عـلى أن المحـدثين ينسبون الى الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث تحرم تصوير المخلوقات الحية (35) (لوحة 5) .

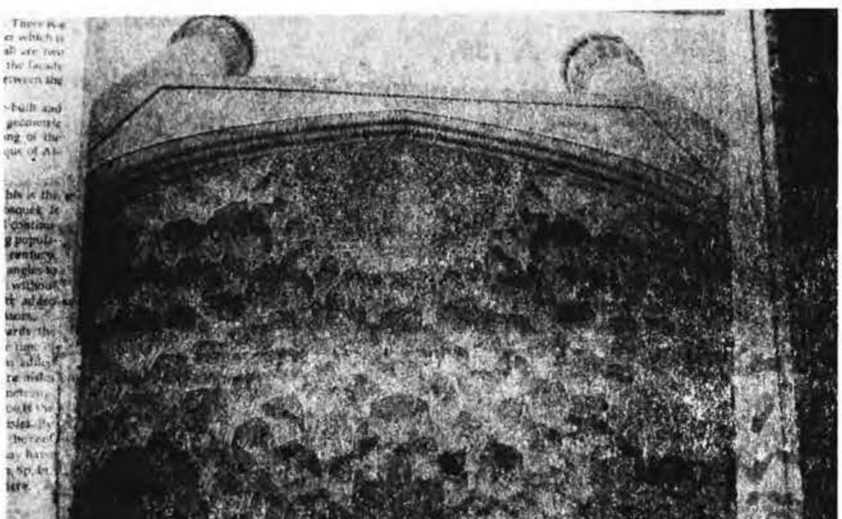
ولكن بعض العلماء في العصر الحديث يرون أن النبي لم يفكر في النهي عـن التصوير ، وأن التصوير كان مباحا في فجـر الاسلام ، وأن الاحاديث المنسوبة اليه في هذا الموضوع (36) ، وأنها في الـواقع لا تمثل الا الـرأى الذي كـان

---

(33) حسن الباشا : حلقة بحث الخط العربي ، ص : 23 - 33 .
(34) سورة المائدة ، آية 92 .
(35) زكي محمد حسن : الفنون الايرانية في العصر الاسلامي - دار الكتب المصرية - القاهرة 1940 ، ص 67 .



(لوحة 29)



(لوحة 30)

سائدا بين الفقهاء وعلماء الدين فى مستهل القرن الثالث الهجرى • وهذا كله لم يمنع وجود مشاهد آدمية ، بعد أن هدأت حالة الجهاد التى لازمت المسلمين لكى يتفرغوا للجهاد فى سبيل الله • وان أغلب الرسوم الآدمية نجدها فى المخطوطات والتحف المعدنية والخزف والخشب خلال العصر الفاطمى والمملوكى حيث كانت تزين بموضوعات اجتماعية ودينية (لوحة 12) و (لوحة 13) •

5) الزخارف الحيوانية :

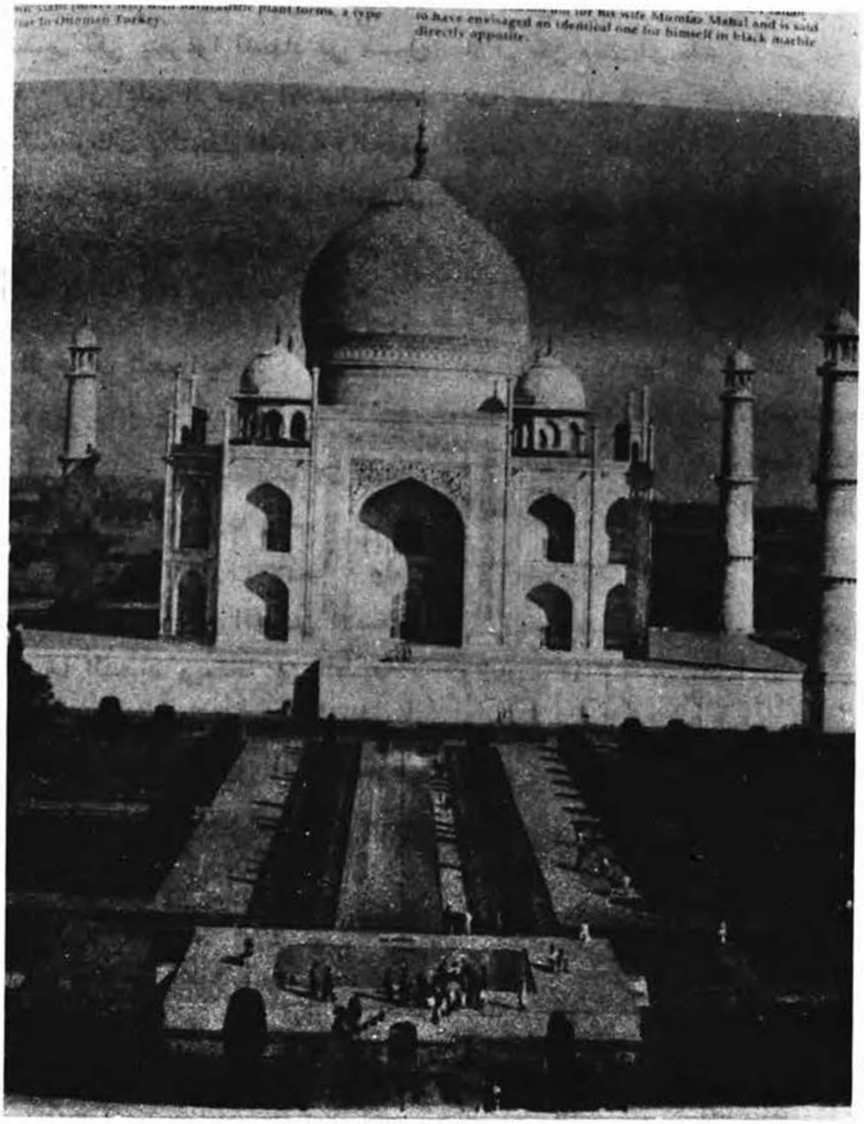
انتشرت الزخارف الحيوانية فى الفن الاسلامى بدرجة كبيرة ، ذلك لان الفنان لم يجد فى هذا النوع ما يقيده ، كما هو الحال فى طراز الزخارف الآدمية • ولعل أهم ما يميزها فى الفن الاسلامى تحويرها الشديد وبعدها عن الطبيعة ، وعدم مراعاة النسب التشريحية التى لم يكن يجهلها الفنان بدليل أننا نجده فى كثير من الاحيان يرسمها قريبة من نسبها الطبيعية •

وميزها الفنان فى كثير من الحالات بأوراق نباتية مختلفة الغصون تتدلى من افواهها ان كانت حيوانات أو من مناقرها ان كانت طيورا . وزخرف أجسامها فى بعض الاحيان بالزخارف النباتية ، ويظهر جليا وضوح التأثيرات الساسانية فى رسم الحيوانات الا أن وجود الزخارف الحيوانية فى الفن الاسلامى كانت ذات طابع زخرفى صرف. اذ لم يكن هناك أى مدلول دينى لوجودها كما هو الشأن فى الفنون الاخرى ، خاصة الفن القبطى •

وقد شملت التحف الاسلامية جميع أنواع الحيوانات والطيور ـ كالاسد والفهد ، الفيل ، الغزال ، الذى يعتبر من الرسوم المحببة الى الفنان فى هذا العصر بدرجة كبيرة • ـ الارنب ـ وجميع أشكال الطيور بأنواعها المختلفة كالطاووس ، والنسور ، الحمام ، الديك البط ، العصافير وغيرها •

وقد وجد الفنان المسلم فى الحيوانات والطيور المركبة الخرافية تمشيا مع طبيعتها فى البعد عن تمثيل الطبيعة • لذلك رسم الكثير من الاشكال الخرافية كالحصان المجنح والنمور ، والبراق والعنقاء • غير أنها لم يكن لها أى مغزى عقائدى ، كما هو الحال فى الفن الساسانى (شكل 5) ـ (لوحة 5) ورسم كذلك أشكال الحيوانات والطيور ذات الوجوه الآدمية ، وتتميز هذه الزخارف الاخيرة بالقوة وعنف المظهر لا سيما فى

(36) انظر : K.A.C. Creswel, Early Muslim Architecture, r. 1, p. 269.


plant forms, a type
Ottoman Turkey
for his wife Mumtaz Mahal and is said
to have envisaged an identical one for himself in black marble
directly opposite.

(لوحة 31)

رسم المفاصل ، وقد رسمها الفنان منفردة أو مجتمعة ، متقابلة أو متدابرة • وصنعوا بعض الاوانى والتحف المختلفة على أشكال الحيوانات والطيور المتنوعة . وقد انتشرت هذه الزخارف الحيوانية وأشكال الطيور على سائر الفنون التطبيقية للفن الاسلامى وخصوصا على المعادن والخزف والاخشاب (اللوحتان 12 ــ 13) •

وأخيرا فان الاشكال الفنية المتكررة لا تقوم بدور الحيوانات فى القصص الخرافى • وانما تمارس تلك الاشكال فاعليتها وتتكلم لغتها الخاصة الهامسة • وكما يقول بعض العلماء (37) ، ومع ذلك نجحت فى أن تجعل الناس يصغون اليها ويتأملونها مشدوهين ، وكأنهم تحت تأثير منوم مغناطيسى ، سواء فى داخل « دار الاسلام » أو فى خارجها ، وهذه القدرة هى التى تعطى الفن الاسلامى طابعه الخاص الفريد •

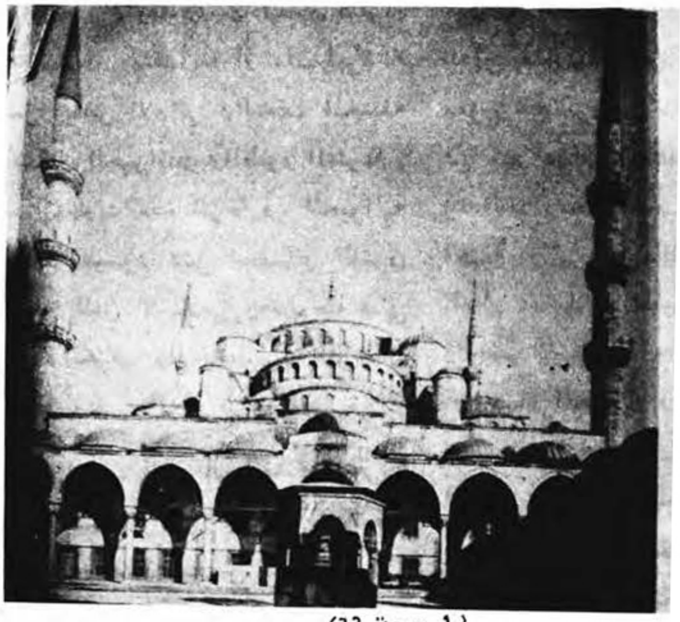
خصائص الفن الاسلامى :

والآن بعد أن عرفنا الاصول الفنية والعناصر الزخرفية التى استمد منها الفن الاسلامى مقوماته المادية ، حيث تبين لنا بجلاء أن دور الاسلام فى الفنون التى صادفها كان دور توليف بينها ومزج ، وتكون من ذلك التوليف والمزج فن كبير عام ، اختلطت فيه الاصول ، وتداخلت بحكم هجرة أصحاب المهارات الفنية (38) ، من مكان الى مكان داخل العالم الاسلامى الكبير ، يؤدون بفنهم واجبهم الاسلامى العام ، باقامة المساجد أو بناء الحصون والقلاع أو بصناعة الاثاث الخشبى وأدوات الاستعمال اليومى ، وزخرفة الدور والقصور بما يرضى الاذواق الاسلامية ويحقق رفاهية الاقوام دون اسراف أو مبالغة • لا تتمشى وعقيدة الاسلام (انظر اللوحات 21 ــ 23 25 ــ 26) •

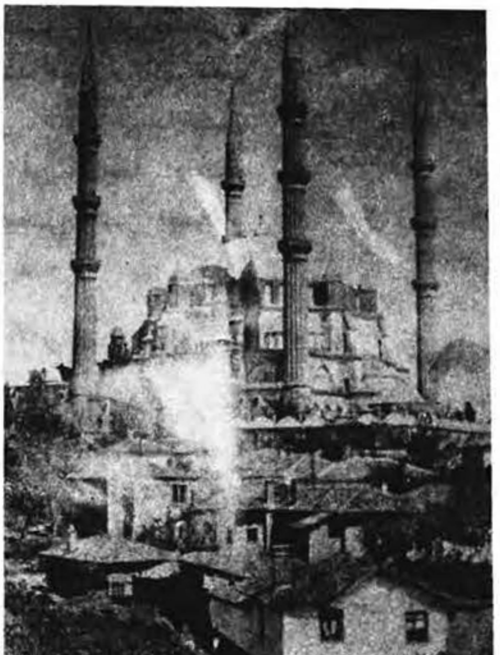
وقد بلغ الفن الاسلامى الذروة من الجمال فى شرقى العالم الاسلامى وغربيه على حد سواء • واخرجا للعالم فنا بديعا برزت فيه خصائص جديدة جميعها من ابتكارات المسلمين أضفت عليه جمالا ورقة ورشاقة لا سيما فى المغرب والاندلس حيث يلاحظ ذلك فيما تبقى من آثار وتحف فنية • وقد أكد هذه الظاهرة أى ظاهرة التعبيرات الفنية فى الفن المغربى الاندلسى هنرى تيراس (29)

---

(37) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع راجع : تراث الاسلام ، ص 89 وما بعدها•
(38) زكى محمد حسن : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ، ص 15 •
(39) انظر
Marçais (G.) : L'Art Musulman d'Espagne - Hespéris Fax II, t. XXIII 1936, p. 5.



(لـوحة 32)



(لوحة 33)

نقلا عن الاستاذ جورج مارسية حيث يقول ما نصه : « ان الفنانين المسلمين فى الاندلس ، قد أعطوا تعابير فنية واضحة وجذابة تدل على مهارة ونبوغ الفن الاسبانى » (لوحة 22) .

وأوضح مثال على روعة الفن الاندلسى المسجد الجامع بقرطبة الذى يعتبر بفضل قيمته الذاتية المسجد الوحيد المؤسس فى اسبانيا من وحى الروح المبدعة المتفقة مع الطبيعة ، فللتاريخ والفن أن يسعدا به اذ لو كان قد دمر لاحدث فراغا لا سبيل الى سده ، فقد احتل بين الآثار الاسبانية المكان السامى . فهو يصور عصور الازدهار الاسبانى التى ظل ينطلق اشعاعها من الاراضى الاسلامية (40) (لوحة 22) .

ونتساءل الآن هل كان للفن الاسلامى خصائص عامة تميزه عن الفنون الاخرى ؟ نعم ، لقد كان للفن الاسلامى خصائص عامة وفى مقدمتها أنه يمتاز على الفنون الاخرى بكونه فنا زخرفيا قبل كل شىء وصارت الرسوم النباتية والهندسية والكتابية والحيوانية والآدمية المحورة عن الطبيعة تزين الجدران وصفحات المخطوطات والادوات التى تستعمل فى الحياة اليومية .

كذلك خلا الفن الاسلامى من وجود التماثيل الكبيرة أو اللوحات الفنية ، لان تصوير الكائنات الحية أمر مكروه فى الاسلام منذ زمن بعيد . ومن المعروف أن القرآن الكريم لم يرد فيه نص صريح ينص على تحريم التصوير أو عمل التماثيل . وقد سبقت الاشارة الى ذلك . ونعتقد أن هذه الكراهية ليست جزءا من العقيدة الاسلامية ، ولكنها جاءت غالبا خوفا من التماثيل والصور الشخصية التى قد تذكر العرب الحديثى العهد بالاسلام بالعودة الى الاصنام . كما أن أصل هذا الاعتقاد يرجع الى عدة أحاديث نسبت الى النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

ومع ذلك فان النهى عن التماثيل أى تمثيل الكائنات الحية بالتصوير أو النحت لم يكن يراعى بين سائر الامم الاسلامية ، فقد تجاوزتها الامم الاسلامية الغير السامية لا سيما تلك التى كان لها تراث فنى (انظر اللوحات 18 ـ 19 ـ 20) .

لهذا عرف فن التصوير وتوضيح المخطوطات بالصور ازدهارا كبيرا فى ايران والهند وتركيا . ولهذا السبب يمكن تعليل وجود صور المخلوقات الحية

---

(40) مانويل جوميث مورنيو : الفن الاسلامى فى اسبانيا ـ ترجمة : عبد العزيز سالم ولطفى عبد البديع . طبعة دار الكتاب العربى ، القاهرة 1968 ، ص 16 .



(لوحة 34)



(لوحة 35)

الآدمية والحيوانية فى الخزف الاسلامى فى ايران (لوحة 12) وفى بعض منتجات الفن الفاطمى (لوحة 18) ·

ومن هنا حدث جدل بين العلماء حول فكرة كراهية التصوير فى الاسلام اذ يرى البعض بأن كراهية التصوير كانت عند فقهاء الدين من سنة وشيعة على حد سواء ، وليس صحيحا ما يزعمه البعض من أن المذهب الشيعى لا يعترف بهذا التحريم · والواقع أن فى كتب الشيعة أحاديث تحرم التصوير ، أو كما يذهب بعض مؤرخى الآثار الاسلامية (41) ، من أن حكم فقهاء الدين من الشيعة ، هو نفسه حكم أهل السنة فى كراهية التصوير والتماثيل ، ثم أن المذهب الشيعى لم يصبح المذهب الرسمى فى ايران (42) قبل قيام الدولة الصفوية فى بداية القرن السادس عشر الميلادى ·

ولكن تحريم الاسلام ، لم يقض على هذا الفن تماما ، ونظرة الى تاريخ الفنون الاسلامية تبين بأن الفنانين كانوا فى كثير من الاحيان لا يكترثون بهذا التحريم (43) (انظر لوحة 5) ·

كذلك نجد الهنود والاتراك وهم من السنيين يمارسون فن التصوير ، والتحف المعدنية والخزفية المزخرفة بأشكال آدمية ·

وكراهية تقليد الصور الشخصية كان لها تأثير عميق فى طبيعة الفن الاسلامى ·

ويمكن تلخيص هذا التأثير فى النقاط الآتية :

1 ــ صرف الفنانين الى اتقان أنواع أخرى من الزخارف بعيدة عن تصوير الطبيعة ، فقد افلحوا فى هذا الميدان ، حتى أصبحت العناصر الزخرفية التى ابتكروها طابعا على فنهم ونسبت اليهم كما فى لفظ l'arabesque.

2 ــ روعى فى زخرفة المساجد وأثاثها والمصاحف استبعاد الكائنات الحية فخلت من الصور والتماثيل التى يستعان بها على شرح العقيدة وتوضيح

---

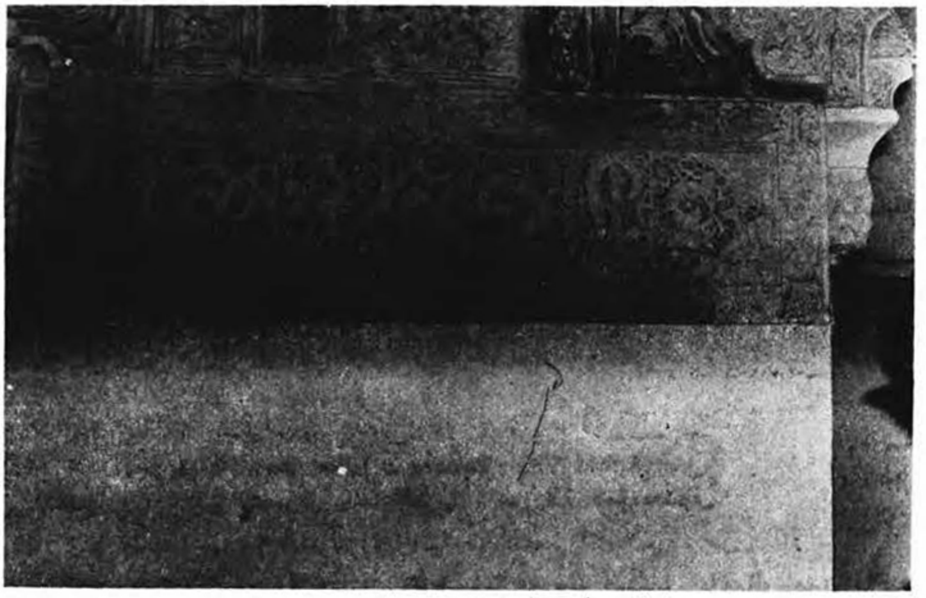
(41) Arnold (Th.) : Painting in Islam, Oxford 1928, p. 11.
ــ اتنجنهاوزن : فن التصوير عند العرب ، ص 12 وما بعدها ·

(42) زكى محمد حسن : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ، ص : 75 ــ 76 ·

(43) مثلا ، فالشعب الايرانى ميال للفن بفطرته وله احساس بالجمال أعمق وأقوى من يستطيع اطفاء جدوته أى عامل خارجى ــ الفنون الايرانية ــ ص 76 ·



(لوحة 36)



(لوحة 37)

تاريخ الدين ، وحياة أبطاله كما هــو موجود فى الدين المسيحى ٠

3 ـ ان الفنون لا تظهر فيها عبقرية النحـات ، ذلـك لان التماثيل المجسمة لا وجود لها فى الفن الاسلامى ، الامـر الذى جعل الفنانين ينصرفون الى زخرفة العمائر وتزيين التحف بالرسوم الفنية البديعة ٠

4 ـ صناعة التصوير التى ازدهرت عنـــد الايرانيين والهنـــود والاتـراك المسلمـين ، لـــم تتعـرض للموضوعات الدينية الا نادرا (انظر لوحة 20) ، حيث نجد بعض المصورين الذين رسموا صورا للعديد من الاحداث المشهورة فى تاريخ الرسل ، بالاضافة الى وجود صور توضيحية لبعض الحوادث فى السـيرة النبوية الشريفة ٠ ولكـن أمثـال هـذه التصاوير كانت نادرة علاوة على أنها لم تنل رضى علماء الدين وهنا يتجلى لنـا الفرق بـين الفنـون الاسلامية والفنون الغربية ، فقد كان المصورون فى الغرب على صلـة وثيقـة بالكنيسة يستلهمونها موضوعاتهم ، ويستمدون منها تشجيعاتهم لذلك غلب على انتاجهم الطابع الدينى الى وقت غير محدد ، فى حين كان المصورون فى الاسلام منبوذين مـن طرف علمـاء الـــدين ، لا يمنحونهم أى تعضيـد أو تشجيع ٠

5 ـ علت منزلة الخطاطين فى الاسلام لعنايتهم بكتابة القـرآن الكـريم ٠ لان فنهم لم يكن مكروها من طرف علمـــاء الدين ويليهم المذهبون من حيث الاهمية الذين زينوا برسومهم الجميلة الهندسية والنبـاتية صفحـات المخطوطـات وزاد الاقبال على منتجات هؤلاء الفنانين حتى أولئك الذين لـــم يتمكنوا مـــن شراء المخطوط ، يقنعون بالحصول على نموذج لخطاط مشهـور ، وارتفعت اثمـانها ، وكانت فى الغالب آيات من الذكر الحكيم أو أبيات مـن الشعـر ، وراح الامـراء والاثرياء يقتنون المجموعات الفاخرة التى كان عـلى أغلب هـذه النماذج توقيعات الخطاطين (لوحة 16) ٠

6 ـ معظم الفنانين المسلمين لم تكن لديهم مهارة فى الرســوم الحيوانيـة والآدمية ولم يجهد الفنـــان نفسه فى صدق تمثيل الطبيعة ، بل كانت لديـه أساليب اصطلاحية ظلت باقية فى أزهى عصور الفن الاسلامى ، اذ نادرا ما نجد العناية بجسم الانسان ونسب الاعضاء وقوة التعبـــير فى الوجـوه لتدل عـلى الاحاسيس المختلفة ، وان وجدت عـلى يدى قليل من أعاظم المصورين الذيـن نبغوا فى ايران ، كذلك الرسوم العارية غير معروفـــة فى التصوير الاســلامى ،



(لوحة 38)

وقوانين المنظور مهملة تماما · لذلــك تبدو الصور الفارسية محملة لتشابهها ، واشراك المصورين فى اهمــال الظــل والضوء . سم الاشخاص فى أوضاع معينة تفقد الروح والحركة ودقة التعبير ورغم ذلك فلهــا سحرها وجمالهــا ، وهكذا يمكن القول بأن الفنان المسلم لم يصور الانسان او الحيــوان ، بــل اتخذ منهما موضوعات زخرفية بحتة ·

7 ـ من أبرز خصائص الفن الاسلامى كراهية الفراغ . تعرف هذه الظاهرة عند الغربيين با . الفزع من الفراغ » (لوحة 12 ـ 14) ·

يعنى أن الفنان المسلم كان يكره أن يترك مساحات دون تغطيتهــا بالزخارف وازدحــام المساحات (المسطحــات) بالزخارف يلفــت النظر فى العمائــر (لوحة 29) والتحف وهذا الاتجاه أدى على أية حال الى تكرار الوحدة الزخرفية وتكــرار الموضــوع الزخرفى (انظــر لوحة 4) وتبدو هذه الظاهرة واضحــة فى المخطوطــات وفى سائــر التحف الاسلامية (لوحة 8) ـ (لوحة 14) ·

8 ـ الزخارف المسطحة :

الغالب عــلى الزخارف الاسلاميــة التسطيح ، ومرد ذلك انصراف الفنانين المسلمين عن التجسيم الى تغطية المساحات برسوم سطحية، ولكن التلوين والتذهيب قد خففا من هذا النقص (انظر اللوحات 19 ـ 12 ـ 13) ·

9 ـ البعد عن الطبيعة :

يعنى ذلك أن عناصر الزخرفة فى الفن الاسلامى مستوحاة من الخيال بسبب الكراهية فى التصوير ، وأدى ذلـك الى الاهتمام بالحيوانات الخرافية ، ليتجنب الفنان رســم الحيوانات الطبيعيــة ، وتنطبق هذه الظاهرة عــلى الزخــارف النباتية المشتقة مــن الزهرة وغـيرها (لوحة 29) ·

10 ـ الرسوم التوضيحية : (لوحــة 12) ·

اهتــم الفنانون المسلمون ولا سيمــا الايرانيون والهنود والاتراك بتوضيــح بعض الكتب الادبية وتزيين دواويــن الشعر بالمنمنمات (44) · ويرجع أقدم ما وصل الينا من مخطوطات موضحــة بالصــور الى القــرن الثــانى عشر

---

(44) المنمنمات : تعنى التصوير التصغيرى (الصــور الصغـيرة) فى المخطوطات الاسلاميــة ·



شكل (I) الخط الكوفي ذو الأرضية النباتية وواضح جداً أن
لهذه الأرضية المكونة من الفروع النباتية لا تتصل بالحروف.
إيران - القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي
(عن ابراهيم جمعة)

الميلادى (45) ، ومعظم هذه الصـــور توضيحات لقصص أبى زيد السروجى فى مخطوط من كتاب مقامـــات الحريرى ، وكليلـــة ودمنـــة وكتاب الاغـــانى ، والمخطوطات العلمية والكتب التاريخية ، وصفوة القول أن توضيـح المخطوطات بالصور وتحليلها بالرسوم الملونة كان فى المرتبة الثانية بالنسبة الى كتابتهـا بالخط الجميل (46) ·

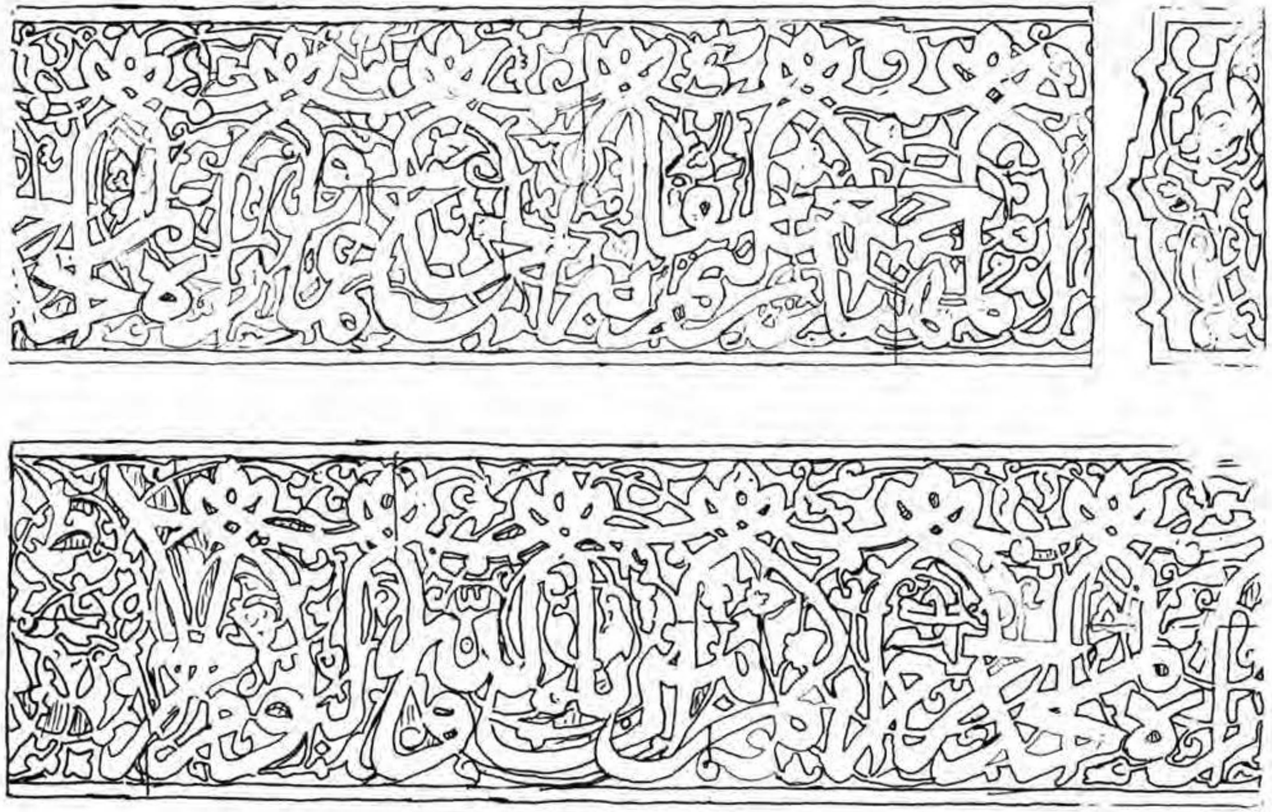
11 ــ الكتابة العربية عنصر زخرفى :

استعمل الفنـــان المسلـم الحـروف العربية· سواء أكانت كوفية أم نسخية، كعناصر زخرفية رئيسية ، وتعتبر كذلك من أبرز الخصائص المميزة لاى عمـل فنى اسلامى · كما تبدو هذه الظاهـرة الزخرفية واضحة فى العمائر الاسلامية، وسائر التحف (شكل 1 ، 2) ، وتأثرت الوحدات الزخرفية الاسلامية بأشكـال الكتابة العربية ، وانها لتمتزج أحيانا حروفها بالوحدات الاخرى من نباتيـــة وهندسية وحيوانية حتى يصعـــب فى بعض الاحيان التمييـــز بينها (انظـر شكل 3) ، (لوحة 24) ·

12 ــ الفن الاسلامى فن جماعى :

معنى ذلك أن الفنان المسلم لم يتبـن طريقة خاصة أو اسلوبا معينا يميزه عن غيره ، وانما كان فى أغلب الاحيان يتبع الطـرق المطروقة ويسير على الاساليـب الفنية الموروثة ، أى أنه لم يبتكر جديدا فى هذا المجال وهذه الصفة التى تفتقر اليها الفنون الغربية ، والتى ينادى بعض نقاد الغرب باتبـاعها وقد كتب عنهـا أحد مفكريهم (47) « أوسكار وايلد » قائلا : « ان المثل الاعلى فى الفن هو أن يظهر الفن ويختفى الفنان » (انظـــر اللوحات 21 ــ 22 ــ 23) وهذه العبارة لها وزنها ، مما لا شك فيه أن المعماريين والمصوريـــن والخطاطـــين والمزوقـين والفنانين على اختـــلاف درجاتهـم فى العصور الاسلامية ، قد أنتجوا تحفا فنية جميلة بدون أن يودعوها شيئـا مـــن خصائص حياتهم التى تلاشت فى سبيل الغرض الاســـمى مـــن أجل صالـح المجموع (48) · متحدثين الى شعوبهم عن طريق الفن بلغة الجماعة لا الافراد ·

(45) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع : المخطوطات المرسومة فى العصر العباسى ، للدكتور خالد الجادر ·
ــ ايتنجنهاوزن : فن التصوير عند العرب ·
(46) زكى محمد حسن : الفنون الايرانية ، ص 67 ·
(47) أحمد أحمد يوسف : الخط العربى وأساليبه فى الحياة العامة ــ حلقة بحث الخط العربى ــ ص 86 ·
(48) أحمد أحمد يوسف : نفس المرجع السابق ، ص 87 ·



شكل (١٩) إفريز من الكتابة ذات الأرضية النباتية تلتف حول مدخل مسجد السلطان محمد الناصر بن قلاوون (693هـ - 738هـ)

عن : (G. Migeon)

13 ـ الفن الاسلامى بعيد عن العاطفة :

لان الفنان المسلم لم يهتم بتصوير المشاعر الانسانية ، لذلك لا نجد فى منتجاته ما يثير الشعور أو يبعث على التأثير العميق بخلاف ما نراه فى التصوير الاوروبى لا سيما فى اللوحات التى توضح التضحيات البشرية وغيرها من الموضوعات الاخرى .

وصفوة القول أن الذى جعل الفنان يفعل ذلك هو البعد عن تمثيل الطبيعة .

14 ـ الفن الاسلامى ذو طابع ملكى :

صحيح كان الامراء والحكام المسلمون ينقلون من بعض انحاء العالم الاسلامى الى الانحاء الاخرى (49) ، ويستدعون الى مقر حكمهم بعض من تمتد شهرتهم من الفنانين الناشئين فى سائر الاقاليم الاسلامية . وكان لهذا أكبر الاثر فى تكييف الطرز المختلفة فى الفنون الاسلامية .

ولكن هناك من يرى بأن الفن الاسلامى فن ملكى بالدرجة الاولى (50) « فالامير هو الذى يرعى الفن ويعضد الفنانين ، الا فى حالات نادرة . فالفنان كان ينفذ ما يطلب منه سواء أكان هذا الطلب أساسه الدين أو الحب والعظمة والابهة اذ كان يعمل حسب رغبة الملك أو السلطان الذى يعيش فى كنفه ، وقد تثار هنا نقطة وهى ان الفن الاسلامى فن ارستقراطى يسخر الفنان لخدمة الامراء والسلاطين . ولكن يمكن الرد على ذلك بأن هؤلاء الامراء قد شملوا الفنانين بعنايتهم وعطفهم لتجميل مبانيهم وملء قصورهم بالتحف النادرة (لوحة 15) .

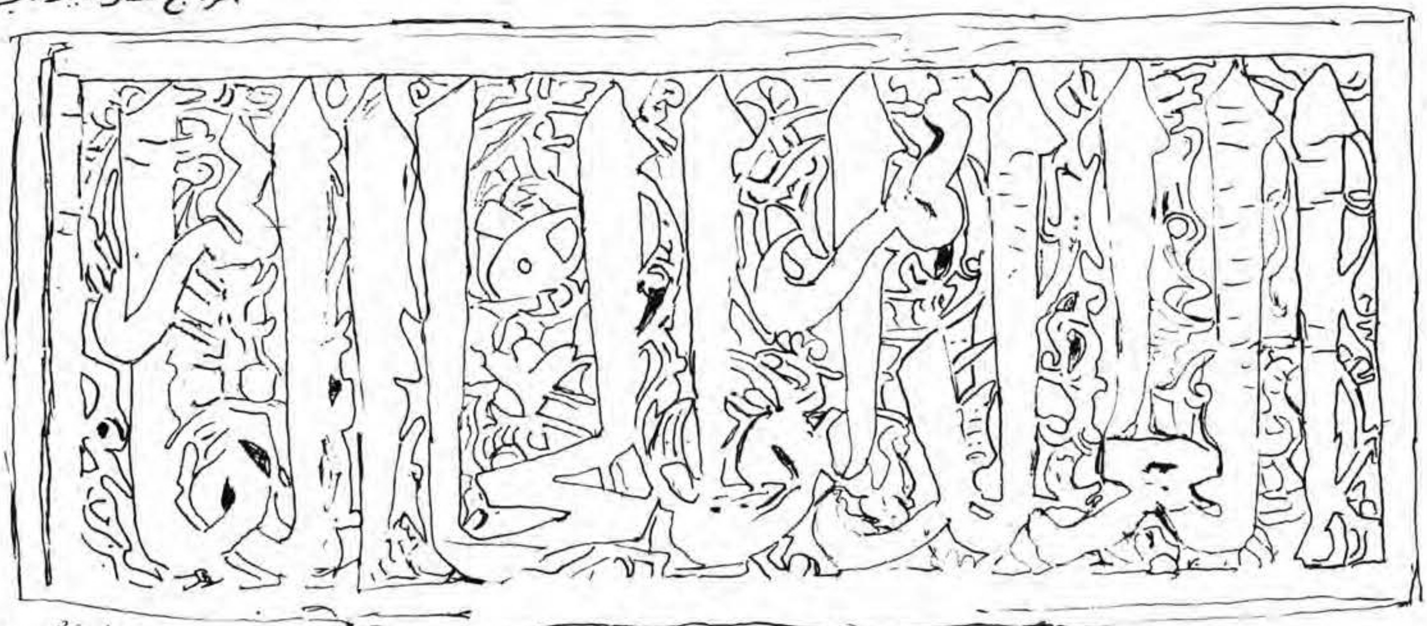
15 ـ فن ابتكارى :

لم تكن العقيدة الاسلامية تميل الى الاسراف فى الترف ، وتدل على ذلك حياة الخلفاء الراشدين ، وكان ذلك فى فجر الاسلام ، ومع ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، والثراء الذى عرفه الخلفاء فى العصور التالية لفجر الاسلام ، كان عليها أن تحقق شخصيتها وأن يستمتع الناس بأدوات الحياة من ملابس واشياء فاخرة تتناسب مع الثراء الكبير الذى كانوا ينعمون به ، ومن هنا نشأت فنون ابتكارية رائعة ، تجسد المبادىء التى ينطوى عليها الدين الاسلامى . وتحقق الثراء الذى يعيش فيه الخلفاء والامراء. فابتكر الفنان المسلم الخزف ذى البريق المعدنى ، كبديل صالح عن استعمال

(49) زكى محمد حسن : الفنون الايرانية ، ص 15 .

(50) عن هذا الموضوع ، انظر: Marçais (G.) : L'Art Musulman, Paris 1962, pp. 10-11.

حشوة من صناعة العاج تبين خط الثلث المملوكي المحفور فوق أرضية نباتية - مصر القرن 8هـ
الرابع عشر الميلادي



عن مجلة: (Archeologia)

(شكل 3)

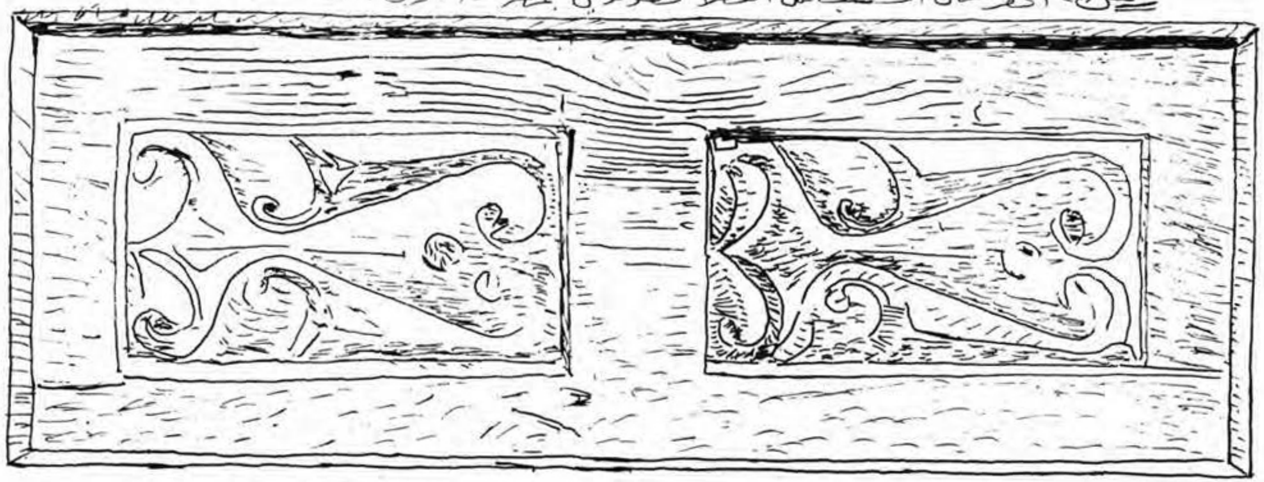
الاواني الذهبية والفضية • وينطبق ذلك على العمائر الاسلامية ، اذ نجد مثلا المحراب محور الاهمية فى المسجد ، وكان من الممكن أن يصنع من الذهب • ولكننا نلاحظ بأن المحاريب قد صنعت من الخشب أو الجص ، واستطاع الفنان أن يضفى عليها مسحة جمالية تخفف من هذه الخامات الرخيصة (لوحة 9) و (اللوحات 10 ـ 11 ـ 25) بالزخارف الدقيقة والالوان الجميلة • وصدق بودلير عندما وصف الفن العربى الاسلامى بقوله : « ان رسوم الرقش العربى هى اسمى الفنون كلها » (51) •

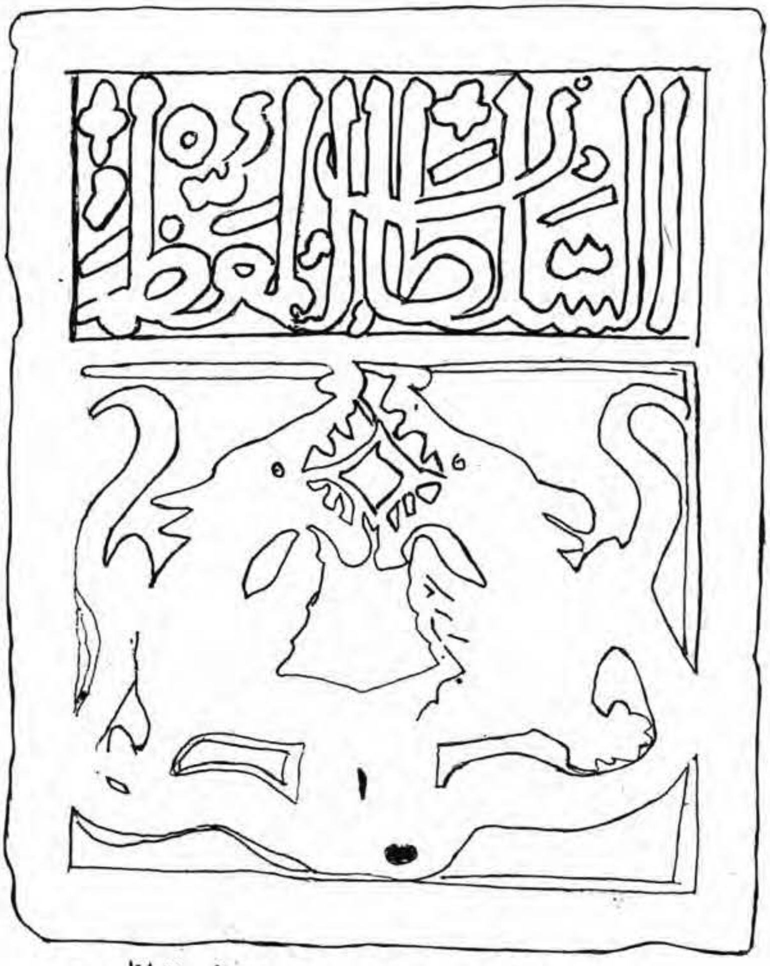
وخلاصة القول التى نختم بها هذا الموضوع ، هى أن دراسة الفنون الاسلامية فى مختلف مراحلها الزمنية وتطور أساليبها الزخرفية ، وطرزها المختلفة دراسة شيقة تذكر بعظمة الحضارة الاسلامية ومهارة المسلمين فى هذا المجال ، وتشير الى ماض مجيد ما تزال آثاره باقية حتى اليوم فى الرقعة الاسلامية الواسعة الممتدة من الصين شرقا ، الى الاندلس غربا ، شاهدة على ما بلغه الاسلام من ازدهار حضارى وفنى سيظل يبهر الاجيال تلو الاجيال •

---

(51) لمزيد من الدراسة راجع :
Nadj Moudin Bammater, Aspects de l'Art Musulman, Lausanne 1946, p. 12.

شكل (4) الحفر على الخشب من العصر الطولوني بمصر - القرن الثالث الهجري -

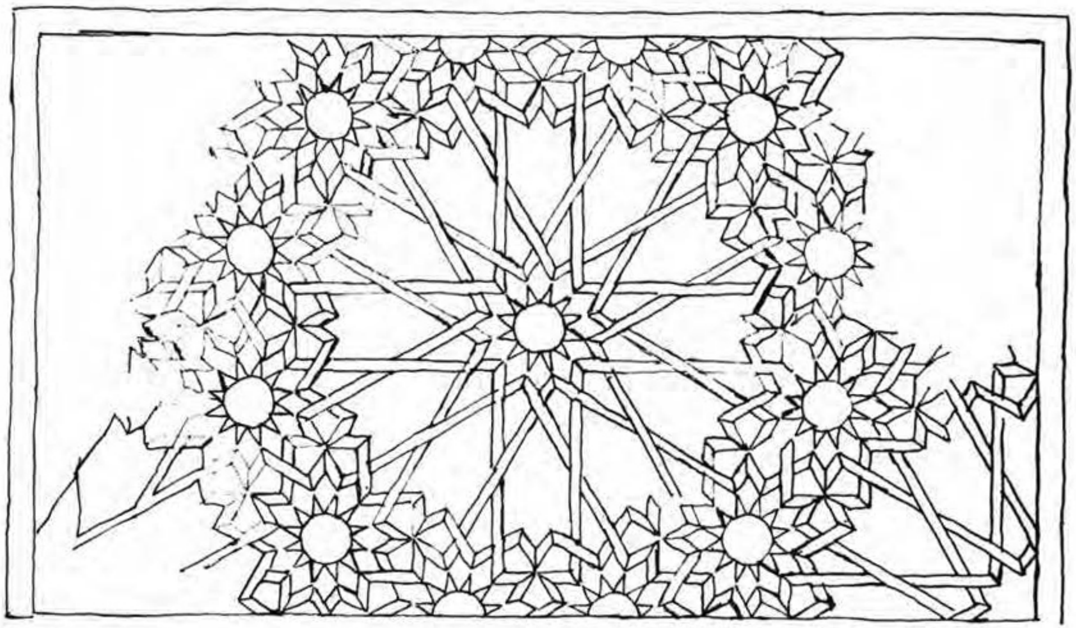




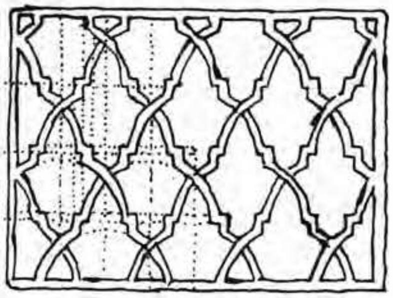
حيوانان خرافيان متقابلان (التماثل والتناظر)

إيراني - القرن (7هـ - 8هـ)

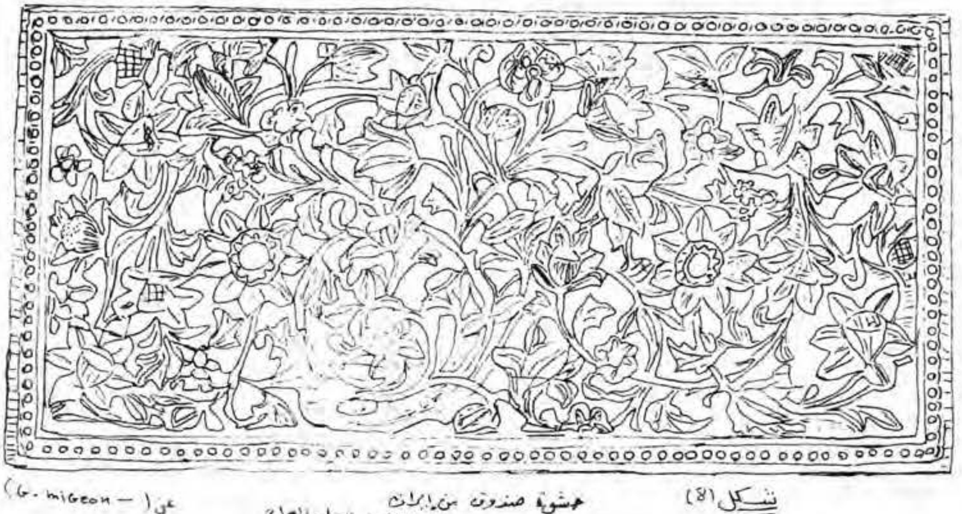
(شكل 5)



شكل (6) . طبق نجمي من الفسيفساء الإسلامية . عن (G.migeon)



شكل (7) عنصر زخرفة إحدى المآذن



شكل (8) حشوة صندوق من إيران
تمثل الزخارف النباتية المحفورة على العاج
(القرن 8هـ أو 14م)
عن (G. Migeon —)

فهـــرس الصـــور والاشكـــال :

أولا : اللوحـــات :

1) جزء من تفاصيل زخارف واجهة قصر المشتى ـ العصر الاموى (743 ـ 744 م) بالاردن ٠

وتمثل هذه اللوحة أهم الامثلة المبكرة للزخارف الاسلامية المحفورة على الحجـــر ٠ يلاحظ فيها تأثير الاساليب الزخرفية الساسانية والبيزنطية ٠

2) حشوة من الجص تمثل الطراز الاول فى زخارف سامراء الجصية . نفذت الزخارف بطريقة القالب ـ قوام زخارفها رسوم نباتية كورقة العنب الخماسيـــة الفصوص واضح فيها التأثير الساسانى ٠

3) قطعة من الجص نفذت زخارفها بطريقة الحفر المائل (المشطوف) وهى عبارة عن رسوم نباتية وهندسية محورة عن الطبيعة . سامراء ـ القرن التاسع الميلادى ٠

4) مصراع باب خشبى ـ مصر ـ القرن الثالث عشر الميلادى وأوائل القرن الرابع عشر الميلادى المطعم بالعاج ٠

زخارف هذا المصراع عبارة عن أطباق نجمية ذات الاثنا عشر رأسا . تحيط بها كندات على هيئة مسدسات ٠ تتجلى لنا بدقة فى هذه الكندات زخارف التوريق العربى ، التى تعتبر من أبرز سمات الزخرفة الاسلامية ٠

5) حشوة من العاج ـ مصر العصر الفاطمى ـ القرن الثانى عشر الميلادى ٠
قوام زخارفها عبارة عن رسوم آدمية وحيوانية وطيور تحيط بها زخارف نباتيـــة وكيزان الصنوبر ٠ نفذت بالحفر الغائر العميق ٠

6) تفاصيل زخارف الاطباق النجمية التى تزين الباب المصفح بالبرونز . مسجـد السلطان المؤيد ٠

7) لوحة تمثل قطعة من نسيج القباطى ، مملوءة بالاشرطة الزخرفية ـ العريضة منها تحتوى على رسوم هندسية ونباتية وحيوانية محورة عن الطبيعة ٠ والاشرطة الضيقة تحتوى على كتابة مكونة من عبارة مكررة نصها « اليمن والاقبال » ٠
مادتها من الحرير المتعدد الالوان . مصر ـ العصر الفاطمى ـ القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ٠

8) غطاء قبر ـ صناعة شمال غرب ايران ـ القرن الثامن الهجرى بمشهد الامام على بالنجف ٠

زخارفها مطرزة بغرز متعددة ـ غرزة حشوة مائلة ـ وغرزة الصليب ، كما استعملت غرزة الفـــرع ٠

9) سلطانية من الخزف الاسلامى بالاندلس ، ذى البريق المعدنى ، مـــن صناعة مدينة بلنسية ـ القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى ٠ زخارفها زهرة منتظمة داخل مناطق هندسية ، أى تمتاز بعنصرى الانتظام والتكرار ٠

10) زهرية من خزف طراز الحمراء ، على أسلوب صناعة مالقة ـ القرن الرابع عشر الميلادى ٠ هذا النوع من الجرار يمتاز بأن زخارفه أقرب ما تكون الى زخرفة المعادن ، كما تظهر عليها كتابات ، نصها : « اليمن والاقبال » مكررة ٠

11) طبق من الخزف ذو الزخارف المطبوعة بالقالب والطـلاء الزجاجى ذى اللـــون الاخضر ، والمتعدد الالوان ٠ صناعة هراة القرن الثالث الهجرى ـ التاسع الميلادى ـ العاشر الميلادى ٠

قوام زخارف هذا الطبق ، رسوم نباتية محورة عن الطبيعة وكتابة كوفية بسيطة نصها بيت من الشعر لابى تمام :

لا تـأسين وان طالـــت مطـالبـه اذا استعنت بصبر (اعقبت) فـــرجا

12) طبق من الخزف السلجوقى ـ صناعة مدينة قاشان ايران ـ 607 هـ ـ 1210 م ، من عمل سيد شمس الدين الحسنى ٠ قوام زخارفه رسوم آدمية وحيوانية ونباتية ٠

13) طبق من الخزف القاشانى ـ ايران القرن السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى زخارفه رسوم آدمية ذات السحنة المغولية ، تتخللها رسوم نباتية ـ فى الوسط رجـل على ظهر حمار ٠

14) طبـــق من الخزف التركى ـ صناعة مدينة ازنيك ـ القرن 10 هـ ـ 16 م قوام زخارفه زهرة القرنفل ـ قرن الغزال ـ زهرة الوسن وغيرها واستعمل اللون الازرق والفيروزى والبنفسجى ٠

15) مشكاة من الزجاج المموه بالميناء باسم السلطان حسن ـ من انتاج مصر ـ القرن السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى ، وعناصر الزخرفة فيها آيـــة « النـــور » ـ ورسوم نباتية ـ

16) ورقـــة من مصحف مكتوبة بالخط الكوفى بحروف دقيقـــة رفيعـــة فيها تخطيط هندسى النمط تجرى خطوطه الافقية محددة الاسطر فى تقسيم يكاد يكون منتظما ، ونجد فى التوزيع نوعا من التوازن العام من حيث التشكيل ، ويحدد الصفحة اطار من الزخارف المضفرة ٠ وخلفية الكتابة قد زين بالزخارف النباتية التى تملأ السطـح

بأكمله فى رقة وعذوبة وشفافيه (عن أحمد يوسف) (1) ايران القرن الثالث عشر الميلادى ·

17) الصفحة الاولى من كتاب تاريخ الامم والملوك للطبرى ـ صناعة هراة ـ 1469 م ، عناصر الزخرفة فيها الرقش العربى ·

18) تصوير جدارى ـ بالالوان المائية ـ العصر الفاطمى ـ القرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر الميلادى · يمثل شاب جالس وبيده اليمنى كأس ·

19 صورة تمثل آدم وحواء من مخطوط عبد الله بن بختشوع ـ مراغة ايران ـ القرن السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى ·

واضح فيها تقاليد المدرسة العربية فى التصوير ، التى تمتاز بالتسطيح ، وانعـدام خلفية التصويرة · الاشجار رسمت بطريقة اصطلاحية ·

20) صورة تمثل سيرة النبى صلى اللـه عليه وسلم · القسطنطينية ـ القرن السادس عشر الميلادى ، يتجلى فيها صورة الرسول بلباسه الابيض تحيط برأسه هالة نورانية ·

21) قبة الصخرة المقدسة بمدينة القدس ، شيدها الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان عام (72 هـ) 691 ـ 692 م · تعتبر أقدم أثر معمارى باق واحدى روائع الآثار فى العالم الاسلامى ·

22) المسجد الكبير بقرطبة (القرن الثانى الهجرى ـ الثامن الميلادى) ـ ونرى فى الصورة محراب المسجد · وأبرز سمة معمارية فريدة فى هذا المسجد هى طريقة حمل السقف على أعمدة قصيرة وضعت الواحدة فـوق الاخرى · ويسترعى الانتباه كذلك عقوده المفصصة الغنية بالزخارف النباتية ·

23) بهو السباع فى قصر الحمراء ـ عصر بنـو نصر فى غرناطة ـ القـرن الثـامن الهجرى · (755 هـ ـ 1354 م) ـ الرابع عشر الميلادى ·

24) قصر الحمراء بغرناطة ـ القرن الثامن الهجرى ـ تبـين لنـا هذه الصورة دور الخط العربى فى الزخرفة وروعة الزخارف النباتية والهندسية ·

25) محراب مسجد سيدى بومدين ـ تلمسان ـ عصر بن مرين ـ القرن الرابع عشر الميلادى · نلاحظ جمالية ورقة زخارف المحراب النباتية والكتابية ·

26) مدرسة وضريح السلطان قايتباى (القاهرة) القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر الميلادى ـ نرى فيها المئذنة الرشيقة ذات المقرنصات ·
القبة التى تزدان بالزخارف النباتية والهندسية المتشابكة ·

---

(1) نقلنا هذا الوصف عن الاستاذ أحمد أحمد يوسف ـ حلقة بحث الخط العربى ـ ص 90 ·

27) المدخل المقرنص لمدرسة قرة طاى ـ قونية عام 1251 م من العصر السلجوقى ٠

28) واجهة ضريح السلطان قلاوون ـ مصر ـ القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى نرى فى هذه الصورة الشبابيك المخرمة ذات الزخارف النجمية ٠

29) توضح هذه الصورة تفاصيل زخارف مسجد الجمعة من الخارج ـ فى اصفهان ـ القرن 12 ٠ عناصر الزخرفة فى هذا المسجد ـ رسوم نباتية دقيقة ، والخط الكوفى الهندسى ٠ وهى من الخزف القاشانى ٠ ويعتبر هذا المسجد من أجمل المبانى فى ايران.

30) المدخل الرائع لمسجد الشاه عباس باصفهان ـ ايران ـ العصر الصفوى القـرن السابع عشر الميلادى ٠

تتجلى فى هذه الصورة روعة الزخارف الاسلامية كالمقرنصات المكسية بالخزف القاشانى ذى الالوان المتعددة ٠

31) ضريح تاج محل ـ أجرا بالهند ـ القرن السابع عشر الميلادى بنـاه الامبراطور المغولى شاهجيهان لزوجته ممتاز محل ٠ وهو من أفخم العمائر الاسلامية ٠

32) جامع السلطان أحمد الاول باسطنبول ـ القرن الحـادى عشر الهجرى ـ السابع عشر الميلادى ٠

33) جامع السليمية بأدرنة ، العصر العثمانى ـ بناه السلطان سليم الثانى ، القـرن العاشر الهجـرى ـ السادس عشر الميلادى ٠ تبدو فيـه رشاقة المئذنة التركية التـى تشبـه القلـم ٠

34) سقف كنيسة الكابلا بالتينا فى باليرمو ـ صقلية ـ القرن السادس الهجرى ـ ويظهر فيها تأثير الفن الاسلامى ٠

35) مسجد السلطان حسن بالقاهرة ـ القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى ٠

36) زخارف عقد محراب مسجد سيدى بلحسن ، ونلاحظ دقة زخارف التوريق العربى Arabesque المفرغة فى الجص . ويعتبر هذا المحراب من أروع المحاريب فى العالم الاسلامى ، لانه يمثل الذروة فى تطور الزخارف العربية على العمارة ٠

37) افريز من زخارف محراب سيدى بلحسن ، ونـلاحظ اقتران الكتابة العـربية بالزخارف النباتية ٠

38) مئذنة المسجد الكبير بتلمسان ، نلاحظ الزخارف المعمارية المتشابكة ٠

ثـانيا : الاشكـــال :

1) شريط من الخط الكوفى ذو الارضية النباتية · واضح جدا أن المهاد المكون من الفروع النباتية لا تتصل بالحروف · ايران القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى ·

2) افريز من الكتابة النسخية ذات الارضية النباتية ، وهى تكون جزءا مـن زخرفة مدخل السلطان محمد الناصر بن قلاوون · مصر ـ القرن السابع الثامن الهجريين ـ الثالث عشر ـ الرابع عشر الميلاديين ·

3) افريز من العاج ـ يبين جمالية خـط الثلث المملوكى ، المخور فوق أرضية نباتية ـ مصر ـ القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى ـ

4) حشوة خشبية ، من العصر الطولونى ـ مصر ـ القــرن الثالث الهجرى ـ التاسع الميلادى ·

نلاحظ فيها تأثير طرز سامراء الجصية فى الحفر المشطوف ·

5) حيوانان خرافيان متقابلان ـ يعلوهما شريط مـن الكتابـة نصهـا : « السلطان المعظم » ـ ايران ـ القرن الخامس ـ الثامن الهجريين ·

6) الاطباق النجمية ـ وطريقة تكوينها ـ اشتهر هذا النوع مـن الزخارف المعمارية فى مصر ، ثم انتشر منها الى المغرب والاندلس ·

7) اشتهر هذا النـوع مـن الزخارف المعمارية المصفرة فى تزيين المآذن فى المغـرب والاندلس فى العصور الوسطى وهو عبارة عن معينات متشابكة ·

8) حشوة هى جـزء مـن صندوق ـ صناعة ايـران ـ القرن الثامن أو الثانى عشر الهجريين ـ تبين بجلاء الزخارف النباتية القريبة من الطبيعة ، المحفوت على العاج ·

مــــراجـــع البحـــث :

1) أبو صالح الالفى : الفــن الاسلامى أصوله وفلسفته ومدارسه ـ دار المعــارف ـ القاهرة 1965 ـ الخط العربى ووظيفته فى الفنون الاخرى ـ حلقــة بحــث الخط العربى ـ دار المعارف ـ القاهرة 1968 ·

2) أحمد أحمد يوسف : الخط العربى وأساليبه فى الحياة العامة ـ حلقة بحث الخط العــربى ·

3) بشرفارس : سر الزخرفة الاسلامية ـ القاهرة 1952 ·

4) حسن الباشا : فــن التصوير الاسلامى فى مصر ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة 1973 ·

5) حسن الباشا : حلقة بحث الخط العربى ـ دار المعارف ـ القاهرة 1968 ·

6) ديماند : الفنون الزخرفية الاسلامية ـ ترجمة أحمد مـــوسى ـ دار المعــارف ـ القاهرة 1958 ·

7) ريتشارد اتينغهاوزن : فن التصوير عند العرب ـ ترجمة : الدكتور عيسى سلمان والدكتور سليم طه التكريتى ـ وزارة الاعلام ـ بغداد 1973 ·

8) زكى محمد حسن : الفنــون الايرانية فى العصر الاسلامى ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة 1954 ـ زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ـ القاهرة 1935 ·

9) شاخت وبوزوث : تراث الاسلام ـ القسم الثانى ـ ترجمة حسين مؤنس واحسان عباس ـ الكويت 1978 ·

10) علام (نعمت اسماعيل) : فنون الشرق الاوسط من الغزو الاغريقى حتى الفتــح الاسلامى ـ دار المعارف ـ القاهرة 1975 ·

11) فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الاسلامية ـ عصر الولاة ـ المجلد الاول الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ـ القاهرة 1970 ·

12) فريد شافعى : الزخارف التأسية البسيطة فى الفن الاسلامى ·

13) مانويل جوميث مورينو : الفن الاسلامى فى اسبانيا ترجمة : عبد العزيز سالم ولطفى عبد البديع ، دار الكتاب العربى القاهرة 1968 ·

14) مصطفى الحبيب : اقتران الكتــابة بالعمارة ـ رسالــة اليونسكو العدد 199 ـ فبراير 1978 ·

15) المعالم الاثرية فى البلاد العربية ـ الجزء الاول ـ جامعة الدول العربية ـ الادارة الثقافية ـ القاهرة 1970 ·

(16) ARNOLD (Th.) : Painting in Islalm, Oxford, 1928.
(17) CAREL DURY (J.) : Art of Islam, New-York, 1970.
(18) CRESWEL (K.A.C.) : Early Muslim Architecture, t. 1.
(19) DAVID (J.) : Islamic Art an Introduction, London, 1974.
(20) GLUCK et DIEZ : Die Kunst des Islam, Berlin, 1925.
(21) GRABAR (O.) : Studies in medieval Islamic Art, London, 1976.
(22) MARÇAIS (G.) : L'Art Musulman, Paris, 1962.
(23) MARÇAIS (G.) : L'Art Musulman d'Espagne - Hespéris Fase II, t. XXII, 1936.
(24) MIGEON (G.) : Manuel d'Art Musulman, t. 1, Paris, 1907.
(25) MIGEON (G.) : Les Arts Musulmans, Paris, 1926.
(26) ROUSSEAU (G.) : L'Art Décoratif Musulman, Paris, 1934.



التجديد والمجددون في الإسلام

الاستاذ عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ - الجزائر -

جاء فى السنه عن ابى هريره رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » ·

أخرجه أبو داود فى الملاحم من سننه، والطبرانى فى الاوسط عن أبى هريرة مرفوعا ، وصححه الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى المعرفة وفى المدخل · وممن نص على صحته من المتأخرين أبو الفضل العراقى والحافظ ابن حجر ، ونقل الحنفى الاتفاق على صحته ·

لقد غدا من البديهيات الضروية وان العالم أصبح اليوم يمر بضروب من التحول والتغيير السريع مما لم يشهد مثلهما من قبل ، حتى ان القارات الواسعة التى كان يعرفها أسلافنا منفصلة عن بعضها صارت اليوم كوحدة متصلة ملتحمة الاجزاء مرتبطة الحلقات بشتى الروابط المختلفة ، ففى حين وجودك فى افريقيا مثلا فانك ترى وتسمع عن مشاهدة بعينى رأسك ما يجرى حدوثه بقارة أخرى تبعد عنك طبيعيا بآلاف من الكيلوميترات ··· بل وحتى ما يجرى فى الاجرام العلوية من تحرك أو اصطكاك يقع فيما بين الاقمار والشموس والكواكب والافلاك التى تبعد عنك بملايين الكيلو ميترات تراه وتشهده فى وقته، وهذا جزء من التغيير المستمر العام الذى نعنيه · وفى كل يوم تطلع عليك فيه الشمس تفاجئك الصحف والنشريات فى العالم أجمع وما يحمله اليك الاثير بطريق الاذاعة والتلفزة من أخبار الابتكارات والاختراعات الجديدة العجيبة الصنع والابداع مما يحملك على تغيير أفكارك وارائك وتعديل معلوماتك فيما كنت تعلمه أو تعتقده مسلما صحيحا · وكثيرا ما تنقلب على نفسك مخطئا ومؤنبا · فتصبح ترى خلاف ما كنت تعتقده من قبل ، وكل هذه الاشياء تدخل فى باب التطور والتغيير الذى حدث ويحدث فى العالم ، وكل هذه الاحداث

تتطلب منك بصفتك مسلما ان تعلم حكم شريعتك فيها ··· ومنها مثلا وجود الانسان على سطح القمر ، فكيف يجرى على نفسه أحكام دينه فى عبادته ؟ ··· الى غير هذا من المحدثات العصرية ··· وهذا مما يبعث على تجديد النظر ومراجعة النصوص على ضوء وضعية العصر الحديث ودرسهما دراسة عميقة لحل مشكلات هذه القضايا المتجددة فى كل لحظة وحين ···

وبما أنك ملزم أيها المسلم بحكم الضرورة على مسايرة عصرك وممارسة أو ملابسة هذا الجديد فكان لزاما عليك أن تعلم رأي الدين فى ذلك ، وأنى لك ذلك وليس لديك نصوص تطبقها على الحادثة الجديدة ؟ ··· فكيف يكون العمل اذا وأنت مضطر للتعامل مع الخلق ؟ ··· فمن هنا نرى وجاهة رأي من أبى ورفض القول بغلق باب الاجتهاد فى الدين ، وقال بفتح الباب على مصراعيه (اجتهادا وتجديدا) لكل من حاز شروط الاجتهاد الشرعية كما هي مقررة مفصلة فى مضانها من كتب علم الاصول ·

فالاسلام كما تنص عليه أصوله الاصيلة من كتاب وسنة هو دين عملى صالح لكل زمان ومكان ونظام مرن اجتماعى خالد فيجب اجراء قوانينه وجميع أحكامه وفق مقتضى روح العصر فى اطار مبادى الشريعة العامة وقواعدها الصحيحة التى تدعو الى مصالح الناس ودفع الحرج عنهم حسب ما نطق به القرآن : **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج** · (المائدة : 6) ، **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** · (البقرة : 185) وما جاء فى السنة من قوله صلى الله عليه وسلم :

« يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » ، فان لنا فى هذا مجالا واسعا ، والوقت قد حان ، لا سيما وان التطور والتغيير قد لحق كل شيء وأصبحت المدارس فى العالم اليوم تعلم الناس الاستقلال فى التفكير للوصول الى معرفة الاشياء والحكم عليها بانفسهم بطريق التجربة والقياس ، فالاوضاع نراها كما تراها يا أخى تتغير وتتطور فى كل حين وآن ·· فهناك دول وحكومات نشأت ، وهناك أمم كانت مستعمرة فاستقلت ، وهناك منظمات وأحزاب سياسية تكونت، وجماعات دولية تأسست ، وهيآت حاكمة استبدت ومذاهب فى العقائد والاجتماع قد بدت ، وقوانين ومعاملات جديدة فشت وتقررت ··· فليس من المعقول أن يبقى الاسلام مكتوف الايدى ينظر الى هذا التطور الشامل لسائر ميادين الحياة كلها بدون أن يتخذ لنفسه موقفا عمليا يثبت فيه وجوده الضرورى كأدات صالحة للسير بهذه الحياة الى النجاة، وانه بحق هو دين التجديد المستمر مع الزمن كيفما كان الحال الى قيام الساعة·

فان فى ضمن الحديث النبوى الورد فى التجديد الامر بالتجديد والحث على ذلك وان كانت صيغته هي من باب صيغة الاخبار بالمغيبات ففيه الى ذلك تشويق

الى الاحراز على هذه المنقبة العظيمة، منقبة التجديد ، وهذا من اعلام النبوة ·

وفى هذا الصدد جاء فى جريدة الاهرام المصرية (1384/9/27 هـ) سؤال طرح على شيخ الازهر ، يقول السائل :

« الى أي حد يمكن تطور الدين تبعا لتطور المجتمع ؟ » فكان الجواب كالتالى :

« ان للدين الاسلامى أحكاما أساسية وأحكاما تبعية وفرعية ، والاحكام الاساسية تبقى ما بقى الزمن ولا يجوز فيها التغيير · أما الاحكام الفرعية أو التبعية فهذه تخضع لما يثبت فى الكتاب والسنة ، واذا لم يوجد فى الكتاب أو السنة نص جاز الاجتهاد والاخذ بما يحقق مصلحة المجتمع » · فمعنى هذا ان المسائل الفقهية ما دامت غير قطعية الدلالة فهي قابلة بحكم الشرع نفسه للتجديد والتغيير ·

وانطلاقا من حديث أبى هريرة هذا أخذ الفقهاء والمؤرخون فى البحث عن المجددين فى الاسلام سلفا وخلفا ، فقالوا انه كان على رأس المائة الاولى من الهجرة عمر بن عبد العزيز ، وعلى رأس المائة الثانية الشافعى ، والثالثة ابن سريج أو الاشعرى ، وذكروا للمائة الرابعة كلا من أبى سهل محمد بن سليمان الصعلوكي والاسفيراينى ـ أو الباقلانى ، والخامسة الغزالى ، والسادسة الفخر الرازى ، والسابعة ابن دقيق العيد ، ··· وهكذا نجدهم يعددون أسماء المجددين على رأس المآت طيلة الاربعة عشر قرنا التى عاشها الاسلام ·

قال بعض شراح هذا الحديث انه لا يلزم أن يكون المبعوث المجدد على رأس المائة رجلا واحدا ، بل قد يتعدد المجددون فى القرن الواحد ، فيكون كل واحد منهم مجددا فى ناحية من نواحى هذا الدين ، بحيث يكون كل واحد منهم عاملا فى ميدان خاص من ميادين الحياة العلمية والعملية والدينية ، فان كلمة (من) هنا فى الحديث هي للجمع لا للمفرد كما قال الذهبى ، فكل واحد ينفع بغير ما ينفع به الآخر ، وأقول بأن حمل تأويل هذا الحديث على هذا الوجه هو أولى وأشبه بالحكمة والمعقولية ، ولهذا نرى بعضهم يختلف مع غيره فى ذكر أسماء المجددين وعددهم فى كل قرن ، فمنهم من يضيف أسماء بعض الخلفاء الممتازين كعمر بن عبد العزيز، وهارون الرشيد ، والخليفة المسترشد ، والمقتدر ، والقادر ، والمأمون وغيرهم ··· وفى هذا اشارة منهم الى أن الغرض من وجود المجدد هو حدوث جماعة من كبار المشهورين على رأس كل مائة سنة يجددون للناس دينهم ويحفظونه عليهم فى أقطار الارض ، وهذا يرجع الى اختلاف أنظار العلماء فى نوعية التجديد والمجددين ·

وقد يوجد المجدد فى أكثر من مائة سنة وقد يكون فى أقل من ذلك ، فليس

من الضرورى تحديد المائة بالوزن أو الكيل ، أو تكون المائة سنة هجرية أو غيرها، وانما فائدة الحديث بيان الفكرة، والفكرة فى حد ذاتها وجيهة ، لان التشريع دائما يتغير بتغير الزمان والمكان واختلاف العادات والعرف والتقاليد ... فعن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال : ما كان منذ كانت الدنيا رأس مائة سنة الا كان عند رأس المائة أمر .

ولا يخفى كيف تطورت أفكار أصحاب المذاهب الكلامية ، وقل مثل ذلك فى الفقه ، فان لنا فى علم الفقه أمثلة كثيرة من هذا النوع ، فقد قال الفقهاء قديما فى باب الخيار : انه يسقط حق الخيار للشخص ـ المكارى أو المشترى اذا رأى غرفة واحدة فى البيت ، لان الغرف كانت متشابهة فى الشكل ، وبعد ذلك اختلفت البيوت والمنازل كما اختلفت الحجر والغرف فيها ، فأصبح لا يسقط حق الرجل فى خيار الرؤية الا اذا رأى الغرف كلها لاختلاف هندسة الغرف وتغير فن المعمار .

وكما يروى عن أبى حنيفة انه كان يقول : من غصب ثوبا وصبغه أسود فقد قلل من قيمته ، وكان أبو يوسف يقول : من غصب ثوبا وصبغه أسود فقد زاد قيمته ، والسبب فى ذلك اختلاف الزمان والبيئة ، لان الدولة العباسية اتخذت السواد شعارا رسميا لها ، وكان من خالفها يبيض ، أي يلبس البياض فارتفع بذلك سعر الملون باللون الاسود، والعلة عندهم كما يقولون تدور مع المعلول وجودا وعدما .

وهذا الامام الشافعى نفسه له مذهبان مذهب قديم لما كان فى العراق ، ومذهب جديد لما حضر الى مصر، وما ذلك الا لاختلاف البيئة بين العراق ومصر، فبيئة العراق غير بيئة مصر، وهكذا ... وهذه فى الاحكام بشروطه ...

ونظرا الى هذا التغيير المستمر فى الحياة وجب أن نأخذ فى التشريع الجديد بنظام التجديد السليم، ذلك التجديد الذى يحقق لنا العدالة الحقة ويتحقق معه ما جاءت به الشريعة الاسلامية من مباد سامية وأغراض نبيلة .

وقد لقيت فكرة التجديد هذه عند القدماء عناية كبرى ، فاهتم بها كبار العلماء فألفوا فيها كتبا نفيسة ومنظومات مفيدة كما نظمت متون العلوم ، فكان منها كتاب (التنبئة ، بمن يبعثه الله على رأس كل مائة) للجلال السيوطى ، كما ان له نظما فى الموضوع تحت اسم (تحفة المهتدين فى بيان أسماء المجددين) وعلى هذا النظم شرح للمراغى الجرجاوى أسماه (بغية المقتدين ومنحة المجددين على تحفة المهتدين) . وقبلهما وضع الحافظ ابن حجر كتابه (الفوائد الجمة، فى من يجدد الدين لهذه الامة) . وفيها يجد القارىء والباحث ذكر أسماء المجددين على رأس المآت خلال هذه القرون الاربعة عشر التى عاشها الاسلام .

وإذن فان فكرة التجديد هذه هي فكرة قديمة اختمرت فى أذهان العلماء منذ عصر مبكر يرتقى الى زمن خير القرون وهي فكرة تحقق لنا ما أراده الاسلام لنفسه من عالميته وشموله وخلوده وصلاحيته لكل زمان ومكان ·

وبعد · فماذا يراد من معنى التجديد فى الدين ؟ ···

لقد وضع العلماء لتعريف التجديد بمعناه العام جدا فقالوا : هو مرونة العقل لاحلال الاوضاع الجديدة محل الاوضاع القديمة ، أو هو تعديل القديم ليتفق والجديد · اما فى حدود معناه الاصطلاحى الشرعى ـ وهو الذى نقصده فى مقالنا هذا ، فهو احياء السنة واماتة البدعة · وقالوا فى تعريفهم للمجدد : هو الذى يذب عن السنن وينفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب ، ويعلم الناس أمر دينهم فيحيى ما اندرس ، فالتجديد عندهم حينئذ هو الرجوع الى المعين الاول للاستقاء منه ، وهذا يعلم من تتبع تراجم وأخبار المذكورين فى تعداد المجددين وسيرهم ···

وبهذا الاعتبار يجوز لنا أن نضع الى جانب التجديد أو نقول هو من قبيل التجديد، هذه الحركة الاصلاحية الحديثة التى نادى بها ولي الله الدهلوى (1176هـ) فى الهند، ومحمد بن عبد الوهاب (1202هـ) بالحجاز والسلطان المولى سليمان بن محمد بالمغرب الاقصى (1148 هـ) · والشيخ اسماعيل التميمى (1248 هـ) بتونس ، ومحمد بن على السنوسى الجزائرى (1276 هـ) ، وجمال الدين الافغانى (1315 هـ) بالمشرق ، ومحمد عبده (1323 هـ) بمصر ، وعبد الحميد ابن باديس (1359 هـ) بالجزائر ، ويدخل فى مفهوم معنى التجديد مثلا ما قام به الشيخ المراغى (1364هـ) من العمل فى ميدان اصلاح الاسرة وغيرها بمصر ،·· فكل هذا يدخل ضمن مشمول معنى التجديد فى الدين الذى أشار اليه الحديث النبوى الشريف ··· كما ينطبق اسم المجددين على هؤلاء فى العصر الحديث ·

فالتجديد هو كما نرى يحقق لنا استمرار حيوية الاسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان ، ومسايرته للتقدم والرقي على مر الملوان ، فالى التجديد الى التجديد أيتها النخبة الرشيدة ، ولا سيما فى فروع المعاملات المبنية على مصالح كانت تليق بزمن مضي ولا توافق الزمن الحاضر ، فدينكم دين الفطرة ، ومن معانى الفطرة الخلق والابتداع والاختراع ، وان فيما وضعه لنا العلماء من القواعد العامة الهامة فى التشريع مثل النظر فى المصالح المرسلة ، **وفى القياس ، والنظر الى العرف والاستحسان والاستصحاب، وقاعدة الحضر والاباحة،** وأحكام الضرورة ، وقولهم ما ضاق شىء الا واتسع ، كما يقول الشافعى ، الى ما هنالك من مواقف للشريعة جاء فيها فتح باب الذرائع لا سده ـ وذلك نظرا لما يترتب على سده من الضرر

وعلى فتحه من النفع ، وحيثما كانت المصلحة فيما لا يعارض النص أو تعاليم الاسلام ومباديه العامة فثم حكم الله ، **فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه** (البقرة ، 173) الخ ··· ففى هذا متسع رحب ومجال فسيح للتجديد ، فلنسر على ضوء هذه المبادى الاسلامية السامية حتى لا نضطر الى استعارة أو استيراد قوانين وأحكاما أجنبية عنا ودخيلة على ديننا فنعود بها الى الخضوع الى سيطرة الاستعمار بأنفسنا ، **ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة** ، وفى ذلك اعراض منا عن الشريعة الاسلامية والفقه الاسلامى الثرى ، **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** · (النساء ، 65) ويكفى لمعرفة ما للتشريع الاسلامى من منزلة رفيعة وفضل عظيم على قوانين وشرائع العالم أجمع ان نسمع لقول حجة الفقه المقارن وعمدة علم الحقوق بأوروبا فى العصر الحاضر، وهو الاستاذ (ادوار لامبير) حيث يقول لتلامذته :

« ان لديكم فى الفقه الاسلامى كنزا مخبوءا ينتظر من يجلوه لعالمنا المعاصر ليهتدى بهديه ، ويسترشد بمنطقه فى الحيرة المدلهمة التى أعجزت عالمنا الآن على التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وصرفته عن التوفيق الحكيم بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع » ·

ومليحة شهدت لها ضراتها
والفضل ما شهدت به الاعداء

وانتهز هذه الفرصة لالفت نظر أولى الامر منا، (هنا عندنا فى الجزائر) الى انه لم يبق لنا من أحكام شريعتنا الاسلامية الغراء داخلا فى حيز التطبيق الا مسائل طفيفة من أحكام الاحوال الشخصية ، أو ما يعبر عنه بقانون الاسرة ـ ولا حول ولا قوة الا بالله ··· **وانا لله وانا اليه راجعون** ! ··· فالله الله فى بقية الباقية فلا تتركوها لتعبث بها يد التخريب والتشويه ، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته · (**وقفوهم انهم مسؤولون**) الصافات آية 24 ·

كما أغتنم ثانيا هذه الفرصة السعيدة لاقدم لاخوانى فى الانسانية عامة بما فيهم من مسلمين وغيرهم أجمل وأبرك التهانى الحارة بمناسبة حلول هذا القرن الخامس عشر الهجرى ، ألهمنا الله فيه الى الرشد والصواب ووفقنا الى ما فيه الخير والصلاح :



نحو منهج إسلامي أفضل

د. عبد الرزاق قسوم
أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

تقف الانسانية المؤمنة اليوم « وقفة خاصة » مع اطلالة العام الهجرى الجديد، الذى يمثل بداية أفق أو سع وأشمل ، على امتداد مائة عام، انه القرن الخامس عشر .

ومع بزوغ هذا اليوم الخالد فى تاريخ الانسانية كلها – ولا أقول المسلمين وحدهم – مع هذا اليوم ، تطوى صفحة قديمة ، وتبدأ صفحة جديدة ، بيضاء . نأمل أن تكون صفحة يمن وسعادة ، وتحقيق آمال وأمانى الامة الاسلامية، والانسانية جمعاء ان شاء الله .

ومع استقبال البشرية لهذه الصفحة الجديدة ، فى سجل الكون ، تقف أمتنا وقفة كلها أمل ، وتفاؤل ، واصرار على العمل بالرغم من كثبان الجليد المتراكمة، ومن جحافل السحب المتراصة .

واذا كانت الصفحة المطوية بالامس تمثل كتابا كاملا ، بل سجلا عظيما يحتوى على مائة سنة من الاحداث . فان من المنطقى أن تصاحب عملية طي **هذا الكتاب ، محاولة لتقييم هذه الحقبة الطويلة فى حياة الانسان ، الحاسمة فى حياة الشعوب .**

وان القيام بمحاولة التقييم هذه، لهي عملية تفرضها تكنولوجية العصر الذى نعيشه ، والتقدم العلمى الذى نحياه .

فبدون مراجعة الخطوات المقطوعة ، والمسافة الطويلة التى خطوناها لا نستطيع أن نقبل على كتابة الصفحة الجديدة من سجل الكون النقي ، بما تتطلبه من عناية ، واهتمام وتجاوز للسلبيات ، وتصحيح للاخطاء .

من هذا المنطق العلمى ، والواقعى، أبدأ هذه المحاولة وهي محاولة تأمل واقعنا الاسلامى المعاش ، فى ضوء تجربتنا السابقة والتخطيط للعمل المستقبلى ، من أجل تكوين وبناء المجتمع الاسلامى الافضل، ان شاء الله، تحقيقا للآية السمحة . « **كنتم خير أمة أخرجت للناس** » . الآية (1) .

(1) آل عمران ، السورة 3 ، الآية 110 .

على أن مثل هــذه المحاولــة تتطلب ولا شك ، الشجاعة الادبية ، والموضوعية العلمية ، فى تشخيص الداء ، وتقديــم ما يبدو لنا أنه الدواء وأعتقــــد أن تشخيص الداء يمثل نصف الدواء كما يقول الفلاسفة ، وعلماء النفس والاطباء بالـــذات ·

بهذا يمكن أن نقوم بعملية « تقييـــم آفاق » تبدأ بتقييم العمل السابق، وتحديد آفاق العمل المستقبلى للامة الاسلامية ·

ولابد لكل تقييم من أن تصاحبه عملية مراجعة للاخطاء ولنتفق على تسميتها بالسلبيات ، فالشـــجاعة النفسيــة ، والموضوعية التاريخية تقتضى منا أن نسلم بوجود سلبيات فى عملنا الاسلامى السابق ، ولاستئصال جذور هـــذه السلبيات يجب أن نلح على عوامـــل نشأتها ليمكن تجاوزها ، وتفاديها فى عملنا المستقبلى ان شاء الله ·

ما هي اذن خصائص العمل الاسلامى من خـــلال القــرن المــاضى ؟ ما هي السلبيات التى طبعته ؟ وما هي أيضــا الايجابيات ؟ كيف نستطيع العمل عــلى تفادى هذه السلبيات لضمان خطة عمل سليمة فى نطاق المبادىء الاسلاميـــة السمحة ؟

ان من يتأمل واقع المسلمين خـــلال المائة عام التى طوينا بالامس القريـــب آخر صفحاتها ، يلمس سلسلة مـــن الاحداث ، والوقائع الهامة المتداخلة ، والمتلاحقة ، ألقت بظلها على حياة الامة الاسلامية ، فأثرت فى نتائج عملهــا ، وانعكست بالتالى على العمل العقائدى والاخلاقى ، والثقافى ، والاجتماعى ، والاقتصادى ، والسياسى · وفى هذا كله تكمن الاجابة على الاسئلة المطروحة ·

واذا كنت لا أستطيع ان أقدم هنــا فى صفحات قليلة حصيلة مائة سنة من الاحداث ، فلا أقل من أن أحاول وضع خطوط عامة لهذه الاحداث ، أو تقديم أمثلة وعينات ، ونماذج مـــن كبريات الاحداث ، التى ترسم الطابع الاساسى لخصائص القرن الهجرى المنقرض ·
وسنلاحظ ان أولى الاحداث التى تطفو على سطح الحياة فى واقعنا الاسلامى من خلال هذه الفترة ـ انما هي أحداث لسلبيتها وخطورتها قد أحدثت فى الجسم العربى والاسلامى فجوات ، وندوبــا ، وجراحا ، ما تزال بصماتها واضحـــة على الجسم العربى حتى اليوم ·

الفـــراغ العقــائدى

لعل أكبر مصيبة نكب بها العالــــم الاسلامى فى القرن المنصرم ، هي أن أجيالنا الفتية فيه ، قد فتحت أعينهـــا على هول الفاجعة ، لترى الارض محتلة، والثروات مسلوبة ، والانسان مقيـــد الحركة ، مكمم الفم ، فعرفت أنها تقف وجها لوجه أمام أخطبوط ، تزيى بزي عمرانى ، خداع واصفا نفسه بأنـــه « استعمار » ولعمرى انها من الكلمات المظلومة التى صاحبت عملية القرصنة والاحتلال والنهب ، والغزو ، الـــتى

حملها الانسان الابيض الى عالمنا الاسلامى الآمن المطمئن ٠

وتكاد ظاهرة الاستعمار بكل ما تتضمنه من ويلات تنسحب على معظم أجزاء الامة الاسلامية ، فى كل من آسيا وافريقيا ، وأوروبا ، عاكسة بذلك سلبياتها على كل ناحية من نواحى حياتنا الاقتصادية ، والثقافية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والسياسية ٠

واذا كانت عملية الاحتلال الاجنبى للبلاد الاسلامية قد كانت الظاهرة الخطيرة التى ميزت بداية العلاقات المتوترة بين الانسان الاوروبى والاسلامى، فان من الطبيعى ـ نظرا لتباين الخصائص والمبادىء ، وموازين القوى ـ أن ينتج عن هذه العملية الاستيطانية الظالمة ورود أفكار ، وثقافات، ونوايا تختلف فى جوهرها ، ومنهجها عما ألفه الوطن الاسلامى فأدى ذلك التباين الى فرض انظمة سياسية ، هدفها الاساسى تشديد التبعية من جانب الاقطار الاسلامية ، لهذه الانظمة الواردة مع ما يصاحب ذلك كله من تخطيط لخدمة المصالح الاجنبية ، وتمزيق لوحدة الامة الاسلامية ، كمحاولة أساسية لتسهيل مهمة الاستيطان الاجنبى ، وضمان استدامته ٠

على أن الاستعمار الاجنبى وهو يدنس بأقدامه القذرة أرض الاسلام الطاهرة ، لم يدخل فى زي عسكرى صرف، تدعمه الدبابة والمدفع ، بل انه حمل الى جانب العسكريين الغازيين « خبراء » مدنيين التحفوا بأزياء ثقافية ، وفكرية ، وايديولوجية مختلفة ، جاء هؤلاء الخبراء فى زي المعلم والطبيب ، والقسيس والسيكولوجى ، والمؤرخ ، والمتخصص فى الشؤون الاهلية، هؤلاء كلهم يحملون « الخبرة » و « المعرفة » ٠

فتفنن الجميع متعاونين ٠ عسكريين ومدنيين ، فى تقديم مختلف أنماط الحلول ، من أحلاف دفاعية ، وبرامج ثقافية ومخططات اقتصادية ، ومذاهب سياسية وايديولوجية ، مما أحدث لدى أبناء الامة الاسلامية ـ تحت وطأة الفقر ، والجهل ، والمرض ـ نوعا من الفراغ الثقافى والعقائدى ٠

وهكذا تغلغلت فى نفوس وعقول الاجيال الاسلامية الصاعدة ، هذه السموم ٠ فأصبحت هذه الاجيال فريسة صراع فكرى أحدثته التيارات السياسية والعقائدية الواردة فكان ما كان من تيار يمينى محافظ يعمل جاهدا على تعزيز قبضة الاحتلال ، والهيمنة الاستعمارية ، وبالمقابل تولد تيار يسارى معاد كبارقة أمل فى الخلاص من الاحتلال ، والتخلف الناجم عن هذا الاحتلال ٠

وقد نتج عن تصادم التيارين ـ على أرض الاسلام ـ أن ولدت شعارات براقة تنادى بالخلاص من الاستعمار ، وتعمل لبناء المجتمع الاشتراكى الذى تسوده الكفاية والعدل ، والحرية ، ونبذ الاخلاق ٠

ويلتفت المسلم فى غمرة هذه الاحداث كلها باحثا عن واقعه الاسلامى ، وعن مقومات شخصيته ، وعن وحدة أمته ، فيهوله أن التصدع قد أصاب كل هذه المقومات ، وان الانسان المسلم قد أصبح كل شيء الا أن يكون مسلما حقيقيا ·

ولعل من نتائج هذا التصدع الذى مني به تفكير الانسان المسلم المعاصر، **أنه قد فقد أهم خصائص مقوماته، وهي : صدق الارادة ، وصلابة الموقف ، والايمان بالمعتقد ··**

والمستعرض لتطور الاحداث فى العالم الاسلامى ، والعربى على الخصوص تهزه الهزائم التى مني بها الانسان المسلم فى ساحة المعركة ، بالرغم من القوة البشرية والعتادية التى يتوفر عليها الجيش الاسلامى ، فى مواجهة قوة قليلة العدد ، وربما العتاد أيضا · وتكاد قضية فلسطين تبرز كمحك رئيسى لصدق هذه الجدلية ، بالرغم من صراحة الآية : **ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ··· » الآية (1) ·

ان الجيش الاسلامى دخل مع العدو الصهيونى فى معارك ثلاثة حاسمة . دخل فى 1948 وخرج يجر أذيال الهزيمة، والنكبة ، وضاعت الارض ، مع ملاحظة أن القيادة فى هذه المرة كانت قيادة يمينية ، بورجوازية ، محافظة ·

وبعد عشرين عاما من الاعداد ، والاستعداد ، وبعد محاولة استخلاص العبرة من الهزيمة السابقة ، ومن سوء القيادة المهزومة ، وبعد مجيء قيادة عربية ثورية الى الحكم ··· دخل الجيش المسلم الى المعركة عام 1967 ، تسبقه ألوية وشعارات النصر ، ويدعمه حماس الجماهير المتعطشة الى الثار والنصر « **فما أغنى عنهم سمعهم ، ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء** ·· » الآية (2) ·

وانسحب الجيش المسلم من المعركة شر انسحاب ، يجر أذيال الهزيمة والانكسار ، ويبشر بضياع مزيد من الارض ··· ولم تجد القيادة الثورية التقدمية ، اليسارية ··· وهكذا ضاعت الارض وضاعت فلسطين بين اليمين واليسار الاسلاميين ·

التضليل باسم الدين

فى أعقاب هزائمنا المتكررة المتوالية، ونحن ما زلنا نحاول النهوض من كبواتنا، ومرارة سقوطنا، ظهرت الى الوجود فى سماء جزء من وطننا العربى الاسلامى، شعارات جديدة ظاهرها فيه الرحمة ، ولكن باطنها من قبله العذاب ، من هذه الشعارات شعار « دولة العلم والايمان » وشعار « الرئيس المؤمن محمد أنور السادات » وغيرها من الشعارات ·

---

(1) الانفال : السورة (8) الآية 66 ·

(2) الاحقاف : السورة (46) الآية 25 ·

وتحت حماس هذه الشعارات خضنا معركة جديدة هي معركة رمضان · وكنا جميعا ونحن نستقبل طلائع المعركة ، واثقين من أن النصر هذه المرة سيكون حليفنا ، لان هذه المعركة الفاصلة ، ستمكننا بعد أن استفدنا من دروس الهزائم المتكررة ، ستمكننا من استعادة الارض السليبة ، والثأر للشرف المهان ··

وللحقيقة التاريخية ، ان الجيش المسلم قد دخل المعركة يحدوه الامل فى النصر ، ولقد كان الجيش قاب قوسين أو أدنى من النصر ، ولكن القيادة « المؤمنة » لم تكن مؤمنة بالنصر فحولت النصر الى هزيمة ، وها نحن نعيش اليوم مضاعفات هزيمة حرب رمضان ·· وكانت زيارة القدس ، وجولات التزاور والتصالح والتفاهم على حساب المبدا والشرف والقضية ·

وتتابع التضليل باسم الدين، فكانت مسرحية رفع المصاحف فى المغرب فى ما يسمى بالمسيرة الخضراء تضليلا للجماهير المسلمة المسحوقة المغلوبة على أمرها ، فى محاولة لخداعها وتلهيتها عن واقعها المر المؤلم ·

وفى شرق العالم الاسلامى كانت هناك فصول أخرى من مسرحية التضليل باسم الدين ·· فكان امبراطور ايران « المسلم » وشاهها المخلوع ، يقوم بحرب ابادة وتعذيب وتنكيل ضد الشعب المسلم الشقيق فى ايران وما ذلك الا أنهم رفضوا هناك الظلم والطغيان، وطالبوا بالاحتكام الى كتاب الله ، وسقط الآلاف من الشهداء المسلمين وقودا للثورة الاسلامية التى كانت تتوثب للزحف ، والنصر ·

وازداد تمزق العالم الاسلامى تحت ضربات القيادات المنحرفة والمضللة باسم الدين · ففى مصر الازهر والحسين، وقع « الرئيس المؤمن » باسم « دولة العلم والايمان » اتفاقية « الصلح » مع العدو الاسرائيلى فى كامب ديفيد ، على حساب المبدا والشرف والقضية ·· وليت القضية التضليلية انتهت عند « الرئيس المؤمن » لقلنا انها محنة قيادات ، ولكن أعلام الامة الاسلامية ، أي علماءها فى الازهر خرجوا على المسلمين بفتوى غريبة ، يعلنون فيها للناس باسم الدين ان « اتفاقية كامب ديفيد » هي بمثابة « صلح الحديبية » الذى عقده الرسول عليه السلام مع كفار مكة ·

ان النتيجة التى يمكن استخلاصها من هذه المظاهر السلبية كلها التى طفت على سطح الامة الاسلامية خلال القرن المدبر ، هي اننا قيادات وشعوبا قد تخلينا عن اسلامية المعركة ، فكنا ندخل هذه المعارك ، فاقدى الارادة ، معصوبى البصيرة ، مسلحين بمختلف أنواع الاسلحة ، الا سلاح الايمان ، الايمان بالله والايمان بالنصر والقضية· ذلك ان المعارك كانت اما اقليمية أو قومية ، ولكنها لم تكن أبدا اسلامية وهذا عامل حاسم فى المعركة ·

انتصار باسم الاسلام

قد نظلم التاريخ لو أننا اكتفينا بسرد أمثلة من سلبيات واقع المسلمين ، فى حين ان لتاريخ الامة الاسلامية ايجابيات تفرض نفسها على المحلل التاريخى · ولعل من أهم أحداث المد الاسلامى التى شهدها القرن الهجرى الماضى ما يلى :

1 ـ استعادة معظم أجزاء الوطن الاسلامى التى كانت خاضعة للحكم الفرنسى أو الانجليزى أو الهولاندى أو الايطالى ، استعادتها للاستقلال والسيادة، وهو ما مكن أيضا من استعادة الموارد الطبيعية ، والامكانيات الاقتصادية الهائلة التى يتوفر عليها العالم الاسلامى وهكذا تحولت الدول الاسلامية التى كانت لا فى العير ولا فى النفير ، تحولت الى قوة اقتصادية يحسب لها كل حساب فى واقع الاقتصاد العالمى ·

2 ـ انفجرت فى العالم الاسلامى ثورات كبرى غيرت مختلف المفاهيم الثورية والسياسية والعقائدية ، وكانت **هذه الثورات تحمل شعار الايمان والاسلام فجاهدت بالاسلام وانتصرت بـه ·**

من هذه الثورات ثورة الجزائر العظيمة ، التى كنا فيها مجاهدين ، ولم نكن مجرد مناضلين أو مكافحين · وكان شعار « الله أكبر » هو الذى يعلو ولا يعلى عليه · كما ان اخواننا الذين يسقطون فى المعركة لم يكونوا أمواتا فحسب ، بل كانوا شهداء ، وكان ذلك علامة مميزة من علامات ثورة الجزائر التى انتصرت بفضل الايمان ، رغم ضعف العدة والعدد ·

ومنذ وقت غير قريب ، عادت التجربة الاسلامية من جديد ، تلقى درسا آخر على البشرية فى الايمان والصمود ، والنصر ، فقد تعزز منذ أقل من سنة ، انتصار المسلمين أيضا ، بثورة ايران العملاقة ، تلك الثورة الاسلامية التى قادها الشعب الايرانى المسلم تحت علم « آية الله » « ولا اله الا الله » · انتصرت الثورة الايرانية لانها كانت ثورة اسلامية ، تجاهد تحت لواء الاسلام واهب الارادة والحماس والثورة لمعتنقيه ·· وفى هذا خير جواب لمن يزعم ان الاسلام دين يصد ذويه عن طريق التقدم · ان هذا الحماس الثورى الذى وهبه الاسلام لذويه فى ايران ، هو الذى حدا بمبعوث الزعيم الكوبى فيدين كاسترو الى آية الله الخمينى ، الى أن يقول : «اذا كان هذا هو الاسلام يمثل هذا الحماس الشعبى ، **وهذه الارادة فى النصر ، فليحيا الاسلام » ·**

ان الاسلام واهب النصر والايمان لمعتنقيه ، قد قام كما يقول الفيلسوف الانجليزى ارنولد توينبى بفضل خاصيتين فيه لسد حاجة المجتمع العربى هما التوحيد فى الدين والنظام فى الدولة ·

ان الاسلام اذن دين ودولة ، وعلى هذه الثنائية يجب أن نقيم خصائص الاسلام ، ومن هذه الزاوية يجب أن ينظر اليه ٠

3 ـ ان انتصار الثورتين الاسلاميتين قد صاحبه أيضا بروز انتصارات أخرى اقتصادية واجتماعية وثقافية ٠ تمثلت على الخصوص فى بروز استراتيجية الموقع الاسلامى من الناحية الاقتصادية بفضل الامكانيات التى سبق أن أشرنا اليها ٠

الى هذا العامل الاقتصادى الهام ، يضاف عامل عقائدى آخر ، وهو ظاهرة عودة الشباب بالذات ، والمثقف منه على الخصوص الى حظيرة الاسلام ، مدفوعا بحماسه الكبير ، تحدوه الرغبة فى العمل الاسلامى ، وهذا فى حد ذاته عامل طمأنينة ، ويمن ، وضمان للمستقبل الاسلامى ٠

وهناك أيضا وعي المسلمين لواقعهم، تحت تأثير التطور الاجتماعى والثقافى والاقتصادى والسياسى الذى شهده المسلمون خلال عشرات السنين الماضية ٠ ان هذا الوعي قد جعل الجميع يدركون حتمية تحسين واقعهم المعاش وفى ذلك بداية ايجاب ، ونصف علاج كما نعتقد ٠

نحو منهج افضل

لعل هذه الحصيلة من السلبيات والايجابيات التى شهدها عالمنا الاسلامى، من شأنها أن تدعو كلها الى الالحاح على أمر بات ضروريا وحتميا وهو اعادة النظر فى المنهج المتبع على صعيد العالم الاسلامى بمنظور تجديدى ، علمى ، واقعى ٠٠ فذلك كله من شأنه أن يدفع بعجلة العمل الاسلامى الى الامام كمساهمة متواضعة فى وضع الخطة ، ورسم معالم الطريق التى نتطلع جميعا الى تعبيدها وتخليصها من كل المخارق والمناظر المؤذية ٠

فما هي ـ فى ضوء ما رأينا من امكانيات العالم الاسلامى اقتصاديا ، واجتماعيا وسياسيا ـ آفاق العمل الاسلامى ؟ وماذا يعنى المنهج الذى تدعو اليه ، ؟

ان تجديد منهج الدعوة الاسلامية الذى نتبناه وندافع عنه وندعو اليه يتمثل فى عدة عناصر ، لعل أبرزها فى نظرنا ما يلى :

1 ـ العناية بالانسان ٠

ان مما لا جدال فيه ان الانسان الذى نتوجه اليه بالدعوة اليوم ، قد تغير فى كل مظاهر حياته عما كان عليه منذ قرن ٠ ومثل هذا التطور فى عقلية المعنى بالدعوة الاسلامية ، يتطلب ولا شك العناية بالداعى فى أسلوبه ومنهجه ٠ ذلك ان الدعوة الاسلامية الجديدة ، يجب أن أن تساير عصر التكنولوجيا ، وعقلية القرن الخامس عشر ٠

2 ـ احياء رسالة المسجد :

يلعب المسجد دورا هاما فى تبليغ الدعوة الاسلامية بحكم ارتباطه بالمجتمع ارتباطا وثيقا ٠ ذلك ان المسجد هو مركز هداية ، واشعاع واصلاح فهو جامع

للعبادة ، ومدرسة للثقافة ، ومعهد للتربية ، وندوة للتعارف ، وبرلمان للتشاور ومكتبة للمطالعة ٠٠٠

3 ـ الدعوة بأفضل الدعاة :

اذا كانت عقلية الانسان المدعوة للايمان قد تطورت واذا كان المسجد كمكان لهذه الدعوة قد اتسعت رسالته، فان من الضروري والحالة هذه أن يصاحب ذلك أيضا تجديد فى اختيار الدعاة ، وذلك بتكليف أحسن العناصر وأنشطها للقيام بهذه المهمة ٠ فمهمة الوعظ ، والخطابة والتدريس فى المساجد تتطلب اعطاء هؤلاء الدعاة حرية التعبير عن حقائق الاسلام ، والتصدى لاباطيل خصومه ومكائد أعدائه ٠٠ وذلك كله يتطلب أسلوب الحوار والمناقشة، وهو ما تفتقر اليه الدعوة الاسلامية فى كثير من بقاعها ٠

4 ـ العناية بالتربية الاسلامية لدى الناشئة الاسلامية فى جميع مراحل تعليمها وتكوينها ، ففى ذلك خدمة للمجتمع والدين والانسانية ٠

هذه اذن انطباعات مسلم غداة اطلالة أولى خيوط فجر العام الهجرى الجديد ـ نسوقها للذكرى ونأمل أن تكون مساهمة متواضعة فى تحليل واقع الاسلام والمسلمين اليوم، خدمة للعقيدة ، وانقاذا للمسلمين من زيغ المادة والالحاد والضلال ، وانقاذا له أيضا من هوة السقوط فى العاطفيات السلبية ، والدوغماتيقية المشينة ، والجدلية العقيمة ٠٠

ورحم الله محمد عبده حين قال :

ولست أبالى أن يقال محمد
أبل أم اكتضت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه
مخافة أن تقضى عليه العمائم

من قواعد البناء لمنهج العمل في القرن الخامس عشر

د. أنور الجندي
عضو المجلس الأعلى للشؤون الدينية
(مصر)

ثلاثة عناصر تحتاج اليها الامة الاسلامية لتستوعبها وتضعها موضع التنفيذ اذا أرادت أن تحقق وجودها فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى :

أولا : امتلاك ارادة العودة الى « أسلوب العيش الاسلامى » والتحرر تماما من أسلوب العيش الغربى الذى يدفعها الآن دفعا الى الدخول فى مرحلة الترف والانهيار الاجتماعى تبعا للدور الخطير الذي تمر به الحضارة الغربية المنهارة والتى تعانى اليوم أزمتها القاتلة ٠

ولقد كان المسلمون على مدى عصور النهضة والقوة لا يرون للترف ولا للمادة ولا لهوى النفس أو الترخص فى الامور والتراجع عن العزائم منطلقا فى حياتهم ٠

فهم يأخذون الامور من تقاليد القوة والجرأة والاعتماد على الله تبارك وتعالى ولا يخافون فى الحق لومة لائم ويؤمنون بأن الموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم وان الفناء فى الحق هو عين البقاء وان من يحرص على الموت توهب له الحياة ومن هذا المنطلق القوي الجرىء دانت لهم القارات والممالك ٠

وكان العدل الذى أقاموه هو المنطلق الذى دفع الناس الى الدخول فى دين الله أفواجا ٠

وما اعتقد ان أسلوب العيش الغربى الذى فرضه النفوذ الاجنبى على بلاد المسلمين وأعانت عليه مقتبسات قشور الحضارة فى الترف والدعة والتراخى سواء فى الطعام أو الملبس أو المركب أو أدوات التسلى الا عاملا من عوامل انهيار العزائم والخوف من الاخطار والدعة والتسليم بالواقع الضعيف والقاصر ٠

وما كان للمسلم الذى يؤمن بالله تبارك وتعالى أن يقبل الضيم أو يسكت عن الظلم أو يذهب مذهب التراخى والدعة والنوم وانما هو يقظان أبدا مقيم على ثغرة من ثغرات الاسلام فلا يؤتى من قبله صابرا مرابطا لا تكل أعصابه عن التحمل واليقظة وتوقع الاحداث ولقد كان المسلمون ابان الاحتلال الاجنبى قائمين على الدفاع والكفاح ولكنهم استلانوا واستناموا بعد أن حققوا الاستقلال وغفلوا عن أن عدوهم يدبر لهم ان تنهار قوتهم مرة أخرى بالغرق فى الترف والتراخى وتلك هي أزمة الحضارة الغربية الآن التى أصابتها بالتمزق ولا مخرج منها للمسلمين الا العودة الى الخشونة وملابس الجهاد والمرابطة فى ثغور الاوطان وثغور العقيدة نفسها ٠

ثانيا : القدرة على تحقيق الاصالة الفكرية بالعودة الى المنابع الاسلامية الثرة المستمدة من القرآن والسنة والتحرر من نفوذ الشبهات والسموم والايديولوجيات والمناهج الاجتماعية الغربية التى تحاول أن تقضى على « الذاتية الاسلامية » والطابع الاسلامى القرآنى الواضح الذى شكل به القرآن « الرجل المسلم » ليكون علامة بين الناس ونموذجا خاصا لا ينصهر ، ولا ينماع ولا يسقط فى أتون الاممية أو العالمية لانه مكلف بأن يحمل رسالة الله الحق بالتوحيد والعدل والرحمة والاخاء الانسانى الى البشرية بعد أن فشلت الايديولوجيات والمذاهب « اجتماعية وفردية ولبيرالية واشتراكية ووجودية فى أن تحقق له الطريق الى المجتمع الانسانى الطابع الربانى المصدر ٠

ولقد أوغلت البشرية فى طريق التيه بعيدا عن منهج الله حتى كادت أن تضل السبيل ولم يعد هناك من أمل فى عودتها الى الحق الا ذلك الضوء الضئيل السارى من بقاع أرض التوحيد ليعيدها مرة أخرى الى الحق والهدى ٠

ولكن أهل هذا الضوء ما زالوا فى مطالع القرن الخامس عشر غارقين فى الخلاف متمزقون فرقا ومذاهب لم يتجمعوا تجمع الحذر من الخطر حول وحدة الفكر الاسلامى التى شكلها لهم القرآن الكريم ودعاهم اليها الرسول العظيم ٠

وما تزال قدرتهم على التلقى من النبى العظيم بوصفه النموذج البشرى الامثل تطبيقا لمنهج القرآن ، ما تزال قدرتهم ضعيفة وما تزال ارادتهم عاجزة عن أن يكونوا ربانيين قرآنيين محمديين فى أسلوب الحياة والعيش وفى أسلوب الفكر بعيدا عن كل ما تحاول القوى الاجنبية غزوهم به :

«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ولقد دعانا رسولنا الى أن نخالف أهل الكتاب فى طريق عيشهم وان نلتمس أسلوبا ربانيا قرآنيا ٠

وهذا كله يقتضينا أن نتحرر من الزيف والشبهات والسموم الناقعات الوافدة من الفكر البشرى الذى هو ركام الوثنيات القديم وعلم الاصنام اليونانية والمادية والمجوسية والباطنية وكلها مما يختلف مع منهج التوحيد ·

ثالثا : القدرة على امتلاك المنهج العلمى فى التكنولوجيا والتجريب والمعامل وذلك لاقامة الحضارة الاسلامية القادرة على تحقيق الاسلوب الربانى فى العدالة الشاملة للبشرية كلها وتوزيع الثروة على كل أهل الارض « لكي لا تكون دولة بين الاغنياء منكم »

والمسلمون باجماع الرأي هم صانعو المنهج العلم التجريبى الذى قامت عليه الحضارة المادية الحديثة ولذلك فهم أحق الناس بالتماسه وهو الشيء الوحيد الذى يسمح لهم باستيراده على أن ينتقل الى أفق الفكر الاسلامى ليكون للناس جميعا والى أفق اللغة العربية ليدور فى فلك القرآن والعدل والرحمة والاخاء ·

ولقد جاء الاسلام أولا ومنذ أربعة عشر قرنا بمنهج جامع للحضارة قوامه تحرير العقيدة من الوثنية وتحرير الانسان من عبودية الانسان التى كانت قوامه حضارات الرومان والفرس والفراعنة ثم جاء بشطر الحضارة الآخر وهو « المنهج التجريبى » استمدادا من القرآن : « **قل انظروا ماذا فى السموت والارض** » لاستخراج ما فى باطن الارض وتعميرها واقامة المجتمع الربانى على العدل والرحمة والاخاء الانسانى ثم زاغت حضارة الغرب عن هذا المنهج واعادة الوثنية والعبودية وجعلت مطامحها كلها فى اذلال الانسان للانسان وسيطرة القوي على الضعيف والاستعلاء بالجنس والعنصر وتكديس الثروات فى أيدى الافراد والامم دون بقية البشر ومن ثم حاقت بهذه الحضارات الازمات فانتقلت من الفردية الى الجماعية ومن الرأسمالية الى الاشتراكية دون أن يجديها ذلك نفعا فى تحقيق مطامح البشر واسعادهم ·

ومن ثم فقد كان لزاما على البشرية أن تبحث عن منهج جديد يحقق لها الامن والسلام وليس هذا المنهج غير منهج الاسلام ·

ولما كان على المسلمين أن يقدموا هذا المنهج الربانى الى البشرية واقامة الحجة به عليهم وهم لن يستطيعوا أن يقوموا برسالة التبليغ العالمى لدين الله الحق الا اذا أقاموا هم المجتمع الربانى ولابد من التحرر من هذه المحاذير الخطيرة التى دهمتهم والتى تضعهم الآن فى أغلال التقليد والتبعية للفكر الغربى الوافد سواء فى مجال الفكر أو العقيدة أو المجتمع ولذلك فان القرن الخامس عشر حفى بأن يمكنهم من تحطيم هذا القيد والانطلاق الى أمرين :

أولا : الى تطبيق الاسلام فى مجتمعاتهم ·

ثانيا : الى تبليغ الاسلام الى العالمين ·

الإسلام والنهضة الحديثة

الاستاذ عبود علواش
أستاذ بجامعة الجزائر

لم يكن الاسلام مجرد عقيدة فحسب تعنى بالعلاقة بين الانسان وربه ، وكيف ينبغى أن تكون هذه العلاقة .. بل كان الى جانب ذلك شريعة الهية ترسم الطريق وتضع القوانين لبناء مجتمع يسوده العدل ويرفرف عليه الامن والاطمئنان ، ومن هنا كانت له رسالته الحضارية الهامة التى انتقلت بالمسلمين من حياة قلقة مضطربة تمزقها الاهواء والصراعات . وتتحكم فيها القوة الغاشمة ومنطق البقاء للاقوى الى حياة يمثلها القانون ويسيطر عليها منطق العدل والاخوة والمساواة .

نظر الاسلام الى الانسان نظرة تكريم باعتبار ما ينطوى عليه من طاقات مادية وروحية جبارة وما يشتمل عليه من قدرات واستعدادات تؤهله للسيطرة على الكون واخضاع الطبيعة لصالحه وصالح بنى جنسه فدعاه الى تنمية هذه القدرات بالعلم الدقيق والبحث العميق ، وحثه على امتحان ذلك كله بعقله واستخدامه فى كل ما يحيط به وما يصل اليه من نتائج .

كما رسم له الخطوط العريضة التى تنظم حياته وعلاقاته الاجتماعية انطلاقا من المجتمع الصغير ـ الاسرة ـ الى المجتمع الكبير ، وترك التفاصيل والجزئيات لاجتهاده وتكييفها طبقا للظروف ومقتضيات الاحوال ـ كل ذلك لعمارة الارض وتحسين سبل العيش والحياة ـ وفى كل ذلك كان الاسلام يحرص على الشورى فى القيادة واتخاذ القرار ، والعدالة فى الحكم وتطبيق القانون ، والنزاهة وحسن الاستقامة فى المعاملة والسلوك . وقد أدرك المسلمون الاوائل طبيعة الاسلام ومراميه البعيدة فراحوا يعملون على هديها لوضع اللبنات الاولى لدولة الاسلام العتيدة ، وحضارته الانسانية الشاملة . ولم يستنكف خلفهم من الاستفادة من تجارب الامم والشعوب الاخرى فأخذوا يدرسون ذلك التراث الضخم . ويعملون

على توجيهه وصبغته بالصبغة العربية الاسلامية الجديدة فاثروا بذلك تراثهم وحضارتهم التى استفادت منها الانسانية فوائد كبيرة • وكانت سندا لها عبر نضالها الطويل من أجل الازدهار والتقدم •

ولكن المسلمين فيما بعد مالوا الى حياة الدعة والخمول ، وانفصلوا عن تلك الحياة المليئة بالعمل الجاد والعطاء المستمر ، فخارت قواهم وتعطل ابدأعهم، وزادتهم الصراعات السياسية والفوضى الاجتماعية وكوارث الغزو الاجنبى ضعفا على ضعفهم فاستسلموا لنوم عميق دام ما يقرب من ستة قرون • (I)

الا انه بالرغم من هذه المحن القاسية التى تعرضت لها الامة العربية الاسلامية والاحداث التى نزلت بها فانها لم تستطع القضاء عليها وعلى ما غرسه الاسلام فى نفوسها وما شادته النفوس المؤمنة العاملة بجهدها ودأبها • فقد بقيت تلك الروح الدينية الرباط المقدس الذى يربط بين أبناء هذه الامة المغلوبة على أمرها تلتجىء اليها كلما داهمها خطب فتجد فى كنفها القوة والصمود (2) كما بقيت بعض المؤسسات الاسلامية تؤدى رسالتها فى ضعف الا انها حافظت على تراث هذه الامة من التلاشى والاندثار ومكنت بعض أبنائها من أن يكونوا رسل النهضة والحضارة العربية الاسلامية الحديثة • لقد أدرك بعض رجال العلم والثقافة ممن أنجبتهم تلك المؤسسات ما تتخبط فيه الامة الاسلامية من فقر وجهل وما يسيطر على عقولها من خرافات وشعوذات فاقبلوا يلفتون الانظار الى هذا الواقع المزرى داعين الناس الى الاخذ بأسباب العلم والمعرفة والتمسك بأهداب الدين والرجوع الى منابعه الصافية البعيدة عن الشعوذات والخرافات التى أصبح السواد الاعظم من المسلمين يعتقد أنها من الدين والدين براء منها • (3)

أخذت هذه الافكار تسرى فى المجتمعات الاسلامية بالرغم مما تلاقيه من محاربة الحكام المستبدين ، واتباعهم من رجال الدين الرسميين الا أن الحجر على الافكار الاصلاحية لم يكتب له النجاح • وبدأت آثار هذه الافكار تجد صداها لدى الجماهير وفى كثير من الحركات التى قامت فى مناطق مختلفة من العالم العربى والاسلامى مطالبة بالثورة على الواقع ومحاولة تغييره •

ولعل أهم هذه الحركات جميعا الحركة الوهابية التى قامت فى الحجاز بزعامة ابن عبد الوهاب • لبست هذه الحركة لباس الدين واتخذت منه نقطة انطلاق لتغيير حالة العالم الاسلامى •• فدعت للعودة من جديد الى الدين الاسلامى الصحيح ونبذ ما علق به من أوشاب عصور الضعف والانحطاط وما أضافه اليه بعض الدراويش من أدعياء الدين ، كما دعت الى ما ندب اليه هذا الدين من حب للعلم وحث على

طلبه واستعمال للعقل وتكريمه والتحلى بالاخلاق الرفيعة والخلال الكريمة ٠ وبالجملة كانت الحركة الوهابية عودة الى الدين من جديد ومحاولة الانطلاق منه كما انطلق رواد الاسلام الاول لبناء دولة الاسلام ووضع اساس حضارته ٠ وقد أحدثت هذه الحركة هزة عنيفة فى المجتمع العربى الاسلامى واشرأب الناس الى ما تحمله من مبادىء وأفكار وقيم فتأثر كثير منهم بدعوتها الامر الذى دعا العثمانيين الى الاسراع بمحاصرتها ومحاولة القضاء عليها فى مهدها ، لما تشكل من أخطار على الخلافة العثمانية ذاتها وتعرضها للخطر ٠ (4) الا أن الشعور بالتغيير أضحى حديث الناس، والمطالبة بالاصلاح أصبحت الشغل الشاغل لاحرار الفكر خاصة بعد أن تأكد لهم تحفز الغرب للانقضاض على العالم الاسلامى بغية التهامه ٠

كانت اذا هذه الافكار والدعوات تعمل فى المجتمع الاسلامى وتجد صداها الكبير داخل جماهيره يحدوها الامل فى تغيير واقعها واعادة العزة والسيادة التى حققها الاسلام لها ٠ وذلك قبل أن ترى مدافع نابليون وهي تدك مدن مصر والشام لزرع الخراب والدمار بها وتثبيت دعائم الاستعمار الغربى فيها ٠ ومن هنا يمكن القول بأن هذه الحركات والافكار التى مهدت لها تعد البداية الحقيقية لليقظة الاسلامية ، (5) لا ما يذهب اليه بعضهم من جعل حملة نابليون البداية الحقيقية لعصر النهضة الحديثة ، نظرا لما رافقها من تنظيمات عسكرية وما جهزت به من أسلحة حديثة ، وما صاحبها من علماء وأدباء ثم ما أحدثته فى مصر من مؤسسات وتشريعات لم يكن للمصريين عهد به فكانت هذه الاعمال جميعا الصدمة القوية التى أعادت للمسلمين والعرب وعيهم الحقيقى بواقعهم المتخلف ودفعتهم الى التخلص من هذا الواقع عن طريق تبنى أساليب النهضة الاوروبية فى البناء ٠ (6)

اننا لا ننكر دور النهضة الاوروبية وتأثيرها على النهضة العربية الاسلامية الحديثة ٠ لانه ما من نهضة أو حضارة الا وتأثرت بغيرها من النهضات الانسانية واقتبست منها ، كما اننا لا ننكر دور الحملات العسكرية وتأثيراتها عبر التاريخ ، واستفادة المتصارعين من انجازات بعضها فى مختلف المجالات ولكننا نعتقد أن اعطاء هذا القدر من الدعاية للحملة الفرنسية فى تغيير عقلية الامة ، وسرعة اقبالها على منجزات الحضارة الغربية وتمثلها لها دون أن تتقدمها مرحلة من الوعى والاستعداد لقبول التغيير ـ أمر ينطوى على كثير من المبالغة التى لا يقرها واقع التاريخ ، ولا طبيعة المرحلة التى وقعت فيها هذه الحملة ، والاهداف التى قامت من أجلها ٠

ذلك ان الحملة الفرنسية كانت كغيرها من الحملات الاستعمارية التوسعية وان حاول قائدها لبوس مسوم الرهبان ،

والتظاهر بالروح الانسانية لانقاذ المصريين من ظلم المماليك والاتراك العثمانيين والقضاء على الجهل والاستغلال اللذين كان يعانى منهما المصريون • وما كان لحملة هذه أهدافها أن تكون فاتحة للنهضة أو بادرة خير يمكن للمصريين الاستفادة منها والاستعانة بها للخروج من تخلفهم • ولعل ما قام به نابليون وجنوده من فضائع ومنكرات بعد ثلاثة أشهر فقط من احتلاله لمصر تدل على مدى نواياه (الطيبة) ، لمصر ، ورسالة التمدن التى يحملها اليها •

على أن الحملة من ناحية أخرى لم تستمر طويلا بفضل المقاومة الشعبية لها من جهة والصراع القائم على مناطق النفوذ بين فرنسا وانجلترا من ناحية أخرى الامر الذى لم يمكن هذه الحملة من تثبيت دعائمها وخلق قاعدة صلبة للاستعمار الفرنسى يستطيع بواسطتها احتواء الشعب المصرى ، وتكييفه مع المعطيات الاستعمارية الجديدة وجعل مصر مركزا من مراكز الثقافة الاوروبية الوافدة بحيث تمكن الشعب المصرى من امتلاك أسباب النهضة الاوروبية الحديثة • (7)

وأخيرا فان اعطاء هذه الحملة ذلك الحجم الواسع والدعوى العريضة انكار سافر لامكانيات الامة الذاتية ، واجهاض للحركات والدعوات التى كانت تنادى بضرورة التغيير والاخذ بأسباب التقدم ، وما من شك فى أن الشعور بالتخلف والرغبة الملحة فى الخروج من دائرته يعدان الاساس الحقيقى لظهور أية نهضة ونجاحها • لانهما يدلان على نضج الشعب وتقبله لاي حركة اصلاحية أو ثورة اجتماعية • وذلك ما كان يفتقده العالم الاسلامى قبل ظهور هذه الحركات والدعوات •

ومهما يكن من أمر فقد تمكنت هذه الحركات من فرض كثير من الاصلاحات على الدولة العثمانية ولكن هذه الاخيرة كانت قد بلغت درجة كبيرة من التدهور والفساد لم تمكنها من مواكبة الاحداث والاخذ بأساليب النهضة الحديثة فى بناء النهضة العربية الاسلامية الشاملة الامر الذى أدى الى سقوطها واقتسام ممتلكاتها من قبل الاستعمار الغربى فى منتصف القرن التاسع عشر وبذلك دخل العالم العربى والاسلامى فى مرحلة جديدة من مراحل تطوره ونضاله •

أمام هذا التكالب الاستعمارى ، والتهامه لمناطق عديدة من العالم الاسلامى تحرك شعور الامة الدينى والوطنى من جديد وقامت جماعة من المصلحين تدعو الى جمع الكلمة ووحدة الصفوف لمواجهة الغزو الاستعمارى البشع • وكان هؤلاء المصلحون على درجة كبيرة من الوعي والايمان والالمام بالمعطيات الراهنة ومن ثم كانت دعوتهم تتسم بالنشاط الشامل والوعي الكبير • بحث هؤلاء أسباب ضعف العالم الاسلامى

وتأخره كما حاولوا استجلاء قـــوة الغرب وتقدمه ، ودراسة مختلف الوسائل والطرق لاستعادة أمجاد الامة العربيـة الاسلامية والخروج بها من هذا الضعف المشين ·

كان دعاة الاصلاح فريقين : فريق تمحور حول جمال الدين الافغانى وتبنى آراءه الاصلاحية · وهي آراء تنطلـق مرة أخرى من الديـن واستلهـام روح الماضى مع الاخذ بالتطورات العلميـة الحديثة التى آتت أكلها فى الغـرب · وفريق آخر كان من أولئك الذين أوتـوا نصيبا من الثقافة الاوروبية واحتـك بعض رجاله احتكاكا مباشرا بالمجتمعات الغربية ولمسوا عن كثب حقيقة التطورات الـتى تشهـدهـا تلك المجتـمعـات فحاولوا تقليدها وبنـاء مجتمعهـم المتخلف على غرارها · وقد تطرف بعض من هؤلاء فدعوا الى الانسلاخ من كـل اثر للماضى والارتماء فى أحضان النهضة الاوروبـية وتبـنى مختلف المـبادىء والاسس التى قامت عليها · (8) الا أنه بالرغم من هذا الاختلاف فى المنطلـق وبعض الوسائل فان نقاط الالتقاء بيـن الفريقين كانت أكثر من نقاط الاختلاف ·

لئن دعا الفريق الاول للانطلاق من الدين واستلهام تراث الماضى فلانـه يقدر الدور الذى يلعبه الدين فى بنـاء المجتمعات وتماسكها والحفاظ عـلى وحدتها كما انهم فى دعوتهم هذه لـم ينظروا الى الدين فى صورته التى بلغها ابان عهود الضعف والانحدار · ومـا ألحق به من أفكار وصور لا تتلاءم مع جوهره الاصيل وروحه المتحررة كمـا انهم لم يغمضوا أعينهم على حقيقـة التطورات الغربية والاسباب الكامنـة وراءها ـ وهكذا بعد البحث الدقيـق لاوضاع العالم الاسلامى تمكن هـؤلاء من وضع الايدى عـلى الادواء والعلـل التى كانت السبب فى تقهقره وتخلفـه وجعله فى النهاية لقمة سائغة للغـرب وأطماعـه ·

لقد رأى هؤلاء أن سبب الانتكاسـة التى يعانى منها العالم العربى الاسلامى يكمن فى الاستبداد السياسى والحكـم المطلق الذى يسـخر مقـدرات الامـة لصالحه وصالح الجماعة المحيطة بـه ومن تم نادوا بالعودة الى الشـورى والديموقراطية التى نادى بها الاسلام واحترمها العقلاء كي تتمكن الامة مـن اختيار الرجل المناسب الذى يجسـد آمالها ويحقق مطامحـها واحلامها فى الحرية والعدالة الاجتماعية فلا تستأثر جماعة بخيرات الوطن · وتنعم بحياة الرفاهية بينما تعيش غالبية المواطنين تكابد آلام البؤس وجحيم الشقاء · وقد لاحظ الكواكبى هذه الظاهرة فى المجتمع الشرقى فندد بها وهاجم الحكومات التى تتجاهل هذه المأساة وتعمل على زيادة تعميقها فقال ساخرا منها : « لقد جعل الدين الاسلامى فى أموال الاغنياء حقا معلوما للفقراء ولكن الحكومات الاسلامية قلبت الاوضاع فصارت تأخذ الاموال من الفقراء وتعطيها للاغنياء » · (9)

كما هاجموا تلك الدعوات التى يلوذ بها الحكام المستبدون من أنهم انما يقومون بممارسة سلطتهم بموجب الحق الالهى الذى منح لهم كي يخدروا الجماعة الاسلامية ويحملوها على قبول سياستهم الجائرة وعدم محاربتها لهم ، ولذلك نجد سعيد البستانى يهاجم هذه الدعوى ويؤكد أن « ما رسخ فى عقول الملوك من حق سماوى أعطته لهم العناية الالهية انما هو حق منحته لهم الغلبة ، ، والغلبة لن تكون يوما منحة الهية » · (I0) والاستبداد عدو المعرفة والعلم يعمل بكل امكانياته على بقاء الجماهير أسيرة الجهل حتى يسهل عليه حكمها وبالتالى توجيهها كما يشاء ، دون أن تجد مقاومة أو نقدا لاعماله ، ويوضح الكواكبى حقيقة هذه الظاهرة فيؤكد أن الاستبداد لا يعيش « ما لم تكن الرعية تتخبط فى ظلام الجهل ـ فأخوف ما يخافه المستبدون من العلم أن يعرف الناس حقيقة أن الحرية أفضل » · (II) ومن هنا نادى هؤلاء المصلحون بفتح مجالات التعليم وتمكين أبناء الامة من حقهم المشروع فيه لانه أساس التكوين وصنع المستقبل ولم يقتصروا فى دعوتهم على التعليم النظرى بل دعوا الى ربط ذلك بالعلوم العملية التى بواسطتها يسيطر الانسان على الطبيعة ويستغل طاقاتها ومواردها لتقدم الامة وازدهارها أسوة بما وصل اليه التعليم فى أوروبا وما نجم عنه من اختراعات وابتكارات فى مجال التقنية والتصنيع ·

ولم يقصروا دعوتهم على تعليم الذكور بل دعوا الى العناية بالمرأة وتعليمها واخراجها من ذلك السياج المحكم الذى ضرب حولها لتصبح مجرد أداة للتفريخ والانتاج بعيدة عن واقع العصر ومتطلبات التربية الحديثة للاجيال وضرب هؤلاء المثل للناس بالمرأة المسلمة فى الماضى والاسهامات التى كانت تسهم بها فى صنع الاجيال · وحل كثير من المعضلات التى يواجهها المجتمع وبذلك لم تختلف عن أخيها الرجل الا فى الحدود الطبيعية ، ولكن عصور الظلام أجبرتها على النزول من مكانتها وفرضت عليها أن تكون « رهينة المحبسين » البيت والجهل · وبذلك شلت نصف طاقة المجتمع · وفشلت التربية البيتية فى صنع الجيل الذى يواكب تطورات الحياة ويكون عضوا فاعلا فيها ·

ولم يغمض هؤلاء أعينهم عن الجمود الفكرى الذى استشرى فى الامة بفعل الجهل من جهة وغلق باب الاجتهاد والحجر على العقول من جهة أخرى فحاربوا هذه الظاهرة المشينة ، وأكد جمال الدين الافغانى أن باب الاجتهاد مفتوح أمام من توفرت فيه شرائطه ملفتا نظر المستنيرين الى ما سببه الجمود الفكرى والعكوف على رأي السابقين ـ رغم تغير الظروف ـ من مآسى التأخر

والانحطاط : ودعا الى حرية العقل واستنباط القوانين التى تتلاءم مع المشاكل والظروف الراهنة حتى يتمكن العقل الاسلامى الحديث من الخلق والابداع كما أسهم العقل الاسلامى فى الماضى ·

وكما تنبه المصلحون الى خطورة الاستبداد على العلم والعقل تنبهوا أيضا الى خطره على الاخلاق وهي أجدى الدعائم الاساسية الهامة فى بناء المجتمعات وبقائها ففى ظل الاستبداد يتوارى الصدق · وتنعدم المروءة ، وتقبر الشجاعة ، ويشيع الرياء · يقول الكواكبى واصفا أدواءه الاجتماعية انه : « يرغم الاخيار منهم على الفة الرياء والنفاق ، ويعنى الاشرار على اجراء ما فى نفوسهم آمنين حتى من الانتقاد لان أكثر أعمالهم تبقى مستورة ·يلقى عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة » · (12)

كانت هذه الآراء الاصلاحية بالرغم من تباين اتجاهات بعض أصحابها واختلافهم فى الوسائل البؤرة التى جمعت حولها كثيرا من رجال الثقافة والفكر ، ومكنت من جلب كثير من الانصار والاتباع فى مناطق مختلفة من العالم الاسلامى فاتسع بذلك نطاق الدعوة الاصلاحية وتغلغل فى أوساط الجماهير فازداد وعيها ، وايمانها بحريتها ووحدة مصيرها الامر الذى مكن التلاميذ المتأخرين من استغلال هذا الوعى وتوجيهه لمحاربة الاستبداد والاستعمار والحصول على الاستقلال وارساء دعائم النهضة العربية الاسلامية على أسس من الحرية الحقة التى أصبحت الجماهير هي سيدة مصيرها ، والعدالة الاجتماعية المستنيرة التى تقوم فى ظلها الجماهير باستغلال مواردها الاقتصادية والاستفادة منها فى ايجاد عوامل الرفاهية والتقدم لها ·

وما من شك فان احتكاكها المباشر بالغرب مكنها من الاستفادة الواعية من منجزاته التقنية ومحاولة استخدامها لنموها والخروج من التخلف الذى فرض عليها ، وها هي نتائج تلك الآراء تظهر كواقع ملموس فى حياة هذه الامة وسعيها لامتلاك مختلف أسباب التقدم، ومع مسيرة البناء الحثيثة تبدو لنا مدى قوة تلك الاسس التى وضعها الاسلام وقامت عليها مدنيته · وقدرة تلك الاسس على الاستمرار والفاعلية فى بناء النهضة العربية الاسلامية الحديثة واثرائها ، كما أنها كانت من أهم الاسباب فى المحافظة على شخصية هذه الامة ، وعصمتها من الانفصال عن ماضيها ، وعوامل الذوبان التى تعرضت لها · وفى كل هذا دليل حي على مدى مواكبة الاسلام لمختلف التطورات وقدرته على التفاعل مع كل التيارات الحضارية النافعة ، ومدها بكل وسائل التطور والنماء ·

هــوامش البحـــث :

1 ـ الاسلام بين أمسه وغده : د. محمود قاسم ص 52 ـ 54 الانجلو المصرية ـ القاهـــرة

2 ـ المصدر السابق نفسه ص 160 ـ 162 .

3 ـ المصدر السابق نفسه ص 32 ـ 34 .

4 ـ التاريخ الموحد للامة العربية : د. على حسنى الخربوطلى : ص 197 المطبعة الثقافية ـ القاهرة 1970 .

5 ـ المصدر السابق نفسه ص 210 ـ 211 .

6 ـ د. فيصل السامر : العرب والحضارة الاوروبية : ص 44 ـ 46 منشورات وزارة الاعلام ـ بغداد 1977 .

وانظر أيضا : د. فاروق أبو زيد : عصر التنوير : ص 15 ـ 21 بيروت 1978

7 ـ التاريخ الموحد للامة العربية ص 211 .

8 ـ الاسلام بين أمسه وغده : ص 163 .

9 ـ رواد النهضة الحديثة : محمد الشرقاوى . ص 64 ـ القاهرة 1969 .

10 ـ د. فاروق أبو زيد : عصر التنوير . ص 97 .

11 ـ المصدر السابق نفسه . ص 100 .

12 ـ المصدر السابق نفسه . ص 100 .



العالم الاسلامي بين مواجهة التحدي والخلق الحضاري

الاستاذ عبد اللطيف عبادة
نائب بالمجلس الشعبي الوطني
(الجزائر)

من قوانين العمران العزيزة على ابن خلدون « ان المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » · وساد هذا المنطق الجدلى العالم الاسلامى مدة طويلة من تاريخه المعاصر فتشبه بالغرب فى كيفيات التفكير وكيفيات العمل وفى النظم السياسية · غير أن تعمق الوعي السياسى والايديولوجى جعل العالم الإسلامى يواجه التحدى الغربى الذى لا يجده على الصعيد المادى والسياسى فحسب بل يجده أيضا على الصعيد العقائدى · واذا اقتضت المواجهة شيئا فانما تقتضى خلق وابداع كيفيات تفكير وكيفيات عمل نوعية نابعة من شخصيته وأصالته · ذلك أن حركة المواجهة ليست حركة سلبية بحتة ترفض ما يرد الى العالم الاسلامى من الغرب بل هي تفاعل وأخذ وعطاء ونقد بناء يمهد السبيل الى ايجاد أسلوب حياتى نابع من الشخصية والتاريخ الخاصين بالعالم الاسلامى وهي بالاضافة الى ذلك نقد ذاتى اذ البناء يقتضى تقوية الامكانيات الذاتية وصقلها وتنقيتها من الشوائب وابرازها من حالة الكمون الى حالة الفعل ·

بدأ العالم الاسلامى فى مواجهة التحدى الحضارى الغربى منذ بزوغ حركة النهضة فى رقعته · وكانت بداية المواجهة فى شكل نقد ذاتى اذ تقتضى حكمة الله العلي القدير أنه « **لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » وكان منطلق المواجهة أيضا من التشخيص الحقيقى للداء العضال الذى يعانى منه العالم الاسلامى والذى ينخر جسمه فيصيبه الوهن والضعف ·

وأحرى بنا أن نقارن العالم الاسلامى فى بداية نهضته ببوادر النهضة فى العالم المسيحى خلال العصور الوسطى على ألا يعزب عن

بالنا أثناء اجرائنا لهذه المقارنة الابعاد الحالية للتحدى التى لا يمكن أن نقول عنها الا أنها عملاقة ، والصفات المميزة لكل من الايديولوجية المسيحية والعقيدة الاسلامية ٠

كما أنه يجدر بنا أن نعترف بوجود فوارق بين مختلف الاقطار الاسلامية ان فى ميدان النقد الذاتى أو فى ميدان تشخيص الداء ووصف أعراضه أو فى ميدان مواجهة التحدى أو فى ميدان الخلق الحضارى ٠ فحركة النهضة فى باكستان تختلف عن حركة النهضة فى المغرب الاسلامى ٠ واختلافهما ناتج عن اختلاف الظروف والمشاكل ٠ غير ان هذه الفوارق ليست جوهرية الى حد يجعلنا نتكلم عن الاسلام الافريقى والاسلام الايرانى والاسلام الآسيوى كما يحلو لبعض الانثروبولوجيين من المستشرقين ٠ فالعالم الاسلامى واحد بماضيه وبمشاعره وبآماله وهو واحد فوق كل ذلك بوحدة الكتاب الذى لم يلحقه تحريف ٠ وان اختلفت التأويلات فستبقى مجرد تأويلات قد تصمد أمام التاريخ والاجيال أو لا تصمد ٠ وكان على العالم الاسلامى أن يواجه التحدى على جميع الجبهات والاصعدة وعلى وجه التحديد كان عليه أن يقف بحزم ضد الغزو العسكرى والهيمنة الاقتصادية والغزو الفكرى وضد تسرب العادات والتقاليد الغربية الى المجتمع الاسلامى، وكذا الانحلال الاخلاقى وتفسخ الاواصر العائلية ٠ كما كان لزاما عليه مواجهة مصيره بعزم لا يلين بمواجهة التخلف الاقتصادى والجهل والمرض ٠

وقد كان الغرب آنذاك يدافع عن فلسفة عرقية ورجعية مفادها أن العالم صنفان : بدائى ومتحضر ، ديكارتى الاستدلال وخاضع لذهنية ما قبل المنطق ، متحرر من ربقة التقاليد والخرافات ومتشبث بها ٠ وهم لا يقفون عند هذا الحد بل يكادون يعتقدون أن هذه الصفات جبلية لا تزول بمفعول جدلية التطور ٠ وينيطون بانفسهم مهمة تحضير هذه الاقوام « المتوحشة » ٠

والتحضير فى نظرهم غاية نبيلة ومهمة أخلاقية تبرز جميع الوسائل اللاأخلاقية التى تبذل لاجل تحقيقه سواء تمثلت فى احتلال الوطن بالقوة أو فى نهب الخيرات أو فى تقويض مقومات شخصية العالم الاسلامى وهويته ٠

فى حين أن العالم الاسلامى انقسم فى مواجهة التحدى الحضارى الغربى شيعا وأحزابا : فمنهم دعاة التغريب ومنهم الجموديون الوثوقيون ومنهم دعاة الاصلاح وقادة الثورات ٠ والحق يقال أن كلا من دعاة التغريب والجموديين الوثوقيين يمثلون مواقف سلبية ٠ فدعاة التغريب يرفضون الاعتراف للاسلام ومبادئه بقدرة التلاؤم مع عصرنا الحالى لذلك ينسلخون منها ويتنكرون لها ويتبنون مواقف مستوردة من المادية الجدلية أو من البراجماتية أو من العلمانية أو من شتى الفلسفات التى

لا تنسجم وتراثنا الحضاري • ويرون أن طريق الخلاص هو طريق التقليد الاعمى للغرب وأنه أحرى بالبلدان الاسلامية أن تشارك الغرب حلو الحياة ومرها • أما الجموديون الوثوقيون فقد تشبثوا بالماضى ورفضوا التكيف مع متطلبات العصر • غير أن المتشبثين بالخرافات والاساطير هم أخطر أصناف الجموديين • ذلك أن الجموديين الخلص يقضون بالضرورة وفى يوم من الايام الى خلق كيفيات تفكير وعمل أصيلة ووفية لمبادىء الاسلام الحنيفة •

وأما دعاة الاصلاح وقادة الثورات فقد عمدوا الى تغيير الواقع بطرق مختلفة • ففى حين عمد دعاة الاصلاح الى تعليم الجماهير الاسلامية روح الشريعة الاسلامية والى تزويدها بفكر نقدى يجعلها تنفض عنها غبار الجمود والخمول والتواكل والركون الى الحلول السهلة والبدع والخرافات • وعملوا أيضا على تعميق الوعي السياسى والاجتماعى والاخلاقى لدى الجماهير الاسلامية • وأزاحوا الشبهات التى أثارتها أقلام أجنبية أو اسلامية حول الرسول (ص) وصحابته وحول التاريخ والفكر الاسلاميين • وتصدوا بشجاعة لحملات التنصير والمسخ الثقافى ولحظر تعليم الاسلام واللغة التى جاء بها : غير أن الاصلاح بدوره اتخذ اشكالا وصورا اصطبغت بصبغة العصر والمصر الذى ظهر فيه • ومجمل القول أن دعاة الاصلاح ركزوا حركتهم على التربية والتعليم والتوعية والوعظ والارشاد وكان لذلك كله أثره البالغ فى تنبيه الجماهير الاسلامية من غفوتها •

أما قادة الثورات فقد قاموا بما عجز عنه رجال الاصلاح والدعوة فحققوا دعوتهم فى جزء كبير منها اذ عملوا على تحقيق الاستقلال السياسى وأقبلوا على انجاز برامج ومخططات ترمى الى الاستقلال الاقتصادى والرقي الاجتماعى• غير أن المشكلة المطروحة على الثورات التى ظهرت فى العالم الاسلامى تتمثل فى مدى تشبثها بأصالتها الاسلامية وقيمها الروحية • وقد تاهت بعض النظم السياسية فى معضلة شائكة تتمثل فى التوفيق بين النظم السياسية الوضعية وركائز السياسة الاسلامية المنصوص عليها فى القرآن والسنة النبوية على غرار حركة التوفيق بين الحكمة والشريعة التى كانت محور تفكير بعض أتباع أرسطو من فلاسفة الاسلام • وقد ادعت نظم أخرى الصفة الاسلامية غير أنها لا تعدو أن تكون سوى خليط بين الليبيرالية والاقطاعية يرتاد قادتها كباريهات الغرب ويشترون عماراته ويودعون أموالهم الخاصة فى بنوكه • ولقد أثبتت التجربة فعالية الاسلام فى المجال السياسى والاقتصادى والاجتماعى فراح الكثير من المنظرين الليبيراليين والماركسيين يراجعون نظرياتهم ويعترفون للاسلام بثوريته ونجاعته •

فجارودى Garaudy مفكر شيوعى يعترف للاسلام كعامل ذاتى بمفعوله الكبير فى تفجير الثورات ويستشهد لذلك بالثورات الجزائرية والليبية والايرانية • ذلك أن الثورة بدون عقيدة دينية فى نظره هي ثورة تفتقر الى طابع انسانى • « **فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** » • واضطر من وراء ذلك الى تصحيح الادعاء الذى صرح به بعض الماركسيين اقتداء بأبى الشيوعية ومؤسسها الاول والقائل بأن الدين عفيون الشعوب • فقال بأن الدين قد يستغل من طرف بعض الحكام لاخضاع الرعية غير أنه فى صميمه صرخة المستضعفين ضد قوى الظلم والطغيان • ولا أدل على ذلك فى نظره من حركة طوماس منزر Thomas Munzer

هنا بالذات نرى أنه من الضرورى أن نقف وقفة قصيرة عند أشكال التحدى التى واجهها العالم الاسلامى • لقد اكتست الهجومات ضد الاسلام أشكالا متنوعة متراوحة بين الاحتلال العسكرى للبلدان الاسلامية والغزو الفكرى والايديولوجى : فالاستعمار والامبريالية والصهيونية والصليبية والشيوعية والفرنكفونية والانجلوفونية والبراجماتية والاستشراق والتبشير كلها حاولت أن تحد من عظمة المد الثورى الاسلامى وأن تطفىء نوره **والله متم نوره ولو كره الكافرون** • وهكذا بقي المصلحون والثوار فى جميع أنحاء العالم الاسلامى يرفعون لواء الدعوة والجهاد من أجل تصحيح الاوضاع فى العالم الاسلامى • وان معظم الحركات التحررية التى قامت فى العالم الاسلامى رفعت شعارات اسلامية بحتة وحركتها العقيدة الاسلامية السمحة ، ذلك أن الاسلام لا يرضى بالعبودية لغير الله • ألم يفضل الاسلام المؤمن القوى على المؤمن الضعيف ؟ بل ، ألم يحرض المسلمين على اعداد ما استطاعوا من قوة لاعدائهم ؟

ان الغزو الفكرى هو الذى أغرق العالم الاسلامى الحديث فى مشاكل زائفة ومارس ضغوطا قمعية على طاقاته الابداعية ومبادراته الخلاقة التى يمكن أن تجد حلولا مناسبة للظروف المناسبة من المنظور الاسلامى النقي • وتخبط العالم الاسلامى فى معضلات وهمية أهمها :

- هل تحرير المرأة أمر مشروع دينيا ؟ وهل تساوى المرأة الرجل ؟

- هل يتنافى الغاء الملكية مع ما ورد فى القرآن والسنة من تعاليم •

- هل يساير الدين روح العصر ؟ وهل يتفق مع العلم ومع هذا النظام السياسى أو ذاك ومع هذه القوانين أو تلك ؟

- هل شرع ديننا الحنيف الحدود لعصر ومصر معينين أم شرعها لكل عصر ومصر ؟

- هل للمحرمات الاسلامية أساس علمى ؟ وهل يسمح تطبيقها بمواكبة ركب العالم المعاصر ؟

ـ هل يمكن للعالم الاسلامى أن يحل النقائض بين الانتاج الاقتصادى والذهنية الدينية ، بين الحياة الصناعية وممارسة العبادات ؟

وهذه أسئلة كما نرى تندرج فى الاطار التقليدى الذى ابتدعه المشاؤون المسلمون وهو التوفيق بين الحكمة والشريعة ، ويمكن أن نطلق عليه فى الوقت الحالى اسم التوفيق بين الاسلام والنظم الوضعية الحديثة · وكان الاجدر بنا نحن المسلمين أن نفهم مقاصد الاسلام فى كل مجال من المجالات قبل أن نتحدث عن التوفيق ذلك أن النظم الوضعية متناقضة بالضرورة : فهذا يقول بالغاء الملكية وذاك يقول بحمايتها وتقديسها ، وهذا يقول بالحرية المطلقة للفرد وذلك يقول بضرورة توجيه الطليعة الثورية للجماهير الواسعة من الشعب · وكان الاحرى بنا أن نعمق المفاهيم الاسلامية قبل أن نحكم عليها أو لها ·

وكان ينبغى على المفكرين المسلمين فى نظر الاستاذ مالك بن نبى ألا يقلدوا كما يفعل العوام · ولا ينبغى أن يشل حركة تفكيرهم ايمانهم وتصديقهم بأنه ليس فى الامكان فى ميدان الفكر الاقتصادى الاتيان بأبدع مما كان · فالمفكرون السابقون ما هم الا بشر مثلنا لهم محاسنهم ونقائصهم · وعلينا اذن أن نتحذر من الوقوع فى نقائصهم على أنها شر لابد منه كما يقول البعض · فلا يجوز لنا أن نقلد الرأسمالية فى اباحتها ولا المادية الجدلية فى الحادها · والمهم أن تتوفر الارادة : ارادة التغيير والثقة بالنفس ومعها تدلل جميع الصعوبات بدون استثناء ·

وكأنى ببعض دعاة التغريب يريدون أن يتنصلوا من المبادىء الاسلامية فيهرعون الى النظم الوضعية ويأخذون منها ما يأخذون دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تعميق فهمهم للمفاهيم الاسلامية ··· وبعد ذلك فقط بدافع من عاطفة الشعور بالذنب أو خوفا من الجماهير الاسلامية يلجأون الى « أكذوبة التوفيق » ، أما المشاؤون القدامى فقد كانوا يخافون من التفكير والرمي بالزندقة ·

والحل الصحيح يكمن فى الخلق الحضارى أعنى فى ابداع حلول أصيلة تتماشى وروح الشريعة الاسلامية وتستجيب والاوضاع الجديدة للعالم الاسلامى · اذ من الضرورى ابداع حلول لمشاكل الاقتصاد والانتاج والاكتفاء الذاتى من منظور اسلامى · اذ النظم الوضعية تتحمس وتنسى · فأين نحن يا ترى من نداء ماركس بالغاء الملكية والدولة والجيش مع حلول الشيوعية ؟ ! لم يعد هذا النداء سوى عبارة عن نظرة طوبوية لا أساس لها من الواقع بعد أن رفضتها كل المجتمعات الشيوعية المعاصرة · وأين نحن من مقولة ماركس « الدين عفيون الشعوب » بعد قول جارودى عن العقيدة الحقة بأنها « ليست عفيونا كلا ! بل هي خميرة

لتغيير العالم · وكل ضربة توجه ضد هذه العقيدة هي ضربة موجهة ضد الثورة ذاتها » · وأين نحن من أوهام تحرير المرأة فى العالم المعاصر بعد أن أصبحت مجرد بضاعة تعرض زينتها على القاصى والدانى · والاسلام ينص « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** » « **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** » · « **ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن** أو ··· » ·

لقد آن الاوان للعالم الاسلامى أن يتحد ويتكتل من أجل بناء الحضارة لاننا فى عصر الاتحاد والتكتل : والعبرة بالبلدان المتقدمة : أمريكا وروسيا والصين والبلدان الغربية التى تسعى بكل الوسائل لتحقيق وحدتها · لماذا نطالب بالوحدة والتكتل ؟ اننا لا نطالب بذلك من أجل الاعتداء بل من أجل ابداع حلول لصالح شعوب العالم الاسلامى ومن أجل الانتصار فى معركة الانتاج ومن أجل تحقيق الاكتفاء الذاتى ومن أجل ضمان عدالة فى المبادلات التجارية وارساء قواعد اقتصاد عالمى جديد · وفى هذا الصدد يقول الاستاذ المرحوم مالك بن نبى : « على المسلمين أن يتخلصوا من الاسباب التى تجعلهم أقل فعالية فى أوجز مدة ممكنة بالطرق التى يفرضها عصر تسريع التاريخ ، وهذا يعنى ، فى مجال الاقتصاد ، أن يوحدوا امكانياتهم وحاجاتهم حتى يحققوا فى أسرع ما يمكن شروط الاكتفاء الذاتى اي الحلقة الاقتصادية التى تستطيع الانغلاق على نفسها ، اذا ما اقتضت الضرورات الداخلية والخارجية ذلك » ·

وأملنا أن يكون مطلع هذا القرن الخامس عشر فاتحة عهد جديد فى ميدان الخلق الحضارى والانتفاضة الحقيقية ضد الحلول الجاهزة التى تتلاءم وطبيعة المجتمع الاسلامى ومطامحه ·

ويحتاج المفكرون المسلمون بهذا الصدد وكذا القادة السياسيون الى شجاعة فكرية هائلة وقوة غزيمة خارقة وثقة بالنفس · « **ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** » ·

ان المبادرة التى شرع العالم الاسلامى فيها هامة وخطيرة فى نفس الآن ذلك أنها تهدف الى بناء حياة جديدة فى مستهل القرن الخامس عشر وفى العقدين الاخيرين من القرن العشرين · وانها مهمة عسيرة ونحن نحس أكثر من غيرنا بالمجهودات الجبارة (من الناحية المادية البحتة) التى يتطلبها اللحاق بركب الحضارة واجتياز الهوة التى تفصلنا عن العالم المتطور تكنولوجيا وعلميا عندما يتعلق الامر ببناء السدود وتنظيم المجمعات الصناعية وارساء المؤسسات التقنية وتعميم العلاج والتعليم · غير أننا نحس أقل بالمهمة التى لا تقل خطورة ولا صعوبة عن سابقتها وتنحصر فى المجالين الدينى والايديولوجى · وليس بالامر الهين تعويض خسارة بضعة قرون فى هذين المجالين · اذ يبقى على كاهل المسلمين أن يصيغوا دلالة الدين

فى عالم جديد يحتوى على سدود ومجمعات صناعية ومؤسسات تقنية ومؤسسات تضمن التعليم والعلاج للجميع مع ما يتطلبه كل ذلك من مسؤولية · وقد تبدو هاته المهمة عديمة الاهمية بالنسبة لاناس يعزلون الدين عن الحياة غير أن الاسلام كما يدرك ذلك الجميع يهدف الى تطبيق الاوامر الاخلاقية على الحياة اليومية ويربط بين الدين والدنيا برباط لا تنفصم عراه ·



هل يصبح العالم الإسلامي كتلة دولية ثالثة في القرن الخامس عشر ؟

الاستاذ اسماعيل العربي

يبدو أن انقسام الدول المصنعة الى كتلتين تستقطب كل منهما منطقة جغرافية وتخضع لزعامة خاصة بها ، ويتحدد نفوذها اجمالا بميثاق « يالطا » وغيره من الاتفاقيات الصريحة او الضمنية وتدعم ذلك النفوذ الاسلحة النووية المعقدة يبدو ان هذا الانقسام قد أصبح فى حكم الامر الواقع وهو اذا كان قابلا لتعديلات طفيفة ، فانه غير قابل للنقض على المدى المتوسط ، الا باستعمال القوة فى نطاق واسع . قلنا تعديلات طفيفة ، هذا فيما يتعلق بالمستقبل ، وأما بالنسبة الى الماضى ، فقد وقعت تعديلات جذرية فعلا بتوسع الكتلة الشرقية ، وخصوصا بفقد الكتلة الغربية لمستعمراتها وأراضى ما وراء البحار فى غضون العقد السادس . وهذا التعديل الاخير ، بالضبط ، هو الذى يهمنا فى هذا البحث ، وذلك لانه اذا كان توسع الكتلة الشرقية لم يكن على حساب البلدان الاسلامية ، لحسن الحظ (اذا استثنينا حالة افغانستان التى لم تتضح بعد كل عناصرها) ، فان التقلص الذى طرأ على الكتلة الغربية كان لصالح العالم الاسلامى ، حيث أن المناطق التى تحررت فى افريقيا وآسيا كانت فى معظمها من الاراضى الاسلامية التى تشكل الامبراطورية البريطانية والفرنسية سابقا .

ونحن نقدم فيما يلى ثبتا اجماليا البلدان الاسلامية ولبعض البلدان غير الاسلامية التى تضم أقلية كبيرة من المسلمين والتى شملتها موجة التحرر الوطنى فى القارتين الافريقية والآسيوية، فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية :

اندونسيا (125 مليون) بنغلاديش (77 مليون) باكستان (75 مليون) بورما (1 مليون) ثايلاند (1 مليون) المغرب (نحو 40 مليون) مصر (35 مليون) الهند (80 مليون مسلم) السودان (15 مليون (1) ماليزيا (7 ملايين)

(1) راجع احصاءات أخرى فى مقالة البحاثة Violette Graff فى صحيفة « Le Monde » نشرت تباعا ابتداء من 11 ديسمبر 1979 .

والفليبين (نحو 3 ملايين) والنيجر (4 ملايين) ونيجيريا (63 مليون) ومالى (5 ملايين) وذلك بالاضافة الى البلدان الواقعة على الخليج وسورية (6 ملايين) والعراق (9 ملايين) وافريقيا الشرقية وبلدان افريقيا الغربية • ونحن هنا لا ندخل فى الحساب الجمهوريات الاسلامية فى آسيا الشرقية ، لان وضع اخواننا فى هذه المناطق لم يدخل عليه ، مع الاسف ، اي تغيير ، حيث أن هذه المستعمرات كانت روسيا قد تسلطت عليها بالقوة فى عهد القياصرة ، ولما قام النظام السوفييتى ادغمهم واعتبرهم جزءا لا يتجزء من الامبراطورية الروسية •

وكذلك نرى من هذه الاحصائيات غير الكاملة ، ان العالم الاسلامى الذى يشمل أيضا بلدانا لم تفقد قط استقلالها (مثل السعودية وتركيا وايران) والذى تمتد رقعته من المحيط الاطلسى الى المحيط الهادئ ويضم نحو مليار نسمة (أي حوالى ثلث سكان العالم) ، كان من الممكن أن يشكل كتلة دولية ثالثة منذ الآن ، لو كان توازن القوى الدولى يقوم على أساس المعايير التقليدية (مثل عدد السكان والموقع الجغرافى والقيم الحضارية والموارد الطبيعية الاولية) ، بدلا من أن يقوم – كما هي الحال – على الطاقات الذهنية والتطور الصناعى والتقدم التكنولوجى الذى يشكل الدعامة الاساسية للتفوق العسكرى • وبالتالى، فان كثيرا من الاصفار فى سياق العالم الاسلامى (بل وفى العالم الثالث كله) غير ذات مدلول ، سواء فى التقسيم السياسى أو فى توزيع العمل الدولى فى الوقت الحاضر •

ولكن حالة التخلف النسبى التى يعانى منها العالم الاسلامى الذى يرتبط ارتباطا عضويا ببقية بلدان العالم الثالث ويشكل عموده الفقرى ، انما تمثل مرحلة فى مسيرته التاريخية والعقبة الاخيرة فى طريق انطلاقه ، وسوف يأتى يوم، حتما يرتبط فيه ماضيه المجيد بالمستقبل الذى تشير جميع الدلائل الى أنه سوف يكون زاهرا ، اذا توفرت الارادة وصدقت العزيمة •

تميز العالم الاسلامى فى العالم الثالث :

ان تسمية « العالم الثالث » تسمية مجحفة، فضلا عن كونها غير منطقية (2)، وقد كان العالم الفرنسى ، الفريد صوفى هو الذى أطلقها على مجموعة المناطق المختلفة فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فى منتصف الخمسينات (3) •

فهذا العالم توجد فيه جميع ديانات العالم ولا تجمعه حضارة أو منطقة جغرافية ويتحدث أبناؤه جميع اللغات المنشرة فى العالم تقريبا ، فضلا عن

---

(2) راجع كتابنا : هيئة الامم المتحدة والتنمية الاقتصادية ، بيروت ، 1972 صفحة 244 وما يليها •

(3) A. Sauvey : Tiers Monde, Presse Universitaire de France, 1956.

كونه متخصص فى انتاج المواد الاولية التى يشتد التنافس بين بعض مناطقه لترويجها . والحقيقة أن هذا العالم الذى لا تجمع بين مختلف شعوبه سوى ظاهرة التخلف الاقتصادى والتكنولوجى، لا يعدو كونه « مخيما اقتصاديا » ضخما يمتد على ثلاث قارات . ومنذ أن وضعت الاسس الاولى لتنظيمه فى باندونج فى سنة 1955 ، والجهود كلها متجهة الى ازالة التناقض بين أطرافه والى محاولة تنسيق مصالحه وملء الثغرات التى تفصل بين مناطقه الحضارية ، ولكن بدون حظ كبير من النجاح .

وعلى الرغم من أن جميع المقومات التاريخية (بما فى ذلك الدين والمنزع الحضارى) قد استبعدت من تكوين مجموعة عدم الانحياز كما يتبين ذلك من ميثاق باندونج والاسس التى تقوم عليها جماعة الـ 77 ، فهيكل عدم الانحياز تطغى عليه المتناقضات الى حد تحجب معه الايجابيات ، وأنه لمن الحق أن يتساءل المرء عما اذا لم يكن مرجع ما يسود صفوف دول عدم الانحياز من قلة الانسجام بالضبط الى استبعاد كل ما يتجاوز اطار المصالح المادية (اقرا الاقتصادية) من تكوينه :

وبلدان مجموعة عدم الانحياز تسود فى مجموعها كل المذاهب والايديولوجيات المعاصرة وتخضع لنظم للحكم متباينة تتراوح بين الملكية المطلقة والشيوعية ، مرورا بالديكتاتورية العسكرية والديموقراطية الليبرالية بمختلف فصائلها . ومن ثم فلا غرو أن تختلف وجهات نظر هذه الدول فى القضايا السياسية العالمية الكبرى . وقد ظهر الشقاق على أحد ما يكون فى عدد من المسائل التى طرحت على بساط البحث فى هفانا ، كان أبرزها قضية الموقف الذى تتخذه المجموعة من نظام كامبوتشيا الجديد . ولكن المثال البارز حاليا هو ذلك الذى يتعلق باختيار عضو جديد لمجلس الامن حيث جرى ما لايقل عن 148 اقتراعا دون نتيجة بين كلومبيا وكوبا قبل أن يضطر الطرفان للتخلى عن السباق ويقع انتخاب المكسيك .

ومجموعة بلدان عدم الانحياز ليست، كما قد يتبادر الى الذهن لاول وهلة ، « معسكر المستعمرات السابقة » (فان بلدان أمريكا اللاتينية مثلا ، كلها تقع فى يد العنصر الاسبانى الذى استعمر هذه المناطق بعد ما قضى على ثلاث من حضارات الهنود الحمر) ، كما أنها ليست مجمع « البلدان الفقيرة » كما يعتقد البعض (لان بعض أعضائها مثل قطر والكويت والسعودية تتمتع بأعلى دخل فردى فى العالم ، وذلك فى الوقت الذى توجد فيه دول فقيرة حقا — مثل البرتغال واليونان واسبانيا — فى المعسكر الغربى الصناعى) .

والاديان السائدة فى مجموعة عدم الانحياز تتراوح بين البوذية والالحاد والمسيحية والاسلام ، ولكن الاغلبية

الساحقة فيها ، اذا اعتبرنا عد السكان مقياسا ، تنتمى الى الدين الاسلامى · ولكن كون الاسلام يمثل الديانة السائدة بين سكان هذه المجموعة لا يعـنى أن جميع الدول الاسلامية تتمتع بالعضوية فيها ، لان عددا من البلدان الاسلاميـة لا تنتمى الى عدم الانحياز الذى هـو التنظيم الشكلى للعالم الثالث ·

وكذلك يتضح جليا أن مجموعة عدم الانحياز لا يمكن أن تشكل كتلة دوليـة تقوم على أساس من التفاهم السيـاسى الا اذا ضمنت لنفسها قاعدة ايديولوجية متكاملة تتميز بها عن الكتلتين الدوليتين المتنافستين · والايديولوجيات بوصفها نظاما للسلوك والتفكير لمجموعة بشرية ما تمتد جذوره فى تاريخ تلك المجموعة، لا يمكن استيرادها أو تفصيلها حسـب الطلب ، وانما هي تكون ، أو لا تكون ·

ان مجموعة عدم الانحياز انما قامت لكي تواجه محاولات سيطرة الكتلتيـن وتوسعهما على حساب بلدان العالـم الثالث ، وكذلك قامت بدور لا ينكر فى تصفية الاستعمار ، وهي بهذا الاعتبار فكرة ذات محتوى سياسى واضح فى المرحلة الاولى من حياتهـا · وأما فى المرحلة الثانية فانها قد تطـورت الـى منهجية دولية للسيطرة على العوامـل التى تساعد على الخروج من التخلـف والاسراع بعملية التنمية ·

ولما كانت دول العالم الثالث تمر كل منها بمرحلة فى التنمية تختلف عـن المرحلة التى تمر بها غيرها بخيث أن بعضها (وهي التى يطلق عليها اسـم البلدان الاقل تطورا) لا يزال فى آخـر ركب هذه المجموعة ، بينما بلغت دول أخرى درجة ما يسمى بمرحلة الانطلاق (مثل المكسيك ومصر) ، فان من المحتم أن تتغير مصالح البلدان التى تخـرج من حالة التخلف وترتبط بعلاقات جديدة للتعاون فيما بينها ، وبينها وبين الدول الصناعية المتقدمة بصورة تتجاوب مـع مصالحها وأوضاعها الجديدة ·

وهكذا، فان المقدر ألا ينتهى هذا القرن الميلادى حتى يكون عدد مهم من بلدان العالم الثـالث قد حقـق تقدمـا ما فى التصنيع لا يقل مستواه عما حققته بعض دول الكتلتين الكبيرتين · وهذا معنـاه تغير كبير فى رقعة الشطرنج الدوليـة ستكون له آثار عميقة فى كيان مجموعة عدم الانحياز · والبلدان التى ستصبح متقدمة صناعيا وتكنولوجيا سوف تجد نفسها حتما فى صف الدول الصناعية، فى الوقت الذى لا يقدر فيه البقاء بصفة دائمة فى مجموعة الدول المتخلفة سوى لتلك البلدان التى لا تسمـح لها الموارد الطبيعية والبشرية بالتقدم وتكون محكوما عليها بأن تعيش على موارد المساعـدة الدوليـــة ·

وهنا يطرح سؤال : كيف يمكن للعالم الاسلامى فى مجموعه أن يكيف نفسـه للتغيرات المنتظرة ؟ فهل يقنع بحالـة الانقسام التى يعانى منها حاليا وبتوزع

ولائه بين الكتلتين ، أو يتبلور فيه وعي جديد بقيمة الامكانيات العظيمة التى يملكها ويتجه الى اقامة قواعد للتعاون والتكتل لمواجهة الاحداث التى تمس البلدان الاسلامية ؟

ولكن قبل أن نحاول البحث عن عناصر جواب ولو مؤقت لهذا السؤال ، ينبغى أولا أن نسجل حقيقة برزت بقوة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وهي أن الشعارات التى نادى بها رجال مثل جمال الدين الافغانى وشكيب أرسلان ومحمد على جناح ، قد وجدت تجاوبا بين مختلف الفئات الاجتماعية فى العالم الاسلامى وتبلورت الى أمل يلوح فى الافق • صحيح أن هذه المطامح ظلت مكبوتة طيلة ما ينيف عن نصف قرن من الزمن فى عهد الاستعمار ولكنها لم تمت فى النفوس • وقد انبعثت بعد زوال الاستعمار ولم تلبث أن تجسمت فى شكل تنظيمات للتعاون ، نذكر منها، على الخصوص ، اتفاق التعاون الاقليمى الذى عقدته باكستان وايران وتركيا (RCD) فى سنة 1964 ، والسوق العربية المشتركة ومؤتمرات وزراء الاقتصاد المغربية التى مهدت لتشكيل اللجنة الاستشارية الدائمة (4) • وأخيرا مؤتمرات وزراء خارجية الدول الاسلامية والمؤتمر الاسلامى الذى كان من أهم أوجه نشاطه تأسيس بنوك للقروض على أساس المشاركة وبدون فوائد ، كما تقضى الشريعة الاسلامية •

على أنه من المؤسف أن نرى أن هذه المنظمات الاقليمية التى كانت تبشر فى الستينات بأن تكون قواعد للانطلاق فى طريق تكتل أوسع وتعاون أشمل ، لم تثبت أمام التجربة ، فأصبحت الآن كلها تقريبا ، مجرد حركات تاريخية ، حيث ان الصراع الايديولوجى الذى دخل الى العالم الاسلامى ، وخاصة الى العالم العربى ، لم يقض على مؤسسات التعاون الناشئة فحسب ، ولكنه أيضا مس شعور الجماهير الاسلامية التى تمثل الرصيد الاعظم لكل محاولة فى المستقبل للتقارب والتكتل بين البلدان الاسلامية •

وأما الجواب عن السؤال الذى طرحناه آنفا حول الطريقة التى سيكيف بها العالم الاسلامى نفسه للاحداث والتطورات التى ينتظر أن تقع فى العالم الثالث فى غضون القرن الخامس عشر الهجرى ، فيبدو أنه رهن بتوفر شروط موضوعية وأخرى ذاتية •

أ - الشروط الموضوعية

1 - والشرط الاول والاساسى من الشروط الموضوعية هو أن تستمر حالة السلام وألا يطرأ خلل خطير فى توازن

---

(4) بشأن هذه الترتيبات والتكتلات الاقليمية وغيرها ، راجع كتابنا : « التكتل والاندماج الاقتصادى بين البلدان المتطورة » الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1974 •

القوى فى العالم ، بحيث تواصل المنظمات الدولية ، وعلى رأسها الامم المتحدة ، نشاطهـا السيـاسى والاقتصـادى فى ظروف عادية ٠

2 ـ عـدم قيام تحـالف استراتيجى طويل المدى وارتباطات ذات طابـــع اقتصادى أو سياسى دائم بين أفراد من الدول الاسلامية واحـــدى الكـتـلتين الايديولوجيين المتنازعين بحيث تتخطى هويتها الاصلية وتتخلى عن شخصيتها الاسلامية (كما حدث لالبانيا ، مثلا) ٠

3 ـ عدم توغل المزيد من ايديولوجيات الكتلتين بين صفوف المسلمين ومقاومة النفوذ الصهيونى والامبريالية العالمية ، وبصفة خاصة ، ذلك الذى يحملـــه فى طياته نشاط الشركات العملاقة المتعددة الجنسيات ٠

4 ـ الالتجاء الى المفاوضات والطرق السلمية لتسوية المشاكل والنزاعـات الحالية أو التي ستظهر فى المستقبل ، ومقاومة الاتجاه الذى تبلور فى تجربة التصالح والتعاون المصـرى الصهيونى ـ تلك التجربة التى توشك ، أن نجحت، ان تفصـم العـالم العـربى والعالـــم الاسلامى ، بصورة لا تقل خطورة عـن الحالة التى واجهها بالغزو التترى ٠

5 ـ تبلور روح التضامن والتئـــازر بين البلـدان الاسلامـية فى اجـراءات وأعمال لنجـدة الشعـــوب والاقليـات الاسلامية التى تناضل من أجل حريتها واثبات وجودها ضد السيطرة المحليـة أو الاجنبية فى افريقيا وآسيا ، ولا سيما الشعب الفلسطينى والمسلمين فى اريتريا والفليبين ٠

6 ـ العمل لايجاد مناخ من الثقـــة المتبادلة لتبادل الخبرات والمساعـــدة وخصوصا لايجاد الشروط والضمانات الضرورية لاستثمار فائض عوائد النفط فى مشـــروعـات للتنميـة فى البلـدان الاسلامية على أساس من المشاركـــة وضمان ربح مشروع ٠

ب ـ الشروط الذاتية

1 ـ لكي يخطو العالم الاسلامى الى الامام فى طريق التفاهم والتعاون الدولى يجب أولا ، أن يسود الوئام والسلام فى كل بلد من بلدان الاسرة الاسلامية ٠ وهذا انما يمكن بتطبيق مبادىء العدالة الاجتماعية ومحو الفوارق بين الطبقات، وخصوصا ، باعتماد نظام الشورى الذى سنه أبو بكر وعمر والذى كان أساســا للاستقرار والازدهار الذى عرفه العالم الاسلامى فى الاجيال التالية ٠ وعـدم تمسك المسلميـن بمبدا االشـــورى فى الوقت الحاضر ، يمكن اعتباره أهـــم عقبة فى طريق استقرار السلام والثقة فى العالم الاسـلامى ٠ وأما المحاولات الجاريـة لتطبيـق الشريعـة فى بعض البلدان الاسلامية ، فلا يمكن اعتبارها مؤشرا حقيقيا فى طريق اقامة حكـــم اسلامى على أساس الشورى ، حيـث ان اعتماد الشريعـة لم يكـن فى معظم

الحالات الا منهجية للتخلص من الخصوم والمنافسين والمعارضين ٠

ومن جهة أخرى ، فعلى الرغم من أن كثيرا من البلدان الاسلامية تنص دساتيرها على أن الاسلام هو دين الدولة الرسمى ، فان ذلك لم يحل دون سير الحياة العامة على نهج لائكى أو شبه لائكى ، فيكون التعامل بالربا (مثلا) صلب النظام الاقتصادى وتغذى الضرائب المباشرة وغير المباشرة على المأكولات والمشروبات المحرمة خزانة الدولة ٠ ولكن الاسوء من كل ذلك أن أمريكا اللاتينية التى اشتهرت فى التاريخ بديكتاتورياتها العسكرية قد تخلت عن مكانتها الاولى فى هذا المجال للعالم الاسلامى ٠ فان ما لا يقل عن 15 بلدا اسلاميا (أي بنسبة 39،47٪) من بين الثمانية والثلاثين بلدا ، تحكمها حكومات عسكرية لا دخل للشعب فى اختيارها ٠ وأما بقية البلدان الستة عشر الاخرى (بنسبة 42،1٪) ، فهي تحكم بنظم أتوقراطية وبدون دستور على الاطلاق، أو بدستور معطل أو موقوف (5) ٠ وأما البلدان الاسلامية التى اعتمدت النظام الجمهورى للحكم (وهي 29 بلدا) ، فانها ليست فى معظم الحالات أحسن حظا فى ممارسة الحريات الفردية ، أو فى رعاية المبادىء الاسلامية من الانظمة الملكية ، حيث تنعدم فيها حرية اختيار النواب للبرلمان ، أو ينعدم فيها البرلمان والتمثيل البرلمانى كلية ، بل وكثيرا ما يكون رئيس الجمهورية ملكا غير متوج من حيث يكون منتخبا مدى الحياة ٠ على أن الاتجاه الذى يمش تقدما فى هذا المجال ، هو زوال الملكية المطلقة تدريجيا فى العالم الاسلامى ، حيث انه لم تبق فيه سوى أربعة نظم من هذا النوع (مضاف اليها خمس ملكيات دستورية) ٠

وكذلك يبدو لنا أن قيام حكومات على أساس من الشورى والتراضى وبصورة تعبر عن رأي الامة وتضمن للحكم الاستمرار والدوام فى كل واحد من البلدان الاسلامية ، أمر جوهرى لكن تعاون وتكتل اقليمى أو دولى اسلامى سواء أكان هذا التكتل اقتصاديا فقط أم سياسيا واقتصاديا ٠

2 ـ تنمية التعليم الاسلامى وجعله أساسا لنظام التعليم العمومى ، فى الوقت الذى تنشأ فيه معاهد عليا وجامعات للتخصص فى مختلف فروع الدراسات الاسلامية ٠ وانه لمما يدعو الى الدهشة والحزن العميق أن نلاحظ أن البلدان الاسلامية التى لعب الاسلام دورا كبيرا فى تحريرها قد أهملت معاهد عليا للدراسات الاسلامية بعد استقلالها ٠ بل ان بعض البلدان قد سارت على النهج الاستعمارى فى مناوءة التعليم الاسلامى واضطهاده ، فاغلقت معاهد وجامعات جليلة ساهمت فى تقدم العلم والمعرفة

(5) راجع احصاءات أخرى فى
A.S. Bank : Political Handbook of the World, Macgrois. Hill Book Company, New-York 1976.

أجيالا طويلة ، وهذا فى الوقت الذى نجد فيه معظم الجامعات فى أوروبا وأمريكا وأستراليا تملك كليات أو أقساما للدراسات الاسلامية · واذا أراد العالم الاسلامى قيام نهضة اسلامية حقيقية ، فلابد من أن يكون البحث حجر الزاوية فى التعليم العالى بحيث تغطى الفجوة التى انفتحت عبر القرون · وفى هذا المجال أيضا تلاحظ على سبيل المقارنة أن ما يصدر من الكتب والمجلات والبحوث المتعمقة التى تتناول الاسلام وحضارته فى الغرب أكثر وأعمق مما يصدر فى العالم الاسلامى نفسه · وهذا المكان يبدو لى ملائما كذلك للتذكير ، وليس للمقارنة ، بأن الكنيسة الكاثوليكية وحدها تملك أكثر من مائة جامعة ومعهد عال للدراسات اللاهوتية ، موزعة فى مختلف أنحاء العالم الكاثوليكى ·

3 ـ تعتبر الصحافة والاذاعة من أهم الوسائل للتقريب بين الشعوب · وتبادل الصحف والبرامج الاذاعية من شأنه أن يغذى عقول المسلمين فى كل مكان بالمعلومات عن مختلف القضايا والمشاكل التى تواجهها الشعوب الاسلامية فى الوقت الذى يكون فيه وسيلة فعالة لنشر التفاهم والتضامن · ولكن البلدان الاسلامية لا تزال متخلفة فى مضمار الصحافة والاذاعة ، حيث أنه لم يحقق الحد الضرورى الذى وضعته اليونسكو لاستهلاك الصحف وأجهزة الاذاعة (10 صحف و 5 أجهزة لكل 100 شخص) سوى بلد واحد فى مجال الصحف ، وهو جزر الملاديف Les maladives التى يبلغ عدد سكانها 120 ألف نسمة (300 كيلو متر مربع) · بل انه لم يصل الى مستوى توزيع ما يتراوح بين 5 ـ 9 نسخ لكل مائة شخص سوى 6 بلدان اسلامية (6) ويضاف الى ضئالة الكمية رداءة نوع المعلومات وقلة دقة الاخبار، حيث أن معظم الصحف لا تعدو كونها نشرات حكومية ، أو هي تتعرض للضغط والاضطهاد متى كانت تنطق باسم المعارضة (كما هي الحالة فى مصر الآن) ·

4 ـ تعزيز علاقات التبادل العلمى والثقافى بتفضيل استيراد الاساتذة والمتعاونين المسلمين فى مختلف المجالات، وتبادل الكتب والافلام والنشرات ، التى تتصل بموضوعات اسلامية ·

5 ـ العمل لاحياء المنظمات والتكتلات الاقتصادية الاقليمية والشبه الاقليمية القديمة ودعم النواحى التى حققت فيها نجاحا ، واستكشاف آفاق جديدة للتعاون الاقتصادى والتقنى ·

6 ـ تعزيز العلاقات التجارية على الصعيد الثنائى بين البلدان الاسلامية وتعميم مبدا البلد الاكثر رعاية

---

(6) راجع احصاءات أخرى فى كتاب الاحصاء السنوى ، نشر اليونسكو ، باريس 1978 ·

في العلاقات most favered nation التجارية بصفة عامة ٠

7 ـ العمل لمقاومة تيار الافلام السينمائية والتليفزيونية التى تنتجها بلدان الكتلتين العالميتين المتنافستين ـ تلك الافلام التى تحمل فى طياتها الى جانب الدعاية الايديولوجية أنماطا من التحرر الاخلاقى المخرب لنمط الحياة الثقافية والاجتماعية الاسلامية ، والتى تبدو آثارها الوخيمة أوضح ما تكون فى عقول أطفال المسلمين ، وذلك اما بوضع برنامج لانشاء شركات لانتاج أفلام (ولا سيما الافلام الوثيقية) تعالج موضوعات اسلامية وتصور الحياة العصرية فى البلدان الاسلامية ، أو بتكوين هيئة تتعامل بواسطتها مع الشركات الاجنبية المنتجة للافلام (7) وتفرض عليها المقاييس والشروط التى يجب أن تتوفر فى الافلام التى تنتجها لاستهلاك العالم الاسلامى ٠

وهكذا ، فاذا صدقت عزيمة المفكرين والساسة فى مختلف البلدان الاسلامية فى العمل لتحقيق هذه الشروط الحيوية فى غضون القرن الخامس عشر الهجرى، ووجد العمل تجاوبا فى الرأي العام الاسلامى (وهو أمر لا نشك فيه) ، فان ظروفا موضوعية ستظهر لا محالة لامكان قيام كتلة اسلامية تستقطب العالم الثالث وتعمل للسلام والرخاء ولنشر المثل العليا الاسلامية فى مختلف أصقاع العالم ، واذا كانت الكتلتان الدوليتان اللتان تتقاسمان السيطرة على العالم اليوم قد حققتا توازن القوى بينهما بواسطة « الرادع النووى » وغيره من أسلحة التدمير ، فان الكتلة الاسلامية، كما نتصورها ستضمن بقاءها بفضل سمو مبادىء الاخوة الانسانية والسلام والعدالة التى تمثلها ٠ وفيما عدا ذلك، فان مثل هذا التكتل لا يمكن أن يقوم الا على أساس من الشورى والتعاون والرعاية المتبادلة لمصالح الجميع المشروعة ولمصالح البلدان الفقيرة فى العالم الثالث ٠

وبعد هذا قد يتساءل القارىء : ما هو نصيب الامل والطموح ، وما هو نصيب الواقع ، وما هو حظ النظرية والاعتبارات العملية فى هذا التصور لقيام تكتل وتعاون اسلامى دولى وثيق فى غضون القرن الخامس عشر الهجرى ؟

نحن نؤمن بأن هذا التطور ليس ممكنا فحسب ، بل هو حتمي أيضا اذا أراد المسلمون أن يتعايش الدين الاسلامى بكل أبعاده فى حرية وكرامة مع الاديان والمذاهب السائدة فى الكتلتين اللتين تتصارعان لفرض سيطرتهما الايديولوجية على أكبر رقعة ممكنة من الكرة الارضية ٠ وأحداث أفغانستان وايران تمثل نذرا فى الافق لا يسع المسلمين تجاهلها أو الاستهانة بها ٠

(7) راجع المحاضرة القيمة التى قدمها الاستاذ محمد الشريف مجاهد أمام الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامى (تمنراست 1979) بعنوان : « التليفيزيون والاطفال فى العالم الاسلامى » ٠



الأخلاق والنظم الإسلامية أسس عقيدية وآفاق

د. أحمد عروة
طبيب وكاتب - الجزائر

ان الكلام عن الاخلاق والنظم الاسلامية يتطلب من الوقت أكثر مما يمكننا أن نعده له ومن الشروح أطول مما يمكننا أن نتقدم به · لهذا سيكون تعرضنا للموضوع تمهيدا ملخصا أكثر من أن يكون تحليلا معمقا وشاملا ·

كما ان وجهة نظرنا فى هذا البحث ستبتعد شيئا ما عن الطرق التقليدية التى تكتفى برواية الآيات والاحاديث وتصنيفها وشرحها · حيث أننا نحاول أن نخرج ببحث منهجى وتعمق علمى من دون أن يجعلنا ذلك نحيد عن نطاق الوحدة المذهبية التى لا يمكن أن تتناقض فيها معطيات العلوم الموضوعية للطبيعة والكون وتعاليم الرسالة الالهية · وفى ذلك لا تخرج نظرتنا عن الاخلاق الاسلامية ومفاهيمها الاساسية ، سواء من الناحية العقائدية كالايمان بالله ووحدانيته وتصديق الرسالة النبوية ووحدة الايمان والعلم والاعتقاد بأن الله خلق الانسان وفضله وكلفه بالخلافة والامانة ، أو من الناحية التطبيقية كأداء الفرائض الدينية والامتثال بالفضائل الخلقية ·

سنقوم فى القسم الاول بتحليل الدوافع والعوامل التى تؤثر فى سلوك الانسان الحيوى والاجتماعى والمعنوى·

ثم نعرض الارشادات والتوجيهات التى تدعو الى تفهم الاخلاق الاسلامية وتطبيقها سواء فى السلوك الفردى والاجتماعى أو فى تحديد النظم الدستورية ·

وسنحاول بعد ذلك أن نقدم تقييما نقديا لمدى تأثير التعاليم الخلقية فى الحياة الفردية وفى تاريخ الامة الاسلامية ·

وأخيرا سنقترح بعض المعاور لتفهم التيارات الفكرية المعاصرة ولاكتشاف آفاق جديدة للبحث والعمل ·

1 ـ العوامل العامة التى تتحكـم فى سلوك الانسان :

يوجد كما هو معلوم عدة عوامـــل مشتركة بين الحيوان والانسان تتحكـم فى الســـلوك الطـبيـعى والنفـسى والاجتماعى · لكن البعد العقلى الذى خص به الانسان يجعله حقيقة كائنا حيا يتميز على غيره ، بشعوره الفكـــرى بالكون الذى يحيط به وبادراكه العقلى وسيطرته الفنية على الطبيعة · وهــذا يجعل سلوكه فى نفس الوقت غريزيـــا ومتعقلا · مقدرا وحرا · محكوما فيـه ومسؤولا ·

لهذا فان التمييز المنهجى بين عوامل السلوك الحيوانى والسلوك العقــلانى ربما يظهر مصطنعا الا أنه يسمح لنـــا بتبسيط المشاكل والتعقـدات · هــذا ما سنظهره فى المعطيات الآتية :

1 ـ ان سلوك الانسان الغريـــزى البدائى الذى يشتـرك فيـــه الانســان والكائنات الحية بما فيها من نباتـــات وحيوانات يشمل ثلاث وظائف أساسية :

ـ وظيفة غذائية ونفسـية يقـــع بفضلها تبادل مادى وطاقى مع البيئـة الخارجية مما يجعل الجسم يحيا وينشط وينمـــو ·

ـ وظيفة دفاعية مسؤولة عن حماية الجسم من الاصابات المتغلقة بالتنافس الحياتى للكائنات الحية ومـن الآفـات الطبيعية والحيوانيــة التى تهـدده فى بيئته الحياتية ·

ـ وظيفة تناسلية تضمن بقاء الجنس وتكاثره وتنوعه ·

ان بنية المخ الانسانى وامكانياتــه الادراكية تجعله يطغى ويتفـوق عـلى المستوى الحيوانى حيث تفتح له أفـاق الاحساس والادراك والاتصال الـواعى والمدبر بغيره من الكائــنات · فيكتسى سلوكُ الانسان بذلك آفاقا جديدة يتجـه بها فى نفس الوقت نحو الحاجات التى تضمن له الحياة والبقاء والتغلب عـلى الطبيعة بعلمه وعملــه والتـطلـع الى الارتقاء فـوق مســتوى الانسانـيـة البدائية ·

3 ـ زيادة على ذلك فان الانســـان أكثر ما تكون غريزته اجتماعية حيـث أن حاجاته ومطامحه مرتبطة بالافـراد الذين يكونون معه المجموعة البشرية · ذلك التضامن الحتمى فى حياة ومصير المجتمع ينقص ويزيد فى نفس الوقت من نفوذ ومن حظوظ كل فرد ·

حيث أن طمـوح الفرد هــو فى أن يضمن لنفسه أكبر قســم ممكن مــن محاصيل الاشتراك بهدف الحصول على أكثر وسائل الحياة والامن والرفاهية · ويؤدى ذلـك الى بعض التـــوازن فى الاكتساب والنفوذ اما بتعادل الطاقات الجسمية والعقلية المتواجدة ، وامـــا بوضع مناهج خلقية أو نظم اجتماعيـة تحاول تثبيت الاستقرار فى العلاقـــات بين الناس أو تغييرها اذا دعت الى ذلك ظروف جديدة ·

4 ـ بمجرد ما يتساءل الانسان عن ماهية الكون ومعنى الحياة فانه قد انتزع نوعا ما من السيطرة الغريزية البدائية فينطلق يسعى وراء قيم جمالية وفكرية وروحية أسمى • وهذا التساؤل هو فى نفس الوقت بحث عن الحقيقة على مستوى الفكر وبحث عن الحكمة على مستوى السلوك • وبالطبع فان الجواب الذى ينتهى اليه قد يختلف كثيرا مما يشهد عنه تنوع الآراء الفلسفية وتطورها على مدى تاريخ الانسانية • وبصفة عامة قد يمكن لذلك البحث الفلسفى أن يقود الى الشعور بوجود قوة فوق الطبيعة خالقة للكون أو بالاحرى مسيطرة على مصير الانسان • كما يمكن له أن يحجم عن التوغل فيما وراء الطبيعة وأن يقنع بالادراك العقلانى للعالم •أما العقيدة الاولى فتحاول أن تمتثل للارادة المفترضة للآلهة أو للاله، وأما الثانية التى منطقها مادى فانها تستكشف فى « جدلية » الطبيعة والمجتمع الانسانى قواعد خلقية وتنظيمية تسير العلاقات بين الناس •

5 ـ فى هذا المنعرج الفكرى يجد الانسان نفسه فى مأزق فلسفى لان علمه لا يمكنه من معرفة ما هو خارج عن نطاق التجربة والاحساس لولا الوحى النبوى الذى يكشف عن غيبيات ما وراء الطبيعة • ذلك هو النبأ الذى تعجز عنه الاستكشافات العلمية والاستلهامات الفلسفية لانه ينبئه بالغيب ويعلمه الايمان بوجود الخالق الاحد ويقص عليه أسرار وأهداف خلقه وخلق الكون • ثمَ يرشده الى الامتثال بقوانين شرعية وقيم خلقية تضمن له النجاة الابدية • أما بمجرد الايمان فان الانسان يسمو للبعد الروحى الذى يصله بخالقه وأما بضميره وأعماله فانه يلتزم بالوفاء لعهده وهذا معنى كلمة الاسلام •

2 ـ الاسس العقيدية للاخلاق الاسلامية

1) المصادر :

ان **القرآن الكريم** يمثل المصدر الاساسى الذى تنبثق منه الاخلاق الاسلامية فقد أنزله الله « **هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** » (البقرة185) والقرآن هو فى نفس الوقت تأكيد لما قبله وتجديد متمم للرسالات الموحدة المتواترة لا سيما منذ نبوءة ابراهيم الخليل « **ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل** » (الحج 77) والذى تنسب اليه ديانتى اليهودية والمسيحية • ولم يكن دور **محمد** صلى الله عليه وسلم تلقى وتبليغ الكتاب الكريم فحسب بل وكذلك تعليمه للناس ليطبقوه فى مفاهيمهم وسلوكهم ومعاملاتهم وهكذا يتكون المصدر الثانى فى **حديث الرسول وسيرته** • كيف لا وقد قال « **انما بعثت** لاتمم مكارم الاخلاق » بقى للناس الذين تلقوا الرسالة مباشرة أو من بعيد أن يتكفلوها وأن يتعلموها وأن يطبقوها فى حياتهم على مجرى الايام وتقلبات التاريخ • ذلك هو « **الاجتهاد** » الذى يمثل المصدر الثالث الذى يقود المؤمنين

فى مفاهيمهم الدينية وفى تطبيقهم للشريعة وفى سلوكهم ومعاملاتهم ·

2) **الاسس** العقيدية أو القواعد الدينية التى تقوم عليها الاخلاق تكمن فى المعنى التى تعطيه لوجود الكون ولمكانة الانسان فى الخلق ولرسالته فى الارض ولمصيره النهائى · ان الفكر والسلوك عند المؤمن مرتبطان بالفكرة الاساسية التى تعلن بوجود الله الاحد والخالق المهيمن علما وقوة على الكائنات · تلك الفكرة التوحيدية هي أساس الفلسفة الاسلامية وكذلك أساس الاخلاق والنظم · وهي تتمثل فى مستوى الخلق بوحدة المادة والروح التى تنعشها وعلى مستوى الانسان فى خاصيتها التى تشترك فيها الحيوانية والعقلية · وعلى مستوى الاخلاق بالتضامن الوثيق الذى يربط بين الافراد والجماعة وعلى مستوى النظم السياسية فى وحدة الدين والدولة ·

وفلسفة « **التوحيد** » (UNITE) هاته هي كذلك فلسفة « **الكلية** » (TOTALITE) التى تجعل الاخلاق تشمل جميع الافكار والتصرفات الانسانية انطلاقا من القيام بالحاجات الحياتية البسيطة كالاكل والشرب الى القيام بعبادة الله وذكره · ولابد هنا من التذكير ببعض المفاهيم الاسلامية :

1) **يتركز** الدين أساسا على الايمان بالله الواحد الصمد المهيمن على العالم وعلى الزمان · **لا تدركه الابصار** ولا العقول ولكنه يدرك كل المخلوقات بعلمه وبمشيئته وبرحمته التى وسعت كل شيء « **ان الله عالم غيب السموات والارض انه عليم بذات الصدور** » · (فاطر 38) · « **يخلق ما يشاء وهو العليم القدير** » (الروم 54) ·

2) الايمان بالوحي النبوى وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنزل عليه القرآن هدى للناس « **الذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** » (البقرة 5) ·

3) ان الله خلق الكون والكائنات وهو وحده يعلم حقيقتها وأنواعها ومصيرها « **ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة** (الشورى 29) « **ويعلم ما فى السموات وما فى الارض والله على كل شيء قدير** » (آل عمران 29) ·

4) كل ما فى الكون خاضع لمشيئة الله ومكلف بعبادته وتقديسه « **يسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا** » (الاسراء ـ 44) · هاته العبادة تكتسى بخاصة الادراك والوعي عند الانسان العاقل وتكمن فى الايمان بالله وعبادته وذكره وتقديسه وفى الاداء الواعى والمسؤول لشرعه ولاوامره ·

5) **ان الله قلد الانسان بمسؤولية كبرى** ذات مظهرين متكاملين احداهما الخلافة فى الارض والالتزام بطاعته والثانية

مسؤوليته فى تحقيق سعادته الابدية بطاعة الله ·

6) لم تكن حياة الانسان فى الدنيا الا مرحلة فى الوجود ولكنها مرحلة يتحقق فيها مصيره بموجب الايمان والتقوى والعمل الصالح · فتسجل كل أعماله ويحاسب ويجازى عليها يوم البعث · « **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** » (الزلزال ـ 7 ـ 8) · « **فاما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فامه هاوية وما ادراك ما هيه نار حامية** » (القارعة 6 ـ 10) أما الحياة الدنيا فانما هي مرحلة فى وجود الانسان « **خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** » ولا يعنى فى ذلك انها « وادى الدموع » كما قيل المملوء بالعذاب والشقاء وانما هي وادى الحياة التى تتواجد فيه الافراح والاقراح « **ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون** » (الانبياء ـ 21) · هذه الحياة وهذه الكائنات تخضع لسنة الله فى خلقه : يولد الانسان فينمو ويتقوى ثم يهرم ويموت بينما الحياة الحقيقية تلفاه فى النهاية فيسعد أو يشقى حسب ايمانه وأعماله ·

7) تتركز الاخلاق الاسلامية على قواعد الحكمة التى تضمن له القوام الحكيم بين البحث عن السعادة المعقولة فى الدنيا والبحث عن السعادة الابدية فى اليوم الآخر وهكذا تشمل الحكمة الاسلامية كلا البعدين من دون أن يكون فى ذلك تناقض أو تناقص · والامتداد الى الحياة الاخروية يستحوذ على الحياة الدنيا من دون أن ينقصها من معانيها ومتطلباتها الا أن الحقيقة الازلية تجعل الدار الآخرة دار البقاء ودار الحياة ودار السعادة : «**والآخرة خير وابقى**» (الاعلى ـ 17) «**وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** » (العنكبوت ـ 64) ·

8) ان مسؤولية الانسان فى سلوكه الخلقى منوطة بحريته · الا أن هاته الحرية تهيمن عليها ارادة الله · واذا راينا من جهة اخرى ان اعمال وأفكار الانسان تخضع لعوامل غريزية حياتية ولتاثيرات البيئة الطبيعية وللتراث النسلى وللوسط الثقافى والاجتماعى فان اكتسابه للعقل يجعله يتحكم فى هاته التاثيرات وتتقرر مسؤوليته نتيجة لملكة الاختيار « **وهديناه النجدين**» «**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » (الكهف ـ 29) لكن مصير الانسان ونجاته تحتاج الى الهداية الالهية التى توجهه وتقوده فى طريق الحق والخير · تلك القواعد المختلفة تصور مجملا مبسطا وملخصا للعقيدة الاسلامية وهي بمثابة حبكة نسيج تحاك عليها أعمال الانسان وتسجل ·

3 ـ ما هو المضمون العملى للاخلاق فى الاسلام ؟

ليس فى نيتنا أن نأتى بعرض مفصل للاخلاق فى الاسلام وانما نود أن نوضحه ببعض الامثلة المعبرة عن ذلك ·

1) ان الايمان كما حددنا مبادئه هو أساس الاخلاق ودافعها ومبررها « انما الاعمال بالنيات » (حديث شريف) . وأما الذين يسعون من دون أن يكون الايمان دافعا لسلوكهم فلا قيمة لاعمالهم « **الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** » (الناس – 38) « **فاولئك أعمالهم كسراب** » (النور – 39) أو كما جاء فى آية أخرى : « **مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته** » (آل عمران – 117) .

2) ان الفضائل التى سميناها أساسية توجد على مستوى الضمير والدافع النفسى ونذكر منها « المرحمة » التى معناها الحب والسخاء والرحمة والاحترام للكائنات وللاشياء ومنها « الصبر » الذى هو تحمل المشاق والشجاعة فى مكافحة الشر « **تجده عند المؤمنين الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس** » ومنها «الصدق» الذى يعبر عما هو حق وعدل ويقتضى الاخلاص والاستقامة والشرف والكرامة . وبالطبع فان هاته الفضائل تتعارض مع الخصال الذميمة كالبخل والبغضاء والجبن والكبر والكذب .

3) أما الفضائل العقلية فهي تشتمل من ناحية أولى عن **العقل** الذى نستطيع بمزيته التمييز بين الخير والشر وتفهم أحوال العالم وتسخيرها للاهداف الحياتية ، ومن جهة أخرى عن **العلم** الذى يكتسب بالتجربة والدراسة والبحث . ان العقل والعلم يسمحان للانسان أن يسيطر على الطبيعة ويستخرج ثرواتها الكامنة والبارزة كما يسمح له باكتشاف القوانين التى تسير الكون وبمشاهدة الآيات العظيمة التى تظهر فى خلق الله .

4) ان العمل الفاضل يهدف الى الكمال الذى يحققه الاسلام فى حياة الانسان والمجتمع . وهذا الكمال ليس معناه التخلى عن الدنيا بل بالعكس هو التمتع بالحياة فى معناها الكامل الذى يجمع بين أبعاد الحياة الحيوانية والاجتماعية والجمالية والفكرية والروحية . وهنا سنعرض بعض المظاهر الاساسية فى مكارم الاخلاق :

– أما على المستوى البشرى الادنى فالاخلاق تتمثل فى « القوام » حيث أن البحث عن السعادة الدنيوية هو من المطامح الطبيعية والمعقولة الا أن الانسان متعرض الى دواعى متناقضة تتراوح ما بين الغريزة الحيوانية وتطلعات الفكر . والحكمة اذا تقوم على التوازن الذى يعنى فى نفس الوقت بقاء حياتى وارتقاء نفسى . وهكذا فانها على مستوى الاقتصاد الفردى تستقيم بعيدة عن البخل والاسراف « **والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** » (الفرقان – 67) .

وبالعكس فان هاته الفضائل لا تقبل ما هو من شانه أن يضر بصحة الانسان

الجسمية والعقلية والاجتماعية « **قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن** » (الاعراف ـ 33) .

ـ وأما على المستوى البشرى المتوسط فنرى الانسان يتعلق بقيم جمالية ترقية وشرفية تتجاوز حاجياته الحيوانية « **اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد** » (الحديد ـ 20) . وكذلك «**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث** » (آل عمران ـ 19) والاخلاق هنا تمثل الوازع الحكيم الذى يهدىء الشهوات ويحولها نحو قيم افضل واحسن . « **ذلك متاع الدنيا والله عنده حسن المئاب** » (آل عمران ـ 14) .

ـ اما على المستوى الفكرى الاعلى فان الانسان يبحث عن الملذات الجمالية والادبية والفكرية الا أن استجابته لمواهب الفنون والعلوم تخضع لرقابة الحكمة والخلق السامى لان سوء الفهم لهم يؤدى الى الفسوق والفساد . ان التمتع بالجماليات وبالنعم التى سخرها الله لعباده ليست محظورة ولا ممنوعة « **قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق**» (الاعراف ـ 526) بل بالعكس والله يقول « **انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب** » (الصافات ـ 6) بل جعل الارض مرحبة بالحياة ومزينة بما فيها ففجر ماءها وشق أنهارها ورفع جبالها وملا بحارها « **أانتم اشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم**» (النازعات ـ 27 ـ 33) ولكن ليس للانسان أن يغتر بمفاتن الدنيا لانها امتحان يجب أن يخرج منه منتصرا ومفضلا «**انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم أحسن عملا**» (الكهف ـ 7) كما أن التعمق والتوسع في معرفة المخلوقات والكون من شانهما أن يزيدا للايمان أبعادا أسمى : ليس هناك علم من العلوم الطبيعية والكونية الا وهو مأمور به سواء كان فى الكونيات أو فى الطبيعيات أو فى التشريح أو حتى فى علم الجنين وتطور الكائنات « **أفلم ينظروا فى ملكوت السموات والارض** » (الاعراف ـ 185) .

« **أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى انسماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت** (الغاشية ـ 17 ـ 20) .

« **قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق** » (العنكبوت ـ 20) .

« **فلينظر الانسان مم خلق** » (الطارق ـ 5) .

الا أن على الانسان أن يحترز من المغامرة فيما وراء المعقول اذا لم يكن لديه أساس علمى موضوعى أو حقيقة

منزلة فان « **من الناس مـن يجـادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير**» ٠ ليس من المعقول اذا أن يوقع الانسـان بنفسه فى مخاطر الظن « **وان الظـن لا يغنى من الحق شيئا** » (يونس ـ 56) ولا تؤدى به النظريـات الخاطئة الا الى الهلاك « **ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كـان عنه مسؤولا** » (الاسراء ـ 36) ٠

ـ أما عـلى المسـتوى الاجتمـاعى فأهم ما تشمله الاخلاق يتمثل فى العدالة وحتى على المستوى الجمادى نجـد أن الاهداف ترجع الى ضمان السعــادة والسلامة الفردية ٠ فاذا كان المجتمـع يطالب الفرد بالمشاركة فى تحقيــق السعادة والامن والسلام لغيره مــن الافراد فانها تعطيه من الوسائل ومـن ثقافة ومن أمن أكثر مما تأخذه منه ٠ وهاته الاخلاق الاجتماعية التى تربـط الناس بعضهم ببعض تظهر على كـل مستويات العلاقات الطبيعية والاقتصادية والثقافية والروحية بينما تبقى خاضعة لمأمورية التضامن والعدالــة ٠ الا أن التنافس بين الناس سواء ساده طابـع السلام أو طابع العنف فانه مرتبــط بالغريزة البشرية التى من أخطارها أن يتغلب الاقوياء على الضعفاء فيحرمون لهذا كانت الاخلاق بحيث ما هي تكسب السلطة القانونية وعليها تتركز المعاملات الاجتماعية تعلن بأن كل الناس لهـم حق فى الحياة والكرامة وانهم كلهـم سواسية عند الله وأمام عدالته وأمام رحمته ٠

كما انها تؤكد فى الميدان الاقتصادى طابع الاستخلاف فى الملكية وذلك مـن جهة أن الله وحده « **له ملك السموات والارض** » (الحديد ـ 2) « **وأن ليس للانسان الا ما سعى**» (النجم ـ 38) ٠

والامـر هـو « **آمنـوا باللـه ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيـه** » (الحديد ـ 7) واذا كانت الملكية الخاصة الفردية أو العائلية محمية ومضمونـة لانها ثمرة الجهد والعمل فانها مـن ناحية أخرى تخضع للمراقبة الخلقية والقانونية التى لا تتعدى الى استغلال وظلم الناس بل تعم فوائدها على الناس ولا سيما على الضعفاء منهم ٠ ثم اذا أنفق الانسان مما جعله الله مستخلفا فيه فانه لم يقم بذلك بأداء صدقـة اختيارية « وانما هو يؤدى واجبا هـو مطالب فيه » ٠ « **وفى أموالهـم حـق للسائل والمحروم** » (الذاريات) أمـا الصدقة فتختلف عن الزكاة بطابعهـا الاختيارى كما تختلف عن الانفاق فى سبيل الله الذى هو مطلوب بالحـاح ولكن بدون تحديد قانونى ٠ وبالعكس فان الاخلاق تستنكر التكديس الغيـر المثمر والاحتكار للاموال « **والـذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهـم بعـذاب أليـم** » (التوبة ـ 24) وذلـك ليس فقط لان الافراط فى كسب الامـوال يؤدى الى الكبرياء والاضطهاد « **ان الانسـان ليطغى أن رآه استغنى** » ولكن كذلـك لانه من عوامـل التزمـت التفضيـلى

المسيطر على المجتمعات « **وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون** » (الزخرف ـ 21) • ذلك الاهتمام بالعدالة الاجتماعية والانسجام نجده كذلك على مستوى الاخلاق الجنسية (الزوجية) المبنية على أهمية وخطورة **الميثاق** الذى يجمع بين الزوجين وعلى **المساواة** بينهما أمام القانون « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** » وعلى **المودة** « **وجعل بينكم مودة ورحمة** » وعلى **الاحترام والتضامن** « **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** » وعلى **التقسيم** العادل **للمسؤوليات** فى التربية والانفاق وواقعية هاته الاخلاق جعلتها تسمح « بغير رضا » اذا صح التعبير ، ولا لغرض الا لضمان التلاؤم والاستقرار الاجتماعى بتعديد الزوجات « **وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء** •••» النساء 2) أو بالطلاق اذا نفذت وسائل الصلح والمراجعة • وبالعكس فأن الاسلام مثل الديانات الموحدة التى سبقته يحرم تحريما قاطعا كل علاقة جنسية تخرج عن نطاق الزوجية الشرعية •

ان العدالة الاجتماعية تزداد تماسكا بالرابطة الروحية التى تكون الاخوة داخل الامة بمافيها من التضامن المادى والمعنوى ومن الاحترام الشامل والمطلق لتطبيق العدالة للجميع • وهاته العدالة تشمل الامن والممتلكات والشرف والكرامة الانسانية لكل فرد ، كما تشمل التعاون المادى والمعنوى المباشر أو المنظم والخدمات الاجتماعية والثقافية •

أما فى مستواها الاعلى فتتمثل الاخلاق الاجتماعية فى تبليغ وتحقيق وحماية الرسالة الروحية • فالامة الاسلامية تعيش فى البيئة الروحية التى تظهر فى الشعائر الدنية وتكمن فى شعور الامة بأنها المسؤولة عن الرسالة المتمثلة فيها •

ـ وأخيرا على المستوى الكونى تتجاوز الاخلاق دائرة الانسان والامة الاسلامية لتشمل كل المخلوقات • أما فى الميدان البشرى فتسود روح المساواة المطلقة عند الله فلا الجنس ولا اللون ولا المرتبة الاجتماعية ولا الثروة كفيلون بأن يعطوا لايكان كرامة أو حقوقا يتميز بها عن الآخرين اذ لا يميز بين الناس الا درجة الالتزام بالايمان ، والمهم فى ذلك ليس التظاهر فى الشعائر اذ « **ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين** » (الآيه) ان الفضيلة فى تقوى القلوب وفى العمل الصالح ومخافة الله وفى هاته الفضيلة الخلقية يتفاضل الناس درجة عند الله « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير** » (الحجرات ـ 13) ثم تمتد الفضيلة الى

الاحترام وتقديس الحياة سواء فى العلاقات البشرية « **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق** » (الانعام 151) أو على مستوى الكائنات « **وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ...** » (الانعام ـ 38) .

واذا كان العنف والقتال والبأس لا ينفصلون عن حياة الانسانية فعلى الانسان أن يواجهها لا كمحنة وابتلاء فحسب « **والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس** » ولكن كذلك كمكروه يجب محاربته والتحرر منه والصبر عليه اذا لزم ذلك .

5 ـ الاسس النظامية التى تتحقق الاخلاق تحت ظلها :

لم تكن النظم الخاصة بالمجتمع الاسلامى محددة شرعيا فى تركيبها وأجهزتها الا أن رسالتها ووظائفها معرفة بوضوح . والاطار الشرعى لهاته النظم على ثلاث مستويات : المصادر الاساسية العقيدية ـ الوظيفة والامتيازات ـ أسس النظام والتسيير .

1) ما هي المصادر العقيدية التى تعتمد عليها الانظمة ؟

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما لو اتبعتموه لن تضلوا من بعدى أبدا كتاب الله وسنتى»

ـ **كتاب الله** هو المنبع الاول والمرجع الاساسى الذى يحمل رسالة الايمان وروح القانون . انه كلام الله الذى يهدى للقيم الخلقية والدينية . أما **السيرة** النبوية فهي تنظم وتطبق عمليا مقتضيات الايمان وحدود الشريعة . ولهذا جمع فى الامر طاعة الله وطاعة الرسول : « **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ...** » (التغابن ـ 12) « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** » (الحشر ـ 7) . أما ما يميز هذين العنصرين فهو أن الرسول لم يكن الا المسلم الاول والمثل الاول : « **وأمرت لان أكون أول المسلمين** » (الزمر ـ 12) كما انه المبلغ المسؤول « **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالاته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين** » (المائدة 67) .

وهناك مصدر ثالث مفتوح فى الزمان والمكان وهو **الاجتهاد** الفردى أو الجماعى الذى يواجه به المؤمنون المشاكل التى تطرح عليهم مع التمسك بمبادى الشرع . ومسؤولية الامة فى وفائها لرسالة الايمان واحترامها للمبادىء الخلقية ، تفرض وجود نظام جماعى مكلف بالقيام على هذه المبادىء « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** » (آل عمران (104) ويمكن لنا أن نتصور هاته المنظمة التى تمثل الضمير الدينى والمسؤولية الخلقية للمجتمع والتى تلعب فى نفس الوقت دورا استشاريا وتشريعيا وربما زاجرا للمخالفات ، وتكون سلطتها التى تعتمد على مبدا احترام الاخلاق الاساسية تهيمن على سائر الامة بما فيها الانظمة

الحكومية · وذلك يعنى أن السلطة الحاكمة تخضع للمبادىء الخلقية المفروضة ·

أما على المستوى المركزى فتوجه النظم الحكومية :

انه من الحكمة السامية عدم تجميد نظام الجهاز التنفيذى للسلطة الحكومية أما الدولة التى أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة فهي مثل وحيد فى نوعه لانه مرتبط مباشرة بالوحي ، ولترسيخ العقيدة فى الناس ولتشييد المجتمع الاسلامى فى ظروف تاريخية غير عادية · وأما السلطة الشبه المطلقة التى سنتها العائلات الملوكية من بعد فقد كانت لا محالة انحراف خطير عن مفاهيم العقيدة ولكن لا ننسى من جهة أخرى أن الحكومات فى تاريخ الاسلام حتى يومنا هذا كانت تحكم باسم الشريعة الاسلامية سواء ابتعدت عنها أو اقتربت منها · ومهما يكن نموذج الدولة الاسلامية فانها تخضع لمبدئين أساسيين : المبدأ الاول هو أن تحكم بما أمر الله وأن يلتزم أولو الامر بتطبيق الاخلاق والشريعة الاسلامية وبالدفاع عنها وحماية الاراضى ومصالح الامة الاسلامية · وبقدر ما يتمسكوا بما أمر الله فان لهم أن يطاعوا كما تنص عليه الآية الكريمة : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم** » (النساء ـ 59) وبالطبع فان عليهم أن لا يحيدوا عن أمر الله « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** » (المائدة ـ 44) كما أنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » (حديث) ·

المبدأ الثانى هو أنه على الحاكم أن يقتضى مبدأ الشورى : « **وأمرهم شورى بينهم** » (الشورى ـ 38) «**فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين** (آل عمران ـ 159) · أما كيفية تطبيق مبدا الشورى الذى يعارض كل أنواع الاستبداد فى الرأي والامر فهو موضوع دراسة اجتهادية من حق المفكرين والمسؤولين الاسلاميين أن يحددوا اطارها حسب الظروف الاجتماعية والفكرية الراهنة ·

5 ـ الاخلاق والنظم الاسلامية على ساحة التاريخ :

لم يكن من شأن الرسالة الاسلامية أن تجعل من الحياة الدنيا جنة فى الارض ولا أن تجعل من كل الناس أولياء الله · وذلك لان الجنة محلها فى الدار الآخرة « **وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** » (العنكبوت ـ 64) وما الولاء الا الاجتهاد فى الفضيلة والتقوى التى تقرب من الله « **ان أولياؤه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون** » (الانفال ـ 34) أما الحياة الدنيا فهي امتحان يتعرض فيه الانسان لدواعى متناقضة للخير وللشر ما بين الحيوانية التى يحملها فى طبيعته والروحانية التى تحرره ·

وفى هذا الامتحان وفى هذا التنافس الخطير من أجل النجاة ليس للافراد والجماعات أن يحققوا نفس النجاح ·

فمنهم من يسعى ونور الله بين يديه ومنهم من « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** » (البقرة — 7) وبين هؤلاء وهؤلاء درجات فى الكمال والضلال · الا أننا حين نتكلم عن حضارة الاسلام من الوجهة التاريخية نذكر أن هنالك انتصارات وهزائم وانحطاطا ونهضة · وبالرغم من ازدهار تمدنى امتد عدة قرون واتسع على قارات العالم وشمل مئات الملايين من البشر فالتطور التاريخى للعالم الاسلامى لم يكن متساويا واذا حاولنا أن نتحكم فيه نجد أمامنا نوعين من المسائل : المسألة الاولى ذات طابع فلسفى وهي : هل كان من المفروض على الامة الاسلامية أن تحول البشرية الى مجتمع مثالى مؤمن وعادل وموحد ومزدهر ومتكافىء ؟ من غير شك انه من حقها أن تحافظ على فضيلتها أحسن مما كان وأن لا تبتعد عما وصفها الله به فى قوله « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**» (آل عمران 110) · لكن الكمال البشرى ليس من طابع الحياة « **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم**» (المائدة 48) ·

المسألة الثانية تتعلق بجدلية التاريخ فاذا كانت حوادث الزمان خاضعة لمشيئة الله حيث « **أن الارض لله يورثها من يشاء من عباده** » (الاعراف 128) فمشيئة الله تقتضى التصرف الواعى والمسؤولية الفعالة للانسان « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**» (الرعد — 11) · وحسب هذا المنطق يقول : « **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون**» (الانبياء — 105) أما فيما يخص التفهم الموضوعى للعوامل التى تؤثر فى مصير الامم فهي أكثر تعقدا مما هو فى سلوك الافراد كما انه ليس من السهل أن نحدد دور الاقتصاد والبيئة الطبيعية بل وحتى مفعول الغريزة والشهوة والصدفة والارادة والاغلاط ·

ان الموضوعية فى الحكم على التاريخ تنفلت من قبضة الادراك والمعرفة على المستوى الانسانى · لقد حاول ابن خلدون ومن بعده كارل ماركس تحليل بعض العوامل التى تسيطر على تاريخ المجتمعات ولكن فى جدلية التاريخ ما هو حقيقة علمية وما هو تهافت عشوى ولهذا ليس من أدعائنا أن نجعل من فلسفة التاريخ علما موضوعيا بل نكتفى بعرض بعض العوامل السلبية التى كدرت تاريخ العالم الاسلامى وهي ترجع غالبا الى التفاوت الذى طرأ بين مبادىء الاخلاق والشريعة الاسلامية وبين تطبيقها وواقع الحياة · ما هي هاته العوامل ؟

1) تصدع الوحدة العقيدية فى مفهوم الايمان أدى الى اختيارات فردية

واجتماعية اعدمت التوازن فهي تارة تميل نحو تصوف انعزالى رافض لحقائق الحياة وتارة نحو اقتصادية مستحوذة على الحياة ونافية للقيم الخلقية والروحية ٠

2) التباعد الذى وقع بين تحمل مستسلم رسالة الايمان وبين التفهم العقلانى للعالم أدى الى تحجر الفكر الدينى فى قالب التزمت الفقهى عوض أن يتفتح لآفاق العلوم الطبيعية والانسانية ٠

3) التناقض بين دوافع الشهوات المادية ودواعى الامتناع الروحى كثيرا ما يؤدى على مستوى الافراد الى تغلب الغريزة التى تدعو للشهوات ولحب السلطة وعلى مستوى الاجتماعى الى تلاعب المتناقضات بين مصالح الجماعات والطبقات والاسر المالكة والدول الحاكمة ٠

4) كثيرا ما يقع تباعد بين معتقدات الجماهير المؤمنة والمتمسكة بالشعائر الدينية وبين المفاهيم التى تحملها رجالات السياسة الذين لا يعبؤون بحماية الدين واحترام مبادىء الديمقراطية وتطبيق العدالة الاجتماعية ٠

5) اذا كان المسلمون قد بادروا فى بادىء الامر بالاقتباس المتفتح والمثمر من الافكار والفلسفات القديمة أو الاجنبية من دون أن تنقص من عقيدتهم أو تلفتهم عن الثقافة الاسلامية فانهم في العصور الاخيرة لم يتحكموا فى تأثير الافكار المختلفة التى تحملها المدنية الغربية ٠

6) النزاعات السياسية العقائدية جعلت الوحدة العضوية للعالم الاسلامى تتشتت من دون أن تخفف من خطر التفتت السياسى بروابط التضامن والتعاون بين الدول ٠ وازدادت تلك النزاعات حدة بسبب الهيمنة الاستعمارية وبروز النزاعات القديمة القومية وتنافس الدول العظمى ٠

7) كان من شأن الاعتداءات الخارجية منذ بداية انتشار الاسلام حتى عصر التوسع الاستعمارى الحديث بما فى ذلك من حروب صليبية وغارات استعمارية أن تعرقل القوة السياسية والاقتصادية والروحية والثقافية فى العالم الاسلامى ٠

8) كان فى استمرار أو فى بروز عوائد وعقائد وأفكار جاهلية أو أجنبية خارجة عن المفاهيم الاسلامية عامل جهل وشعوذة وركود مخالفة للفكر الاسلامى المحرر للعقل ٠

9) هنالك عوامل أخرى أقل عمومية تدخلت فى تسلسل الاحداث التاريخية ٠ كخصائص الاقتصاد وطبائع البلدان والاحوال الاجتماعية وحتى التطورات الوبائية التى كانت سببا فى هلاك البشر وتخلف العمران وركود المدنية ٠

لم تشمل هاته القائمة كل ما يمكن أن يقال فى هذا الشان واذا كان هذا العرض متشائما نوعا ما فلا يمنعنا من

الحكم بأن الشعوب الاسلامية بقيت مرتبطة بالقيم الاسلامية لا فى العهد الزاهر للمدنية الاسلامية فحسب، ولكن حتى فى المحن المؤلمة التى مرت عليها ٠ لهذا فان أخطر عهد يهدد وجود الامة الاسلامية وقيمها ووحدتها العقيدية ليس عهد الاغارات الوثنية ولا الاعتداءات الصليبية ولا الفتن الداخلية ولا حتى الغزوات الاستعمارية حيث استطاعت فى آخر الامر أن تردها أو تنتصر عليها، وانما هو فى هذا النصف الاخير من القرن العشرين ٠ ذلك التحدى المتعدد الاشكال الذى يقوم به العالم العصرى : تحدى استراتيجى يجعل من العالم الاسلامى عالما ثالثا تتنازع فيه الدول الكبرى للسيطرة السياسية والاقتصادية والعقائدية ٠ تحدى تكنولوجى حيث أن الغلبة القاهرة للغرب تواصل ضغطها وسيطرتها على عالم متخلف كسدت فيه مرافق الاقتصاد والعلم والثقافة منذ قرون عدة ٠ ثم من الناحية الفكرية تحدى فلسفى حيث أن العقائد الالحادية والمادية تتسرب فى ضمائر المسلمين ولا سيما فى النخبة السياسية والفكرية ٠ وأخيرا تحدى اجتماعى حيث ان الامة الاسلامية تتخبط فى تناقضاتها التاريخية الناتجة عن التخلف والتى أظهرت فيها عقليات واختلافات طبقية لا تتماشى ومبادىء العدالة والاخوة ٠

6 ــ مفترق الطرق :

يعيش العالم الاسلامى اليوم على ملتقى مزدوج للطرق. حيث ان تطوره الزمنى بين الماضى والمستقبل يلتقى بالتطور المزدوج للعالم الغربى ٠ فمن جهة يخرج العالم الاسلامى من عهد التخلف والاستعمار الطويل مع العزم المنعقد لا لاحياء واثبات قيمه الخاصة فحسب ، وانما كذلك للانطلاق فى عهد التكنولوجية الحديثة ٠ وفى نفس الوقت يصطدم بالغرب المنقسم الى شطرين متعاديين يهدد تنازعهما سلامة العالم وتواجد الامم وحتى حياة البشرية ٠ وكلا المعسكرين يعتمد على فلسفات مادية تتجاهل القيم الروحية، ولا يختلفان الا فى اختياراتها الاجتماعية الاقتصادية فالاول موجه نحو حرية المبادرة والآخر نحو اشتراكية وسائل الانتاج ٠ والعالم الاسلامى يتعرض للضغوط الصريحة أو المخفية لا على المستويات السياسية والاقتصادية والاستراتيجية فحسب، ولكن حتى على مستوى العقيدة والفكر والسلوك الخلقى ٠

وهذا الضغط المختلف الاشكال يتمخض عن تيارات فكرية مختلفة تتقارب أو تتصادم، فتثير التناقضات الداخلية فى المجتمع الاسلامى، كما تزرع فيها نفس الاختلافات العقائدية التى تتنافس فى المجتمعات الغربية ومن ضمن هاته التيارات التى لا يسهل تحديدها فى محتواها وفى تطورها وفى تداخلها سنذكر :

1 ــ تيار اسلامى فى أعماق الجماهير الغفيرة والذى مع ضعفه فى ميادين الشعور والتعبير والتنظيم يشهد عن

طموح شعبى يهدف لتحقيق الكمالات الاسلامية فى الاخلاق والقوانين والنظم وفى الترقية الاجتماعية والاقتصادية العادلة ٠

2 ـ تيار مناضل ينتسب للسلف الاسلامى ويطالب بحكم ونظام خلقى متمسك بالشرع والتقاليد الاسلامية ٠ ربما أدى به نضاله السياسى وضعف تقييمه لحقائق ومتطلبات العصر الى التطرف والانعزال بالنسبة للجماهير التى من شانه أن يقودها وبالنسبة للنظم السياسية التى ينكر شرعيتها ٠

3 ـ تيار محافظ يدعى التمسك بالقيم الدينية ويعتمد على المظاهر أكثر مما يعتمد على المعانى.وهو فى الواقع يمثل تحالفا بين الطبقات أو الجماعات الحاكمة والمسيطرة على الاقتصاد وفرقة من رجال الدين المبتعدين لا عن فهم التطورات التى طرأت على الفكر وعلى المعرفة فحسب ولكن حتى عن المحتوى العميق الخلقى والاجتماعى والفكرى فى الاسلام ٠

4 ـ تيار فكرى وسياسى متشبع بالمفاهيم الغربية العصرية ومقتنع بأنه لا توجد حلول خارج المدنية الغربية والديمقراطية منالنوع الليبرالى ٠ أما الدين فلا يكتسى فيه أهمية دولية بل يمكن أن يكون مسالة اختيارات فردية ربما يجوز احترامها ولكن لا يقبل الامتثال لها أو الاعتماد عليها ٠

5 ـ تيار يسارى ينتمى من قريب أو من بعيد للماركسية ٠ له اختيارات ثورية اجتماعية ٠ يتسامح نوعا ما مع ما نسميه « مخلفات العقائد الدينية » وربما يسعى الى ادماج المفاهيم الاسلامية والماركسية بصفة وقتية تتناسب مع ظروف خاصة

6 ـ دون هذه التيارات الكبيرة ٠ توجد لا محالة أشكال عديدة من النزاعات العقائدية التى تفرق بينهم تزداد حدة مع تداخلها فى التحالفات السياسية الراهنة التى تصطاد الشعوب والدول فى شبكة الاستراتيجيات الدولية ٠

ان الازمة الخلقية فى العالم الاسلامى تظهر على مستوى النظم الحكومية بمقتضى النزاعات القومية الغيورة عن استقلالها وشخصيتها ومصالحها الاقتصادية بعامل الاختلافات الكبيرة فى نوعية النظم الدولية التى تتراوح ما بين الاحكام الاقطاعية الى الجمهوريات اللائكية مرورا على الدكتاتورية العسكرية أو المدنية ٠ بما فيها من يمينية أو يسارية ٠

هل يمكن لنا أن نتنبأ أو نتدارك بوضوح ما هي الخطوط الموجهة للتطور فينطلق فى ضوءها العالم الاسلامى طبقا لتعهداته ولرسالته الروحية التى تهدف الى آفاق انسانية يسود فيها التقدم والعدل والحرية ٠ انه ليس من كفاءتنا فى اطار هذا البحث التمهيدى أن نتكهن بماذا يحدث فى المستقبل ولا أن نرسم الطرق ولكننا نحاول أن نبرز

الاهداف الاساسية لاستراتجية عامة تحتاج الى استشارات وتقديرات على مستوى أوسع وأكفأ ٠

7 ـ في سبيل استراتجية بحث وعمل :

اذا كنا نتكلم بصفتنا مسلمين ومؤمنين بالله وملتزمين بخدمة الاسلام فان هدفنا يكمن فى تحقيق الفضائل الخلقية والروحية وهذا يفترض أهدافا عملية نذكر منها :

أولا : تكوين الانسان على مستوى الايمان أي فى معرفة الله وحبه وعبادته والعمل بدينه والاقتفاء بسنة رسوله ٠

ثانيا : تحقيق الانسان فى بعده الحياتى الاجتماعى اي فى حقه للحياة الكريمة وللامن وللصحة البدنية وللسعادة النفسية ٠

ثالثا : تحقيق الانسان فى بعده الخلقي،بما فى ذلك من محاسن نفسية وثقافية أساسية ومن فضائل سلوكية فى المعاملات الفردية والعائلية والاجتماعية ٠

رابعا : تحقيق الانسان فى بعده الاجتماعى المبنى على مفهوم الاخلاق الاساسية التى تتمثل فى الاخوة والمساواة والعدالة والتضامن فى النظم التى تضمن احترام هاته الاخلاق وتطبيق القوانين التى تنبعث منها ٠

خامسا : تكوين الانسان فى أبعاده الادبية والفكرية التى تعطى للحضارة الانسانية محتواها ومفاهيمها الفاضلة ٠

سادسا : تكوين الانسان على مستوى الامة التى تسودها علاقات الاخوة الصادقة تلك التى صمدت أمام تحديات الزمان وأنواع العدوان وهي التى توجد بين المسلمين عبر الحدود واللغات والاجناس والحكومات ٠

سابعا : تحقيق الانسان فى بعده البشرى أي فى علاقاته مع الشعوب والديانات الاخرى طبقا للمكانة التى خصصها الله للامة الاسلامية « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** » (البقرة ـ 143) ٠ هاته الآية الكريمة تعبر على رسالة الاسلام العالمية كعامل توازن بين الامم وسلام بين الشعوب وذلك يتضمن مسؤولية ايجابية للدفاع عن الحقيقة وعن الحق وعن العدالة والحرية فى العالم ٠

يبقى أن هاته الاهداف الخلقية تتطلب نظما مشروعة وملتزمة بحمايتها وتحقيقها ٠ أما النظام الحكومى فليس من الحكمة أن يتقيد بنموذج متجمد بل عليه أن يتطور حسب الاحوال والزمان والاوضاع الاجتماعية الاقتصادية فى كل بلاد ٠ ولكن اذا كانت الاوضاع الراهنة تجعل من الخيال واللامعقول أن نفكر عاجلا فى حكومة اسلامية عالمية ، ليست الافكار ولا الاوضاع مستعدة لفرضها ٠ فيبقى الاتحاد هدفا نظاميا أساسيا طبقا للوصية الالهية : « **واعتصموا بحبل الله جميعا**

ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » (آل عمران ــ 103) ٠

ولا يتمثل هذا الاتحاد فى علاقات التعاون والتضامن فحسب ولكن فى الاجتهاد الجماعي لتحقيق الاهداف الخلقية فى العدالة الاجتماعية والرفاهية والتقدم والتآخى والسلام بين الامم ٠

لا شك وان العقبات التى تقف دون تحقيق هاته الاهداف المثالية كثيرة ومعقدة، منها ما يكمن فى تناقض الطبيعة الانسانية،ومنها ما هو متعلق بالتطور الداخلى الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى فى العالم الاسلامى،ومنها ما يقع على مستوى الروابط التاريخية والاقتصادية والعقائدية والاستراتيجية مع الدول الكبيرة ومع شعوب العالم ٠ وعلى المفكرين المسلمين الاكثر اطلاعا ووعيا والتزاما مهما كان جنسهم او بلدهم او لغتهم،ان يتعارفوا وان يسعوا فى البحث عن انجح طريق تقود الى مجابهة مشاكل الساعة التى تتخبط فيها ٠ ليست الشعوب الاسلامية فحسب بل كافة الانسانية ٠ لذلك لا يكفى بأن نعلن بوفائنا للاسلام ولا ان نؤذن بشموليته وعبقريته ٠ ان الجهاد الاكبر الذى هو جهاد فى سبيل الاسلام وتزكية الانسان مسؤولية كل مؤمن ، وامتحان متواصل٠ والتوصل اليه يقتضى أن نتعرف على الاسلام احسن مما نحن عليه وان نطلع على تطورات العالم المعاصر ، وتنمية المعارف والافكار اكثر مما هو حاصل ٠ وان نوضح الاهداف والمقاصد وان نحدد بموضوعية اهم القضايا ، بعد تقييم الحواجز والعوائق، وان نضع الخطوط الهامة لاستراتاجية عامة ، للبحث والعمل على طول امتداد العالم الاسلامى ، وعلى اختلاف اوضاعه ٠ كثيرا ما كانت المساعى مبعثرة او مشلولة والافكار متنافرة او مشبوهة لكن الاضطرابات التى يشهدها العالم الاسلامى وردود الفعل التى يثيرها،تعبر فى مداها وفى ثباتها عن تلك القوة الفكرية التى ضاق عليها عالم يسوده الظلم والبخل والكذب،وتابى الا أن تتفجر بانوارها لتضىء العالم بالحق والعدل والسلام ٠



هل الى عزة المسلمين من سبيل ؟

الاستاذ محمد الهادي الحسيني

ها نحن نقف على عتبة القرن الخامس عشر للهجرة المباركة · فهل يلوح فى الافق ما يشير الى أن هذا الجيل من المسلمين هو المعنى بقوله عز وجل : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون** » ؟ النور الآيــة 53 ·

لقد طوى المسلمون من القرون أربعة عشر ، ذاقــوا خلالهــا الحلــو والمر ، وعرفوا اليسر والعسر ، وشاهدوا المد والجزر ، وتقلبوا بين العز والقهــر ، وعاشوا الهزيمة والنصر ، ومسهم الغنى والفقــر ·

لقد أقام المسلمون خلال هذه القرون الخالية دولا كثيرة فى المشرق والمغرب، فى الشمال والجنوب ، وقد لوحــظ أن هذه الدول كانت أقوى بنيانا ، وأرسى قواعد ، وأمتن أوتادا ، وأرهب للاعداء ما حكمت بما أمر الله ، واستمسكــت بالعروة الوثقى ، وانها كانت أوهن من بيت العنكبوت ما اتخذت الهها هواها ، واستبدلت الذى هو أدنى بالذى هــو خير ، واتبعت ما تتلو الشياطين ·

كما لوحظ على هذه الدول فى أيــام عزها وصولتها ، أن قوتها لم تكن ـ فى الاغلب ـ مرتكزة على قوة عتاد ، أو كثرة عدة ، بقدر ما كانت تلك القــوة مستمدة من مبادىء الاسلام ، ومن تشبث الناس فيها ـ حكاما ومحكومين ـ بحبل الله ، ووقوفهم عند حدود دينه · وكــم من مرة ظن المسلمون ـ عندما أعرضوا عن ذكر الله ـ أنهم أولو قوة ، وأولــو بأس شديد ، وأعجبتهم كثرتهم ، ولكنهم عند لقائهم بالعدو ولوه الادبار ، وأثاروا

فى وجهه الغبار ، وفضلوا على الاستشهاد الفرار ، ولم يكلل جبينهم الغار . وكم من مرة كانوا ـ المسلمون ـ قلة فى العدد ، محرومين من المدد ، عارية ظهورهم من أي سند ، وظن عدوهم أن لن ينجو منهم أحد ، فاذا بهم ـ المسلمين ـ يسحقونه سحقا ، ويمحقونه محقا ، ويذيقونه من أمره رهقا .

وقد خاض المسلمون تحت لواء الاسلام جهادا طويلا مضنيا ضد الدول الطاغية ، كالدولة الساسانية والدولة البيزنطية ، وتصدوا لهجمات ظالمة شرسة ، حاقدة كالهجمة الصليبية ، **والهجمة المغولية ، والتكالب الاوروبى الذى ابتدأ منذ القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد) ، وما يزال مستمرا ، متواصلا الى اليوم فى عدة** أشكال منها **المفضوح المكشوف ، وهو اليسير ، ومنها المستور الملفوف ، وهو العسير .**

وقد حاول أعداء الاسلام ـ وما زالوا ـ أن يحطموه من الداخل ، بنشر مذاهب وافكار ضالة بين المسلمين ، فظهرت السبئية ، والمزدكية والبابكية ، وحركة القرامطة ، والبهائية والقاديانية، ويحاول الآن أعداء الاسلام بشتى الوسائل أن يحطموه باشاعة الداروينية، والفرويدية، والشيوعية ، والماسونية ، والافكار الرأسمالية بين شباب المسلمين ... وقد تصدى لهؤلاء وأولئك علماء الاسلام، فكشفوا الضلال ، وبينوا الزيف ، وفندوا الادعاءات ، وفضحوا المضللين . وبقي الاسلام نقيا ، صافيا ، وسيبقى رغم كيد الكائدين ، وضلال الضالين المضلين، ألم يعد رب العزة بحفظ هذا الدين عندما قال : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » ؟ الحجر . الآية 9 . ألم يخبرنا بانه لا يمكث فى الارض الا النافع المفيد بقوله : « **كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض ...» ؟** الرعد الآية 19 .

وقد عرف المسلمون خلال الاربعة عشر قرنا الماضية أمراضا فتاكة ، **وأدواءا قتالة ، وعللا مهلكة ، كانوا هم السبب فيها ، اذ أن الله جلت قدرته لا يظلم مثقال حبة فى الارض ولا فى السماء ، وقد فعلت فيهم هذه الامراض ـ وما زالت ـ فعلا سيئا ، ولطخت ـ وما زالت ـ صفحات عديدة من تاريخهم ، ومنها :**

المذهبية : التى فرقت الجمع، وشتتت الصف ، وأهدرت الطاقة ، وأضعفت القوة ، وهدت البنيان ، وصار الاسلام ـ نتيجة هذه المذهبية ـ اسلامات ، والدين أديانا ، والاخوة أعداءا ، وأصبحنا اليوم نقرأ الكتب الضخام عن الاسلام السنى ، والاسلام الشيعى، والاسلام الخارجى ... وفى كل اسلام من هذه الاسلامات شيع وفرق يحار فيها العقل .

التسلطية فى الحكم : فقد ابتلي المسلمون ـ قديما وحديثا ـ بكثير من الحكام ، علوا فى الارض وعاشوا

فيها فسادا ، ونبذوا أمر الله « ·· وشاورهم فى الامر ·· » آل عمران الآية 159 · و « أمرهم شورى بينهم ·· » الشورى · الآية 35 · أعرضوا عن كل ذلك ، وراحوا يفرضون على المسلمين ـ بالترهيب ـ أحكاما ما أنزل الله بها من سلطان ، وأخذتهم العزة بالاثم ، ودعاهم الشيطان فاستجابوا له · وان منهم لفريقا اسجدوا لهم عباد الله ، وان منهم لمن يطالبون الناس بطاعتهم وهم يعصون الله ، وان منهم لمن يشهدون الله على ما فى قلوبهم وهم الد الخصام ، وأفتك بالاسلام من أعداء الاسلام ، وان منهم لمن يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ، وان منهم ·· وان منهم ··

التبذير : وكم اضاع المسلمون ـ وما زالوا ـ حكاما ومحكومين من أموال ، كانت كافية لاخراجهم مما هم فيه من سوء الاحوال ، لو انفقت فى ميادين الخير ومواطن الحلال ، فمنهم من أضاعها فى بناء قصور ، ومنهم من بذرها فى تزيين وزخرفة قبور ، ومنهم من صبها فى بطنه فى شكل خمور، ومنهم من أحرقها كالبخور فى محلات الفجور . ومنهم من صرفها فى مهرجانات الفولكلور ، واصفا اياها بالعلمية والثقافية ، رغم « الغايطة والطنبور» ، ومنهم من تكرم بها على جواسيس واصفا اياهم بالخبراء الاصدقاء ، ومنهم من كدسها فى بنوك الاعداء ، بل ان منهم من صنع بها مرحاضا من ذهب ، ليفرغ فيه ما يخرج من الامعاء ·

لا شك ان المسلمين فى غالبيتهم ، قد أدركتهم صحوة فى أواخر هذا القرن المنصرم ، وزالت عن أعينهم غشاوات، وانجلت عن عقولهم ضلالات ، بعد أن كانوا عمي الابصار والبصائر ، فارغى الافئدة ، موبوئى السرائر · وقد جاءت هذه الصحوة ، نتيجة أعمال تلك الصفوة ، من العلماء المجاهدين ذوى النخوة ، فى شتى أصقاع العالم الاسلامى ، كجمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ، ومحمد اقبال ، وابن باديس ، والابراهيمى ، وبن نبى ، والمودودى ·· وغيرهم كثير ·

ورغم ذلك فما زال المسلمون بعيدين عن الصورة الحقيقية التى يتحتم عليهم أن يكونوها امتثالا لامر الله ، فهم متفرقون شيعا واحزابا ، فقراء ، ضعفاء ، جهلاء فى حياتهم وسلوكهم ، جاهلين بقدراتهم وامكانياتهم · وان مثلهم كمثل العير تموت ضمأ فى البيداء · وفوق ظهورها الماء ، وانهم ليعزفون الدواء ، ولكنهم يفضلون الداء ·

ان المسلمين يملكون كل أسباب العزة ، وكل شروط المنعة ، وكل وسائل السؤدد ، وانهم لفى استطاعتهم أن يكونوا القوة الخيرة ، والقيادة الهادية فى هذا العالم الذى يقترب من هاوية ما لها من قرار ، لسيطرة قوى الشر ، وتحكم الطغيان · فما هي هذه الاسباب وهذه الشروط التى منحها الله للمسلمين لو قدروها حق قدرها ؟

أولا : الطاقة الروحية المحركة التى يتوفر عليها الاسلام ، وانها لطاقة ربانية جبارة ، قادرة على تجميع وتحريك كل المسلمين فى طريق واحدة، نحو هدف واحد ، هو الاصلاح فى الارض ، واعمارها ، بما يفيد الناس دنيا وآخرة • ولا بديل لهذه الطاقة ، وان ظن قصيرو النظر أن هناك طاقة أخرى يمكن التعويل عليها • وحتى هذه الطاقة البديلة ان حركت ، فانما تحرك لمسافة قصيرة ، ولا تحرك الا للفساد ، وان ظهر لعمي البصائر ، ومزوري الحقائق أنها للصلاح • ولنا فى تخبط المسلمين وتذبذبهم فى شتى أقطارهم البرهان الساطع ، والحجة الدامغة على فشل وعجز أية طاقة بديلة عن تحقيق المرغوب ، والوصول بهم الى المطلوب • وكل ما فعلته تلك الطاقة البديلة أنها أسلمت الرقاب ، وسلبت الالباب ، وجلبت – بدل الامن – الارهاب ، وان مصير المسلمين اليوم – نتيجة هذه الطاقة البديلة – هو بأيدى قوى أجنبية •

ثانيا الكثرة العددية للمسلمين ، فهم يبلغون اليوم مليار نسمة أو يزيدون، وهم يشكلون بهذا العدد ربع سكان العالم • ولو أن المسلمين مسلمون حقا وصدقا ، وطبقوا أمر الرسول الكريم : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » – والمسلمون كلهم مظلومون فى هذا العصر – أقول : لو طبقوا ذلك ، لارهبوا وأرعبوا كل طماع فيهم ، متربص بهم ، متآمر عليهم • فقد قدر الخبراء العسكريون أن أية أمة تستطيع أن تجند عشر أبنائها ، وان عشر المليار هو « مائة مليون » • فما ظنكم بجيش تعداده مائة مليون مجاهد ، لا يتحرك لاستعمار، ولا يستنفر لاستعباد ؟ ألا يرهب هذا الجيش عدو الله ؟ ألا يقصم ظهر كل معتد أثيم ؟ اي وربى •

ثالثا : الموقع الجغرافى الوسط ، الذى يتحكم المسلمون بفضله فى مداخل ثلاث قارات، ويشرفون على ممرات مائية هي من هذه القارات كالمقاتل من جسم الانسان ، ويراقبون – بفضله – خطوط المواصلات الدولية – برا ، وبحرا ، وجوا – التى تربط شمال العالم بجنوبه ، وشرقه بغربه • ومع ذلك فالمسلمون أجهل الناس بقيمة هذا الموقع ، وأزهدهم فى استغلال هذا الوضع ، بينما تتصارع من أجله كل القوى فى العالم صغيرها والكبير ، وتبذل فى سبيل ذلك الغالى والحقير •

رابعا : الثروة المادية الضخمة ، التى تحتويها أرضهم من معادن ، ونباتات ، وحيوانات ، وطاقة ، فهم يملكون 13٪ من الانتاج العالمى من الارز ، و 10٪ من القمح ، و 54٪ من المطاط الطبيعى ، و 20٪ من القطن ، و 22٪ من الفول السودانى ، و 11٪ من الابقار ، و 25٪ من الاغنام ، و 30٪ من الماعز ، و 9٪ من الثروة الغابية، و 10٪ من قصب السكر ، و 5٪ من الحديد ، و 10٪ من المنجنيز، و 50٪ من القصدير،

و 12٪ من الرصاص ، و 45٪ من معدن الكروم ، و 35٪ من الفوسفات ، و 41٪ من البترول ، و 70٪ من الاحتياطي العالمي من البترول (1) . **وان تكلم العالم عن الطاقة الشمسية كبديل للبترول، فللمسلمين من هذه الطاقة نصيب الاسد، وهذا النصيب يكفى لاحراق العالم كله لا لتدفئته فقط .**

خامسا : المساحة الارضية الشاسعة، فالمسلمون يسيطرون على مساحة من الارض تبلغ 30،127،609 كيلو متر مربع، وهي مساحة كبيرة جدا ، متنوعة المناخ والتربة ، مما يجعل التكامل الاقتصادى بينهم أمرا ممكنا ، فيستغنون بذلك عن مد اليد ، واستجداء الغير .

ولاعد الى التساؤلات التى استفتحت به هذه الكلمة ، وهو ، هل الى عزة المسلمين من سبيل ؟ .

لقد رأينا رأي العين ، ما يملكه المسلمون فى الوقت الحاضر من امكانيات مادية هائلة ، وثروة بشرية عظيمة ، فما الذي يمنعهم من أن يكونوا أعزة ؟ وما الذى يسد أمامهم سبيل السيادة ؟ الواقع ، أن المسلمين طلبوا العزة ولم يسلكوا سبيلها ، وتمنوا المجد وابتعدوا عن طريقه ، **لانه لا عزة، ولا سيادة حقيقية الا بالعودة الصادقة الى ما صلح به أوائل المسلمين ، وهل صلح أمر الاسلاف الا بتمسكهم بالقرآن عقيدة ، وعبادات ، ومعاملات وأخلاقا ؟**

قد يظن ظان أننى أدعو الى دولة اسلامية واحدة ، تدير شؤونها حكومة واحدة ، ويتهمنى بالاغراق فى الخيال، والجري وراء السراب . وأطمئن هذا الظان ، بأننى لا أدعو الى دولة اسلامية واحدة ، تسير أمورها حكومة واحدة ، ولكننى أدعو الى أمة اسلامية واحدة ، تطبيقا لامره سبحانه وتعالى : « **ان هذه امتكم أمة واحدة** » الانبياء ، الآية 91 . ومعنى ذلك أن يكون المسلمون يدا واحدة على من يكيد لهم ، ويعتدى على جزء منهم ، وما المانع؟ أن يتناصر غيرهم ـ من الشرق الى الغرب ـ على العدوان، ولا يتناصرون هم على رد العدوان ؟ أيتحالف غيرهم على الظلم ، ولا يتحالفون هم على دفع الظلم ؟ أم ترى لا يجوز للمسلمين ما يجوز لغيرهم ؟ !!

ان العزة لله فلنطلبها منه بسلوك سبيله ، والعودة الى شريعته ، واقامة دينه ، والاعتصام بحبله ، ولن يخلفنا الوعد الذى وعد به ، والعهد الذى أعطاه للمؤمنين من عباده ، وعندئذ يحق لنا أن نسأله النصر ، كما سأله المؤمنون الصادقون من قبلنا : « متى نصر الله » ؟ وسيجيبنا جلت قدرته كما أجاب المؤمنين السابقين « **قل عسى أن يكون قريبا** » .

أما اذا أبينا الا الاستمرار فى طريق الغي ، والعزوف عن سبيل الرشد ، ولم نقم القرآن ، فلسنا على شىء . وسنبقى مذبذبين ، نخوض مع الخائضين،

(1) د. صلاح الدين الشامى ، وزين الدين عبد المقصود . جغرافية العالم الاسلامى ، منشأة المعارف ، مصر ، 1974 .

ونلعب مع اللاعبين ، حتى يأتى اللـــه بقوم يحبهم ويحبونه ، وسنخسر الدنيا، ولخسران الآخرة أكـبر ، وسيـــزداد تسلط الاعداء علينا ، ولن تغني عنـــا كثرتنا شيئا ، وعندئذ سنعض الانامـل ندما على ما فرطنا فى جنب الله، وينطبق علينا قول الله عز وجل : « **فلا تلوموني، ولوموا أنفسكم** » ابراهيم ٠ الآية 22 ٠

الإسلام عامل رئيسي لإثبات الشخصية الجزائرية أمام محاولات الاندماج خلال القرن التاسع عشر



د. صاري الجيلالي

ان أهداف الاحتلال الاستعمارى لم تتمثل فى الاستيلاء على ثروات البلاد واستغلالها استغلالا محكما وباخفض الاستثمارات فحسب ، بل رمت أيضا الى تحقيق سياسة واسعة النطاق تعتمد قبل كل شىء على استطانة عدد وافر من الاوروبيين الا أن تطبيق هذا المخطط نفسه ظل مرهونا بعامل آخر يضمن وحده وللابد بقاء الهيمنة الفرنسية وسيطرة الحضارة الغربية ، وهذا العامل هو القضاء على العقيدة وبالتالى الحضارة العربية الاسلامية .

وهذا ما يتنافى وتعلق الجماهير بشخصيتهم العريقة ونظرا الى هذه الظاهرة التى اثبتتها المقاومات العنيفة والطويلة ضد الغزو الاستعمارى ، فان السلطات الحاكمة لجأت الى وسائل خاصة ، غير مباشرة وذات طابع انسانى على وجه العموم وهو كل ما جاء فيما سمى بسياسة الاندماج خاصة فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى وهى الفترة الحاسمة حيث أن الظروف كانت ملائمة جدا (1) .

والهدف من هذا العرض هو تحليل تلك المحاولات ونتائجها وذلك لابراز دور الاسلام فى اثبات شخصيتنا وبفضل هذا التحليل نتوصل أيضا الى بيان علاقات تلك المحاولات فى اندلاع ثورة 1871 وبذلك تتأكد لنا فى الاخير عبرة هذه الثورة ومكانتها فى تاريخنا المعاصر.

(1) مع العلم أن معاهدة 4 جوليت 1830 قد نصت على : « ان ممارسة الديانة الاسلامية (المحمدية) تبقى حرة » .

Bulletin Officiel de l'Algérie et des colonies, Alger 1833, N° 1.

1) محـاولة الانلماج بواسطة التعلـيم الرسمى :

قبـل الشروع فى تطبيـق التعليـم الرسمى اتخذت اجراءات خاصة للقضاء تدريجيا على الحضارة والثقافة وكل ما يشخصهما فى مختلف المظاهر اليـومية بحيث أنه بعد شهرين فقط من احتلال الجزائر العامة استولت السلطات عـلى الاملاك العقارية التابعة للمساجد ومحلات التعليم وقد تمت العملية بصفـة نهائية وشرعية بمقتضى قانون 1851 فاصبحت هكذا المساجد والمؤسسات التابعة لهـا بدون اعتمادات بل قد دمر منها عـدد كبير فى مختلف المدن اثر الغزو ، ثـم بعده بمناسبة فتح طرق جديدة عبـر الاحياء وبعد تحويل عدد منها الى ثكنات وكنـائس ومستشفيات (2) ومثـال العاصمة يلخص وحده هذه العمليات . ففى 1830 بلغ عدد المؤسسات الدينية 176 مؤسسة منها 13 مسجدا كبيرا و 109 مسجدا صغيرا ناهيك عن عدد هام من الزوايا ، بينما اصبح العدد لا يفـوق الا 48 مؤسسة أى 27،2 ٪ بعد عمليات الدمار والتحويل ، وبعدما كانت تقـدر نسبة الاوقاف داخل مدينة الجزائر فى أكتوبر 1830 ربع 8000 عمارة .

وليست هناك مبالغة فى هذه النسبة اذ أن التعليم الذى كان ملاحظا فى تلـك الاوساط وخاصة فى الاوساط الريفية كما شهد عن ذلك عدة ملاحظين (3) ، كان مرتبطا بهذه الاوقاف .

ولذا فان الاستيلاء على هذه الاملاك كان العامل الفعال فى القضاء على التعليم وتعميم الامية ابتداء من الجيل الثانـى للاحتلال كما أكـد ذلك المعاصرون (4) وما مثال قسنطينة الا برهان قاطع فقد انخفض فى هذه المدينة عـدد التلاميذ مـن 600 الى 60 فى سنة 1846 وعـدد مدارسها من 86 الى 30 (5) .

ففى هذا الاطـار شرعت الادارة فى اعـداد التعليم الرسمى خاصة حينمـا شعرت بضرورة اعداد العدد الضرورى مـن الموظفين فى بعض الميادين فسـن نظام التعليم العام ، وهـو ذلك التعليم

---

(2) ان المستشفى الاول الذى فتحتـه السلطات الاستعمارية كـان فى مسجـد فى باب عزون ، وأما اثناء مأساة 1867 ـ 1868 فقد حولت مساجد الى مستشفيات ولا زالت الى الآن ومنها مسجد شرشال ، انظر الصورة فى كتابنا :
Le désartre démographique de 1867-68, Alger 1980

(3) ان الدراسة القيمة فى هذا الموضوع هو ذلك البحث القيم الذى قامت به الخـبير المـؤرخة : Y. Turin : Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, école, médecine et religion (1830 - 1880), Paris 1971.

(4) التفاصيل والبراهين كثيرة فى المصدر السابق الذكر للمؤرخة Y. Turin

(5) Ch. R. Ageron : Les Algériens musulmans et la France (1871 - 1919), Paris 1968, T. 1.

الذى اقتصر فى وجـود 12 مدرسة فى سنة 1862 منها 8 فى قطاع الوسط بينما أن عدد المعلمين بلـغ 26 وعدد التلاميذ 297 (6) الا أنه سجل فى سنة 1856 ــ 1857 : 1200 وهذا الانخفاض راجع الى قلة عدد المعلمين ولذلك انشئت مدرسة لاعداد المعلمين فى سنة 1865 مع ضرورة توفـير شروط خاصـة لاعـداد اطارات تحسن معرفة الوسط الجزائرى ، ولكن نسبة المسلمين ظل ضئيلا ولم تـزد عن الخمس (7) ·

واما التعليم الثانوى فقد واجه هو الآخر مشاكل كثيرة وكان يتمثل الى سنة 1865 فى مؤسسة واحدة بالعاصمة يوجد بها 104 تلميذا فى 1863 مقابل 69 فى 1861 بينما أن الهـدف كان فى 1857 توقع 150 وهذا الفرق يعود الى البعـد بحيث أن العائلات كانت تخشى كثـيرا الاخطار التى تنجم عن ذلك من انحلال وغير ذلك (8) . والثانوية الثانية فتحت بقسنطينة فى 1865 وارتفع عدد التلاميذ بها 108 فى 1867 وأما الثانوية الثالثة التى تقررت فى 1865 بوهران فانها لم تحقق الى فى سنة 1870 ·

هذا وبالرغم من هذا العدد الضئيل فان التلاميذ لم يجدوا المناصب الكافية والملائمة لهـم فقـد انضموا الى الادارة والجيش وقد شعروا بتأثر بالغ بالعزلة حينما انقطعوا عـن محيطهم وهـــم فى الجيش الفرنسى (9) ·

وهكذا يتجلى لنـــا مــن وراء هذه الاحصائيات والابعاد لهذا التعليم أنـه كان يرمى (10) الى خلق ظروف معينـة

(7) Rey Goldzeiguer : Le Royaume arabe, Alger 1977, p. 174.
Ageron : Les Algériens musulmans et la France, 320.
Bulletin Officiel du Gouvernement général de l'Algérie. Alger 1865, p. 65.

(8) وقد عبر عن ذلك احد المعنيين بالامر وهو القائد بالحضرى بقوله :
« كيف تريدون أن نبعث نحن أهل وهران أبناءنا الى الجزائر فالمسافة طـويلة ولا نستطيع أن نتصل بهم مرارا للاشراف على تربيتهم وليتمسكوا بالمبادىء الشريفة · فكل متخرج يصبح منقطعا عنا ، فهو يتعاطى الخمر والزنا وهذا ما يمس بشرفنا وتعاليمنا » حسب ما جاء فى تصريح الضابط السامى Lapposset لنابوليون الثالث :
Lappasset : Le général Lappasset par un officier de l'Armée du Rhin, Paris 1898.

(9) وقد جاء فى تصريح الضابط على ابن شريف فى 1866 ما يلى :
« كان مواطنونا يروننا بارتياب والفرنسيون يقاطعوننا ، وكانت السلطات لا تمنحنا اية رتبة أعلى من رتبة Lieutenant ، وبين عـدم الثقة والاحتقار ظلت قلوبنا مملوءة بالحزن والالـم »
Ageron : Les Algériens musulmans et la France, 1823

(10) علينا أن نشير أيضا الى اهمية هذه الثانويات فقد ساهمت فى تكوين مزدوجى الثقافة (العربية والفرنسية) ومن اشهرهم محمد بن رحال من مواليد ندرومة ، انظر هذا الصدد : A. Djegloul : M'Hamed ben Rahal et la question de l'instruction des Algériens
Majallat et Tarikh, Alger 1977, p. 43.

تكون العامل الفعال لتمهيد السبل لاعداد جيل قابل للاندماج ·

2) محاولة الاندماج الادارى :

بالنسبة Sénatus Consulte (1865) ابعاد خطيرة جدا بحيث أنه كاد يقضى على مستقبل الشخصية الجزائرية الى الابد

أ ـ Sénatus Consulte لـ 14 جوليت 1865

فان نص هذا القانون واضح كل الوضوح (11) ويتضمن فى مضمونه النقط الخطيرة وهى تعارض القوانين الفرنسية للتشريع الاسلامى · وقد جاء فى المادة الاولى :

« ان الجزائرى فرنسى الا انه يبقى خاضعا للقانون الاسلامى » ·

ولكن منح الجنسية لا يتبع بالتمتع بالمواطنية :

« للجزائرى المسلم الحق (بطلب منه) بالتمتع بحقوق المواطن الفرنسى وفى هذه الحالة فهو يخضع الى القوانين المدنية والسياسية الفرنسية » ·

وكل هذا يؤكد من جديد محاولة الاندماج بأتم المعنى وبصفة شرعية بحيث ان كل من يتوجه بطلب الا وهو شاعر كل الشعور بالتخلى عن شخصيته واصالته فكل من يرغب عن الجنسية الا وعليه ان ينضم ويندمج بالاقلية الاوروبية المضطهدة المغتصبة ـ وهذا يتنافى والواقع والمبادىء الاسلامية ، بل والانسانية وهكذا نلتمس اخطار وابعاد مثل هذا القانون الذى يتنافى ، وسياسة « المملكة العربية » التى حاول نابوليون الثالث أن يطبقها بالجزائر واذ عارضها كل من بعض الضباط والاوروبيين أنفسهم كما وضحت ذلك بكل موضوعية وبكل دقة واحترام وتقدير للجزائريين المؤرخة Rey Goldzeiguer (12) ·

كما أن معظم المعنيين بالامر بالدرجة الاولى أى الجزائريين المعاصرين قد تنبهوا جيدا الى هذه الاخطار ·

ب ـ فشل المحاولة :

ليس هناك أى شك فى أن الفشل كان واضحا كل الوضوح نظرا الى تمسك السكان بعقيدتهم وايمانهم المتين ، ولقد شعر بذلك الوالى العام نفسه اذ انه قال : « انه يتحتم عليهم أن ينقطعوا عن ايمانهم وان يمزقوا كتابهم المقدس وان يرتدوا ليصبحوا فرنسيين » (13) ·

---

(11) Bulletin Officiel 1965, p. 36.

(12) Rey Goldzeiguer : Le Royaume arabe, Alger 1977, p. 314.

(13) Mac Mahon : Archives F. 80 - 1810, Aix-En-Provence,

وهكذا وبعد مرور 10 سنوات من صدور قانون 1865 ارتفع عدد الطلبات الى 371 فقط فى سنة 1875 (14) ومن الواضح أن جل هذا العدد خاص بالذين اضطروا بالالتحاق بالجيش وبعض المناصب الادارية ومما يؤكد هذا كله هى الملاحظة التالية فبعدما لاحظت الادارة قلة الراغبين فى المناصب العالية سمحت لهم فى ذلك ولم تطلب منهم التخلى عن وضعيتهم الاصلية ·

ج ـ المحاولات الادارية الاخرى :

بالاضافة الى هذه المحاولات فان السلطات الادارية والعسكرية شرعت فى تخفيض الاطارات الجزائرية التابعة الى القبائل ذات النفوذ والسلطة وذلك للقضاء على كل ما يعبر عن تاريخ الجزائر ومثل هذه الاجزاءات تعممت فى منتصف القرن التاسع عشر وخاصة من طرف الجينرالات Devaux, Gastu بالقطاع الشرقى وبالرغم من توصيات نابليون الثالث كما جاء ذلك فى رسالته المشهورة المؤرخة بـ 25 جوان 1865 ·

3) حملة التبشير :

لم تأت هذه الحملة صدفة وانما ظهرت في ظروف معينة ، وذلك لتوفير كل الشروط اللازمة لنجاحها نظرا الى فشل المحاولات السابقة الذكر من جهة ومعارضة السلطات العليا المركزية من جهة أخرى ·

فقد شن هذه الحملة المسؤول عن الكنيسة بالجزائر وهو الكاردنال Lavigerie وذلك فى سنة 1868 أى أثناء المأساة العظمى التى كادت أن تقضى على مستقبل الشعب الجزائرى (15) وبعدما أصبح عدد كبير من اليتامى بدون ملجا ومأوى · ولذا فان الحملة قد اكتست صبغة انسانية الا أن هدف الكاردنال كان واضحا كل الوضوح كما جاء فى احدى تصريحاته (16) بصدد مستقبل اليتامى الذين اشرف على جمعهم فى مؤسسات الابيار وابن عكنون (17) بالعاصمة :

« سوف تنشىء فى السنوات المقبلة نخبة هامة من المستخدمين الصالحين

---

(14) Ageron : Les Algériens musulmans et la France. T. 1, p. 344.

(15) انظر دراستنا المذكورة فى (2) ·

(16) فلقد نشرت هذه الرسالة فى أوروبا فى لغات مختلفة كما أن الجرائد قد خصصت لها اقبالا هاما بالجزائر ·

17) والاسم الصحيح لهذا الحى هو : ابن سحنون ·

يكونون من أنصار مستعمرتنا الفرنسية أى أنهم يكونون عربا مسيحيين » .

وفى الواقع أن هذه الحملة كانت الانطلاقة لتحقيق وتدعيم سياسة واسعة النطاق للتنصير بحيث أن العناية الموجهة لليتامى اصبحت تتوسع وشرع فى تطبيقها مباشرة باحدى القرى بمرتفعات الجرجرة لكن السكان قد رفضوها وحاربوها فمنهم من هاجر البلاد ومنهم من تظاهر بالاسواق . ومما اقلق السكان وخاصة الاعيان . هى رسالة الكاردنال التى يمس فيها الدين الحنيف . وقد جاء ما يلى (18) :

« علينا أن ننقذ هذا الشعب وألا نتركه مخيما فى قرآنه ... فعلى فرنسا أن تعطيه بل أنا مخطىء أن تسمح له بالتنصير أو أن تطرده الى الفلات بعيدا عن العالم المتمدن ... » .

فكان الرد واضحا ويمكننا أن ندركه بفضل مضمون ما جاء فى الرسالة التى وجهها 61 من أعيان الجزائر الى نابليون الثالث :

« ان ما يزيد فى المنا وغضبنا ما نصت عليها رسالة الكاردنال بتاريخ 16 ابريل 1868 والمنشورة فى الصحف والتى يهاجم فيها عقائدنا ويمس فيها القرآن الذى يشد أساس ديننا ... » (19)

وهناك وثيقة أخرى تعبر عن غضب السكان وموقفهم ازاء هذا المشكل الخطير . وهى رسالة ابن على الشريف وكان قائدا ومنخرطا فى احدى الطرق الدينية فى نفس الوقت (20) :

« لقد قرأت رسالة الكاردنال المؤرخة يوم 16 ابريل 1866 والتى يبين فيها أنه يريد أن يستبدل القرآن بالانجيل وذلك لانقاد الشعب العربى . فلقد تركت هذه الرسالة ضجة كبيرة فى وسطنا . فانا مسلم وكل مسلمى جيلى ألا ويفكرون مثلى فاننا نفضل أن نرى جميع أبنائنا يموتون عوض أن يعتنقوا الدين المسيحى فاننا لا نسمح بأى مساومة فى هذا المشكل فلقد تعهدتم بصفة واضحة بحرية العقيدة فاذا تراجعتم عن ذلك فانكم تخلفون الوعد فنبتعد نحن أيضا عن تعهداتنا » .

وهكذا يوضح الى الوالى العام بالنيابة عزم المسلمين عن سخطهم عن هذه المحاولات ويبين أنه لا مجال للشك

---

(18) رسالته المؤرخة يوم 6 ابريل 1868 التى جاءت فى عدة مناشير من صحف ومناشير رسمية للكنيسة .

(19) ارشيف فرنسية F. 80 - 1946

(20) ارشيف الولاية العامة بتاريخ 18 ماى 1868 . TEF 33

والتردد فى مثل هذه الظروف وبالفعل فان السلطات الرسمية أخذت بعين الاعتبار هذا الموقف وطلبت من الكاردنال أن يمتنع عن مثل هذه التصريحات والتهديدات ٠

الخلاصة :

ان المحاولات المتقدمة جزء لا يتجزأ من المخطط الاستعمارى الذى كان لا يقتصر على مفهومه الاقتصادى فقط بالجزائر بل كان يشمل أيضا المفهوم الاديولوجى اذ انه كان يتميز عن باقى المستعمرات الاخرى ٠ وقد ظل يرمى دائما الى استطانة واسعة النطاق عبر اقاليم مختلفة من القطر الجزائرى ٠

وبعدما تغلبت الجيوش على القبائل وتوغلت عبر أراضى الشمال شرعت السلطات فى فرض التعليم الرسمى وكانت مرحلة حاسمة فى توسع وتعمق النظام لنجاح اديولوجيته ، وبالتالى للقضاء على ما بقى من ثقافة عربية اسلامية ضئيلة ، الا أنه بعد تأكد فشل هذه المرحلة لجأت الادارة الى وسيلة أخرى فأرغمت الطبقة التى كانت تمثل همزة الوصل بينها وبين الجماهير ان تتخلى عن أصالتها وأن تطالب بالجنسية الفرنسية فاغلبية المعنيين بالامر قد تبصروا وامتنعوا . وبالفعل فان النتيجة كانت فادحة بحيث أن السلطات عدلت عن ذلك وسمحت لهم أن يشغلوا المناصب العالية بدون مطالبة الجنسية ٠

أما المرحلة الثالثة فان لم تأت الا فى ظروف اقتصادية واجتماعية استثنائية والا فى اطار ذى صبغة انسانية ولكن وحتى فى مثل هذه الظروف استطاع الاعوان وأصحاب النفوذ أن يعبروا بوضوح وبدون التباس عن موقفهم وموقف الجماهير وذلك أن كل ما يمس الدين الحنيف الا ويمس حياتهم قبل كل شىء ، وكيف لا وأن هذا الاخير الا وهو مظهر من مظاهر الاسلام نفسه وبالفعل بفضل التعاليم والحقوق الاسلامية استطاع السكان أن يثبتوا شرعية أراضيهم واملاكهم وتعلقهم بلغة الضاد وتمسكهم بالذكر الحكيم الخالد ٠ وفى الاخير فان التحليل العميق فى المدة المدروسة يبين انه من بين أسباب ثورة 1871 هو رد الفعل لهذه المحاولات ، فقد عزم السكان أن يعبروا عن سخطهم والمهم قبل كل شىء كما وضحنا ذلك أخيرا فى دراسة تتعلق بهذا الموضوع الهام (21) اذ اننا نستطيع أن نرد

(21) دراسة : الجزائر قبيل اندلاع ثورة 1871 ـ بحث للمركز الوطنى للابحاث التاريخية (1979) ٠

بسهولة عما كان يسمى بثورة المقرانى أو بثورة الشيخ الحداد وكذا بثورة بلاد القبائل .. فثورة 1871 كانت ثورة شعبية جندت قسما كبيرا من القطر الجزائرى ، ولم يشارك فيها على وجه العموم الا الاقاليم التى عانت كثيرا من أضرار ومخلفات ثورة 1864 ـ 1866 والتى سجلت بذلك أعلى نسبة من الضحايا فى 1867 ـ 1868 وهو القطاع الوهرانى ، وأما الشيخ الحداد فقد استسلم مع ابنائه بينما أن الجهاد الذى أعلنا عنه فى 8 ابريل 1871 قد تواصل بعد ذلك كما أن استشهاد المقرانى فى 5 ماى من نفس السنة لم يكن نهاية الكفاح بل قد تعمم واشتد كما يشهد عن ذلك استشهاد أثناء لحضات محدودة 2280 شهيد يوم 22 ماى وهم يتسلقون جدار محمية الاربعاء ناث يراثن ، وبعد ذلك توسعت المعارك الى جبال شرشال ثم الجنوب .

واما النتيجة الاخيرة فانها لا تتمثل فقط فى قمع الثائرين واغتصاب املاك كل القبائل التى رفعت لواء الثورة ، بل هناك نتيجة هامة بالرغم من هذا القمع والاغتصاب وهو **تخلى السلطات الرسمية نهائيا** عن كل مغامرة تهدف التنصير وكل ما يمس دين الجماهير ولقد تبصر الى هذا كله ذلك الجنرال الذى استدعى خصيصا الى ميدان المعارك بعدما انقطع عن الجزائر بعد اندلاع الحرب الفرنسية الالمانية فى سنة 1870 ، وهو الجنرال Lapasset فكانت من أهم خلاصته بعد انتهاء مهمته ما جاء فى مراسلته الى وزير الحرب : « بينوا لهذا الشعب أننا نحترم دينه » (22) .

بينما أن هذا الجنرال قد كان العامل الفعال فى اخماد معركة سيدى الازرق بوادى ميناء وبوادى رهيو فى 1864 والذى دعا انصاره محاربة الفرنسيين باسم الاسلام (23) .

---

(22) Le général Lapasset par un ancien offficier de l'armée du Rhin, Paris 1899, 2e édition, T. 2, p. 275.

(23) من جملة الوثائق المكتوبة التى وجدت فى جثة سيدى الازرق بميدان الشرف هو الكتاب الذى تسلمه من سيدى عبد القادر القادرى رئيس جمعية القادرية ، انظر صورته فى كتاب Lapasset المذكور سابقا ، الجزء 2 الصفحة 34 مع ترجمته بالفرنسية .



لمحات من تاريخ الهجرة النبوية ونبذة من حياة عمر بن الخطاب

الاستاذ علي مرحوم
مفتش التعليم الابتدائي سابقا
(الجزائر)

لقد ولت أربعمائة بعد ألف سنة ، من تاريخ الاسلام والمسلمين فى هذا العالم • يضاف اليها ثلاث عشرة سنة من حياة الرسالة الاسلامية ، قبل أن تتم هجرتها من مكة الى يثرب • وهذه الذكرى التاريخية العظيمة تدعونا اليوم الى أن نعود بأفكارنا وعقولنا الى ذلك الماضى البعيد ، لنلقى نظرة موجزة على بعض العوامل التى صنعت هذا التاريخ العريق ، وعلى العناصر التى أقيم بناؤه الشامخ عليها ، والمؤثرات التى أثرت فيه ، منذ بدء مسيرته ، الى أن استوى قائما على قدميه ، راسخ الدعائم ، متين الجذور فى أعماق هذا الوجود ••

منذ سنة ستمائة وعشر للميلاد ، أشرق النور الالهى على هذه الارض ، فأضاء أرجاءها ، وغمر باشعاعه جوانبها فانقشع الظلام ، واستبان الطريق ، وتجلت معالم الهداية لذوى الالباب •• ففى هذا التاريخ اتصلت الارض بالسماء عن طريق الوحى المنزل على رسول الاسلام ، عليه الصلاة والسلام •• وجاءت أول آية من كتاب الله ، ألقى بها الوحى الى رسول الله ، داعية الى القراءة التى هى سبيل العلم ، الذى هو مفتاح سر الكون ••

« اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الاكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم •• » سورة العلق

أجل ؛ ليس كالعلم هاديا الى معرفة حقيقة الكون ، واكتشاف كنه الوجود ، وادراك حكمة الله فى خلقه •• ولله فى

---

(1) نص محاضرة ألقيت ببلدة البويرة يوم فاتح محرم 1400 هـ •

خلقه شؤون ·· وما نزلت آيات القرآن الكريم الا لتدعم قواعد العلم ، وتحث على طلبه ، وتوجه عقل الانسان الى التفكير فيه ··

« **والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الالباب** » سورة آل عمران ·

ونهض النبى (ص) يدعو الى الله على ضوء ما يتنزل عليه من الآيات البينات ـ ولبث ثلاث عشرة سنة يصارع خصوم الرسالة ، ويجاهد أعداء التوحيد بسلاح القرآن وحده · امتثالا لامر ربه ·· « **وجاهدهم به جهادا كبيرا** ·· » ويبشر بتحرير العقل والفكر ، من عبادة الاوثان والاصنام ·· والخضوع لغير الله · طبقا لما أوحى به اليه ، من تعاليم الدين الجديد الذى جاء لانقاذ هذه البشرية ، مما ظلت تعانيه من ظلم وعبودية ··

« **تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله · ولا نشرك به شيئا · ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله** » · (سورة آل عمران)

وقد لقى الرسول والفئة القليلة التى آمنت به ، وصدقت برسالته ، العنت الشديد ، والاضطهاد العنيف من المشركين وأعداء الدعوة النبوية ·· فما وهن محمد (ص) وأصحابه « **لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا** » حفاظا على العقيدة التى اعتنقوها ، مؤمنين بها عن وعى لها ، وادراك لما تنطوى عليه من خير وسعادة ، وحرية وعزة «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» .

ولكن المشركين تكالبوا على المؤمنين ، واشتدوا فى عدوانهم عليهم ، واذايتهم لهم ·· حمية لجاهليتهم ·· وغيرة عمياء على معبوداتهم ·· مما أدى الى استشهاد بعض المؤمنين فى سبيل عقيدتهم ·· بعد ما نزل بهم من شديد التعذيب ··

وفكر النبى (ص) جديا فى تخليص أصحابه من العذاب الاليم ، الذى كانوا يتعرضون له ، على يد كفار قريش فى مكة · وكان يحز فى نفسه ويؤلمه أنه لم يكن يومئذ فى مقدوره أن يمنع عنهم ما يحل بهم من الاذى والاعتداء وأن يحميهم مما كان يسلط عليهم من شدة الارهاق ·· وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ وقد اهتدى ـ أخيرا ـ الى طريق الخلاص فأشار على أصحابه بالهجرة الى الحبشة · قائلا لهم :

الهجرة الاولى :

« لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ·· وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ·· » · وكانت هذه هى الهجرة

الاولى فى الاسلام ٠٠ وقد ترتبت عنها نتائج عظيمة ، فى افادة نشر الدعوة الاسلامية ، وانتصارها على المناهضين لها ٠٠

كان الفوج الاول من المهاجرين الى الحبشة يتكون من أحد عشر رجلا ، وأربع نساء ٠٠ من بينهم عثمان بن عفان وزوجته (رقية) بنت محمد (ص) ٠ وبلغ عدد المهاجرين فى الفوج الثانى نحو ثمانين رجلا وبعض النساء والاطفال من بينهم جعفر ابن أبى طالب ابن عم الرسول (ص) .. لقد وجد هؤلاء الفارون بدينهم وعقيدتهم ، ما كانوا يأملونه من الامن على أنفسهم ، والحرية فى دينهم ، الذى هجروا من أجله ديارهم ، وعزيز أولادهم وأموالهم ٠٠ وصدق فيهم قول الله : **«والذين هاجروا فى الله من بعدما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولاجر الآخرة أكبر ٠٠ »** ٠

وكانت قريش تعلم ماذا سيكون من وراء هذه الهجرة من دعم وقوة للدين الجديد ٠٠ ومن اعداد واستعداد لمهاجمتها فى عقر دارها ٠٠ ولذلك رأت أن لا تدع هؤلاء المهاجرين وشأنهم فى مهجرهم ، بعيدين عن اضطهادها وظلمها فأوفدت الى النجاشى رجلين اثنين من أبرز زعمائها ، محملين بالهدايا الثمينة اليه والى بطارقته ، من رجال دينه ٠٠ سعيا وراء اقناعه باخراج المهاجرين من أرضه ، وتسليمهم الى قومهم الذين فروا بدينهم من فتنتهم ٠٠

وحل عمرو بن العاص ، وعبد الله ابن أبى ربيعة ، رسولا قريش الى الحبشة وقد بادرا بتقديم الهدايا الى البطارقة أولا ، حتى يكونوا مناصرين لهما فى سعيهما لدى النجاشى ٠ وهما يأملان أن مسعاهما سيحظى لديه بالنجاح ٠٠ ولكن أملهما هذا قد باء بالخيبة ، وحاق بهما الفشل والخسران ٠٠٠ « **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ٠٠ »** ٠

قال الرسولان القرشيان للملك النجاشى :

« انه قد أتى الى بلدك غلمان منا سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، ولا فى دين أحد من هذه الملل وجاءوا بدين جديد ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ٠٠ وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم ، لتردهم اليهم ، فهم أبصر بهم ، وأعلم بما عابوا عليهم » ٠

وأيد البطارقة المرتشون أقوال الرجلين ، متأثرين بما أخذوه من الهدايا وقالوا : « صدقا ـ أيها الملك ـ قومهم أعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما ، فيرداهم الى قومهم ٠٠ » وقد حاولوا ـ باتفاق مع الرجلين ـ أن يحولوا بين

النجاشي وبين سماع أقوال المهاجرين ٠٠ ولكنه أبى أن يسلمهم قبل أن يسمع منهم مقالتهم ، وينظر فى حقيقة أمرهم .. وبعث فى طلب ممثليهم ، ولما مثلوا أمامه سألهم أمام أساقفته :

« ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ »

وجاء أبلغ الجواب ، الذى كان فيه فصل الخصاب ٠٠ قال جعفر ابن أبى طالب (رضى الله عنه) :

« أيها الملك ــ كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الاصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الارحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ٠٠ كنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ٠ ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ٠٠ » ٠

« وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الامانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ٠٠ ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ٠٠ وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ٠٠ وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ٠٠ فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ٠ فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ٠ وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ٠٠ فعدا علينا قومنا، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الاوثان ٠٠ وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ٠٠ فلما قهرونا وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك ٠٠ » (2) ٠

ولعلنا نلاحظ أن مقالة جعفر هذه قد جمعت كل ما ينبغى أن تجمع ــ فى ايجاز ــ من آداب الاسلام وتعاليمه (بعد أن صورت رذائل الجاهلية ..) وحوت من سمو الاخلاق ، وكمال الفضائل ، ما لا يصح اسلام فرد أو جماعة ، بدون فقهها ، والعمل بما فيها من حكم وأحكام ويا حبذا لو أن أبناءنا فى مدارسهم ، وطلابنا فى جامعاتهم ، يدرسون مثل هذه الآثار الاسلامية الرائعة ، من تراث الاسلاف الامجاد ٠٠ مما حفلت به أسفار الادب العربى ، والتاريخ الاسلامى ٠٠ لو فعلوا ذلك لجاءت منهم لامتهم أجيال صالحة ، تتسم بحسن التهذيب ، وكمال

(2) سيرة ابن هشام ، ج 1 ، ص 359 ٠

الخلق والاستقامة على الطريق ، الى بذل الجهد فى خدمة الدين والوطن ، وصيانة تراثهما المجيد ..

ونعود ـ بعد هذا الاستطراد ـ الى متابعة مشهد الثبات على المبدا ، والدفاع عن العقيدة .. الذى مثله جعفر ابن أبى طالب .. وقد سأله النجاشى ليستخلص الحقيقة :

« هل معك مما جاء به عن اللــه من شىء ، تقرأه على .؟ »

قال جعفر : نعم ، وقرأ عليه من أول سورة مريم ، الى قوله تعالى :

« فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيــا ، وجعلنى مباركا أينما كنت . وأوصانى بالصــلاة والزكاة ما دمت حيــا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام عــلى يــوم ولدت ويــوم اموت ، ويوم ابعــث حيــا .. »

وتقول الروايات التاريخية : ان الملك وبطارقته قد تأثروا بما سمعوا من الآيات حتى بكوا .. وقال النجاشى : « ان هذا الذى سمعت والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .. انطلقا ـ والخطاب لرسولى قريش ـ فلا واللــه لا أسلمهم اليكما أبدا .. »

وهكذا انتصر الحق على الباطل .. بعد أن وقفا موقف الصراع ، وجها لوجه فى الميدان ..

« وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .. »

وقــد ردت الهدايا على صاحبيها .. وقال النجاشى : « فوالله ما أخذ اللــه منى الرشوة حين رد على ملكى ، فآخــذ الرشوة فيه . وما أطاع الله الناس فى فأطيعهم فيه .. »

وينتهى الى هنا مجمل قصة الهجرة الاسلامية الاولى .. وهــى ـ بلا شك ـ لا تخلو من عبر وعظات ، لمــن يريد أن يعتبر ويذكر .. « **ومــا يذكر الا أولوا الالباب ..** »

وفيها قال شاعر من مهاجرى الحبشة منوهــا بأمنهم واطمئنانهم على دينهم فى دار هجرتهم :

« يــا راكبــا بلغــن عنــى مغلغلة
من كان يرجو بلاغ اللــه والدين »

« كل امرىء من عباد اللــه مضطهد
ببطــن مكـــة مقهــور ومفتــون »

« انــا وجدنا بــلاد اللــه واسعــة
تنجى من الذل والمخزاة والهون »

« فلا تقيموا على ذل الحياة وخــز
ى فى الممات وعيب غير مامون » (3)

(3) لاحد مهاجرى الحبشة ـ عبد الله بن الحارث ـ سيرة ابن هشام، ج 1، ص 353.

الهجـرة الكبرى :

ونتقل ــ الآن ــ الى ايراد لمحات وجيزة عن الهجرة الكبرى • وهي بيت القصيد من موضوعنا هذا •• وموطن القدوة والعبرة البليغة •• فلا يزال يوم الهجرة النبوية الكريمة ، من مكة المكرمة الى المدينة المنورة • ولـن يزال هـذا الحادث العظيم مصدر الهـام ووحـي ، يتلقى منه المسلمون في أطراف العـالم أروع الدروس وأعمـق المعـاني ، في الحفاظ على أسمى المبادىء .. ويستلهمون مـن ذكـراه الدورية الهامات علـوية روحانية •• تذكرهم بأجل الذكريات في تاريخهم الديني والقومي •• وتبعث في أجيالهم المتعاقبة روح الاعتـزاز بدينهم وعروبتهم ، في هـذا الـوطن الاسلامي الكبير ••

أجل •• تقوم هذه المعاني والمشاعر بخاطر أبناء الامة الاسلامية ، وتختلـج بين جوانجهم ، كلما عادوا بذاكرتهم الى فجر ذلك العهد البعيد ، الذي وقعت فيه قصة تلك الهجرة الفريدة مـن نوعها ، والوحيدة في بابها وفي نتائجها وآثارها في تطـور حياة المسلمين الاولين •• في مستهل جهادهم المقدس •• من أجــل الدفاع عـن دينهم وعن عقيدتهم ، التي كانت أقدس شيء لديهم •• بها يحيون ، وعليها يموتون •• ومـن أجلها هجروا الارض والولد والمال ، الى حين العـودة المظفرة ، والفتح المبين •• ويتم اللـه نعمته على رسوله وعلى المؤمنين ••

انها ذكـرى جليلـة ، يستمد منهـا الانسان الواعي قوة روحية غلابة ، في كفاحه ضد المغيرين على دينه ولغته ووطنه وضد الذين يريدون أن يحولوا بينه وبين الحياة الحرة الكريمة ، ليظل متسكعا في تيه الضلالة ، متخبطا في ظلام الجهالة ••

ان درس الهجرة جدير بأن يقـوى ايمان المسلم ، ويجدد معاني الحيـاة العزيزة في نفسه •• ويجعل أزهـار الامل والرجاء تنمو دوما في قلبـه •• كيف لا ؟ وهو يشاهد رجلا أعزل مـن كل سلاح ، مجردا من كل قوة .. الا سلاح الحق الذي أرسله الله به •• والا قوة الايمان بعظمة الدعوة التي يدعو اليها ، ويجاهد في سبيلها ، ويخاطر بنفسـه من أجل ظهورها •• يشاهده ينتصر على اعدائه ــ رغم قوتهم ــ بعدما ألحقوا به وبأصحابه أسوأ ضروب الاذى •• بـل انهم حاولوا قتله •• فلم يثنه كل ذلك عـن عـزمه ، ويستمر في أداء مهمته ، وتبليغ رسالة ربـه الى الناس •• حتى يظفر بالفوز ، ويظهره اللـه على أعـداء دينـه ، فيهزم جمـع الشيطان ، وترغم أنوف أحلاف الشرك •• وتعلو رايـة

التوحيد ، ترفرف فى سماء العزة والخلود ٠٠ ويجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمته هى العليا ، والله عزيز حكيم ٠٠

« ٠٠ كانت الهجرة ـ بمعناها العام ـ وما زالت هروبا من الباطل والمبطلين ، ونجاء بالنفس أو بالعقيدة أو بهما معا ـ فهى فى خلاصتها انهزام يعتذر بالضعف ويلوذ بالقوة ، وفرار بعزيز يخاف عليه ، الى حيث يؤمن عليه ٠ لم يخرج عن هذا المعنى حتى هجرة الانبياء والصديقين كابراهيم ولوط ٠٠ هاجرا من بابل الى كنعان ولم يرجعا الى بابل من كنعان ٠ أما هجرة محمد وأصحابه فكانت هجرة قوة كاثرها الباطل المتهافت ، والشرك المتخافت ٠ وعاقها عن امتداد العروق ، وبسوق الافنان فى أرضها التى فيها نبتت ، وجوها الذى فيه تنفست ٠ ثم طاش ذلك الباطل الطيشة الكبرى وبحث عن حتفه بظلفه ٠ فأخرج تلك القوة الى حيث تزداد قوة ورسوخا ٠ وهذا من عجيب صنع الله لهذا الدين القوى الراسخ ٠٠ » ـ البصائر ـ عدد 14 ـ 17 ـ 11 ـ 47 ٠ بقلم ش٠ الابراهيمى ٠

« ٠٠ جاءت النبوة من مكة الى المدينة تعمل عملها فى جمع القوتين اللتين أحالهما التفرق ضعفا ٠ فجمعت المهاجرين والانصار ٠٠ وكأنما جمعت عدنان وقحطان فى دار ، يتصافحان على العروبة ، ويتآخيان على الاسلام ، ويحييان من الاواصر والشوابك ما أماتته نزعة الجاهلية ، ويميتان من النعرات المفرقة ، ما كانت تحييه المنافرات والمفاخرات ٠٠ وفى عقد التآخى بين المهاجرين والانصار عنوان ذلك ودليله ٠٠ » (4) ـ المصدر الآنف الذكر ٠٠

كان حادث الهجرة حدا فاصلا بين عهدين فى تاريخ الاسلام الاول ٠٠ عهد كان المسلمون فية قلة ضعافا ٠ تنالهم يد الطغيان بالعدوان ٠٠ وتحاول صرفهم بالعنف عن دينهم ، وفتنتهم فيه ٠ وردهم الى حضيرة الشرك والضلال ٠٠ وعهد انقشعت فيه سحب الباطل ـ أو كادت ـ وبدا نور الحق يشع فى الافق ، فيبدد ظلمات الشرك ، ويطارد أعوان الجهل والضلال ٠ ويفتح على المؤمنين الصابرين أبوابا من الآمال ، قوت فى نفوسهم الرجاء والثقة بنصر الله ٠٠ « **ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز** » ٠

لقد وجد المهاجرون أنفسهم فى المدينة ، يعيشون بين اخوان لهم من

(4) البصائر ـ عدد 14 خاص بذكرى الهجرة/3 محرم 1367 هـ ٠

الانصار ·· آووهم ونصروهم · وقدموا لهم كل ما تفرضه عليهم أخوة الايمان والاسلام ، من كرم الضيافة المتأصلة فى نفوس أبناء العروبة ، منذ أقدم العهود ـ والنصرة فى سبيل الدين الحق ··

أذن النبى (ص) لاصحابه بالهجرة الى المدينة ·· وقال لهم : « ان الله تعالى قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها ·· » وخرج المؤمنون فى خفية عن عيون قريش ·· متقاطرين أفرادا على يثرب ·· تاركين وراءهم فى مكة كل ما يملكون من مال ومتاع ·· ولم يصطحبوا معهم غير ايمانهم وعقيدتهم ·· وهذا كل ما تزودوا به لدار هجرتهم ·· وفى شأنهم نزلت الآية القرآنية : « **للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون** ·· » سورة الحشر

وفى شأن اخوانهم الانصار المستقبلين لهم نزلت هذه الآية الكريمة : « **والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم · ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ·· ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون** ·· » وكفى بهذا الثناء الجميل من الله على الفريقين فى كتابه الكريم ·· وكفى بها أخوة صادقة ، باعثها الايمان ، وميزتها الحب والايثار ··

ضاقت قريش ذرعا بهذا الخارج على آلهتها ، المستخف بأوثانها وأصنامها ·· ولم تدر ماذا تفعل أمام صموده وتصميمه على المضى الى الامام فى سبيل غايته المثلى ·· امتثالا لامر ربه ·· « **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ·· »

وحاولت أن تساومه فى التخلى عن تبليغ رسالة الله · فأوفدت الى عمه أبى طالب من يعرض عليه : انها على أتم استعداد لان تعطيه ما شاء من المال اذا أراد · أو تمنحه ما يحب من الرئاسة عليهم ·· أو غير ذلك مما يرغب فيه ، ويتضاءل أمامه ضعاف النفوس ، حرصا على حظوظ هذه الدنيا ·· على أن يكف عن تسفيه أحلامها ·· وذم معبوداتها ·· وأبلغه عمه ـ فى شئ غير قليل من الاشفاق على نفسه وعلى ابن أخيه ـ ما عرضته قريش عليه ·· فبماذا أجاب رسول الله (ص) عمه ؟ كان جوابا حاسما عبر عنه بقوله : « والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته ·· »

انها عبارة من الادب النبوى وجيزة اللفظ ، عميقة المغزى ، واضحة الدلالة - خليق بنا أن نتخذ منها قدوتنا فى الثبات على المبادىء الحقة ، والدفاع عن القضايا العادلة ٠٠ دون أية مبالاة ، بأيى ترغيب أو ترهيب ٠٠ وهكذا باتت قريش تتوقع شرا أكيدا ، بعد أن فشلت محاولاتها ٠٠ وأيقنت أن محمدا (ص) لابد أن يلتحق بأصحابه فى المدينة ٠ وأن يكون منهم ومن الانصار قوة فعالة ، تعرض تجارتها مع بلاد الشام الى البوار ، ووجودها فى مكة نفسها الى الاخطار ٠٠ ولذلك تداعى زعماؤها الى دار ندوتهم ليتدبروا أمرهم، وينظروا فى سوء المصير الذى يترقبهم ٠٠ اذا هم لم يجدوا مخرجا مما هم فيه من هم هذا الرجل ، بأية طريقة ٠٠

وقال المؤرخون عن ندوة قريش هذه ما خلاصته :

« لما دخل زعماء قريش الى دار الندوة للمداولة فى أمر النبى (ص) وقف على باب الدار شيخ مهاب ٠٠ قيل عنه : انه الشيطان تمثل لهم فى صورة انسان ٠٠ ورآه القوم فقالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، علم بما تواعدتم عليه ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ٠٠ وعسى أن لا تعدموا عنده نصحا ورأيا ٠٠ قالوا : أجل ٠٠ ادخل ٠٠ فدخل معهم ٠٠ » ، قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا ٠٠ وننفيه من بلادنا ٠٠ فاذا خرج عنا ٠٠ فوالله ما نبالى أين ذهب ٠٠ ولا حيث وقع ٠٠ اذا غاب عنا ، وفرغنا من شأنه ، وأقبلنا على شأننا - »

« قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ٠٠ ألم تروا صدق حديثه ، وحلاوة منطقة ، وغلبته على القلوب بما يأتيه ٠؟ ووالله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه ، حتى يتابعوه عليه ٠٠ ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم فى بلدكم بهم ٠٠ فيأخذ عليكم أمركم من أيديكم ٠٠ ثم يفعل بكم ما يشاء ٠٠ دبروا فيه رايا غير هذا ٠٠» - سيرة ابن هشام ج 2 ص 93 .

تضاربت آراء القوم وتعددت ٠٠ فقال أبو جهل : « والله ان لى لرأيا ما أراكم وقعتم على مثله بعد ٠٠ » ٠ قال القوم وما هو يا أبا الحكم ٠؟ قال :

« أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابا فتيا جليدا ٠٠ ثم نعطى كلا منهم سيفا باترا ٠٠ فيعمدوا اليه فيضربوه ضربة رجل واحد ٠٠ فيقتلوه ونستريح منه ٠ فاذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل ٠٠ فلم يقدر بنو عبد مناف (عشيرة الرسول) على حرب قومهم جميعا ٠٠ فرضوا بالدية فيه ٠٠ » ، ووافق القوم على هذا

الرأى الذى أوحى به الشيطان الى أبى **جهل ..**

وعلم النبى (ص) بما تآمرت عليه قريش من أمر قتله .. فخرج من بيته فى غفلة من المتآمرين به . وقد غشيت أبصارهم عن رؤيته .. وذهب الى بيت أبى بكر الصديق - بعد ما أوصى (على ابن أبى طالب) أن ينام فى فراشه ، ويرد الودائع التى كانت عنده الى أهلها - ثم يلتحق به فى مهجره ..

وحاصر فتيان قريش بيت الرسول (ص) منتظرين خروجه ليقتلوه - حسب الخطة المدبرة .. - ولكنهم باءوا بالحسرة والخسران فيما دبروا .. وما عليه أجمعوا الرأى وتآمروا ..

« ولا يحيق المكر السىء الا بأهله .. »

وفى وصف مؤامرة قريش هذه نزل قوله عز وجل :

« واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .. » سورة الانفال ..

كان أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) قد استأذن النبى (ص) فى الهجرة كما فعل غيره من المهاجرين السابقين .. ولكن الرسول قال له : « لا تتعجل لعل الله يجعل لك صاحبا .. » ومنذ ذلك اليوم أخذ أبو بكر يعد العدة لتلك الهجرة التى ظل ينتظر يومها الموعود بفارغ الصبر ، رغبة فى الحظوة بالصحبة النبوية .. وها أن أمله قد تحقق فعلا فى الفوز بهذه الصحبة الكريمة ، المحببة الى قلبه .. وهو يصاحب أفضل الخلق فى هجرته ..

ولما آن أوان الرحيل عن الوطن الحبيب .. وقف النبى (ص) فى اتجاه الكعبة المشرفة ، والقى نظرة شاملة مستوعبة على أم القرى .. وكأنها نظرة وداع لاعز حبيب .. وقال :

« والله انك لاحب أرض الله الى الله . وانك لاحب أرض الله الى . ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت - »

وانطلق مع صاحبه فى اتجاه غار ثور ليختفيا فيه عن عيون المطاردين لهما من قريش .. ووقف المتعقبون للصاحبين عند مدخل الغار الذى آواهما ، وهموا بالدخول اليه .. لولا أن صدهم عنه ما رأوه من نسيج العنكبوت على مدخله - حتى قال أبو بكر : « لو نظر احدهم تحت قدميه لرآنا .. » وقد ألم به بعض الخوف - لا على نفسه - بل على صاحبه .. فطمأنه رسول الله (ص) قائلا له : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما .. يا أبا بكر .؟ »

وبعدما لبثا فى مامنهما ثلاثة أيام ، فى انتظار سكون البحث عنهما ومطاردتهما .. خرجا - صحبة دليلهما - فى اتجاه المدينة ، فى رعاية الله وحفظه .. وقد خصصت قريش مكافاة هامة لمن يدل عليهما أو يردهما اليها .. وأغرت هذه المكافأة سراقة ابن مالك وطمع أن يفوز بالغنيمة .. فتقلد سلاحه ، وركب فرسه ، وخرج يعدو وراءهما بكل قواه .. وكاد أن يظفر ببغيته فى القاء القبض على المهاجرين أو قتلهما .. وما درى أن الله مانعهما فى حلهما وترحالهما .. ولذلك فقد كبا به جواده كبوة القى فيها من على ظهر فرسه ، يتدحرج على الارض - قبل أن يدرك ضالته .. وتطير سراقة مما وقع له .. وظن أن الآلهة قد حالت بينه وبين ما يريد .. والله وحده هو الذى عرقل خطواته ، وخيب ما سعى اليه من بغيته .. ورجع بخفى حنين ..

وصور القرآن الكريم قصة خروج النبى وصاحبه من مكة فى طريق هجرتهما وما أحاطهما الله به من نصره وسكينته ، وتأييده لهما بجنوده التى لا ترى .. فقال :

« الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا . فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » سورة التوبة ..

وترامت الانباء مبشرة أهل يثرب بالمهاجر العظيم وصاحبه .. فأخذ القوم يخرجون يوميا الى ظاهر المدينة فى انتظارهما .. وبعد رحلة شاقة دامت سبعة أيام متوالية .. حلا - فى ظل الامان والاطمئنان - بالمدينة .. وكان ذلك فى يوم الاثنين ظهرا . وقد خلت اثنتا عشرة ليلة من ربيع الاول ، فى السنة الثالثة عشرة للبعثة النبوية ..

وبعد أن أقام النبى (ص) فى (قباء) بضواحى المدينة بضعة أيام . وأسس أثناءها أول مسجد فى الاسلام .. تابع طريقه الى المدينة بين مظاهر التكريم والتعظيم .. من طرف المهاجرين والانصار .. وكان أول عمل قام به هو الشروع فى بناء مسجده ، ثانى الحرمين الشريفين ، ومقر مجتمع المسلمين ..

ومنذ ذلك اليوم التاريخى المشرق بأنوار النبوة ، أصبحت (يثرب) أول مدينة فى العالم - وقبل أن يعرف الناس معنى الهجرة السياسية المعهودة اليوم - آوت الفارين بدينهم وعقيدتهم من ظلم

الظالمين ، وبغى الباغين .. ولجأ اليها عظام الرجال بمبادئهم الانسانية التى عاش فى ظلها ، وفى عهد ازدهارها وقوتها ، عناصر من البشر ، تحت راية الحرية والعدالة الاسلامية ..

أولئك الرجال العظام هم : محمد (ص) وأصحابه الكرام ، الذين فارقوا أهلهم وديارهم وأموالهم ، فى سبيل عقيدة الحق والواجب ، ورعاية القيم والمثل العليا ، التى سعدت بها أمم وشعوب عديدة .. فى حقب التاريخ المديدة .. ليبنوا لنا هذا التاريخ الخالد ، الذى نتفيأ ظلاله ، ونفاخر الامم والشعوب بأكرم تراثه ومآثره ..

ـ بداية التاريخ العربى الهجرى :

هذه لمحات مقتضبة من قصة الهجرة ، أوردتها على عجل ، دون أن اذهب فيها الى تحليل أو تعليل لما حوته من بالغ الاعتبار .. على أن هناك مسألة هامة جدا ، ترتبط بهذه الهجرة .. أريد أن أقف معكم عندها بعض الوقت .. تلك هى بداية تاريخنا القمرى الهجرى ، الذى حدد بدأه منذ يوم وقوعها .. والرجل الذى اتخذ من تاريخ الهجرة النبوية بداية للتاريخ العربى الاسلامى ، هو الخليفة الثانى ، أمير المؤمنين ، عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) فقد هدته عبقريته الفذة ، والهامه ونظره البعيد الى ابتكار هذه الفكرة الرشيدة .. فخلد بها ذكرى الهجرة فى سمع الزمن وبصره وخلد لهذه الامة الاسلامية تاريخا عربيا اسلاميا قوميا .. تعتز بذكراه .. وتهتدى بنوره وهداه ـ لان هذا التاريخ ركن ركين من دينها .. وجزء متمم لشخصيتها .. وتعبير فصيح عن وجودها ومميزاتها .. وقد امتدت آثاره وتأثيراته فى حياتها الادبية والروحية والقومية .. طوال هذه المسيرة الزمنية .. التى تعد الفا وأربعمائة من السنين ، منذ وقع حادث الهجرة الى الآن .. وسيمتد الى أبد الآبدين ..

ـ حول اهمال التاريخ الهجرى :

ولكن مما يؤسف له شديد الاسف أن هذا التاريخ العربى القومى ، قد أهمل استعماله فى الحياة العملية اليومية لدى الافراد والهيئات والمنظمات ، وحتى لدى بعض الحكومات .. ولا يكاد يذكر الآن فى المناهج التعليمية ، والحصص الدراسية .. اكتفاء بذكر التاريخ الميلادى .. ولذلك نرى المعلمين فى المدارس الابتدائية . والاساتذة فى الثانويات والجامعات . لا يكادون يذكرون تلامذتهم بتاريخهم هذا .. وقد

تجد الكثير من هؤلاء التلاميذ العرب ·· من لا يعرف أسماء شهور السنة الهجرية تماما ·· مع أنها مرتبطة بالاعياد الدينية التى فيها من الحكم والمعانى السامية ، ما لا يجوز جهله أو تجاهله فى مجـــال التربية الاجتماعية والوطنية ··

وقـد ارتفعت أصـوات ، وأعلنـت دعوات مشبوهة ·· ـ قديما وحديثا ـ تدعو الى الاستغناء عن التاريخ الهجرى العربى ، واستبداله بالتاريخ الميلادى ·· (لانه تاريخ عالمى فى زعمهم) · ومثل هذه الدعوات لا يراد منها الخير لديننا وعروبتنا ، لانهـا شبيهـة بالدعـوة الى استبـدال الحروف العـربية بالحروف اللاتينية ·· كما حصل فعـلا فى تركيا الكمالية ·· واستبدال اللغـــة العربية الفصحى باللغـة الدارجة ·· والتخلص من التزام تطبيق قواعد النحو فى الكتابة والمحادثة ·· لصعوبتها ـ كما يزعمون ـ وكلها دعـوات وشعارات مغـرضة ·· لا يهدف أصحابها من وراء بثها بين أبناء الشعوب العربية والاسلامية ، الا لهدف ابعادهم عـن أصول دينهـم ولغتهـم ، ومنابع تاريخهم وقوميتهم · سعيـا الى دمجهم وتغريبهم ·· واستلابهم روحيـا ومعنويا ·· حتى يغدوا ولا جـــذور ولا أصالَةَ لهم ··

وقد نبه بعض علمائنا فى الماضى على خطورة هـذه المساعى المخربة لشخصية الامة العربية ·· فقد قال الشيخ طاهر الجزائرى (رحمه الله) (5) وكان من كبار علماء الشام ·· وقد سئل عـن التاريخ الهجرى : ـ « عجبت لمن يسعون فى أن نهجر التاريخ الهجرى ، ويفاتحوننا فى ذلك ·· كأنهم لا يعلمون أننا نعلم مـا يرمون اليه عن بعد ·· ان لكل أمة شعارا اذا تـركته طمـع فيهـا ، واستضعف جانبها ·· وربما صارت بعد مدمجة فى غيرها ·· وقد سعى أناس منذ عهد بعيد فى أن يضعفوا مـا يقوى أمـر الاسلام عموما ، والعرب خصوصا ·· فنجحـوا بعض النجاح ·· وطمعوا فى أن يقضوا عليه (يعنى الاسلام) فلم يجدوا أقرب الى ذلك مـن اضعاف اللغـة العربية ·· والسعي في تبديل خطها ·· والتزهيد فى الكتب التى كتبت به ·· جعلوا ذلك دأبهم وديدنهم ، حتى أثروا فى كثير من أبناء جلدتنا (المنحرفين) ، الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء ·· فكان ما كان مما هو معروف ·· ثم زاد الامر فطمعوا فى تبديل التاريخ الهجرى ·· »

(5) توفي فى سنة 1338 هـ 1920 بدمشق ·

« وليت شعرى ٠٠ كيف بلام المسلم على أن يؤرخ كتابه بالتاريخ الهجرى ٠؟ فهل انقرض التاريخ الهجرى ٠؟ وهل يريدون أن ينقرض وأصحابه أحياء ٠٠؟ » (6) ٠

أما مؤرخ الجزائر المرحوم الشيخ مبارك الميلي ٠٠ فقال ـ وهو يتحدث عن ذكرياتنا الوطنية ـ : ـ « ومن هذه الذكريات ، التذكير بتاريخنا ، واحياء العمل به ٠٠ فان التاريخ الهلالى الهجرى ، تاريخ عربى اسلامى ٠ وشهوره عربية اسلامية ٠٠ والذكريات التاريخية تجرى من الامم مجرى الشرايين من الافراد ٠٠ فالشعب الاشد اعتبارا فى الحياة الاجتماعية ، هو الشعب الاشد احتفاظا بذكرياته التاريخية ٠٠ وفى العمل بالتاريخ الهلالى رمز الى محافظتنا على صلاتنا بآبائنا الاولين وبرورنا بهم ... وفى الاستغناء عن التاريخ الميلادى نفور من الاندماج وكراهية للاحتلال الادبى والروحي ، المفضي الى ذلك المسخ الاندماجى ٠٠ »

ويتابع الشيخ الميلى (7) حديثه قائلا :

« ونرجو من كل غيور على الاسلام والعروبة ، مهتم بحياتهما وقيمهما أن يعد عمره بالسنين القمرية ، وأن يدون مذكراته بالسنين القمرية ٠٠ وقد كان أسلافنا بهذا يؤرخون أحاديثهم وأحداثهم ٠٠ ولا يضيق صدرنا لوجود التاريخ الميلادى الى جانب القمرى ٠٠ لاننا قوم لا نكره الاجنبى ، ولا نرفض التفاهم معه ٠٠ وانما نرفض الاندماج فيه ونمقت من يكفر جنسه ، ويلتصق بغيره ٠٠ لان جنسه ضعيف فى الحال ، وغيره قوى الآن ٠٠ »

« ولعل فى هذا بيانا لخطتنا ، وهى بكل صراحة وسذاجة : العمل لرفع مستوانا الاجتماعى ، فى دائرة الاسلام والعروبة ، من غير كراهية لجنس أو مبدا أو شخص ٠٠ الا جنس الظلم ، ومبدا التفوق ، وشخص الظالم والمتفوق ٠٠ » (8)

هذا رأى عالمين جزائريين كبيرين من علماء عصرنا ٠٠ يؤكد على وجوب العمل بالتاريخ الهجرى ٠ ويحذر من عواقب اهماله وعدم العمل به ٠٠ وقد رويته

---

(6) من محاضرة للاستاذ محمد كرد على ، نشرت فى مجلة الشهاب ، ج 10 م 5 ، جمادى 1348/2 هـ ٠

(7) ولد سنة 1316 وتوفى سنة 1364 هـ ٠

(8) البصائر عدد 90 س 6/3 شوال 1356 هـ ٠

لكـم لا رتباطه الوثيق بموضوع حديثنا عن قصة تاريخ الهجرة النبوية الشريفة ولاتصاله المتين ببناء شخصيتنا العربية الاسلامية وحضارتها بصفة عامة ٠٠

ـ نبـذة مـن حيـاة مبتكر التاريخ الهجـرى :

ونود أن ننهى هذا العرض بلمحـة خاطفة من حياة عمر ابن الخطاب ، مبتكر التاريخ الهجرى ٠٠ ترينا مدى آثـاره ومآثره فى حيـاة الاسلام والمسلمين ٠٠ منـذ اسلامه الى يـوم وفـاته ٠٠ وفيما حوته سيرته وحياته من مواقف خالدة ، ومواهب عـالية ٠٠ جعلتـه فى مقـدمة العباقرة الافذاد من بنى الانسان ، الذين لم يأت الزمن بنظير لهم ، الى يوم الناس هذا ٠ وحسبنا فى ابراز بعض مناقبه ، أن نورد ما أمكن من أقوال أصحابه فيه حيا وميتا ٠٠

كان عمر رجلا ندر مثله فى الرجال ، وبطلا عظيما ، قل نظيره من الابطال ٠٠ نشـأ كغالب أتـرابه مجيدا للفروسية ، متمرسا عـلى الضرب والطعـان ٠٠ الى جانب فصاحة لسانه ، وجوده بيانه ٠٠ ومعرفته التامة بانساب قومه ٠٠

وكان قبل اسلامه من أشد خصوم الدعوة الاسلامية ، وأكثرهم ، ايـذاء للمؤمنين بهـا ، منذ بزوغ فجـرها ٠٠ ولكنه لم يمض غـير قليل مـن الوقت ، حتى شرح الله صدره للاسلام ٠٠ وأصبح من أعظم أنصاره ، بعد أن ظل بالامس من ألد أعدائه ٠٠

دخل عمر فى الاسلام بعد الهجـرة الاولى الى الحبشـة ٠ وكـان اسـلامه استجابة لدعاء النبى لـه بأن يعز بـه الاسلام ٠ فقد دعا الله أن يعز الاسلام بأحب الرجلين اليه : عمر ابن الحطاب .. أو أبى جهـل عمر بن هشام ٠٠ فكان أحبهما الى الله عمر الفاروق ـ كما سماه الرسول ٠٠ اذ أصبح اسلامه فارقا بين الحـق والباطل ، وبـين ضعف المسلمين الاوائل وقوتهم ٠٠

وقال فيه النبى (ص) : «ان الشيطان ليفرق من عمر ٠٠ وما لقيه سالكا فجا الا سلك الشيطان فجا غيره ٠٠ » وروى عن ابن عباس أنه قال :

« لما أسلم عمـر نزل جبـريل عليه السلام ٠ فقال : يا محمد : لقد استبشر أهل السماء باسلام عمر ٠٠ » وأخرج البخارى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « ما زلنا أعزة منذ اسلام عمر ٠٠ » ٠

نعم ـ كان عمر شديدا فى الحق ، لا يخشى فى الله لومة لائم ٠٠ ذهب الى النبى (ص) وقد رأى المسلمين الاولين يستخفون بصلاتهم مـن قريش ، حينما

يحين وقتها .. فقال له : ألسنا على الحق يا رسول الله ؟ قال الرسول : بلى يا عمر .. فخرج من عنده وقد عزم على تحدى قريش ، بأداء شعائر الدين جهارا نهارا .. ومنذ ذلك اليوم صار المسلمون لا يستخفون بصلاتهم ..

وجاء دور عمر فى الهجرة . فقصد الى الكعبة وطاف بها .. ثم صلى ركعتين عند مقام ابراهيم .. وذهب الى مجلس قريش بفناء الكعبة ، متقلدا سيفه .. وقال لهم متحديا اياهم :

« شاهت الوجوه .. لا يرغم الله الا هذه المعاطس .. من أراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده ، أو تترمل زوجته .. فليلقنى وراء هذا الوادى .. » ومضى الى سبيله .. دون أن يحرك أحد من قريش ساكنا .. أو يعترضه منهم أحد .. كما فعلوا بغيره من المهاجرين قبله ..

ومنذ وصل عمر الى المدينة ، كان ثالث ثلاثة ـ بعد صاحبيه ـ وضعوا قواعد الدولة الاسلامية ، وأقاموا صرحها على تقوى من الله ورضوان .. لقد شهد عمر المشاهد العظمى كلها مع الرسول .. وكان ملهما فى قوله وفعله .. وان المؤمن لينظر بنور الله .. كما روى عن ابن عمر أن النبى (ص) قال : « ان الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه .. » .

وروى أيضا : « أنه ما نزل بالناس أمر ، فقالوا فيه قولهم .. وقال عمر قوله الا نزل القرآن مؤيدا لقوله ورأيه .. » .

وقد عبر شاعر معاصر عن ذلك فقال :

« رأيت فى الدين آراء موفقة
فأنزل الله قرآنا يزكيها »

وبعد التحاق الرسول بالرفيق الاعلى ، كانت مبادرته حاسمة للخلاف فى سقيفة بنى ساعدة .. فى قضية اسناد الخلافة لابى بكر الصديق .. اذ كان أول من أمسك بيد أبى بكر ، مبايعا له ، مذكرا القوم بفضله وسابقته فى الاسلام . فما كان منهم الا أن توالوا على الاقتداء به .. وقضى بمبادرته تلك على فتنة الخلاف ، بين المهاجرين والانصار . وخرجت وحدة الامة من تلك المحنة ظافرة منتصرة ..

وهو الذى أشار على أبى بكر بجمع القرآن فى مصحف واحد فى عهد خلافته فتردد أبو بكر فى أول امره .. لان النبى (ص) لم يفعل ذلك فى حياته . وقال لعمر : « كيف افعل شيئا لم يفعله رسول الله (ص) . فقال عمر : «هو والله خير ..» يعنى جمع القرآن..

قال ابو بكر : « ولم يزل عمر يراجعنى .. حتى شرح الله صدرى

لذلك ٠٠ ورأيت الذى رأى عمر من الخير ٠٠ » ٠

ولما شعر أبو بكر بدنو أجله ، استشار كبار الصحابة فى العهد بالخلافة الى عمر ٠٠ فكلهم قال فيه خيرا ٠ وذكره بما هو أهله من الفضل ٠٠ واستهل عمر خلافته بقوله فى خطابه المنهجى :

« انه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف ، حتى آخذ الحق له ٠٠ ولا أضعف عندى من القوى ، حتى آخذ الحق منه ٠٠ » ٠

ولعل فى هذه الكلمات الوجيزة ، ما يعطى صورة صادقة عن حفاظ عمر على قواعد العدالة والمساواة فى سياسته.. وتحقيقا لهذا المبدا الاساسى فى الاسلام.. فقد واصل عمر الجهاد بقسميه الاصغر والاكبر ، فى سبيل الله ، ومن أجل رفع راية الاسلام ، فى مشارق الارض ومغاربها ٠٠ بما قام به من الفتوحات العظيمة ، التى شرع فيها سلفه ، فى الشام ، والعراق ، وفارس ، ومصر ٠٠ حتى قوض عرشى كسرى وقيصر ٠٠ وهو لا يزال يرتدى عباءة مرقعة على ظهره ٠٠ بالرغم من كثرة ما كان يجبى اليه من الثمرات والاموال ٠٠

كان عمر يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ولاته ٠٠ ونوادره فى محاسبة نفسه كثيرة ٠٠ فأين هو اليوم من يحاسب نفسه كحساب عمر ، من ولاة أمر المسلمين ٠؟ أما ولاته فقد كان يتحرى فى اختيارهم العفة والنزاهة والتقوى ، وصحة العقيدة ٠٠ لكنه كان اذا جمع أحدهم مالا ، من أى سبيل ، غير عطائه المفروض له من بيت المال ٠٠ طبق عليه قانون : « من أين لك هذا ٠؟ » فهو أول من وضع هذا القانون ، وطبقه حتى على أولاده ، الذين جمعوا مالا من التجارة٠٠ فقد كان يبعث الى بعض الولاة من يقاسمهم ما استأثروا من الثروات ، لفائدة بيت مال المسلمين ٠٠ وقد طبق ذلك على كبار الصحابة ٠٠ وهم : عمرو ابن العاص ، وسعد ابن أبى وقاص ، وأبو هريرة ، وخالد بن الوليد ٠٠ وغيرهم ٠ ولم يشفع لهؤلاء عند عمر أنهم من السابقين الاولين فى الاسلام ٠ لان عدالة الاسلام لا تميز بين الناس الا بالتقوى ٠٠ « **ان اكرمكم عند الله أتقاكم** » ٠ ولا تعامل الناس على أساس المنصب ، أو المكانة فى الدولة ، أو غيرها من المقاييس ، التى ما أنزل الله بها من سلطان ٠٠ كما يجرى به العمل ، لدى أولي الامر في هذا الزمان ٠٠

هكذا كان عمر يطبق قانون العدل ، حتى لا يطمع قوى فيما ليس له من

حق ·· ولا ييأس ضعيف من نيل ما له حق فيه ·· على أن أكثر ولاة عمـر ، كانوا يتخذون منه اسوتهم فى الزهد والتقشف ·· أما أثرياء المنصب فقليل ما هم ·· حتى ولو كانوا يحتلون أرفع المناصب فى الدولة ·· وهو القائل : « ان الناس ما زالوا على استقامـة ، ما استقام لهم قادتهم ·· » ·

ومن آية زهد عمر (رضى الله عنه) أنه أقسم فى عام الرمادة ـ وهو عـام مجاعة ـ ألا يذوق سمنا ولا لبنـا ولا لحما ·· حتى يكون ذلـك فى متناول الناس جميعا ··

ولعمر فى ميـدان القتال وصايـا حكيمة · تدل على عبقرية نادرة ·· منها وصيته لسعد ابن أبى وقاص · وهـو يقود جيوش المسلمين فى فارس ·· وقال فيها :

« أما بعد فانى آمرك ومن معك من الاجناد بتقوى الله على كل حال ·· فان تقوى الله أفضل العدة على العـدو ، وأقوى مكيدة فى الحرب ·· وآمـرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ·· فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ·· وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم الله ·· ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ·· فان استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا فى القوة ·· وان لم ننتصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا · فلا تعملوا بمعاصى الله وانتم تجاهدون فى سبيل اللـه ·· » ·

ويوم التحق بربه وقف على ابن أبى طالب على جثمانه وقال :

« والله ما على وجه الارض رجل أحب الى أن ألقى الله بصحيفته من هـذا المسجى بالثوب ·· » ثـم بكى حتى اخضلت لحيته بالدموع ··

أما عبد الله بن مسعود فقال فيه :

« كان اسلام عمر فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت امامته رحمة ·· ولقـد رأينا وما نستطيع أن نصل الى البيـت حتى أسلم عمر قاتلهم (يعنى كفـار قريش) حتى تركوا سبيلنا ·· » ·

رضى الله عن عمر فقدكان مجموعة من الفضائل الاسلاميـة تمشى على وجـه الارض ·· وألهم أولياء أمور المسلمـين القدوة الحسنة به فى عدله ، والسـير على سواء سبيله ··

هذا قليل من كثير مما نعتز به مـن تراثنا وتاريخنا ·· فلنعـد اليـه ، ولنتمسك بحبله ، ولنحفظه من الضياع

والاهمال .. ولنعمل لحماية لغتنا من التلاشي والانحلال . وليكن لنا من عامنا الهجرى الجديد ، ما يدفعنا الى الجد والاجتهاد فى العمل ، ويحفزنا الى طلب ما فيه عزتنا ، متحدين متعاونين ، على خير البلاد والعباد ..

« تلك آمالنا عسى أن نراها
مثمرات فى حولنا ذا الجديد »

تحية لرأس السنة الهجرية

1400

الاستاذ أحمد بن ذياب

حادي العام هاتها من بعيد ... قبل الشوق للقاء السعيد

وابعث البشريات فى كل قلب ... والاماني غضة كالورود

واحد بالعرب للمعالى حداء ... يستفز الجموع للتشييد

ويقود الشباب للعمل الاسمى ... ويهدى للرشد كل عنيد

واتل من عالم التطور آيا ... من سجلات فجرك المولود

واملا الكون رحمة واخاء ... ونعيما من الرحيم الودود

أيها العام مرحبا بك سمحا ... تتهادى فى محفل التمجيد

خاتم الالف والمئين تباعا ... أربعا فى انسجام عقد نضيد

بينها النير المعالم شرقا ... والمحلى فى الغرب نجم سعود

والعديم النظير فى منجزات ... رائعات فى الموكب المشهود

تتغنى به الربوع مضيا ... فى نهوض ووحدة وصمود

وترى فيه طالعا يتراءى ... حافلا بالمنى . فهل من مزيد ؟

وتباهى به العروبة دعما ... لرقي مخطط ممدود

والجنود الشجعان فى كل صوب ... يتبارون فى البناء العتيد

هل يريدون للسماء سبيلا ؟ ... أم يريدون معبرا للخلود ؟

انهم أقوياء قوة عزم ... واعتصام بما لهم من جهود

يبتغون الحياة هالة مجد ... وهم البدر فى حماها الوطيد

ليعم الرخا وتعلو الاغاريد   ابتهاجا بسعينا المجمود

أيها العام قد دفعنا خطانا   فى صراع الوجود دون حدود

وبدأنا نبنى وللعزم حاد   فى اتحاد العروبة المنشود

نتلقى من كل عام حليفا   ومجالا للسؤدد المرصود

ننشد الخير للجميع ونسرى   كالدرارى بين الليالى السود

ونوالى الكفاح فى أي حقل   من حقول التصنيع والتشييد

فامش يا عهد بيننا مستهاما   بالمشاريع فى القرى فى البيد

تتقاضى منك الجزائر عهدا   وتعاطيك صادقات العهود

لتكونن فى الطليعة اقدا   ما ، وحرصا على المهم الاكيد

لتكونن قدوة فى مساعيها   سباقا الى المرام البعيد

برجال سنوا المكارم غرا   للبطولات للفدى للصعود

ونساء أحبب بهن نساء   مخلصات فى كدحهن المفيد

يتنافسن فى الصلاح فلا يأ   لون جودا بصالحات الجهود

وشباب تسمو به الهمم العليا   فيمشى بكل درب رشيد

ويناديه للمروءة صوت   من صميم الاسلام والتوحيد

يتحرى مجد البلاد وفيا   للمبادى وللصراط الحميد

يتولى غدا الجزائر منه   أخلص العاملين للتجديد

وترى فيه من ينحى ويعلى   كل صرح للمكرمات فريد

يا شبابا ان الجزائر أم   نعم أم المصاول الصنديد

فأطعها تنل رضاها وتحظى   بحنان الامومة المعهود

واجعلنها حبيبة القلب والروح   ومثوى عواطف التمجيد

واعمل الخير ما استطعت فخورا   بهوى موطن الاباة الصيد

أنت نجم يضيء ليل سرانا   فى بناء المستقبل الموعود

تتسامى الانظار نحوك فى شو   ق كشوق المتيم المعمود

لا تقصر فللجزائر دور   فى مطاوى الايام جد وحيد

فاخطها خطوة العمالق محفو   فا بعون من الحكيم المجيد

وازرع العلم فى الديار لتجنى   ثمرات الابداع والتجويد

وابن حصنا للاشتراكية الفضلى وصنها بكل بأس شديد
وابعثنها شعبية مزدهاة كازدهاء الربيع بين النجود
وارع حق الشهيد فى كل ذكرى ذلك الشهم فى الرعيل الفقيد
من تغنت به البطائح والدور وشعت به قبور الجدود
واستكانت له المعارك فى القر وفى الحر فى ظلال البنود
وغدا صيته العظيم يدوى ملء سمع الفضا وملء الوجود
كان للشعب صيحة تتعالى بين ساح الفدى كقصف الرعود
وغزت آية الجهاد نفوسا حررتها من ذلة وجمود
رددتها المظاهرات شعارا جعل الجيش قلعة من حديد
وتلتها الاوانس الحور وردا مستعادا منغما كالنشيد
وارتقت بالارواح للملأ العلوى تبغى عناق كل شهيد
وغدا للشهيد حفلا يضاهى حفلات الاعراس ليلة عيد
وتصافى الجميع فى خدمة الواجب زلفى للخالق المعبود
طبت يا شعب عنصرا وخصالا وسموا بسعيك المحمود
أيها العام خذ علينا عهودا من عهود الاحرار دون قيود :
أن نظل الحماة للوطن الغا لى وللعز والرقي السديد
نعمر الارض كالفراديس أمنا وسلاما وروضه للورود
ونصون الاسلام من كل ضيم ونجليه فى قشيب البرود
يا بلادى آمنت بالغيب يرعا ك ويحدو خطاك بالتأييد
يا بلادى وأنت أنت اذا اشتد بك الموج فى الخضم المريد
فالكفاح الكفاح فى كل صوب لتفوزى مشكورة أو تسودى
وستبقين ما بقيت رصيدا للمعالى : يفوق كل رصيد

البليدة فى غرة محرم 1400